

الفرنج في كتبهم وقصّوه في أسفارهم سواء منهم من روى ونقل أو ناظر أو تجشم المشاق وسافر وناقل الكفر ليس بكافر وقد سمّيته (التياب في تخطيط البلدان) هذا وقد صارت الحال الآن والأسف ملء الجوانح ان مصادرنا في كل شيء هم أولئك العاملون النشيطون المغيرون القامحون فقد تخلت الحضارة عن أهلها وأقاربها وظلمت الشمس من مغربها بحيث لو أراد الشرق أن تعود إليه دولته وماضيه صولته فلا بدّ له من أن ينسج على منوالهم ويسير على آثارهم مع اختيار المصلح المفيد وما لا يخرج بأهله عن العادات والعقائد والرأي السديد والا فذكر الرفات لا يجلب الا الزفريات والحسرات واني لأرجو ان تصل الجامعة المصرية الى ما وصلت اليه أخواتها ببغداد وقرطبة فتكون معهد العلم والعلماء ووثل الفضل والفضلاء وان يقبل عليها طلبة العلم للعلم لا لمنفعة مادية ولا للسمي وراء وظيفة اميرية فان بهذا تفاضل الأمم وتعلو الهمم سبى والعصر عصر مولانا عباس الثاني وانكباب الامة فيه على تحصيل المعارف أصبح أمره مشهوراً وذكره مسطوراً بما مهده لهم من الطرق وسهله من الوسائل كما أرجو أن يعرف الناس قدر الهمة العالية والمساعي المشكورة التي يبذلها صاحب الدولة الامير الخطير الامير المحبوب أحمد فؤاد باشا فهو يدأب الليل والنهار فيما يرقى هذا المعهد العلمي ويرفع من شأنه ليضارع أمثاله بأوروبا مستعيناً في بغيته ومسترشداً في طلبته بطائفة من الفضلاء اشتهروا بحب الخير للبلاد فالله اسأل أن يشبهه

ومن ساعده وسمع ندائه وعانده خير الثواب
 هذا ولا يخفى أن هذه الجامعة بديار قوم لم ينس التاريخ فضلهم ولم
 يعمط حقهم فهم جديرون بأن يستردوا تلك الوديعة والعلم الضائع ولا بد يوماً
 أن ترد الدوائع اللهم الهمننا السداد في المبداء والمعاد
 تحريراً بالقاهرة في ٨ محرم سنة ١٣٢٩

اسماعيل رأفت



قارة افريقيه

تعريفات وأوصاف عمومية

مواقمها وامتداداتها وشكلها - قارة افريقيه بالنسبة لمسطحها هي الثانية أو الثالثة بين القارات اذا اعتبرنا امريكا قارة واحدة وموقعها بين بحر الروم من الشمال وبحر الظلمات من الغرب والجنوب الغربي وبحر الهند من الجنوب الشرقي والشرق والبحر الاحمر وبرزخ السويس من الشمال الشرقي وهي بين الدرجة ٣٧ والدقيقة ٢٠ من العرض الشمالي (الرأس الابيض) وبين الدرجة ٣٤ والدقيقة ٥٠ من العرض الجنوبي (رأس المسلات) وبين الدرجة ١٩ والدقيقة ٥٤ من الطول الغربي (الرأس الاخضر) وبين الدرجة ٤٨ والدقيقة ٥٦ من الطول الشرقي (رأس الاحتراس)

واعظم طول لها من الشمال الى الجنوب يبلغ ٨٠٠٠ كيلو متراً تقريباً واكبر عرض لها من الشرق الى الغرب ٧٥٤٠ كيلو متراً تقريباً ويقدر أن مسطحها ثلاثين مليوناً من الكيلومترات المربعة ويدخل في ذلك الجزائر التابعة لها فهي على هذا أربعة أمثال استراليا وثلاثة أمثال أوروبا اما بالنسبة لآسيا فلا تكاد تبلغ خمسة أثمان مسطح تلك القارة وافريقيه قارة مما يعرف لدى الجغرافيين بالقارة القديمة أو القارات القديم وتتصل معها

يبرزخ السويس الذي يربطها بآسيا ويظهر من بعض الدلائل الجيولوجية أنها كانت تتصل قديماً بقارة أوروبا بواسطة شبه جزيرة اسبانيا وبالبرزخ الذي كان يوجد فيما سبق بين صقلية وتونس

هذا وشكل افريقيه يشبه كمثري تقريباً رأسها نحو الجنوب واذا قارناها بشكل هندسي لكانت تشبه مثلثاً أو مجسم القطع الناقص ومع ذلك فهذه التشابه لا تنطبق عليها تماماً لاننا اذا أردنا تشبيهها تشبيهاً تاماً بشكل من الاشكال لتعين علينا دائماً ان تذكر ذلك الارتفاع والامتداد الذي بالشمال الغربي وهو ما يمتاز به افريقيه عن بقية القارات ولاس بأفريقيه اشباه جزائر حقيقية كما في القارات الاخرى وكذلك خلجها لا تمتد طويلاً داخل أراضيها لهذا كانت في وسطها نقط تبعد عن أقرب البحار اليها بنحو ١٨٠٠ كيلو متر ويخص الكيلو متر الواحد من سواحلها نحو ١١٠٠ كيلو متر مربع من مجموع مسطحها مع ان الكيلو متر الواحد من سواحل أوروبا يخصه نحو ثلثمائة كيلو متر والكيلو متر الواحد بأمرقيا الشمالية يخصه نحو ٤٠٠ كيلو متر وبأمرقيا الجنوبيه يخصه نحو ٧٠٠ كيلو متر مربع تقريباً

وشكل افريقيه وان كان خاصا بها الا انه يشترك معها في قارتان جنوبيتان هما امرقيا الجنوبيه واستراليا وكما ان افريقيه قليلة الشواطىء والخلجان العميقة فهي كذلك قليلة الجزائر وتلك الجزائر على قلتها قليلة الاهمية أيضاً الا اذا استثنينا من جزائرها مدغشقر التي تختلف اختلافاً بيناً عن بقية جزائرها ولهذا كان

يصح اعتبارها قارة صغيرة أكثر من اعتبارها جزيرة تابعة لأفريقيه
وأفريقيه في الشمال اعرض منها في الجنوب فهي كلما امتدت الى الجنوب
اخذت في الضيق ويخترقها خط الاستواء في نحو وسطها وثلاثة أرباعها
تقريباً واقع بالمنطقة المدارية ولما كان متوسط ارتفاعها عن سطح البحر عظيماً
في القسم الواقع منها جنوبي خط الاستواء على الخصوص كان مناخها هناك أقل
منه اختلافاً في أغلب أقسام الدنيا - ولهذا الأسباب المختلفة بقي داخلها مجهولاً
زمننا طويلاً - واطلق عليها بعضهم اسم القارة العجيبة وهي تسمية اصدق من
تسميتها بالقارة السوداء

الاصناف العمومية لقارة أفريقيه - يصعب على الانسان جداً تكوين
فكرة عمومية حقيقية جامعة مانعة تشمل الاصناف الخارجية لقارة
أفريقيه اذ يتعين عليه أن يحول بفكره جيداً حتى يزول من امامه كل العوارض
الثأوية بحيث لا يرى بعد ذلك الا الاشكال الخاصة المميزة لتلك القارة لهذا
رأينا من المناسب في سهولة ما شرعنا في إirاده من الوصف ولتذليل
الصعب منه لجعله مفيداً قريب التناول ان تصور سياحة خيالية متبعين في
سيرنا أطول قطر للقارة المذكورة من الشمال الى الجنوب مبتدئين من
بحر الروم قاطعين الصحراء والسودان مارين بالمنطقة الاستوائية مخترقين
أفريقيه الجنوبيه طولاً حتى نصل الى رأس عشم الخير وعلى ذلك نقول (١)

ان الزاوية الشمالية الغربية من افريقيه عبارة عن جهات جبلية كثيرة المياه عظيمة الخصوبة جداً وتعرف بجهات اطلس وبها اطلال وخرائب مبان كثيرة مما يدل دلالة تاريخية واضحة على ما كان لها من الرق والسعادة النابرين ولهذا تهافت أهل أوروبا وما زالوا يتهافون على استعمارها

ومركز جبال اطلس واقع في الحدود ما بين بلاد الجزائر ومراكش تقريباً وأعلى قممها هناك يتراوح ارتفاعه بين ثلاثة آلاف واربعة آلاف وخمسمائة متر وتبتدى الجهات الخصبة المذكورة من نحو ساحل بحر الظلمات امام جزائر قناريا وتنتهى في نهاية خليجي سرت ويبلغ امتدادها من الغرب الى الشرق نحو ٢٨٠٠ كيلو متر واكبر عرض لها يبلغ ٣٠٠ كيلو متر وذلك في جهاتها الواقعة بين الساحل والحد الداخلي حيث تبتدى الصحراء أما ما بقي من شاطئ بحر الروم من أول منتصف خليجي سرت حتى دلتا نهر النيل فليس الا ساحلاً قاحلاً غير ذي زرع الا في شريط ضيق واقع في قسم الشاطئ المشتل على ما كان يعرف قديماً باسم سيرينائيسك ويعرف الآن باسم بلاد برقة

ومتى اخترق الانسان جهات اطلس أو اذا خرج من نواحي سرت وتقدم جنوباً دخل في تلك الاصقاع والنفادد والسباب التي سماها العرب بالصحراء وهي جهات رملية تشغل كل عرض افريقيه من أول بحر الظلمات حتى وادي النيل (اكثر من ٤٥٠٠ كيلو متر) ولا يقل عرضها من الشمال الى الجنوب

عن ١٦ درجة أو ١٨٠٠ كيلو متر من أول جهات الدرجة ٣٠ من التوازيات حتى الدرجة ١٦ تقريبا وأراضي هذه الصحراء وإن كانت كلها مستوية إلا أن هذا الاستواء يتغير في بعض جهاتها بوجود جبال صخرية كما غيرها أيضا وجود أراض خصبة مثورة في كل أرجائها وهي المعروفة بالواحات وقد شبهها بعض جغرافي القدماء بالنقط التي تكون في جلد النمر وأكثر ما تكون هذه الواحات في القسم الواقع منها مباشرة جنوب سلسلة جبال اطلس وهو الذي يعرف لدى الجغرافيين بالصحراء المراكشية والصحراء الجزائرية والصحراء التونسية أو بلاد الجريد والصحراء الطرابلسية وعرض هذه المنطقة الأولى من الصحراء يبلغ من الشمال إلى الجنوب نحو ٨٠٠ كيلو متر ويتخللها أماكن مسكونة كثيرة عظيمة الامتداد حتى يمكن اعتبارها كنطقة اتصال أو اتصال بين أراضي اطلس الخصبة والصحراء الحقيقية أي الصحراء الكبرى ومن واحات الصحراء الكبرى المذكورة واحتان يجب التنويه بذكرهما لعظم اتساعهما ولما لهما من الأهمية التاريخية وهما فزان واسين أو آهير هذا وفي النهاية الشرقية تماما سلسلة واحات عظيمة تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرق وهي امام وادي النيل وأولها واحة سيوه في نهاية الشمال ونهايتها واحة طيبة وهي إلى الغرب مباشرة من عاصمة مصر العليا القديمة ثم يلي الصحراء بلاد السودان ويختلف عرضها بين ثمان درجات وعشر درجات وتبتدى من حدود الصحراء قليلاً وكثيراً

حتى سلسلة الجبال المسماة جبال كُنفُ المتدة على سواحل غانه وعلى جهات
نهر ديوليا الاسفل وتدخل في قلب افريقية الاستوائية وبين الصحراء
والسودان اختلاف وتباين تام لان الاولى قفر ابدى التحولة لعدم سقوط
الامطار به أما الثانية فيرويهانهر عظيم ونهيرات كثيرة تجري في جهاتها تمدها
الامطار الاستوائية لهذا كانت أراضيها مغطاة بنباتات دائمة تقريباً ومع هذا
فلو نظرنا اليهما مجتمعين لكانا عبارة عن سهل واحد لا يختلف ارتفاعهما كثيراً
عن سطح البحر ومع ذلك فالصحراء اعلى والسودان اوطأ وان كان الفرق
بينهما في ذلك ليس بالشيء العظيم وقد ذكر السائح برت^(١) ومن رافقه
في رحلته ان الانسان يأخذ في الصعود التدريجي بعد بلاد طرابلس بقليل
متى اتجه نحو سهول الصحراء الرملية المنخفضة وبمجرد دخوله هذه السهول
لا يجد امامه غير تلال متوسطة الارتفاع الى أن يجاوز الرمال ويقرب من أرض
السودان هذا بقطع النظر عما يصادفه من الوديان والوهاد والصخور المنعزلة

(١) H. Barth - هنري برت سائح الماني ولد في همبرغ سنة (١٨٢١ -

١٨٦٥ م) ولما وجد من نفسه ميلا للسياحة خرج فجانب اغلب البلاد التي يفر سواحلها
البحر الابيض المتوسط والف في ذلك كتاباً ولكن شهرته انت له من سياحته الكبيرة
التي اجراها مع كل من أوردويج Ouerweg ورشردسون Richardson وقد قام
بها بمفرده بين سنتي ١٨٥٠ و ١٨٥٥ من مدينة طرابلس الى بحيرة شاد ومن
برنولي تمكنتو وسط بلاد السودان التي اطهرها لاوروبا وقد نشر نتائج هذه السياحة في
كتاب الفه في ذلك

المتفرقة هنا وهناك ويظهر من أقوال مسيو فوجل (١) ان هناك بين طرابلس وشاد مرتفعات يعقب بعضها بعضاً وان الارض بين وسط بلاد فزان وبحيرة شاد عبارة عن ظهر مائل ميلاً خفيفاً جداً نحو الجنوب يختلف متوسط ارتفاعه بين اربعمائة متر واربعمائة وعشرين متراً عن سطح البحر . واعظم ارتفاع شادوه بين تيفري ولبما يبلغ ٩٠٠ متر وأعظم انخفاض فيها هو منخفض لبما ويبلغ تقريباً ٣٠٠ متر ولقد تكون هذه الاختلافات الارضية عظيمة لو كانت في مسافات واسعة ولكنها لما كانت اختلافات محلية صرفة كان لا يحدث منها الا تغير جزئي في ارتفاعها العمومي وروى السائح فوجل المذكور أيضاً ان ارتفاع بحيرة شاد عن سطح الاوقيانوس يبلغ ٢٦٠ متراً أي أقل بنحو ١٢٠ متراً تقريباً عن متوسط ارتفاع الصحراء وحوض نهر النيل عند الخرطوم واقع تقريباً تحت المتوازي الذي عليه بحيرة شاد وهو أعلى منها بنحو ١٠٠ متر

وتنقسم بلاد السودان الى قسمين طبيعيين متميزين القسم الغربي والقسم الشرقي ويمتاز القسم الشرقي منه ببخيرة شاد التي تشغل أعظم منخفض في

(١) E. Vogel ادورد فوجل سائح الماني ولد بمدينة ليمسك سنة ١٨٢٩ ثم عين مساعداً فلكياً في احد المراصد بلنדרه سنة ١٨٥١ ثم قدم نفسه للحكومة الانجليزية ليذهب فيلتحق بالسائح برت في افريقية وكان سفره سنة ١٨٤٣ ووصل الى بلاد السودان من بلاد طرابلس وزار سواحل بحيرة شاد ثم اتجه شرقاً ويظهر انه لقي هناك حقه بكيفية محزنة سنة ١٨٦٥

افريقيه الداخليه ويمتاز النصف الغربي بنهر ديوليا وهو نهر بلاد التكرور العظيم وينبع من جبال سنغاميا ويصب في نهاية خليج غانه واذا نظرنا فقط الى الصفات المميزه للصحراء والسودان لحكمنا بأنهما يمتدان الى البحر الاحمر ولو انهما في وصولهما للبحر الاحمر يقطعان وادى النيل واعلم ان المتوازي الثالث عشر الذي هو الحد الفاصل تقريبا بين الصحراء والسودان هو كذلك، في حوض نهر النيل حد فاصل بين صقعين طبيعيين هما الجهات الخصبه الكثيره المياه بالنيل الاعلى حيث قامت قديما مملكة مروي والتي شيدت فيها فيما بعد مدينة الخرطوم وصحارى بلاد النوبه القاحله

وقد لاحظ العلماء من القديم وصدقت ملاحظاتهم ان نفس بلاد مصر أي الامتداد الشمالي من بلاد النوبه ليست الا واحه أوجدها نهر النيل أي شريط خصب بين صحراوين ومع هذا فإن هذا الشريط الطويل وان اشترك بمجموعه في الصفات والاحوال العامه التي تميز هذين الصقعين الطبيعيين المتجاورين أي السودان والصحراء الا ان حوض النيل بالنسبة لوضعه وتركيبه الطبيعي وكذا أحوال وأجناس سكانه وما كان له من الشأن في التاريخ كل ذلك لا يجعله أقل من أن يكون صقعا طبيعيا مستقلا بذاته استقلالا تاما عنها ولو قطعنا انظر عن بلاد الحبشه الشاخذه الجبال والتي هي كالذنب للصقع المذكور لكان ارتفاع حوض النيل كارتفاع السودان

والصحراء تقريباً (خلا منخفض بحيرة شاد) وذلك لان ارتفاع غندوكرو
القرية من خط خمسة من العرض الشمالى هو ٥٧٩ متراً فقط عن سطح البحر
وارتفاع الخرطوم الواقعة عند الدرجة ١٥ر٥ تقريباً لا يزيد عن ٣٦٥ متراً
وارتفاع اصوان الواقعة عند الدرجة ٢٤ والدقيقة ٥ يبلغ ١٠٤ أمتار وارتفاع
القاهرة القرية من رأس الدلتا والبعيدة عن البحر بنحو ١٧٠ كيلومتراً
والواقعة عند الدرجة ٣٠ والدقيقة ٢ والثانية ٢١ تسعة أمتار فقط ويمكن
للانسان أن يحصل من النظر في هذه الارقام على فكرة حقيقية على ارتفاع
هذا الصقع وميله العمومي

هذا وتفصل الجبال التي لاتزال مجهولة تقريباً والواقعة في النهاية الاخرى
من السودان وهي الجبال التي تحيط من الغرب والجنوب حوض ديوليا
افريقيه الوسطى عن منطقة بحرية عظيمة بتبدىء عند نهر سنغال وتمتد على
هيئة انحناء عظيم حتى نهاية خليج بنين بالقرب من جزيرة فرنديو وتشمل
هذه المنطقة خلاف بلاد سنغال وسنغيبيا كل بلاد غانه العليا وتكوّن كما
كوّن حوض نهر النيل صقلاً طبيعياً متميزاً الا ان المعلومات التي وصلت
الياناعها الآن لاتزال ناقصة

ثم نستمر في السير نحو الجنوب كما رسمنا في خطتنا بعد أن نكون
قد اخترقنا صقعين داخلين هما الصحراء والسودان اللذين يبق سطحهما قليل
الارتفاع عموماً عن سطح البحار التي تحيط بهما وأعم وصف طبيعي توصف

به افريقية الشمالية أي القسم الواقع منها بين بحر الروم والجهات القريبة من خط الاستواء هو قلة الارتفاع وهناك وصف آخر طبيعي يخالف ذلك ويمتاز به النصف الثاني من افريقية وهو الواقع بين خط الاستواء والنهاية الجنوبية وذلك ان الفارق هنا ليس السهول المنخفضة بل السهول المرتفعة التي هي عبارة عن نجد حقيقي يكون ارتفاعه متوسطاً اذا قابلناه بنجد أواسط آسيا ولكنه مع ذلك جسم في مجموع جغرافيا افريقية والمعلومات التي لدينا على الجهات الوسطى من افريقية الجنوبية وصلت إلينا من السياحات المقيمة التي قام بها كل من القبطان برثن^(١) ورفيقه القبطان اسبك وكان ذلك ابتداء من سنة ١٨٥٨ فالفضل لهذين الرجلين اللذين حصل بواسطتهما أهل أوروبا على معلومات حقيقية عن الجوانب المذكورة وكان طريق اكتشاف السائحين المذكورين بين زنجبار وبخيرة تنجانيقا (وذلك عبارة عن تسع درجات أو نحو ١٠٠٠ كيلومتر) وهو يتراوح بين درجتي ٥ و ٧ من العرض الجنوبي وظهر من هذه السياحات ان هناك

(١) Burton, Speke اسبك ضابط انجليزي من جيش الهند ابتداء في سياحته

سنة ١٨٥٤ وقد رافقه الكبتين بورتون في اكتشافاته بافريقية وسافرا من ساحل زنجبار سنة ١٨٥٧ واكتشفا جهات واسعة بافريقية الوسطى ثم وصلا الى جهات البحيرات العظمى واكتشف اسبك تنجانيقا ونيانزا ثم في سنة ١٨٦٠ سار اسبك مع الكبتين جرات Grant في طريقهما الاولى واتجه نحو الشمال حتى وصل بلدة غندوكرو ثم نشر سياحته في مجلة جغرافية وكان موته بحادث اصابه اثناء صيد الوحوش

سهلاً منخفضاً يمتد من أول ساحل البحر ويبلغ طوله مائتي كيلومتر وبعدها يصل الانسان الى المرتقى الاول الذي يوصله الى النجد المذكور بعد أن يكون اخترق صفيين متوازيين من الجبال ارتفاع قمم الاولى منهما نحو ثلثمائة متر وارتفاع قمم الثانية يختلف بين ألف متر والـ ألف ومائتي متر وبعد أن يقطع السائح السلسلة الثانية ينحدر ثانية نحو السهل الداخلي وهو سهل فوق سطحه مرتفعات كثيرة ليس بينها اختلافات جفائية وهذا هو النجد المشهور ومتوسط ارتفاعه كما ذكره السائحان المذكوران يبقى دائماً بين ألف متر والـ ألف ومائتي متر تقريباً فوق سطح البحر وهو ارتفاع يزيد عن ارتفاع سهول الصحراء بنحو ثلاث أو أربع مرات ومن بحيراته بحيرة تنجانيقا ويظن السائح برتن أن لا مصرف خارجي لها وان كانت واقعة وسط منخفض عظيم يرتفع عن سطح البحر بنحو ٥٦٢ متراً وهو أكثر من ضعف ارتفاع بحيرة شاد عن سطح البحر ولم يتمكن أحد من السياحين الى الآن من اكتشاف المسافة المحصورة بين تنجانيقا وبين بحر الظلمات اكتشافاً علمياً تاماً (وهي مسافة تبلغ ضعف المسافة بين البحيرة المذكورة والساحل الشرقي) غير ان المنطقة الساحلية القريبة من أول خليج غابون الواقع تحت خط الاستواء تقريباً الى رأس نجر والتي يقطعها خط ١٦ من العرض الجنوبي معروفة جيداً حتى يمكننا أن نقول ان الانسان يأخذ في الصعود في هذه الجهة من سواحل البحر الاحمر الى الجهات الداخلية المرتفعة ماراً بتلال يتلو بعضها بعضاً وعلى

هذا كانت كل الظواهر تدل على ان الاقسام الغربية من النجد المذكور لا تختلف اختلافاً بيناً عن جهاته الشرقية كما قال ذلك برتن واسبك

ولو تابعنا السير بعض درجات نحو الجنوب لوصلنا الى أجزاء النجد الذي كان الدكتور لفينجستون أول مكتشف له سنة ١٨٥٥ م وهو الواقع بين الدرجة ١٠ والدرجة ١٨ من المتوازيات الجنوبية وتشتمل هذه المسافة على نهر زمبزي الاوسط ويظهر مما كتبه السائح المذكور أن متوسط الارتفاع في السهول التي يجري في وسطها النهر المذكور لا يختلف اختلافاً محسوساً عن متوسط الارتفاع الذي حققه السائح برتن بين الخط ٥ و ٧ من درجات العرض أى أنه يختلف بين الف متر والف ومائتي متروان بحيرة ديلولو الواقعة عند الدرجة ١١ والدقيقة ٣٠ من درجات العرض والتي هي أكثر ارتفاعاً عما يجاورها من البلاد هي على ١٢٤٥ متراً من سطح البحر وان نهر ليناتي^(١) القريب من الانحناء العظيم الذي يحدثه نهر زمبزي تحت المتوازي ١٨ هو على ارتفاع ١٠٦٧ متراً من سطح البحر وان بحيرة نجاي الواقعة على بعد درجتين من جنوبي ليناتي المذكور هي على ارتفاع ١١٣١ متراً من سطح البحر

وكل هذه المقاسات كما يظهر للتأمل تدور حول متوسط ارتفاعي قليل الفرق ويستمر هذا المتوسط أيضاً كذلك في سهول وفيافي صحراء

كلا هاري الممتدة جنوبي بحيرة نجامي حتى ساحل نهر أورنج على مسافة تبلغ ٧ أو ٨ درجات وتبقى هذه الاودية العديمة المياه مستوية السطح متماثلة الاجزاء كأنها البحر في حال سكونه بلا تغير أو تبديل على ارتفاع ١١٠٠ متر تقريباً من سطح البحر ومتى وصلت الى شاطئ نهر أورنج انخفض واديه الى أن يصير على ارتفاع ٦٠٠ متر من سطح البحر اما سهول بلاد بوشيان الواقعة على الضفة الاخرى من نهر أورنج فتأخذ في الارتفاع حتى تصل الى ١١٠٠ متر ويستمر هذا الارتفاع الى جبال نيو وولد وهي سلسلة تمتد من الغرب الى الشرق تحت المتوازي ٣٢ تقريباً ويزيد ارتفاع بعض قممها عن ثلاثة آلاف متر والسلسلة المذكورة هي القمة الجنوبية لهذا النجد الداخلي وهي واقعة امام الطرف الجنوبي من افريقيه ويبلغ طولها ١٥٠ كيلو متراً تقريباً الى الشرق من رأس عثم الخير وهناك أيضاً سلسلتان منخفضتان موازيتان لسلسلة نيو وولد المذكورة يفصلهما عن بعضهما سطحان عريضان كأنهما بسطتان يعرفان باسم كاروس وهما عبارة عن مراقي تدريجية بين الشاطئ والنجد المتقدم الذكر

وعلى هذه الصفة كان هذا الوضع ذي الارتفاع التدريجي يمتد على شكل اسطحة يعلو بعضها بعضاً من ساحل البحر الى السهول العالية الداخلية وتوصف به كل سواحل افريقية الجنوبية الا ما شذ عن ذلك وهو نادر ولكنه واحد لا يتغير في الجهة الشرقية المطلة على بحر الهند ولو نظرنا من الاسفل الى

المراقى المتراكبة وعلى الخصوص المرقاة العليا منها وهي قبة النجد المذكور
لرأيناها تكون السلاسل المرتفعة الممتدة من الجنوب الى الشمال وهي تبعد
عن الشاطئ قليلاً أو كثيراً وتعرف المرقاة العليا المذكورة في كتب الجغرافيا
القديمة التي كتبت في القرن السادس عشر باسم عمومي هو لوباتا وهو لفظ برتغالي
معناه القفر. يريدون بقرة العمود القفري للدنيا وهذه التسمية لا تنطبق في
الحقيقة الا على القمة المطلّة على شاطئ موزمبيق وهي التي يمر منها نهر زمبيزي
ثم لو تابعنا السير في سياحتنا الخيالية هذه لرأينا اننا قد اجتزنا منطقة جسيمة
هي المنطقة الاستوائية والمنطقة الاستوائية شريط جسيم يمتد في جهتي خط
الاستواء وينبسط على كل عرض افريقيه من المحيط الى المحيط وكانت هذه
المنطقة ترسم بيضاء فوق الخرائط الا انه في سنة ١٨٦٣ تمكن مكتشفان
انجليزيان هما الكابتن اسبك والكابتن جرّنت من اجتيازها من الجنوب
الى الشمال تقريباً (على خط نصف نهار بلاد النوبة ومصر) وبذلك انتقلا
من نجد الجنوب الى حوض نهر النيل ولم ينبج قبلهما أوربي في القيام بهذه
السياحة في أية جهة من جهات افريقية أصلاً وفي سنة ١٨٥١ وقف برّت
شمالى خط الاستواء عند الدرجة ٩ يبلاد ادموا وكذلك المكتشفون
الذين أرادوا اكتشاف النيل الابيض من سنة ١٨٤٠ لم يتمكنوا من اجتياز
غندكرو الواقعة جنوبي الدرجة ٥ بقليل وكذلك لم يتمكن مسيو انتوان^(١)

أبّادي في سنتي ١٨٤٣ و ١٨٦٤ م من أن يجاوز بلاد كافا الواقعة في الجنوب الغربي لبلاد الحبشة بالقرب من الدرجة الثامنة هذا أما في جنوب خط الاستواء فقد تمكن اثنان من المرسلين هما كريف^(١) وريمان سنة ١٨٤٩ من الاقتراب من الجبل المتوج بالثلوج الدائمة المسمى كليمانجارو الواقع جنوبي خط الاستواء في نحو الدرجة الثانية من خطوط العرض وعلى بضعة أيام من ساحل منبسه وتقدم كل من برتن واسبك في سياحتهما الى بحيرة تنجانيقا سنة ١٨٥٨ حتى بلغا الدرجة الرابعة وبعد قليل تمكن اسبك بمفرده من الوصول الى الدرجة الثانية ونصف في أول سياحة قام بها لاكتشاف بحيرة نياسا وبقي كل شيء مجهولاً بين هاتين النقطتين المتباعدتين والتي يبلغ أقل بعد بينهما من سبع الى ثمان درجات الا في الخط الذي سار فيه اسبك في سياحته الثانية مع الكابتن جرنث بين نياسا وغندوكرو وربما لا يكون بأفريقية جهات أكثر أهمية للجغرافيين في دراستها من هذه الجهة ويظهر من كل الاحتمالات الطبيعية ان هذه المنطقة يجب أن تكون أعلى كل جهات افريقيه لان من هناك ينبع النيل وأنهار أخرى عظيمة تجري في اتجاهات تخالفه مثل نهر بنوي غرباً ونهر الزائر بالجنوب الغربي وربما كان نهر زمبيزي أيضاً وبهذه الجهة الاستوائية أرفع جبال افريقيه وهو جبل كليمانجارو ويزيد ارتفاعه عن ستة

آلاف متر وقد حقق اسبك وجود قبة بجوار بحيرة نياسا يزيد ارتفاعها عن ثلاثة آلاف متر ونفس بحيرة نياسا التي تنصب فيها مياه كل ما يجاورها من الاراضي والتي ظننا اسبك انها المصدر الاصلي للتيل الايض واقعة على نحو ١٠٦٧ مترًا من سطح البحر

والعلماء في تسميتها بأفريقيه أقوال منها ان لفظ أفريقيه آت من اسم قبيلة بربرية يقال لها أفري كانت تنزل قديماً أراضي قرطاجنه وكان الرومان يطلقون هذا اللفظ على بلاد تونس وجرى على ذلك العرب من بعدهم وقال آخرون ان هذه اللفظة آتية من اللغة اليونانية وذلك أن لفظ آ A يفيد النفي وفريكا معناه البرد أي البلاد التي لا برد فيها وقال الطبري في تاريخه سميت أفريقيه لنزول افريقش من ولد حام بن نوح بها وافريقش هذا هو أبو البربر فالبربر كلهم من ولد حام بن نوح خلا صنهاجه فانهم يرجعون الى حمير اه ولم يكن لفظ افريقيه يطلق قديماً الا على بلاد تونس أو القسم الشمالي منها خاصة ثم أطلقوه بعد ذلك على جميع القارة فهو من باب اطلاق الخاص على العام ،

هذا وقد رأينا من الواجب ان نعرف الصفات العظيمة الشهيرة لشكل قارة افريقية عموماً تعريفاً جيداً لانه لا شيء أكثر من ذلك مساعدة للوقوف على أحوال الحياة المضوية بها وقوفاً جيداً وللحكم أيضاً على الاحوال التاريخية لقارة من القارات وسقتصر على ذكر بعض الاوصاف الطبيعية لزيادة تخصيص

الموضوع لهذا نرى ان قارة افريقيه تشمل ما ياتي
 أولاً - سبع سلاسل أو مجموع جبال شهيرة هي سلسلة جبال اطلس
 بالشمال الغربي وجبال كُنف غرباً بين غانه وحوض نهر ديوليا والنيجر وجبال
 الحبشة شرقاً وبالوسط مجموع سلاسل لا تزال مجهولة تقريباً واقعة بمجهاث خط
 الاستواء وعنها تفصل القمتان الثلجيتان الشهيرتان أي كينيا وكيلمانجارو
 وسلسلة جبال لوباتا وهي سلسلة ساحلية طويلة شرقاً تكون المرتقى الشرقي لنجد
 الجنوب ومن السلاسل أيضاً نيوو ولد جنوباً وهي سلاسل متوازية تمتد في مجهاث
 الكاب ثم سلسلة جبال كُنفو وانجولا غرباً وهي تمتد طويلاً وارتفاع تدريجي
 من الساحل حتى نجد الوسط ومعلومات الجغرافيين عنها قليلة

١ - جبال اطلس - منظرها العمومي - هي سلسلة عظيمة بالشمال الغربي من
 افريقية بين خليجي سُرْت وبحر الظلمات وهي مجموعة جبال لا سلسلة واحدة
 ويمكن تقسيمها الى قسمين متميزين عن بعضهما تماماً هما قسمها المركزي والغربي
 وهو اعلاها وواقع ببلاد مراكش وقسمها الشرقي وهو ببلاد الجزائر وينتهي في
 مملكة تونس وينطبق على الاول منها أوصاف السلاسل الحقيقية فنقم طويلة
 تمتد الى اتجاه معين ومن منحدرين متقابلين يرسلان مياهها في جهتين متعاكستين
 تخرج مياههما من منابع متقاربة الوضع أما قسمها الشرقي فيختلف في الشكل عن
 الاول اختلافاً بيناً فقمها تستحيل الى نجد عريض يكون في جفافاته ومراقه
 الذاهبة الى الشمال والجنوب فرج وثلاث يبلغ متوسط اتساعها نحو ١٥٠ كيلو

متراً وحاقها الشمالية تنخفض بالتدريج نحو بحر الروم حتى تستعجل الى أودية جميلة خصبة تعرف هناك بالتل اما حاقها الجنوبية والتي يملؤها مجموعتان من من القمم المنعزلة وهما جبل عامور وجبل أوراس (بلاد الجزائر) فانها تنخفض تارة وتصير سفوحاً جبلية أو سفوحاً قاحلة وكل ذلك نحو الصحراء ثم ان هذا النجد يضيق ثانية في نهايته الشرقية ويصغر حتى يصير سلسلة ضيقة ذات شعاب تمتد لادوتونس من الشمال الى الشرق الى أن تلاشى عند رأس بون امام صقلية بينما ينزل عنها جبلان مختلفان في الارتفاع ويمتدان الى الجنوب الشرقي حتى يتلاشيا في نهاية خليج قابس هذا هو الوصف العمومي لهذه الجبال وبه تمكن الاحاطة بأشهر صفاتها ولو ان الكثير من أقسامها الوسطى والنورية لا تزال الى الآن اخبارها غير محققة تماماً ويبلغ امتدادها من رأس نون على بحر الظلمات الى رأس بون على بحر الروم ٢٣٠٠ كيلو متر تقريباً من ذلك ١١٠٠ كيلو متر في مراکش و٩٠٠ كيلو متر في الجزائر و٣٠٠ كيلو متر في تونس

وأعلا جبال هذه المجموعة واقع بالوسط والغرب أى فيما يخص مراکش منها ويصل ارتفاع قممها العظيمة هناك الى الارتفاع الذي تكون به الثلوج الدائمة وبذلك يظنون ان ارتفاعها يزيد عن ٣٥٠٠ متر اما متوسط ارتفاع نجد بلاد الجزائر فيتراوح ويستمر بين ١٠٠٠ متر و١١٠٠ متر وأعلaque تطل على الحافة الجنوبية من هذا النجد هي قمة جبل أوراس (تحت خط نصف

نهار قسطنطينه) ويبلغ ارتفاعها ٢٣٢٨ مترًا بينما قممها تكون ٢٠٨٥ مترًا في السلسلة الثلجية بجبال اطلس الاصلية بين فاس وتافيلالت (بالجبل الذي ينبع منه ملويه وسبو وام الريع) على ما قدره جرهاارد رولفس الذي اخترقها سنة ١٨٦٤ وقد زار الجهات الواقعة الى الجنوب والغرب من الجبال المذكورة عالم انجليزي من علماء اللواليد الثلاثة يسمى بول (١) سنة ١٨٧٢ فوجد ان أحد المضائق الكبرى وهو مضيق تأغرّت واقع على ارتفاع ٣٦٥٧ مترًا ووجد أيضًا ان قمة جبل يزّ القربة من المضيق المذكور يزيد ارتفاعها عن ٣٥٠٠ متر ويقول مستر بول المذكور ان أغلب القمم الكبيرة في القسم الجنوبي من جبال اطلس يزيد ارتفاعها عن ٤٠٠٠ متر عن سطح البحر

ومما يجب التنبيه اليه ان ابعد القمم عن البحر بجبال اطلس هي في بلاد مراکش وان الحوض الساحلي الذي تنصب مياهه في بحر الظلمات يختلف عرضه ما بين ٢٥٠ و ٣٠٠ كيلومتر اما في بلاد الجزائر ففرض المنطقة الساحلية يبلغ ١٦٠ كيلومترًا على الاكثر وكلما تقدم الانسان نحو المشرق ضاقت تلك المنطقة حتى تبلغ النصف من ذلك (هذا فيما عدا وادي شلف ووادي ملّج الذي يصب في مجرده) اما أشهر الاحواض النهرية التي تتعاقب على هذا الشاطئ الطويل فهي على بحر الظلمات وادي سوس ووادي تنسفت ووادي أم الريع وأبو القرقاق ووادي سبو أما على البحر المتوسط الايض فهي وادي ملّوية

ووادي تفتاو ووادي حبرا ووادي شلف ووادي الساحل والوادي الكبير ووادي سيديوس ووادي بجرده وغيرها ويخرج في الجنوب من جبال اطلس أيضاً مجاري مياه عديدة الا ان أغلبها لا يجري الا في فصل من السنة وقت نزول الامطار ويذهب أغلبها فيضيع في الرمال أو الوهاد حيث تكون المستنقعات الطبيعية الملحة وتصل مياه اثنان منها فقط الى بحر الظلمات وهما وادي نون ووادي درعه (وذلك جنوبي أحواض الناحدر الساحلي) وهناك مجاري مياه أخرى في الصحراء المراكشية مثل وادي زيز (أو نهر تافيلالت) ووادي غير ووادي السعورة وغيرها

اسم هذه الجبال — اعلم ان القسم الواقع ببلاد الجزائر من جبال اطلس لا يسمى الآن بما كان يسمى به قديماً لدى الاهالي الاصليين والظاهر انهم نسوا تلك الاسماء ولكن هناك اسم لا يزال يستعمل الى الآن في اطلس المراكشية وقد أطلق عليها منذ الازمنة الغابرة وهو ادرارن أو دررن وهذا اللفظ صيغة جمع لكلمة ادرار بالبربرية ومعناها جبل وقد سماه بهذا الاسم كل من استرابون^(١) وپلین^(٢) وفعل كذلك جغرافيو العرب ومؤلفوا البلاد

(١) Strabon مؤلف شهر اغريقي ولد بمدينة اماميه في نحو سنة ٦٠ ق م ومات في أول حكم الامبراطور طياربوس وقد أدرك باكراً الفائدة التي تعود من وجود كتاب جغرافي كبير خال في قسم من الدولة الرومانية ولما عاد الى اماميه شرع في تأليف كتابين احدهما تاريخي ويشتمل على ٤٣ كتاباً ولم يصل اليانمانهني والثاني جغرافي ويشتمل على ١٧ كتاباً وقد ذكر فيه أسماء الاماكن ومواقعها وتفاصيل كثيرة وتحقيقات تاريخية واخلاقية ونظامية للام التي ذكرها وذكر أيضاً أصولها وتقاليدها والنسخة التي وصلت الى المتأخرين من هذا الكتاب بهاتقص وتشويش وقد ترجم الى عدة لغات (٢) Pline مؤلف روماني

المغربية أخذوا ذلك عن البربر سكان اطلس الاصيلين قال البكري (وهو من جغرافي القرن الحادي عشر الميلادي) يقال ان دَرَنْ هو أعلا جبال الارض ويمتد من جبال السوس الى جبل اوراس وجبل نفوسة (عند مدخل بلاد طرابلس) اه وقال ابن خلدون أيضاً ان جبال دَرَنْ تمتد (في قاعدتها) على كل بلاد المغرب الاقصى من أول آسفى حتى بلاد تازة

اطلس الكبير واطلس الصغير — لقد أصبح هذان اللقبان لدى أهل أوربا دارجين في الاستعمال وقد أطلقوهما عموماً على القمتين المتوازيتين بنجد بلاد الجزائر لان القمة الداخلية أو الجنوبية لما كانت ذات طرفين شائخين هما جبل اوراس وجبل عامور كان ينطبق عليها لقب اطلس الكبير أما اطلس الصغير فقاصر على القمة التي تبعد عن ساحل البحر بنحو ثمانين أو مائة كيلومتر وعلى الشعبات الساحلية المتصلة بها ومع ذلك فهذه التسمية حديثة وتخالف

ويلقب بالقديم والطبيعي أيضاً كان مولده سنة ٢٣ من الميلاد بمدينة كوم وقد أدى بالدولة الرومانية عدة وظائف اشتهر فيها سيما لما كان يشتغل بالحمامة وقد أراد أن يشاهد من قرب ثوران بركان ويزوف سنة ١٧٩ الا أنه مات مخنوقاً بالابخرة الحارقة التي كانت تتصاعد من البركان المذكور وله عدة مؤلفات لم يصلي اليها منها الا كتابه في التاريخ الطبيعي وهو يتألف من ٣٧ كتاباً وفضل بلين هوفي أنه نقل اليها أقوالاً وعبارات أخذها عنه أكثر من التي مؤلف وكاتب وتاريخه المذكور يشبه موسوعاً ويمكن تقسيمه الى ثلاثة أقسام قسم في الهيئة والمتيور ولوحيا (الاحداث الجوية) والثاني في الجغرافيا والثالث في التاريخ الطبيعي

قول بطليموس^(١) الجغرافي الذي هو الوحيد بين مؤلفي القدماء في ذكرها واسم
اطلس عنده ينحصر فقط في الواقع منها ببلاد موريتانيا^(٢) واطلس الكبير أو
اطلس ماجور هو القسم الاصلي من الجبل الذي ينتهي حسب قوله (ومعلوماته
في هذا الخصوص مضبوطة جداً) عند رأس أساذيوم المسمى رأس غير في
الجغرافيا الحديثة الا انه في ذكره اطلس الصغير كان أقل خطأ أو أقل تحقيماً
والجبل الذي كان يطلق عليه هذا الاسم هو شعبة تمتد الى الشمال وهي
لا وجود لها في الحقيقة وربما كان الاصح اطلاق هذا الاسم على الفرع
الجنوبي من جبال اطلس وهو الذي ينتهي عند رأس نون على نحو درجة
ونصف من رأس غير جنوباً وهي التي ذكرها المؤرخ بوليب^(٣) الذي اكتشف

(١) Ptolémée فلكي وجغرافي اغريقي كان في النصف الاول من القرن الثاني
من الميلاد اشتهر بتأليفه في علم الرياضة وهو ذلك الكتاب الذي يسميه العرب بالجسطي
وفيه يقول بدوران الشمس والسيارات حول الارض وبالرغم عما في هذا الكتاب من
الاعطال الفاحشة فانه قد افاد العلم الحديث فوائد ذات قيمة وله كتاب آخر في الموسيقى
وآخر في التجيم وغير ذلك من المؤلفات أما كتابه في الجغرافيا فيتألف من ثمانية كتب
وغالب ما أورده به ذكر الاماكن وأطوالها وعروضها وله أيضاً كتاب في الفلسفة
Mauritanie اسم كان يطلق قديماً على بلاد مراکش الحالية

(٣) Polybe مؤرخ اغريقي شهير لم يبق لنا من تأليفه الا كتابه في التاريخ العمومي
وأهمية هذا الكتاب فيما اشتمل عليه من ذكر نظم الامم ووصف الاخلاق
وتصورها وذكر الاسباب والنتائج المتعلقة بالحوادث وهو يتألف من اربعين كتاباً
بعضها غير تام وكان مولده سنة ٢١٠ وموته سنة ١٢٨ ق م

هذا الساحل (١٤٥ ق م) وقال عنها انها ابتداء سلسلة اطلس العظيمة
واعلم ان أهل أوربا أخذوا هذه التسمية من خرافات الاغريق واطلقوها
على هذه الجبال أما الاهالي سكان البلاد فأنهم يجهلون هذه التسمية تماماً وليس
لديهم اسم عام يطلق عليها بأجمعها

ملخص تاريخي — اعلم ان الاغريق عرفوا اسم اطلس قبل سياحاتهم
الاولى ببلاد المغرب بزمان طويل ولا بد أن يكون هذا الاسم وصل اليهم من
الفينيقيين الذين كانوا يترددون على البلاد الواقعة في الجهة الغربية من بحر
الروم من أول القرن الثاني عشر قبل الميلاد وكان لهم على شواطئه نزلات
تجارية كثيرة وقد شاعت سريعاً فأصبحت كثيرة عن هذه الجهات البعيدة
حاصلها وجود جبل شامخ جداً واقع في نهاية الدنيا وان واجهته البيضاء تذهب
صعداً حتى تضع في السحاب وان هناك فوق هذا الجبل مارداً يعرف لديهم
باسم تيتان يحمل فوق كتفيه القوتين قبة السماء وعلى هذه الكيفية وصفه
هوميروس ^(١) وهزiod ^(٢) وايشيل ^(٣) وقالوا عنه تلك الاقوال ولكن الشعراء

(١) Homère هو أكبر شعراء الاغريق ولد في نحو سنة ٣٠٠ ق م اشتهر قصيدتين
هما الالياذة واوديسي وقد ترجم اليها الى العربية حضرة الفاضل سليمان اقدسي البستاني
وطبعت منذ سنوات

(٢) Hésiode هو من أكبر شعراء الاغريق بقول بعضهم انه كان قبل هوميروس
ويقول آخرون انه كان معاصراً له وقد وصلت اليها من أشعاره ثلاث قصائد معتبرة
لدى العلماء

(٣) Eschyle شاعر اغريقي كبير ولد سنة ٥٢٥ ق م ومات سنة ٤٥٦ وله عدة

الذين أتوا بعده هؤلاء توسعوا في هذه الاعتقادات القديمة منهم فيرجيل (١) وأوفيد (٢) وقاليريوس فلاكوس (٣) ولوكان (٤) قال بلين ان اطلس بقي الجبل القصصي الحقيقي في رواية الشعر وهيودوت أول من ذكر روايات تاريخية وجغرافية حقيقية عن هذا الجبل ولكنها لا تزال الى الآن مبهمة وهو قد تلقاها من القورينيين الذين كانت لهم بسبب تجارتهم علاقات مع القوافل التي تتردد على داخل أفريقيا وما علمه هذا المؤرخ أيضاً ان جبل اطلس يتبدى على نحو عشرين يوماً من فزان ثم يختد حتى أعمدة هرقل وقال أيضاً ان هذا الجبل شاخ جداً حتى يستحيل رؤية قمته التي لا تفارقها السحب لا في الصيف ولا في الشتاء وروى أيضاً ان أهالي البلاد يقولون عنه انه عمود السماء

مؤلفات معتبرة

(١) Virgile شاعر روماني شهير ولد سنة ٧٠ ومات سنة ١٩ ق م وله مؤلفات عدة منها قصيدة وطنية كبيرة وقد ساح في بلاد الاغريق وآسيا وشعره من أجود الشعر اللاتيني كما يقولون

(٢) Ovide شاعر كبير من شعراء الرومان ولد سنة ٤٨ ق م ومات منقياً سنة ١٨ م وقد ترك عدة مؤلفات معتبرة

(٣) Valerius Flaccus شاعر لاتيني شهير كان في نهاية القرن الاول من الميلاد وكان صاحب بليغ العالم الطبيعي المتقدم الذكر وما تركه قصيدة حماسية شهيرة

(٤) Lucan شاعر روماني شهير قلب في عدة وظائف كبيرة مدة الامبراطور نيرون وقد ترك قصائد شعرية لها اعتبار لدى العلماء وكان مولده في قرطبة سنة ٣٩ ومات سنة ٦٥ م

﴿ معرفة الناس بمجرات اطلس ﴾

تبتدىء المدة الحقيقية في معرفة جغرافيا الشمال الغربي من أفريقيا من استيلاء الرومان أي من منتصف القرن الثاني قبل الميلاد (١٤٦) فقط ولو كانت كل مؤلفات بوليب المؤرخ وصلت إلينا لكنا وجدنا فيها بلاشك معلومات أوسع من المعلومات التي رواها بولين في المختصر الناقص الذي وصل إلينا من كتبه أما المعلومات التي تلقيناها عن سيلوست^(١) الذي كان يمكنه الحصول على معلومات جيدة بسبب توليته وظيفة الحكم ببلاد نوميديا^(٢) (٤٥ ق م) فقد اعتمد فيها على حسن الانشاء والتشابه أكثر من اعتماده على المعلومات الجغرافية حتى أنه لم يذكر اسم اطلس في تاريخه الذي ألفه على جيفورتا^(٣) والكلمات القليلة التي ذكر بها استرابون هذا الجبل (٢٠ ب م) تدل مع ذلك على معلومات جديدة كان الناس قد علموها اذ ذاك على جهات

(١) Salluste حاكم روماني قلب في عدة وظائف كبيرة ولد سنة ٨٦ ومات سنة ٣٤ ق م وقد اشتهر في حرب افريقية وتمين حاكماً على بلاد نوميديا حيث اخش في المظالم وكان فاسد الاخلاق مرتشياً وبعد أن ترك وظيفته هذه ذهب الى روميه وأقام منتعماً في بساطته وقصوره البديعة

(٢) Numédie اسم بلاد الجزائر من افريقية الشمالية قديماً

(٣) Jugurtha ملك من ملوك بلاد نوميديا وهو حفيد مسينسا ولد في سنة ١٥٤

(ق - م) وقد هزم الرومان في عدة وقائع ثم ان ماربوس الروماني قلب عليه وبعد مدة قبض عليه الرومان وقتلوه سنة ١٠٤ (ق - م)

اطلس وهو أول من ذكر لفظ ديرين Dyrin وقال انه هو الاسم الحقيقي لجبال
اطلس لدى الاهالي وان الجسم الاصلي لجبال اطلس واقع ببلاد موريتانيا
ويمتد شرقاً ببلاد نوميديا الى أن يصل الى جهات سرت وقال دان ميللا^(١)
(بعد استرابون بعشرين سنة) ان اطلس يظهر للرأي كأنه جبل منغلز يرتفع
وسط الرمال وهو كتلة شاذة صعبة المرتقى كثير الصخور النائلة وينتهي بقمة
شاذة صاعدة الى قدر ما يمتد النظر ثم تفوس في السحاب وقال انهم يقولون
ان قته لا تلامس السماء فقط بل انها هي التي تحمل السماء ولما اخترقت الجنود
الرومانية لأول مرة الكتلة المركزية من هذه الجبال تحت قيادة سويتونيوس
بولينوس^(٢) سنة ٤٢ من الميلاد حصل الناس من ذلك على معلومات حقيقية
استفاد منها بلين حيث قال ان سويتونيوس بولينوس هو أول من اخترق
من القواد الرومانيين جبال اطلس وجاوزه الى ما بعده ببضعة أميال وانه ذكر
ارتفاعه كما ذكره الآخرون وان اجزائه الداخلية مغطاة بنايات كثيفة طويلة
لا تعلم انواع اشجارها وان قته تغطي حتى في الصيف بقدر جسيم من الثلج
وانه وصل اليه بعد عشر مراحل وان خلفه نهر يدعى غير مجري وسط فيافي

(١) Dans Méla جغرافي لاتيني ترك مؤلفاً قديماً عن المعلومات الجغرافية المعروفة
في زمنه وكان شروعه في تأليف هذا الكتاب سنة ٤٢ م

(٢) Suetonius Paulinus قائد روماني طلب على ثورة ببلاد موريتانيا مدة
الامبراطور كلوديوس وقهر ملكة بلاد برطانية مدة الامبراطور نيرون وقد تبين قصلا
في الدولة سنة ٦٦ م

يغطيها تراب اسود ويبرز منها هنا وهناك صخور يظهر ان التيار ان قدسودتها اه
وتنقسم المعلومات التي حصلنا عليها بعد انقضاء عهد الرومان الى مدتين
هما المدة العربية (من القرن السابع الى الخامس عشر من الميلاد) ومدة
الاكتشافات الحديثة (من منتصف القرن الماضي) وفي أفعال العلامة ابن
خلدون وهو من أشهر الذين كتبوا على الجغرافيا التاريخية لبلاد المغرب
تتلخص أقوال من سبقه منهم وقوله في ذلك صحيح لا غبار عليه قال

«هذه الجبال بقاصية المغرب من أعظم جبال المعمور بما أعرق في الثرى
أصلها وزهبت في السماء فروعها ومدت في الجو هياكلها ومثلت سياجا على
ريف المغرب صدورها بتبدىء من ساحل البحر المحيط عند آسفي وما إليها
وتذهب في المشرق الى غير نهاية ويقال انها تنتهي الى قبة برنيق من أرض
برقه وهي في الجانب مما يلي مراکش قد ركب بعضها بعضاً متتالية على نسق
من الصحراء الى التل يسير الراكب فيه متعرضاً من فامسنا وسواحل مراکش
الى بلاد السوس ودرعه من القبة ثمان مراحل وأزيد تفجرت فيها الانهار
وجلل الارض حمراء الشعراء وتطابقت بينها ظلال الادواح وزكت فيها مواد
الزرع والضرع وانفسحت مساح الحيوان ومرايع الصيد وطابت منابت
الشجر ودرت أفويق الجباية يمرها من قبائل المصامدة أم لا يحصيهم الا
خالقها قد اتخذوا المعقل والحصون وشيدوا المباني والقصور واستغنوا بقطرهم
عن سائر أقطار العالم فرحل اليهم التجار من الآفاق واختلفت اليهم أهل

النواحي والامصار ولم يزالوا من أول الاسلام وما قبله معتمرين بتلك الجبال قد أوطنوا منها أقاليم تعددت فيها الممالك والمالات بتعدد شعوبهم وقبائلهم واقتربت أسماؤها بافتراق أجيالهم تنتهي ديارهم من هذه الجبال الى بنية المعروفة ببني فازان حيث تبتدىء مواطن صنهاجه امأماليون الافريقي^(١) فلم يذكر عن جبال اطلس ما يستحق الالتفات اليه

واعلم ان القسم الشرقي من جبال اطلس أي القسم الواقع منها ببلاد الجزائر قد أصبح الآن معروفاً لدى الجغرافيين أكثر من القسم المراكشي منه أو بتعبير أوفى قد أصبح لدينا على الجغرافيا الطبيعية لهذا القسم فقط معلومات تامة تقريباً وأنه من منذ أن استولى الفرنسيون على بلاد الجزائر صار المهندسون وعلماء المواليد الثلاثة وعلماء طبقات الارض وخلق كثير من السياحين يتردد السكل على نجد اطلس ومنحدره هذا يقيس وذلك يصف حتى أصبحت معلوماتنا عليه جديرة بالثقة بخلاف بلاد مراكش فإنها ما زالت

(١) Léon l'Africain جغرافي عربي شهر ويسمى حسن بن محمد الوزان ولد بطنجة في اول القرن الحادي عشر الهجري وساح بكل جهات افريقية الشمالية واسيا الغربية ثم أخذه قرصان النصرى أسيراً وارسلوه لرومية مدة البابا ليون العاشر الذي نصره وسماه ليوناً وتعلم الطليانية واللاتينية وكان يعلم اللغة العربية واثق كتاباً بالعربية فيها شاهده في سياحته المذكورة وقد ترجم هو هذا الكتاب الى اللغة الطليانية (١٥٢٦ م) ولا يزال كتابه من أقدس المؤلفات في وصف افريقية الشمالية وبلاد السودان وقد ترجم الى كل لغات أوربا أماليون المذكور فانه تمكن من العودة الى تونس وأقام بها حتى مات على دين الاسلام

مقفلة الابواب في أوجه السياحين بحيث لم يتمكن من اجتياز نجدها الاوسط
الا واحداً أو اثنان من أهل أوربا كذلك لم يتمكن أحد من المكتشفين الى
الآن من دراسة شكل وتركيب ذلك النجد وان ما يرسم منه على الخرائط
لا يصح أن يؤخذ الا من قبيل الفرض والتخمين بنى بعضه على معلومات
مبهمة جداً وبعضه على روايات يكون الصحيح منها قليلا يوم يتمكن العلماء من
دراسته دراسة حقيقية وبلا واسطة

ب - جبال كُنْغ - هي سلسلة جبال لم تكتشف الى الآن تماماً وتنطى
شمال بلاد غانه العليا وتفصلها عن حوض نهر ديوليا أو النيجر الاعلى وهي أقل
في الامتداد بكثير عما كانت رسم عليه على الخرائط القديمة وكذلك أقل أهمية مما
كان يظن سابقاً وقسمها الشرقي فاصل لخط تقسيم المياه هناك أما من مدينة
كنغ الواقعة على سفوحها الجنوبية أو من لفظ كنغ كادو وهو صقع تكلم
عليه منجورك^(١) في سياحته قال «سيوتسيفيل»^(٢) وموستيه اللذان اكتشفا
منابع النيجر ان لفظ كنغ أطلقه عليها أهالي بلاد كسي الواقعة بالجبال التي
تفصل بلاد كونو عن بلاد كورانكو

(١) Mungo Park اسكتلندي ولد سنة ١٧٧١ وقد ساح بمجبات افريقية الغرية
حيث يجرى غنياً والنيجر ثم عاد الى أوربا سنة ١٧٩٧ وكلفته الحكومة الانجليزية
باكتشاف نهر النيجر فسافر سنة ١٨٠٥ ونوغل في تلك الاطراف ثم انقطعت أخباره
ويقال انه هلك ببلاد حوصا (١٨٠٦)

(٢) Zweifel et Moustier

وغاية ما يقال في وصف هذه الجبال انها صف من الهضاب والمرتفعات موازية لخط الاستواء وتمتد من الشرق الى الغرب ويتجه مركزها نحو خط نصف نهار بلدة كاب كاستل على مسافة طولها بين ٨٠٠ كيلومتر والـ ١٠٠٠ كيلومتر وفي قسمها الغربي التواء نحو الشمال خلف رأس بلناس وتتبع ساحل البحر في امتدادها أما في نهايتها الشمالية الغربية وأمام مستعمرة سيراليون فتقسم الى عدة مرتفعات تصل بجبال سنغاميا وجبال فوطا جالون والمياه المنحدرة من جهاتها الشمالية تذهب الى نهر النيجر الذي يخرج منها اما المياه التي تنبع من جهاتها الجنوبية فتصب في أنهار بلاد غانة

ويحتمل أن تكون هذه السلسلة قاعدة للسلسلة الكبرى ببلاد التكرور الكبرى ويظهر أن متوسط ارتفاعها عن سطح البحر قليل ويظن البعض ان قمة دارو الواقعة الى الشرق من سيراليون هي أعلا قممها ارتفاعا قال كلا برتن (١) الذي اخترق هذه الجبال الى الشمال من لاغوس ان ارتفاعها لا يزيد هناك عن ٧٥٠ متراً عن سطح البحر ثم ان هذه السلسلة معروفة في النقطة التي يقطعها فيها نهر النيجر الاسفل (امام بلدة إدات) ولكتنا نجعل اذا كانت هذه السلسلة تمتد بعد ذلك الى الشرق أم لا

(١) H. Clapperton اسكتلندي ولد سنة ١٧٨٨ وخدم في البحرية الانجليزية

ورافق السائح دنهام في سياحته الى بلاد السودان سنة ١٨٢٠ ثم نشر أخبارا اكتشافاته هناك سنة ١٨٢٦ ثم عاد فسافر الى السودان ثانية ولكنه مات في سكتو سنة ١٨٢٧

ويؤخذ من بعض الاوصاف المختلفة ان هذه السلسلة مكونة من الجرانيت
الازرق الذي يكون قاعدة شبه جزيرة سيراليون وساحل الذهب وربما كان
ممزوجاً بأحجار السماق ويقول الكاتبين برُتُنْ انه يجب أن يكون بها كثير
من أحجار الكوارتز كما يؤيد ذلك الرمال الذهبية التي تكون في نهيرات
بلاد فانه ✓

ج - جبال الحبشه - ينطلي نجد بلاد الحبشة سلسلتان من الجبال هما
جبال سيمين بين وهذه تكازه وبحيرة دمبمه وسلسلة كوجام وهي الى الجنوب
من دمبمه بقليل داخل الشكل الحزوني الذي يرسمه نهر أبائي في سيره ومنها
ينبع هذا النهر على ارتفاع يزيد عن ٢٨٠٠ متر ولا تصل السلسلتان المذكورتان
تماماً الى حيث تكون الثلوج الدائمة بل يصلان فقط الى حدودها الجنوبية
وأعلى ذروة في جبال سيمين هي ذروة دنجيم وارتفاعها نحو ٤٠٠٠ متر عن
سطح البحر قال مسيو جاليني^(١) انها تبلغ ارتفاع الجبل الابيض بأوروبا تقريباً
هذا وأعلى القمم في السلسلة المذكورة بعد تجيم السابقة هي سلكي وأبا
يارد وأمباراس

د - جبال كينيا وكيلمانجارو - اما كينيا فهو قمة ثلجية بأفريقية الاستوائية
جنوبي خط الاستواء بقليل (١٠ دقائق وه ثوان من العرض الجنوبي و ٣٤
درجه و ٢٥ دقيقة من الطول الشرقي) وهي على نحو ٤٠٠ كيلومتر^١ الى الشمال

الغربي لبلاد الساحل (عند منبع نهر تانا) وعلى نحو ٣٠٠ كيلومتر الى الشرق من الساحل الشمالي الشرقي لبحيرة فكتوريا ويقدر أهل العلم ان ارتفاع هذا الجبل عن سطح البحر يتراوح بين ٥٤٠٠ متر و ٥٥٠٠ متر وهو قسم من السلسلة الممتدة من الشمال الى الجنوب والتي نهايتها هضبة كليمانجارو الجسيمة الواقعة على نحو ٣٠٠ كيلومتر من جبل كينيا وأول من شاهد من الاوربيين ذراها الثلجية هو الدكتور كراف (١) الالماني سنة ١٨٤٩ قال نظرت بعد الظهر منظرآ بديماً بجبل كينيا رأيتة يتد من الشرق الى الشمال الغربي ونظرت على انحنائه قتين ذاهبتين نحو السماء وفهمت حينئذ قول دليلي لماذا ان كينيا اكبر من كليمانجارو ذلك لأن الثلج يغطي القمتين المذكورتين التي يسيل من جوانبها ثلاثة نهيرات خلاف نهر تانا اه ومنذ التاريخ المذكور لم يتمكن أحد من رؤية هذا الجبل غير الدكتور هلدبرندت (٢) سنة ١٨٧٧ ومع ذلك فانه لم يتمكن من رؤيته الا على بعد ١١٠ كيلومترات ثم انه في سنة ١٨٨٣

(١) J. Krapf. مبشر ديني وسائح الماني ولد سنة ١٨١٠ ومات سنة ١٨٨١ دخل في خدمة جمعية التبشير بالدين المسيحي الانجليزية وسافر الى بلاد الحبشة وأسس ببلاد شوا أول مكان للمبشرين الانجليز سنة ١٨٤٢ وقد سافر عدة مرات الى داخلية البلاد المذكورة للاكتشاف فاكتشف جبل كينيا سنة ١٨٤٩ ثم عاد الى المانيا وأقام بها زمناً وكان مع ذلك يميل للاسفار البعيدة ولهذا فانه انضم الى الحملة الانجليزية التي أرسلت ضد الملك تيودور الحبشي بصفة ترجمان وقد أفاد العلوم بما حصل عليه اذ ذاك ثم نشر سياحته بأفريقيه الشرقية بين سنتي ١٨٣٧ و ١٨٥٥ وله قاموس في اللغة السواحلية

(٢) Hildebrandt

وصل السائح الانجليزي ثمنسن^(١) حتى قاعدة كينيا وعبر مركزها بالضبط ووصفها بقوله انها مخروط قائم بمفرده بركاني التركيب ينتهي بقمة حادة تغطيها الثلوج اما كليمانجارو فهو جبل بأفريقية الشرقية بركاني التركيب تغطيها الثلوج الدائمة أيضاً مع قربه من خط الاستواء وهو هضبة منخفضة هي النهاية الجنوبية من سلسلة جبال ومنها جبل كينيا الواقع الى الشمال من هذه الهضبة كما سبق وكليمانجارو واقع بين الدرجة ٣ والدرجة ٦ من العرض الجنوبي والدرجة ٣٥ والدرجة ٣ من الطول الشرقي وهو على بعد ٣٠٠ كيلومتر الى الشمال الغربي من مدينة مَنبَسَة وأول من شاهده من الاوربيين المرسلان ريبمان وكريف ولكنهما شاهداه على بعد وشاهدا عليه الثلوج الدائمة وكان ذلك في شهر مايو سنة ١٨٤٨ وقد أيد ذلك وأثبتته السائح الالمانى فون دير كَن وقد قام هذا السائح بسياحتين الواحدة بعد الاخرى من الشاطئ الى الجبل المذكور في سنتي ١٨٦١ و ١٨٦٢ وتوصل الى الصعود بهذا الجبل حتى وصل الى ٤١٣٦ متراً وحقق بحساب دقيق ان قته الغربية ارتفاعها ٥٦٩٤ متراً وارتفاع قته الشرقية ٤٩٥٤ متراً عن سطح البحر وان الثلج يغطي ارفع القمتين حتى يصل الى ٣٦٠٠ متر عن سطح البحر وتندم كل أنواع النباتات فوق هذا الجبل بين ٣٦٠٠ متر و ٣٧٠٠ متر وفي سنة ١٨٧٧ شاهد هلدبرندت التقدم المذكور جبل كليمانجارو ثانية وكان قريباً منه

ويمكن من قياس بعض ابعاده ثم انه في سنة ١٨٨٣ عند سياحة تلمسن في جهات بحيرة فكتوريا نياترا اكتشف هضبة كليانجارو في جهاتها الجنوبية الغربية وجهاتها الشرقية وصعد فوقها من عدة جهات مختلفة فكان بذلك أول من عين موقع هذه الهضبة بالضبط كما عين حدودها والاختلاف قليل بينه وبين البارون فون ديردكن في القياسات التي اجراها كل منهما

هـ - جبال نيووولد - هي سلسلة وسط مستعمرة الكاب واستطالة لسلسلة رُجيوولد الواقعة الى الغرب ونيووولد المذكورة هي خط تقسيم المياه بين النهرات التي تذهب شمالا وتصب في نهر أورنج والتي تجري جنوباً وتصب في المحيط الهندي وبلغ متوسط ارتفاعها نحو ١٥٠٠ متر وأعلى أقسامها في شمال مقاطعة بوفوروست ولها هناك قم كثيرة واحدة منها غرباً تسمى بولب هودرس بنك (Bulbouders Bank) وارتفاعها ٢٢٠٠ متر وأخرى شمالي بوفوروست وتسمى نلس پورت (Nels Poort) وارتفاعها ٢٢٢٦ متراً والسفح الجنوبي لهذه السلسلة قائم صعب المرتقى ينحدر حتى يصل الى سهل كرو الكبير وسفحها الشمالي يخالف الاول لانه ميل الى منحدرات سهلة نحو السهول الداخلية هذا والاشجار قليلة الوجود جداً بهذه الجبال الا ان منحدراتها الشمالية بها مراعي نضرة كثيرة

ثانياً - سبعة أحواض أصلية أربعة منها في الشمال وثلاثة في الجنوب

أما التي في الشمال فهي حوض النيل ^(١) وحوض ديوليا أو نيل السودان وحوض نهر سنغال وحوض بحيرة شاد وهو بالوسط وليس بينه وبين بحار افريقية اتصال أما أحواض الجنوب فحوض نهر الزائر وحوض نهر زمبيزي ثم حوض نهر غريب أو أورنج وليس بهذا النهر من المياه ما يجعله قابلاً للملاحة مع طوله فهو لذلك لا يستحق أن يذكر تهرباً بين الأنهار العظيمة بأفريقية وما يجب التنبيه إليه في أنهار أفريقية أن أغلبها وحتى الكثير من أنهارها الثانوية يقطعها جنادل وشلالات تكون عائقاً للملاحة على مسافة قليلة أو كثيرة من الشواطئ وسبب ذلك وجود النجود الداخلية التي تنخفض بالتدرج وتنتهي بسفوح وتلال

١- نهر النيجر ويسمى أيضاً ديوليا أو كوارا وهو من أكبر أنهار افريقية الغربية ويصب في بحر الظلمات من خليج غانه ويسكن على شواطئه مثل كل أنهار افريقية أمم مختلفة الاسماء والاجناس وقد سماه العرب باسم نيل العبيد قبل وربما كان ذلك من باب التحقير له أما اسم نيجر أو نيل السودان فقد أطلقه عليه كله الجغرافيون ولا وجود في الحقيقة لتسمية تشملها بإجمعه في لغة الامم النازلة على شواطئه

وقد زادت معرفة الجغرافيين بأحوال هذا النهر زيادة كبيرة من منذ

(١) قد رأينا من المناسب تأخير الكلام على نهر النيل هنا لان الكلام سيأتي عنه

ان استتب للفرنسيين الاستيلاء على جهاته أي منذ سنة ١٨٨٧ فقد علم مجراه وكذا النهرات التي تصب فيه ودرست دراسة دقيقة في كل جهاته العليا ومن الذين اكتشفوه اكتشافاً جيداً ضابط بحري فرنسي سار فيه في مدفعية من بلدة بما كوالى تمبكتو فكان أول من اكتشف هذا القسم من بعد السائح كتيه^(١) واقتنى طريقه غيره من بعده وكلهم اتوا دراسة مناطقه المائية كما عينوا خلجانهم وبحيراته فينبأ كان الضابط الفرنسي توتيه^(٢) يخرج من داهومي صاعداً فيه الى ما بعد بوصا محترقاً الشلالات التي هلك فيها منجويرك سنة ١٨٠٦ كان ضابط بحري آخر يقود ارسالية خرجت من تمبكتو وانحدرت في النهر حتى البحر وبذلك تم اكتشاف النهر بأجمعه لهذا كتب أحد الضباط الفرنسيين سنة ١٨٩٨ يقول ان نهر النيجر قد أصبح معروفاً الآن في كل اجزائه كما يعرف الفرنسيون مثلاً نهر لوار من منبعه الى مصبه اه

وقد صار هذا النهر من ذلك الوقت أعظم شريان في جسم الدولة الفرنسية السودانية لان أكثر من ثلاثة ارباع مجراه أي من منابعه حتى على نحو ٨٥٠

(١) R. Caillie (١٧٩٩ - ١٨٣٨) سائح فرنسي ذهب الى بلاد سنغال وادعى انه مسلم مصري من مدينة الاسكندرية (١٨٢٧) ثم توغل في البلاد حتى وصل الى نهر النيجر ومدينة تمبكتو ومن هناك انضم الى قافلة واخترق بلاد الصحراء ثم عاد الى أوروبا من مراكن وقد طبعت سياحته سنة ١٨٣٠ في ثلاثة أجزاء وبها كثير من الغرائب

كيلومتراً من ساحل البحر تابع لفرنسا فحوضه الاعلا والتوسط في دائرة النفوذ الفرنسي لا غير

ويبلغ طول مجراه نحو أربعة آلاف كيلومتر مع ان للسافة بين منبعه ومصبه لا تزيد عن ١٨١٠ كيلومترات بسبب تعاريفه وانحناءاته وهو ونهر الكنفو تنطبق عليهما صفات انهار افريقية وتظهر فيها اكثر من غيرهما ما عدا نهر النيل وذلك بجريانها أولاً نحو الشمال ثم نحو الجنوب (مثل سنغال وأغوي ولوبوبو وبعض زمبزي) ويقدر ان ما ينطفي من الاراضي بنحو مليونين و٦٠٠ الف كيلومترا مربعا

والنيجر هو الثالث في افريقية بطول مجراه والثاني بكمية المياه التي تجري فيه ويمكن تقسيم مجراه الى خمسة أقسام ذات أوصاف طبيعية متميزة تماماً الاول من منابعه الى بلدة بما كوه به شلالات وحواجز صخرية كثيرة ولا يمكن ان تسير فيه الا السفن الصغيرة فقط والثاني من بما كو الى تمبكتو وبهذا القسم تكون الفيضانات الدورية ويمتاز بما يخرج منه ويصب فيه من النهرات والجداول وانترع والبحيرات الكثيرة وهو قابل لسير السفن الكبيرة في كل وقت الثالث من تمبكتو الى أنسنجو وهو كذلك قابل للملاحة ولكن في قسم من السنة فقط الرابع من انسنجو المذكورة الى ليابابوه في هذا القسم جنادل خطرة يفصلها عن بعضها مجار قصيرة الخامس من ليابابو المذكورة الى البحر وينبع نهر النيجر من جبال بلاد كورنكو بالقرب من حدود سيراليون

وليبيريا ومنبعه مرتفع عن سطح البحر بنحو ٨٦٠ متراً وقد اكتشفوا منبعه فقط سنة ١٨٩٣ وفيضاناته من أمطار غزيرة تسقط عند منبعه من فبراير الى يولييه

ويشبه هذا النهر نهر النيل في مجراه وتمازجه وشواطئه وشكله والجهات التي يخترقها وبه كثير من الشلالات والصخور والجنادل مما يعيق الملاحة كما سبق كما يوجد في أغلب جهاته كثير من الجزر بين كبيرة وصغيرة ويخترق مجراه عدة بحيرات ومستنقعات

وبعد أن يفارق النيجر منبعه بنحو ١٤٠ كيلومتراً متجهاً الى الشمال يصب فيه نهيرات يطلق عليها بعد اجتماعها اسم ديوليا ومعناه الماء الكبير وأكبر نهير عند النيجر هو نهر بنوي ويأتي من الشرق ويقذف فيه كمية كبيرة من الماء وهو لمنافعه الاقتصادية يمكن أن يبادل نهر النيجر لأنه يضرب كثيراً في قلب افريقية في جهات أكثر خصوبة وسكاناً على العموم من الجهات التي يمر فيها نهر النيجر ومنابع بنوي الى الشمال في بلاد اداموا ويظن انه يتصل في فصل الامطار بحوض بحيرة شادومتي وصل الى بلدة لكوجا أصبح كبحيرة محصورة داخل دائرة من الجبال ويبلغ فيضانه اعلاه في شهري أغسطس وسبتمبر وينخفض كثيراً في مارس وابريل

ودلتا نهر النيجر تتألف من فروع لا يحصى عددها ويبلغ محيطها الخارجي نحو ٣٥٠ كيلومتراً تقريباً وبها جزائر يبلغ مسطحها نحو خمسة وعشرين الف

كيلومتراً مربعاً وله من المصببات نحو ١٦ مصباً والرياح الغالبة عند مصباته تهب في اتجاهات معاكسة لتيارات هذا النهر وتكون في الغالب شديدة الهبوب حتى لا يمكن للسفن الشراعية أن تصمد فيه في وجه التيار وتدخل هذه الرياح الموسمية بانتظام في واديه مدة عشرة شهور من السنة وخصوصاً من مايو الى نوفمبر وفي نحو أواخر نوفمبر يتبدى فصل الضباب وهو ضباب جاف ينتشر حتى يخفى الشاطئ على مسافة قليلة منه ويهب بعد الزوال نسيم يلاشى ذلك الضباب وربما ثارت بعض العواصف فأخذته معها ومزقته تمزيقاً شياً من تاريخ النيجر - قد تحقق لأهل النظر ان قد قامت على شواطئ نهر النيجر من أزمنة طويلة مضت أمم شهيرة في التجارة والصناعة وكان واديه كما كان وادي النيل مركز حضارة وكان لمدنه أيضاً شهرة في كل القسم الشمالي من افريقية بل كانت شهرتها تتجاوز ذلك وكان من ممالكه مملكة غانا المعروفة لتجار البنادق قبل أن يتمكن أهل أوروبا من السياحة في ارجائه بزمن طويل وبقيت مدينة تمبكتو يعرفها الناس على بعد مدة قرون كأنها الباب لافريقية الا ان هذه الحضارة والرقى كانا في حوضه الاوسط لا في جهات مصباته التي بقيت في حالة همجية تامة ولما أصبح الفرنسيون أصحاب النفوذ الاعلا بتلك الاطراف طمعوا في أن يربطوا جهاتها العليا ببحر الروم مباشرة بطريق حديدي يخرق الصحراء الكبرى

وأقدم من اكتشف نهر النيجر من الاورباوين : نيجوپرك وهو طبيب

اسكتلندي توصل بعد اقتحام آلاف المخاطر من الوصول الى شواطئ
النيجر الاعلا وكان هذا بين سنتي ١٧٩٥ و ١٧٩٧ وكانوا من قبله يجهلون مصبه
بالمره حتى انهم كانوا يعتبرونه فرعاً من نيل مصر ولما كان منجورك ليس
بالرجل الذي يكتفي بالتخمينات والالهام الباطلة ساح بجهاته سياحة ثانية
تمكن فيها من اكتشاف مصبه وقد كافأته الحكومة الانجليزية على عمله ثم
مات غرقاً عند شلال بلدة بوصا ويقال أن الاهالي قتلوه وذلك بعد أن مات
كل من رافقه من الاوربيين تقريباً وكانوا اربعين شخصاً (١٨٠٦)

وسمى كثيرون بعد منجورك في اكتشاف هذا النهر فلم ينجحوا ثم
قام من بعدهم فرنسوي يدعى رينيه كلييه وكان أسعدم حظاً وهو بعد أن
درس لسان البربر وعوائدهم سافر على مصاريفه متظاهراً بأنه عربي الاصل
وان الفرنسيين كانوا أسروه في مصر فتمكن بذلك وبعد مشاق طويلة من
الوصول الى النيجر في يناير سنة ١٨٢٨ ثم عاد محترقاً الصحراء ومراکش
وتعاقب بعده كثيرون من أمم مختلفة فأفادوا في هذا الموضوع بما شاهدوه
ورسموه هذا والفضل أيضاً للارسانيات العسكرية الفرنسية وللشركات
التجارية بين فرنسوية وانجليزية وفي سنة ١٨٨٧ أضيفت كل جهات حوضي
النيجر وبنوى السفلى للدولة الانجليزية نهائياً وقد أخذت التجارة الاوربية
تتقدم وتترق في تلك الانحاء بدرجة عظيمة جداً قال سائح انجليزي يسمى
تومسن لا توجد بكل الجهات الواسعة من افريقية الاستوائية جهات

أكثر قابلية للتجارة من الجهات التي يمر بها هذا النهر والتي هي عبارة عن مركز حوضه اهـ

ج - الكنفو - هو نهر بأفريقية الغربية أطلق عليه البرتغاليون اسم زائر واستحسن استأنفلي تسميته باسم لثنجستون تعظيماً للمكتشف الانجليزي الشهير وكان أول من اكتشف مصبه ملاح برتغالي اسمه ديجوكام^(١) سنة ١٤٨٤ وسماه ريوبادرو ولما كان البرتغاليون اذذاك يبحثون عن طريق بلاد الهند اجتهدوا في اكتشاف هذا النهر المجهول المجرى ثم لما استقر مبشروهم الدينيون فيما بعد ببلدة سلوادور القرية منه لم يتمكنوا مع كل ذلك من الحصول على معلومات مهمة وبقي الحال هكذا حتى القرن الماضي حيث حصلت المساعي الاولى الجديدة لاكتشافه

ففي سنة ١٨١٦ سعى الماجور توكي^(٢) في الصعود فيه ولكنه عاد ادراجه بعد أن قطع نحو ٣٠٠ كيلومتر وكذلك خاب مسمى كل من أراد

(١) Diego Cum ملاح برتغالي كان في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي والمعروف عنه فقط ان ملك البرتغال الفونس الخامس كلفه سنة ١٤٨٤ باكتشاف سواحل أفريقية فتوغل في السواحل الغربية أكثر من سبقه الى ان اكتشف خليجاً كبيراً يسميه الاهالى الزائر وقد أطلق عليه هو اسم ريوبادرو لانه كان ركز به عموداً من الحجر كالعمد التي كان البرتغال يعلمون بها الاراضي التي كانوا يستولون عليها وحاول ان يوجد مع أمراء تلك الجهات مواصلات ثم عاد الى بلاده وبعد ذلك لا يعلم من أمره شيء

اكتشاف هذا النهر من أتبمه وكان سبب خية بعضهم الشلالات التي في قسمه الاسفل والبعض الآخر بما حدث بينهم وبين الجمالين والأدلاء من المشاكل والصعوبات التي لم يجدوا لها حلا وقد توصلوا لاكتشاف مجراه من داخل القارة فهو مثل الأنهار الكبيرة بأفريقية في ذلك أي أن اكتشافه لم يحصل من مصبه بل حدث بعكس ذلك

وأول من ساح بالجهات التي تكون فيها نهر الكنفو هو لفتجستون وقد وجد نجداً عريضاً تكثر به الأمطار والبحيرات والنفائض والنهيرات تمتد بين منابع زمبزي وبحيرة تنجانيقا وكان اسم بعض هذه الأنهار معروفاً نقلاً عن تجار الرقيق من البرتغاليين ولكنهم لم يكونوا يعرفون اتجاهاتها بالضبط وذلك لأنه يوجد بهذه البلاد مجاري مياه لا عداد لها حتى قال لفتجستون أنه قطع منها في يوم واحد أربعة عشر مجرى وأراضي الغابات هناك تغطيها الأحوال وتمكث مياه الأمطار شهوراً بتمامها رأكدة في آثار أقدام القيلة وتباعد هذه المستنقعات الطويلة عن بعضها غالباً بنظام عجيب ويختلف عرضها ما بين ٢٠٠ متر والف متر وعلى شواطئها غابات وتنتشر على سطوحها حشائش شبيهة لفتجستون بالأسفنج لأن الماء يتساقط منها حتى في زمن الجفاف وقد ظن لفتجستون أنها منابع للتل وبما حصل عليه من الاستعلامات من الأهالي وبما نقله له الرواة من الأخبار ظن أن هذه النهيرات تصل إلى تنجانيقا وأن مياه هذه البحيرة تسيل من حافها الشمالية نحو خط

الاستواء أي نحو النيل وقد أمضى لفنجستون السنين الأخيرة من عمره في تحقيق هذه القروض والاقتوال

ولم يمض بعد ذلك زمن طويل حتى تمكن من الوقوف على أن نهرى شمينزي ولوا بولا بعد اتحادهما بواسطة بحيرة بنجويو يمتدان كلاهما وكذا نهر لوالا با وتجري كلها فوق سطح أكثر انحداراً من سطح تنجانيقا (وعلى ذلك لا يمكن أن تكون تنجانيقا مما يعد نهر النيل) أما من خصوص معرفة ما اذا كانت هذه البحيرة المذكورة تذهب مياهها الى الشمال فان اكتشافه الذي قام به هناك سنة ١٨٧١ برفقة استانلي الذي اكتسب شهرة عمومية بسياحاته في افريقية اقنعه بأن تنجانيقا ليس لها منصب نحو الشمال أصلاً وعلى ذلك كانت تلك النهرات التي شاهدها لفنجستون ليست منابع للنيل بل يتعين أن تكون منابع لنهر آخر ومن هذا الوقت أخذ لفنجستون يفكر فيما اذا كانت تلك الأنهر منابع لذلك النهر العظيم العجيب الذي يصب في بحر الظلمات المعروف بالكنفو ولقد صدق ظنه في هذه المرة الا انه لم يتحقق من ذلك بنفسه لان منيته عاجلته في سياحاته هذه سنة ١٨٧٣

وقام بعده سائح يدعى كبرون^(١) الا انه لم يكن أكثر حظاً من مواطنه لفنجستون وقد تمكن في سياحته من اكتشاف مصب مياه تنجانيقا في لوالا با ولكنه لم يمكنه السياحة في هذا النهر الى ابعد مما وصل اليه لفنجستون وعند

ذلك انحدرو نحو الجنوب الغربي محترقاً الجهات الكثيرة المياه التي يذهب قسم من مياهها الى نهر زمبزي وما بقي يذهب نحو الشمال الى أن وصل الى ساحل المحيط الاطلسي (١٨٧٣-١٨٧٥) وبذلك اخترق قسماً من النهرات التي تمتد نهر الكنفو ولكنه لم يحصل على معلومات صحيحة عن هذا النهر أصلاً هذا والى استانلي السائح الشهير يرجع حل هذه المسألة فإنه في سياحته الثانية بأفريقيه (١٨٧٤ - ١٨٧٧) وصل بعد أن أقام في جهات البحيرات العظمى هو أيضاً الى بلدة نيآنجوى وهناك ساعده الحظ أكثر من سبقه فتمكن من الحصول على حراس بواسطة تبوتيب تاجر الرقيق العربي الشهير وحصل أيضاً على سفن انحدرو بها في الكنفو ولكنهم تركوه بعد قليل وعادوا بسبب تقشي الامراض فيما بينهم وبما صادفوه من المشاق في اختراق الغابات الا ان ذلك لم يثن استانلي عن عزمه فظهر همه فائقة واستمر في طريقه وكان بصحبته نحو ١٥٠ رجلاً من أهالي زنبار معهم ٢٣ زورقاً

وبعد من وصل الى جهات يجملها حتى نفس تجار الرقيق واضطر للدوران حول شلالات اعترضته في طريقه (شلالات استانلي) بينما كان الاهالي يهاجونه وينفرون عليه ولما وصل الى ملتي نهر أرويني بالكنفو هاجمه الاهالي أيضاً وهم في زوارق طويلة واجتهدوا في صده ومنعه من الانحدار في النهر الا انهم لم ينجحوا وكان النهر يأخذ في الاتساع ثم انحرف فجأة نحو الغرب أي نحو بحر الظلمات وعلم استانلي أخيراً من بعض الاهالي

هناك ان هذا النهر يسمى كنفو كما علم أيضاً ان النهر الذي سار فيه من أول بلدة نيانجوى وكذا النهر الذي سعى السائح توكي من قبل في الصعود فيه كلاهما نهر واحد هو الكنفو فالكنفو نهر واحد رغمًا عن تعدد أسمائه التي يسميها السائح في طريقه ولا يخفى أن لا شيء أصعب على المكتشف من أسماء عديدة تطلق على مسمى واحد ولما تشجع استأنلي بما حصل عليه استترفي الانحدار في النهر المذكور الذي لكثرة جزائره أصبح عرضه بين ٤٠ و ٥٠ كيلومتر ولهذا فانه لم يشاهد الانهار التي تصب فيه هناك كما انه لم يكن يشاهد شاطئيه غالباً وقد قطع خط الاستواء مرة أخرى وصارت أصوات البنادق التي يسميها تدل على قربها من المحيط والزلازل التجارية البرتغالية وبعدها انتمت مياه هذا النهر وتنتشر كثيراً على هيئة بحيرة (استأنلي بول) تنحصر ثمانية بين شاطئيه ويعترض مجراه شلالات جديدة هلك فيها كثيرون من اتباعه ثم وصل أخيراً الى مدينة بوما الواقعة عند مصبه وكان ذلك ما يبغيه بعد أن قاسى من العذاب ألواناً وبعد أن اشتبك في اثنتين وثلاثين موقعة مع الاهالي في طريقه وعلى ذلك كان كل من نهيري لوابولا ولوالابا اكبر فروع نهر الكنفو ولقد حل اقدام استأنلي وهمته مسألة من أصعب المسائل في انهار افريقيه وذلك لان نهر أطوله ٤٦٠٠ كيلومتر يماثل أمازون تقريباً في طوله وكمية مياهه قد أصبح الجغرافيون يعرفون مجراه وأحواله دفعة واحدة ولم يكونوا يعرفون عنه قبل ذلك الا وجوده فقط

النهرات التي تمتد نهر الكنفو - نهيرات الضفة اليسرى - اعلم انه بينما كان استانلي يقوم بالاكتشاف الذي أوصله لمعرفة الكنفو كان هناك سياحون آخرون يسعون في معرفة هذه النهرات التي كان اخترقها السائح كيرون وهي التي تسير نحو الشمال وقد سعى كثير من المكتشفين في معرفة هذه النهرات وفي الوصول الى بلدة نيانجوى مبتدئين من ساحل المحيط الاطلسي ومن هؤلاء الضابط الالماني ويسمان^(١) وقد نجح في ثلاث سياحات اجراها الواحدة بعد الاخرى للوقوف على أحوال النهرات التي تصب في الكنفو من شاطئه اليسر وقد سعى كثيرون غيره هذا المسمى فلم يوفقوا

(١) H. Wissmann سياح الماني ولد سنة ١٨٥٣ وكان من ضباط الجيش الالماني ثم اتفق هو والمكتشف بوج (Pogge) على اجراء سياحة بداخل أفريقية تحت رعاية الجمعية الافريقية بيرلين فسافرا من لوانده سنة ١٨٨١ ووصلا الى نهر كساتي ثم اتجها شرقاً واخترقا نهر لويلاش ولوكسي ولواي وبعد ان وصلا الى بلدة نيانجوى أخذ ويسمان في العودة عن طريق الساحل الشرقي (سعدني) اما بوج فانه عاد عن طريق الساحل الغربي (١٨٨٢) وفي سنة ١٨٨٤ ترأس ويسمان ارسالية على مصاريف ملك بلجيكا كانت غايتها اكتشاف الجهات المحيولة الواقعة عند الانحناء العظيم من نهر الكنفو ولما وصلت الى لولوا أسست محطة لولوا برج ثم وصلت سنة ١٨٨٥ على سفينة الى ملتقى كساتي بالكنفو ثم الى استانلي بول وقد ظهر من هذا الاكتشاف ان كساتي قابل للملاحة بلا عائق حتى قلب أفريقية ثم نجول ويسمان في تلك الارزاء مكتشفاً حتى بلغ تنجانيقا (١٨٨٧) ثم نياسا ومن هناك قصد موزمبيق ثم زنبار هذا ولما امتلكت المانيا سنة ١٨٨٩ الاراضي التي لها بساحل أفريقية الشرقي عينته مندوباً امبراطوريا وقد أظهر شدة في المعاملة وكانت له مع العرب هناك حروب دموية

وخرج ويسمان هو وسائح آخر يدعى بوج في سياحته الاولى من مملكة لوانده وكانت اذذاك آخذة في الضعف والانحلال واستقل كثير من عمالها في عمالاتهم ولحسن حظ هذه الارسالية ساعدها أحد أولئك العمال مساعدة عظيمة حتى تمكنت من الوصول الى مكان أبعد من المكان الذي وصل اليه من سبقها وبعد أن عبر السائحان المذكوران نهيرات كسائي ولويلاش ولومامي وصلا الى نيانجوى وبعد ذلك واصل ويسمان سيره بمفرده بمساعدة أحد رؤساء الاهالى هناك الى أن تمكن من الوصول الى ساحل ززبار ماراً بيلدة طابوره (١٨٨١ - ١٨٨٣) وسياحة ويسمان الثانية (١٨٨٤ - ١٨٨٥) كانت أهم من الاولى بما حصل عليه من النتائج وكان يصحبه اثنان من المكتشفين هما الدكتور ولف وفون فرنسوا^(١) وقد ساعده بعض أمراء البلاد هناك وأمدوه بالزوارق والحراس فأنحدر في نهر لولوا بعد أن أسس هناك محطة سماها لولوا بروج حتى وصل الى كسائي وأنحدر فيه أيضاً ووجد عريضاً ويصب فيه نهيرات عديدة أشهرها من اليمين لويلاش ويسمى هناك سنكورو ثم ما زال ويسمان ينحدر في كسائي حتى وجده ينحرف نحو الغرب ويصب فيه تقريباً كل النهيرات التي كان اخترق سابقاً مجاريها العليا ثم أنها تجتمع كلها الى نهر واحد كبير هو كسائي وأخيراً وصل بزوارقه الى نهر عريض كان هو نهر الكنفو

هذا أما الدكتور ولف فإنه صعد في سنكورو ثم في نهر يمه يسمى لويغو
الى أن أصبح على بعد ٤٠٠ كيلو متر فقط من بلدة نيانجوى وعلى ذلك كان
كسائي وسنكورو ولويغو كلها طريق اقصر بكثير عن الكنفوز بين المحيط
الاطلسي وبلدة نيانجوى

ثم تعاقبت السياحات بهذه السياحة العظيمة الالهية فساعدت كثيراً
بل أتمت اكتشاف نهيرات التي تصب في الكنفو من اليسار أو على الأقل
الى حيث تكون الشلالات وقلة عمق المياه من الموانع في ذهاب السفن الى
أبعد من ذلك

نهيرات الضفة اليمنى — يصب في الكنفو من ضفته اليمنى نهيرات
مهمان هما أرومي وأوبنجي وأوبنجي أعظم من أرومي بكثير وقد اكتشفه
المكتشفون قبله وأوبنجي المذكور هو المجرى الاسفل لنهر أوتلي وقال السائح
شوتيفريت^(١) ان نهر أوتلي المذكور الذي يجري في جنوب بلاد نيام نيام هو
المجرى الاعلا لنهر شاري الذي يصب في بحيرة شاد

غير انه في سنة ١٨٨٤ و ١٨٨٥ لما صعد أحد المرسلين الدينين المسمى
غرفيل في أوبنجي أكد ان هذا النهر هو أوتلي ليس الانهرأ واحداً وقد
صادقه على ذلك الضابط البلجيكي المسمى فان جيل^(٢) في سياحته سنة ١٨٨٧

Schweinfurth (١)

Van Gele (٢)

وبذلك صار اتحاد النهرين ببعضهما مما لأشك فيه

ونهر اولى اوبنجي هو أعظم النهرات التى تصب في الكنفو من يمينه أي من الشمال وكان السائح توكي فرض وجوده وقال به فهو الذي يجلب للكنفو مياه الامطار التى تنصب اليه بينما تكون الجملات التى في جنوب خط الاستواء في فصل الجفاف ومن هذه التغذية المضاعفة المتعاقبة يبقى مقدار تصريف نهر الكنفو على حالة واحدة تقريباً أما نهر ارومي الذي كاد أستتالي يظن انه المنصب لبحيرة مونتزيجا أي بحيرة البرت نيازرا فقد اكتشفه في سياحته الاخيرة بينما كان يبحث عن أمين باشا (١٨٨٧ - ١٨٩٠) وقال عنه انه كثير الجنادل يحترق الجملات العظيمة الكثيرة الغابات بأفريقيه وانه يخرج من نجد البحيرات ولا يتصل بمونتزيجا التى تجري مياهها الى جهات النيل الاعلى

فها هى ملخص أهم الاكتشافات والسياحات التى علمنا منها فى السنين الاخيرة أحوال نهر الكنفو وأكبر الانهار التى تصب فيه فأصبحت رسم الآن فى المكان الذي كان يترك خالياً الى زمن قريب على الخرائط الجغرافية بأفريقيه الوسطى وأصبح الآن رسم فيه نهيرات هى من أطول وأغزر نهيرات العالم ماء وقد تم فى هذا القسم من قارة أفريقيه عدة اكتشافات عظيمة الاهمية جداً بسرعة تعد من المعجزات وذلك بالرغم عن الموانع التى بقيت زمنات طويلة لا قائمة فى وجه المكشفين وبالرغم أوضاع الخرافات والأباطيل

الجغرافية التي ربما كان التغلب عليها أصعب من الموانع الأولى

د - نهر زمبيزي - زمبيزي نهر عظيم بأفريقيه الجنوبية يصب في بحر الهند من خليج موزمبيق ومعنى اسمه النهر الكبير وهو لطول مجراه واتساع حوضه وكية مياهه وسرعته يعتبر الرابع بين أنهار أفريقيه أي بعد الكونغو والنيجر والنيل وبلغ طوله نحو ٣٠٠٠ كيلومتر ويخرج من الجبال الكثيرة المياه والمستنقعات التي يخرج منها نهر يوا بالبا المنبع الغربي لنهر الكونغو كما سبق وبحيرة ديلولو تنصب مياهها في فصل الامطار في نهر الكونغو بواسطة نهر كسائي وفي نهر زمبيزي في آن واحد

واعلم ان الفضل في اكتشاف نهر زمبيزي يرجع على الخصوص الى داود لثنجستون وهو مرسل ديني جسر أمضى جزءاً عظيماً من حياته في أفريقيه الجنوبية وبعد أن وصل الى بحيرة نيامي (١٨٤٩) واخترق بحيرة شوبي وصل أخيراً الى شاطئ نهر عظيم يسميه الاهالي ليامي (١٨٥١) ولما أعلن سياحته هذه ظن الناس من هذا الوقت ان هذا النهر هو مجرى زمبيزي الاعلا وقد كان البرتغاليون اذ ذاك ينزلون واديه الاسفل فاهتم لثنجستون لتحقيق صحة هذا القول وفي سنة ١٨٥٣ صعد في نهر ليامي المذكور ثم في ليما المتم له واكتشف بحيرة ديلولو وقد ظن انها هي منبع زمبيزي ثم وصل الى مدينة سن بول لوانده سنة ١٨٥٤ ثم غادرها بعد قليل سائراً في نفس الطريق الذي أتى منه وانحدر في نهر ليامي واكتشف ذلك الشلال البديع المسمى

لدى الاهالى بما معناه الدخان الراعد وأطلق عليه اسم شلال فكتوريا ثم ترك
النهر من هناك واستمر فى السير حتى بلدة كليمان الواقعة على ساحل المحيط
الهندي وهذه كانت أول سياحة قام بها أوربي بأفريقيه من ساحل الى آخر
(١٨٥٤ - ١٨٥٦) وقد تحقق الناس من ذلك الوقت جيداً أن النهر الذي يجتاز
شلالات فكتوريا ونهر زمبيزي ليسا الانهرأ واحداً وقد تأكد لفنجستون
من ذلك سنة ١٨٦٠ أثناء اكتشافه القسم الاوسط من نهر زمبيزي وفي
نفس هذا التاريخ تقريباً كان كل من اسبك وجرت قد اكتشفا ان
بحيرة فكتوريا هى احدى منابع النيل وبهذا وذاك انحلت مسألتان مائتان
عظيمتان بأفريقيه فى زمن واحد

ثم قام السياحون وأنموا اكتشاف أجزاء نهر زمبيزي الذي اكتشفه
لفنجستون كما سبق وروى كل من كابلو وإيفنس وأرنوت^(١) أن منبع نهر
زمبيزي ليس من بحيرة ديلولو بل يجب أن يكون منبعه نهر ليا المذكور لأن بحيرة
ديلولو تنصب مياهها فى هذا النهر الذي تغزر مياهه بذلك ويدخل نهر زمبيزي
فى الجهات الكثيرة الحشائش ويسمى ليا فى أوله وليامبي فى آخره ولكنه
بعدان يجري فوق أراضي كثيرة المستعدرات يخفر له مجرى عميقاً محصوراً
داخل النجد ثم يجتاز شلالات فكتوريا من ثلثة جسيمة فتحها وسط أحجار
من البازلت تكون منها قاعدة ذلك الجبل وذلك أنه بعدان يكون عرضه نحو

١٦٠٠ متر ينقص في اخدود عميق من ارتفاع يبلغ ١٢٠ متراً ويسمع له اذ ذاك دوي كدوى الرعد ومنظره هناك من أجل المناظر الطبيعية في الدنيا ثم يضيق مجراه الظاهري بحيث يصير ٢٧ متراً فقط ويرتفع فوقه أعمدة من البخار شاهداها الناس على بعد ٣٢ كيلو متراً وإلى الشرق من هذه الشلالات يصب فيه نهر شوبي ويبقى مجراه في جهة الغرب كثير المرتعات والمنخفضات ثم يترك شلال فكتوريا منحدرًا فوق عدة شلالات أخرى وارتفاعه عن سطح البحر عند شلالات فكتوريا ٧٠٠ متر وعند محطة زومبو ٣٦٠ متراً وعند بلدة تيتي ١٦٠ متراً ثم يصب فيه من شاطئه اليسر نهر كافوي الذي يحترق بلاد بارنسي ونهر لوانجو هو الذي يجلب إليه مياه بحيرة نياسا وغيرها وتصب هذه البحيرة أيضاً في نهر زمبيزي بنهر شيري وهو نهر جميل واسع قابل للملاحة الا حيث تكون شلالات مرتشيسون واعلم ان نهر شيري المذكور من أجل الطرق للدخول في افريقيه الوسطي وإلى الامام من ملتقى شيري بزمبيزي يدخل زمبيزي في المنطقة التي تكونت من طميه وينقسم فيها الى فروع عديدة منها فرع يسمى شندي وهو قابل لسير السفن البخارية المتوسطة القدر وعلى فرع آخر من فروع مدينة كليمان وهي إحدى المحطات البرقالية ببلاد موزمبيق أشهر بحيرات افريقيه - بافريقيه سبع بحيرات شهيرة كلها محصورة بين المدارين ففي شمال خط الاستواء بحيرة شاد ببلاد التكرور وبحيرة سانا أودمبه ببلاد الحبشة وبحيرة نيازرا أو فيكتوريا نيازرا وقد اكتشفها اسبك

سنة ١٨٥٨ ثم زارها مرة أخرى في سياحته الثانية سنة ١٨٦٢ وإلى الغرب قليلاً منها بحيرة البرت نيازاً وقد اكتشفها السائح بيكر سنة ١٨٦٥ وإلى الجنوب من ذلك أي في حدود النجد الجنوبي بحيرة تنجانيقا وأول من زارها من سياحي أوربا برتن واسبك وكان ذلك في سنة ١٨٥٨ وبحيرة نياسا (أو مروي) وأول من زارها لفنجستون سنة ١٨٥٩ ثم بحيرة نيامي وقد اكتشفت سنة ١٨٤٩ وهي إلى الشمال من صحراء كلاهاري ومن التواريخ التي ذكرناها يظهر مقدار حداثة معرفتنا بالجغرافيا الطبيعية لقارة افريقية

ثالثاً سبع بحيرات - بحيرة شاد - هي بحيرة عظيمة يبلد التكرور على نحو ١٧٠٠ كيلومتر إلى الغرب من وادي النيل وعلى نحو ٢٠٠٠ كيلومتر جنوبي بحر الروم وعلى نحو ١٠٠٠ كيلومتر إلى الشمال والشرق من نهاية خليج غانه وترتفع عن سطح البحر بنحو ٢٧٠ متر فقط وتنصب فيها مياه بلاد برنو وباقرمي وقسم من مياه بلاد وداي ودارفور ولما كان السائح هورنمان^(١) يبلد مرزوق سنة ١٧٩٨ سمع الناس يذكرون هذه البحيرة ثم بقي أمرها مجهولاً إلى أن تمكن كل من السائح دنهام^(٢) وكلاپرتون وأذني^(٣) من رؤيتها لأول مرة (١٨٢٢ - ١٨٢٤)

(١) Hornemann (١٧٧٢ - ١٨٠٠) سائح ألماني مات بينما كان في سياحة يبلد مصر والسودان وقد ترك كتاباً بالألمانية اسمه الوقائع اليومية لسائح من القاهرة إلى مرزوق. Tagbuch einer Reiser von Cairo nach Murzuck.
(٢) Le Majore Dixon Denham (١٧٨٥ - ١٨٢٨) سائح إنجليزي زار مع كلاپرتون بلاد برنو وبحيرة شاد ومملكة الفلاتة (١٨٢٢ - ١٨٢٥)
(٣) Clapperton, Oudney

وهذه البحيرة مثلثة الشكل وبلغ متوسط سطحها الذي يختلف في فصل الجفاف عنه في فصل الامطار نحو ٢٧٠٠٠ من السكولمترات المربعة أي انها تبلغ تقريباً سطح جزيرة صقلية ولا يزيد عمقها عن بعض أمتار وبها عدة جزائر بنيت بها القصب الفارسي والبردي يلتجئ إليها قطعان كثيرة من فرس النهر ولذلك يصعب جداً تعيين خط سواحلها وهي واقعة في جهات أمطار الصيف السنوية التي تسقط من أواخر يونيه الى أواخر سبتمبر ويصل ماؤها الى أعلاه بين شهرى اكتوبر ويناير ثم يأخذ في الانخفاض في فصل الجفاف بحيث يتصل أغلب جزائرها بالقارة بواسطة مستغدرات قليلة العمق

ويظهر ان هذه البحيرة كانت قديماً أوسع مما هي الآن وقد احدثت مياهها اذ ذلك مجرى دائم الجفاف تقريباً الآن هو مجرى بحر الزغال وكانت مياهه تصل الى وهديتي بوديلي وأيجي أو أجاني الواقمين في مكان أكثر منها انخفاضاً ولا تزال بحيرة شاد تتصل الى اليوم في فصل الامطار بالمجرى والوهديتين المذكورتين سابقاً وبسبب ذلك سهل وجود المياه في باطن الارض بجهات بلاد كانم وبرقو وتجلب إليها النهرات التي تمتد نحو مائة كيلومتر مكعب من الماء سنوياً ولا تفقد منه بالتبخر الا نحو ٧٠ كيلومتراً

ويسكن جزائر شادامة تشتغل على الاكثر بصيد السمك تعرف باسم بُدُوما ولهم سفن مسطحة وهم يبيعون ما يصطادونه من السمك ببلاد برنو

وفي مدينتها كوكا الواقعة قرب الساحل الغربي ولهم أيضاً عناية بترية البقر
يرسلونها الى بلاد كانم لترعى هناك حينما تغطي الامطار أرض تلك الجزائر ويقدر
الجغرافيون أمة بدوما المذكورة بنحو ١٥ ألف نس

ويعد بحيرة شاد نهيرات أشهرها نهر شارى ويمده نهر لوجون وهو
يمثله في القدر وبعد أن يسير شارى المذكور ببلاد باغرى يصب فيها من
شاطئها الجنوبي وله دلتا عند مصبه ويتبدى الفيضان بنهر شارى من نهاية
شهر مارس ولذلك يظن أنه يأتي من جهات بعيدة جداً الى الجنوب ولا يزال
مجرى نهر شارى غير معروف تماماً وقد ظن السائح شُونِفُرت^(١) أن نهرى
شارى وأولى يتحدان ببعضهما وعلى ذلك يكون أولى هو أوبنجي بعينه
الذي يصب في الكنفو ولا يزال مجرى شارى الاعلى غير مكتشف لأن
وبحيرة شاد هي أكبر البحيرات القليلة العمق التي تحدث من الامطار

(١) G. Schweinfurth عالم من علماء الطبيعات وسائح ألماني ولد سنة ١٨٣٦
وقد أقاد دار آتار برلين بما جمعه فيها من أنواع النباتات والحيوانات والاحجار المختلفة
ولما كان بمدينة القاهرة في سنتي ١٨٧٤ - ١٨٧٥ دعاه الخُتاب الخديوي فأسس الجمعية
الجغرافية بها ومن ذلك الوقت استمر على الإقامة بالقاهرة وقد اهتم كثيراً بالسياحة
والاكتشاف في الصحراء التي بين النيل والبحر الاحمر (١٨٧٦ - ١٨٨٦) وجلب
منها أشياء نفيسة كثيرة اضافها الى التي جلبها من قبل بدار آتار المعادن برلين وكان
بالاسكندرية عام ١٨٨١ حينما اطلق عليها الانجليز المداغ وكاد الاهالي يوقعون به ثم
سافر الى سقطري سنة ١٨٨١ مكتشفاً ومن ذلك الوقت أخذ يسعى في حمل ألمانيا على
أن يكون لها مستعمرات بجهات افريقية الاستوائية وقد استفاد من ذلك كثيراً

الغزيرة التي تسقط في تلك الجهات ثم انها تجف تماماً تقريباً في فصل الجفاف بسبب التبخر ومن هذه البحيرات أيضاً إيرو ييلاد باقري وبحيرة قنري ييلاد دارفور وهذه البحيرات المتغيرة العمق والاتساع واقعة في نصف الكرة الجنوبي وعلى الخصوص في البلاد التي تقابل افريقيه حيث السنة فصل جفاف طويل وفصل أمطار غزيرة قصير ولما كان منظر البلاد يختلف جداً في هذين الفصلين تعارضت روايات السياحين واختلفت أقوالهم عنها وبذلك يمكننا الآن تفسير تلك الاقوال وفهم معناها بسهولة

واعلم ان الجهات الداخلية من افريقية حيث تكون بحيرة شاد هي احدى البلاد التي لا تزال مواصلاتها قليلة مع بقية المعمور فهي احدى الجهات المقتلة في أوجه الروادو المكتشفين تقريباً قال اليزيه ريكلو^(١) تمر السنين فوق السنين ولا يصل الى أوروبا صدى الحوادث والاعمال الكبيرة التي تقوم بها الامم هناك كالاغارات والمهاجرات والحروب والفتوح فبقى كلها مجهولة اهو كان الطريق الوحيد للمواصلات بينها وبين البلاد الخارجية في القرون الوسطى حتى القرن الماضي هو طريق الشرق المار بدارفور ووداي ومن هذا الطريق دخل العرب ونشروا دينهم وحضارتهم أما السبب الذي ساعد على وجود الطريق التجاري الشمالي الذي بين فزان وبحر الروم فهو الاحتياج لبضائع أوروبا وكذا الاحتياج لايجاد اسواق لبيع الرقيق الاسود الذي كان

يؤخذ من الامم الوثنية هناك وقد عرف هذا الطريق زمن دخول العرب تقريباً /
 طعم ماء شاد - لا يخفى أن مياه كل البحيرات التي لا مصرف لها ملحة
 وان الاجزاء الملحة التي تجلبها معها الانهار ينتهي أمرها لتراكمها على بعضها
 يجعل مياه البحيرات المذكورة ذات ملوحة ظاهرة مهما كانت تلك الاجزاء
 صغيرة فان بحر قزوين ومياهه عذبة تقريباً في القسم الشمالي منه حيث يصب
 نهرا ولنا وأورال العظيمين تكون ملحة أو مرة فيما بقي من حوضه ومما
 تشتهر به بحيرة شاد أن مياهها عذبة بالمرّة ولولا ما يخالطها من الاجسام
 المضوية لكانت مياهها موافقة جداً للشرب لذينة الطعم ومما يستلفت النظر
 أيضاً ويستغرب أن ينابيع البلاد التي تجاورها في الشمال والشرق وهي كانم
 وأبائي وبوديلي ماؤها أجاج كاه تقريباً ويوجد النطرون على سواحل بحيرة
 شاد وجزرها وربما كان أصح تعليل لذلك ما قاله مسيو اليزيه ريكو حيث
 قال في كتابه ان السبب في بقاء مياه بحيرة شاد عذبة كونها حوض
 مرور فقط وان مياهها تنصب من زمن قريب في وهدة بحر الغزال حيث
 تتبخر تاركة فوق الارض رواسب ملحة كما هو الحال بأمرقا الجنوبية في
 بحيرة تيتيكاكا العظيمة التي تشبه مياهها مياه شاد في العذوبة فان حوضها
 الملح واقع في البحيرة الصغيرة المسماة بامبا^١ لا غاس فهي لها بمثابة بحر الغزال لشاداه
 ب - بحيرة سانا - وتسمى أيضاً دمبه هي بحيرة بيلاد الحبشة
 ولفظ سانا لا يطلق على البحيرة ولكن على البلاد الواقعة على الشواطئ

الشمالية منها ولهذا فضل الجغرافيون تسميتها باسم تانا وهو الاسم الذي يطلقه عليها أهالي البلاد ويبلغ أكبر عرض لها من الغرب الى الشرق نحو ٦٥ كيلومتراً ومعظم طولها من الشمال الى الجنوب ٧١ كيلومتراً وقدر بعضهم مسطحها بنحو ٢٩٨٠ كيلومتراً مربعاً وارتفاعها عن سطح البحر ١٧٥٠ متراً ويصل عمقها في وسطها الى مئات من الامتار وشكلها وان اختلف على كثير من الخرائط الا انه مستدير تقريباً وبجنوبها خليج طوله ٢٠ كيلومتراً في عرض عشرة أمتار ومنه يخرج نهر أبأبي وعلى حافتها الخارجية الغربية مباشرة منخفض يرتفع عن سطح البحر الاحمر بنحو ستين متراً

وينصب فيها عدة نهيرات ومياها غزيرة جداً تأتي اليها من أمطار الصيف ومن الثلج الذي فوق الجبال وقد اوجدت هذه المياه بأحداها أخاديد وخيران كثيرة فوق نجد بلاد الحبشة التي تجري مياها في نهيرات ضيقة تقسمه الى عدة هضاب صخرية رأسية الجوانب تقريباً صعبة المواصلات وهذه البحيرة عدة جزائر بين كبيرة وصغيرة أغلبها مسكون يبلغ مسطحها جميعها نحو ٥٠ كيلومتراً ومن هذه الجزائر جزيرة (دبرا مريم) ولها اعتبار ديني لدى الاهالي ويقم بها مطران الحبشة أو بطريرقها وهي في نهاية الجنوب منها بالخليج الذي يخرج منه نهر أبأبي وكل هذه الجزر تقريباً قم مخروطية بركانية بعضها مغطى بالنباتات الجميلة والاشجار الوفيرة والاديرة التي بها محترمة جداً لدى الحبشان حتى لا يسمح لأجنبي بدخولها وماء هذه البحيرة

عذب جداً بقي لذيق الطعم كما النيل وعلى شواطئها طيور مائة كثيرة
ويسبح بها قطعان من فرس النهر والشيء الغريب أن التماسيح التي يكثر وجودها
في كل النهرات التي تمتد هذه البحيرة لا وجود لها فيها

قال بعض من شاهدها من السياحين أنها تشبه بحيرات جبال الالب
ولكنها أكبر منها بكثير وقد أعجب بها كل من رآها واقتن بجملها وجلالها
قال السائح جالينيه لا شيء أجمل من بحيرة سانا والبلاد الواقعة عليها وليس
بالسويسره ولا ببلاد ايطاليا بحيرة أجمل منها وإن السهل البديع الذي يحيط بها
والذي يختلف في الاتساع والضيق يحده جبال جميلة جداً مكونة كلها من
أحجار البازلت وغيره من الاحجار البركانية ويخرج من سفوحها ينابيع
غزيرة حارة المياه كما يخرج من جوانبها أكثر من ثلاثين نهيراً كلها تحمل
المياه لتلك البحيرة كما يحمل التابع الخراج لمتبوعه فتعلو وتفيض في فصل
الامطار اه

ج - بحيرة نياسا - تشغل هذه البحيرة وهدة طويلة بالقسم الشرقي
من نجد افريقيه ويحيط بها تلال وجبال تنحدر وتنسط في بعض جهاتها حتى
تصل الى ساحلها لا تترك بين سفوحها وشاطئ البحيرة غير شريط ضيق من
الارض وقد اكتشفها لفتنجستون سنة ١٨٥٩ وزارها بعده بقليل السائح
روشير (١) ذهب اليها عن طريق كيلوه ثم زارها لفتنجستون أيضاً مرتين

سنة ١٨٦١ و١٨٦٣ وأثبت أنها لا تتصل بحيرة تنجانيقا ولكن مياهها تنصب في نهر زمبيزي بواسطة نهر شيري وهي على ارتفاع ٤٨٠ متراً من سطح البحر وتحيط بها مرتفعات من كل جهة وتثور بها زوابع شديدة تجعل الاقتراب من سواحلها لمن كان داخلها غير ميسور في عدة جهات منها وبالقرب من شواطئها أيضاً صخور قائمة وعماق متغيرة القاع وبعد موت لئنجستون أسس المرسلون الدينيون من أهل إيقوسيا مركزاً لهم بشبه جزيرة على شاطئ البحيرة المذكورة الجنوبي سموه لئنجستونيا تذكراً لمواطنهم المذكور وأوجدوا أيضاً بالبحيرة سفينة بخارية لخدمتهم وكان ذلك سنة ١٨٧٥ وهذا وتمتد بحيرة نياسا المذكورة الى الشمال أكثر مما ظنه لئنجستون ومع ذلك فإنها أقل من تنجانيقا مسطحاً

ولما نجح المرسلون المذكورون في عملهم أسسوا بجهات نياسا ونهر شيري نزلات أخرى أشهرها نزلة بلاتير^(١) باسم المدينة التي ولد فيها لئنجستون وتشبه نياسا بشكلها ووضعها بحيرة تنجانيقا مشابهة كبيرة فإن في جهاتها أيضاً يهب في فصل الجفاف نسيم دائم يأتي من الجنوب الشرقي تلو بسببه أمواجها وتثور بها أيضاً عواصف ولكن لا يحدث منها زوابع مخيفة كما يكون في تنجانيقا ويظهر من المشاهدات التي أجراها المرسلون هناك مدة بضع سنين أن مياهها آخذة في الانخفاض التدريجي سنوياً والملاحفة فيها عسرة بسبب قلة

عمق المياه بجوار سواحلها وبسبب الصخور وغيرها مما تقدم ذكره ومياها عذبة وحيواناتها هي حيوانات البحيرات العذبة ما عدا تنجانيقا
واعلم أن جهات نياسا كثيرة الصيد جداً فن حيواناتها الكثيرة الفيل
وفرس النهر والتمساح وهو عظيم الجسم للغاية والسماك وهو كثير متنوع
أما من جهة السكان فإن الحال قد تغير الآن عما كان عليه سابقاً قال
لقنجهستون سنة ١٨٦١ أنه لم يصادف بأفريقيه سكاناً أكثر منهم بشواطئ
نياسا وإن القرى هناك متصلة ببعضها اتصالاً لا ينقطع وقال أيضاً أن الأهالي قد
اجتمعوا جماعات كثيرة جداً على ساحل البحيرة ليروا الرجال البيض عند
خروجهم من السفن أما الآن فإن السواحل قد اقترنت الآن في بعض أماكن
قليلة ويرجع نقص السكان بهذه السكينة إلى سبيين أصليين أولهما تجارة
الرقيق التي قام بها عرب زنبار وترتب عليها انعدام قرى تبامها وثانيهما
مجاورتهم لقبائل تشتغل بالسلب والنهب تسكن الجبال هناك وتعدى على
قرى سواحلها بالهدم بمجرد تشييدها

د- بحيرة البرت نيازنا - هي بحيرة عظيمة واقعة في جهات النيل
العليا بالشمال الغربي منها وعلى نحو ٨٢٠ كيلومتراً تقريباً من فكتوريا نيازنا وتصل
مياه فكتوريا إليها بنهر يسمى كاري ومنها يخرج نهر كبير هو نهر غندوكرو
أو البحر الأبيض وتسمى هذه البحيرة لدى الأهالي مونغريجا وقد أشار أسبوك
إلى وجودها بناء على ما علمه من الأهالي هناك

أما أول من وصل إليها وشاهدها فهو (صمويل بيكر) وذلك سنة ١٨٦٤ ومع ذلك فالذي شاهده منها بعض ساحلها الغربي فقط فلم يتمكن من اكتشافها لا من الشمال ولا من الغرب ولا من الجنوب وهذه البحيرة غائرة ومحصورة بين سواحل جرائتيه وشكلها مستطيل وشواطئها مرتفعة خصوصاً الشرقية منها ويظهر ان مكانها حدث من تمزق بزكاني وهي على ارتفاع ٧٠٠ متر من سطح البحر فهي على ذلك اخفض من بحيرة فيكتوريا بنحو ٥٠٠ متر وهي واقعة في أقصى حد لأهم باتون نحو الشمال وهناك تنعدم زراعة الجبوب ويقوم مقامها الموز والبطاطا ومنهما يكون غذاء الاهالي وقد اكتشف هذه البحيرة الضابط جيسي سنة ١٨٧٦ حينما كان في خدمة الحكومة المصرية ومع ذلك فإنه لم يتمكن من الوصول الى نهايتها الجنوبية لقلة عمق مياهها وربما كان يمكنه اذ ذاك أن يرى هو وغيره من المكتشفين ان سبب هذا العمق القليل رواسب يحملها معه نهر يأتي من الجنوب تصب فيه بحيرة أخرى

ويستخرج من هذه البحيرة ملح كثير تجارته مهمة عظيمة وبسبب منع تصديره الى بعض الجهات أحياناً تقوم حروب دموية بين الاهالي

هـ - بحيرة فيكتوريا نيازرا - هي اكبر بحيرات افريقية الوسطى واكبر الاحواض المائية الثلاثة التي تمدنهر النيل (الاثنان الآخران هما البرت نيازرا والبرت ادورد) واقعة في الجهات الاستوائية الشرقية على نحو

٦٦٠ كيلومتراً من بحر الهند (بين الدقيقة ٢٥ من العرض الشمالي والدرجة ٣ من العرض الجنوبي) ولم يعرف شكلها العمومي ببعض تحقيق وضبط الا من زمن قريب وهي تشبه مربعا مستقيم الزوايا ويبلغ أعظم طول لها من الشمال الى الجنوب ٢٢٠ كيلومتراً وأعظم عرض لها من الشرق الى الغرب ٣٣٥ كيلومتراً تقريباً ويبلغ مسطحها ٨٣٣١٠ من الكيلومترات المربعة ويبلغ ارتفاعها عن سطح البحر ١٢٠٠ متر وهي أعلى من بحيرة البرت أدوارد بأزيد من ٢٠٠ متر ومن بحيرة البرت نيازرا بنحو ٥٠٠ متر فهي على ذلك أعلى بكثير من الاحواض الثلاثة الكبيرة التي يخزن فيها ماء النيل ويزيد محيطها عن ١٢٠٠ كيلومتر غير داخل في ذلك ما يجاورها من التفائع التي لا تحصى واهمية هذه البحيرة ليست فقط بالنسبة للسطح الذي تشغله بل بسبب عمقها أيضاً لانهم لما قاسوه لمعرفة قابليته للملاحة وجدوه قليلا في بعض الشواطىء وعميقاً جداً في داخلها فقد ذهب المسبار الى أزيد من ١٩٠ متراً بالقرب من ساحلها الشرقى وربما كانت أعمق من ذلك في وسطها قال اليزيه ريكلو اذا كان الحال كذلك كانت فكتوريا نيازرا اكثر البحيرات العذبة ماء اه

وجهاًها الشمالية الى شمالي الدرجة الاولى من العرض الجنوبي واقعة في منطقة النفوذ الانجليزي حسب الاتفاق الانجليزي الالماني الذي عقد في شهر يوليه سنة ١٨٩٠ وقسمها الجنوبي الى الجنوب من الدرجة الاولى واقع في منطقة النفوذ الالماني

وكل أمة من الأمم المجاورة لها تسمى هذه البحيرة باسم يخالف ما يسميه بها غيرها فالسواحلية سكان سواحل المحيط الهندي يسمونها بحر يايلال قال السائح اشتولمان^(١) ان الاهالي يسمونها نيازاققط وهو لفظ يطلقه الباتو من سكان افريقية الشرقية على كل ماء راكد وتسمى أيضاً أو كرىوه ولكنه لا يستعمل الآن بل كان يستعمل في الوقت الذي كانت فيه أعظم طريق للتجارة تمر بساحل البحيرة الجنوبي الشرقي القريبة منه جزيرة أو كرىوه إحدى جزر تلك البحيرة وإسنيك هو الذي اطلق عليها فكتوريا سنة ١٨٥٨ باسم ملكة الانجليز اذذاك وتكثر الجزائر على شواطئها خصوصاً الشواطئ الغربية والجنوبية الغربية أما وسطها فلا جزائر به

ومتى وقف الانسان على شواطئها شاهد بحراً عظيماً يملو شواطئه في الاراضي الالمانية صخور تسقط رأسية نحوه بحيث لا تترك بينها وبين الماء الا شريطاً ضيقاً تغطيه رمال ناصعة البياض بخلاف شواطئه بيلاد أوغنده فانها عريضة تغطيها غابات أما شواطئ الخليج الواقع بالجنوب الغربي المسمى بخليج امين باشا وهو الذي اكتشفه استانلي سنة ١٨٨٩ فانها منبسطة تماماً وتحيط بها نقائع يعلوها نبات البردى مما يجعل الدنو منها صعباً

وتختلف جزائرها عن بعضها اختلافاً بينا واكبرها جزيرة سسي وهي بالشمال الغربي ويبلغ مسطحها ٢٤١٢ من الكيلومترات المربعة ويتلوها في

الكبر جزيرة او كريبوه التي سميت البحيرة باسمها وهي بالجنوب الشرقي منها كما سبق ويبلغ مسطحها نحو ١١٩٠ من الكيلومترات المربعة

ويثور بها من فبراير الى مايو ومن سبتمبر الى نوفمبر في الغالب زوابع وعواصف قوية وترتفع أمواجها جداً حتى يبلغ طول الموجة الواحدة منها من عشرة أمتار الى عشرين متراً وتندفق المياه على شواطئها وتفيض عليها بقوة تجعل الملاحة خطيرة في الغالب ويحصل ذلك في كل يوم ثم يهدأ الحال قليلاً بعد الظهيرة ويهب على سواحلها في المساء نسيم يأتي منها وفي الصباح نسيم يأتي من البر وهذا يقطع النظر عن التغيرات التي تحصل في سطحها في فصلي الامطار والجفاف يظهر ان الحال بها كما هو في كل بحيرات افريقية الوسطى أي أنه يصيبها تغيرات من أزمنة قديمة العهد جداً يؤيد ذلك رواية الاهالي وأقوال المبشرين الذين لانها كلها تنفق في أن مياه هذه البحيرة آخذة في الانخفاض حتى أن الكثير من سواحلها أصبح الآن جافاً وكذا الكثير من صخورها صار الآن ظاهراً وكان الماء يغمره قديماً ولا يمكن أن يكون سبب هذا الانخفاض في مياهها انخفاض في قاعها لأن تكوين صخورها لا يسمح بحصول هذه النظرية كما يقول علماء الجيولوجيا بل ربما كان ذلك آت من قلة مقدار الامطار السنوية التي لا يمكن أن تنسب فقط لقطع الاشجار الذي يزداد امره كل سنة هناك ولكنه ينسب بالاحرى وعلى الخصوص للتغيرات الجوية القديمة العهد والتي يظهر

من دلائل كثيرة انها طوربة هناك كما ايد ذلك البروفسور بروكنر^(١) أحد
أساتذة جامعة برن وقد اتحدت أقوال الاهالي الساكنين عند بحيرات
فكتوريا والبرت والبرت ادوارد في القول بالزيادات والانخفاضات التعاقبية التي
تحصل في مياهها وزيادة على هذه التغيرات الطورية القديمة العهد فانه يحصل
بها أيضاً انخفاض متعاقب ومستمر لان السطح الذي كانت تشغله كان
اعلى بلا شك في العصور السابقة مما كان عليه سنة ١٨٧٨ وهي السنة التي شاهدوا
فيها ان مياهها وصلت الى اعلى ارتفاع ويؤيد ذلك القواقع الطوفانية التي
وجدت في الخلجان وفي مجاري الانهر

وبحيرة فكتوريا وان كانت واقعة تحت خط الاستواء الا ان مناخ
جهاها ليس بمناخ المنطقة الحارة وسبب ذلك ارتفاعها عن سطح البحر
ووجود التيارات الجوية التي تجري هناك بلا عائق وكما تشاء والنباتات التي
تسبب نزول الامطار كل ذلك يجعل مناخها معتدلاً والرياح المتسلطة في جهاها
تهب من الجنوب الغربي والجنوب وبسبب تلاقي هذه الرياح الجنوبية
بالرياح التي تهب من الشمال والشمال الغربي تحدث تلك الزوايع والاعاصير
التي سبق الكلام عليها ولا يخلو شهر من شهور السنة من سقوط الامطار
في جهاها ومع ذلك فان شهر يوليه شهر جفاف نسبي واغزر الامطار واشدها
يكون من سبتمبر الى نوفمبر ويتلو ذلك ابريل ومايو

وماء هذه البحيرة عذب جداً صاف كأنه البلور وهي كثيرة السمك
وينبت في خلجانها الساكنة النيلوفر والقصب الفارسي وغيرها من النباتات
المائية وبالجنوب والغرب منها مستنقعات وبطائح واسعة مغطاة بنبات البردي
وشواطئها كثيرة الأشجار والنباتات والاعشاب إلا ما كان منها في
الأراضي الألمانية كما تقدم وذلك من أكبر الأسباب في عدم تأسيس محطة
للملاحة بها لأن أخشاب الوقود هناك غير كافية إلا في جزيرة أوكريوه
أما من جهة الحيوانات فإن الزرافة والأرقط أو حمار الوحش والغزلان
الكبيرة والأسد والنعامة وكلها من الحيوانات التي تكثر بسهولة أفريقية الشرقية
لا وجود لها تقريباً غربي تلك البحيرة بل الحيوانات الموجودة هناك هي حيوانات
الغابات الغنية بأفريقية الغربية مثل البنا الأزرق والقرد ذو الالف البيضاء
والشمبانزي ويسبح في مياهها فرس النهر والتمساح وتكثر في أطرافها جزائرها
الطيور الصيادة ومنها أيضاً القهد والضبع وابن آوى والقط البري
والسنجاب وغيرها

ويعلم من أقوال المكتشفين والمرسلين الدينين أن جهات بحيرة
فكتوريا نازا من أكثر جهات أفريقية سكاناً وأغلبهم من أصل الباتو
ويتكلمون لغة جميلة سهلة غنية وبهذه البحيرة عدة سفن لأهالي وتجار العرب
من أهل زنبار ولأوروبيين وتشير بها الآن أيضاً عدة سفن بخارية وهذه
السفن لا توجد فيها الآن قط بل بكل البحيرات الكبيرة الأخرى بأفريقية

مثل نياسا وتنجانيقا ومع ذلك فالملاحه لا تأتي بالفائدة المطلوبة ولا يتسع نطاقها في بحيرة فكتوريا الا متى أصبحت المواصلات بينها وبين الساحل أسهل مما هي الآن وبحيرة فكتوريا وان كانت تمدنهر النيل الا انه يمدّها هي أيضاً نهيرات كثيرة مثل نهر سيميو من الجنوب وكاجيرا من الجنوب الغربي وفي كاجيرا هذا تنصب مياه بحيرة الكسندره التي لا تزال المعلومات عنها قليلة هذا وبحيرة فكتوريا نيازنا اكبر مستودع تخزن فيه مياه النيل كما هو معلوم

(و) - بحيرة تنجانيقا - هي بحيرة عظيمة في افريقية الجنوبية الشرقية على نحو ١٠٠٠ كيلومتر من بحر الهند وشاطئها الشرقي تابع لالمانيا والغربي تابع للمملكة الكنفو البلجيكية والجنوبي تابع لانجلترا وهي مستطيلة الشكل ويبلغ طولها ٦٣٠ كيلومتر ويختلف عرضها بين ١٦ كيلومتر و ٩٠ كيلومتر ويقدر من مسطحها بنحو ٣١٤٥٠ من الكيلومترات المربعة وهي على ارتفاع نحو ٨٠٠ متر من سطح البحر أمامتها فلم يتعين كله لأن تماماً قال استانلى انه أزيد من ٦٠٠ متر في الجنوب منها وقال غيره انه ٦٤٧ متراً وماؤها ملح قليلا ومعنى تنجانيقا اجتماع المياه كما قاله برتن وقال كرون^(١) ان معناه مكان الاختلاط وهي بحد بحيرة بايكال

(١) V. L. Cameron ملاح و سياح انجليزي ولد سنة ١٨٤٤ ساح بافريقية

واخترقها من جانب الى آخر ثم عاد الى البحرية الانجليزية ثانية وله كتاب شهير عنوانه

التي بسببها أطول البحيرات العذبة في الدنيا ويحيط بها جبال يزيد ارتفاع بعضها عن التي متر ويصب فيها أكثر من مائة نهر تنحدر مما يجاورها من الجبال بها شلالات وجنادل كثيرة وفصول الامطار بجها تنجافا تختلف كثيرا بحسب السنين ويختلف بالتبعية لذلك سطحها ومسطحها

وتؤيد الظواهر ان الغور الذي تشغله هذه البحيرة حادث من فعل البراكين والزلازل قال بذلك المكتشف برتن وهو أول من وصل اليها من الاوربيين والزلازل هناك كثيرة شديدة فقد حدث في أغسطس سنة ١٨٨٠ بجهاها زلزلة شديدة جداً نشأ عنها حدوث شق كبير في الارض طوله عدة كيلومترات وحدث مثل ذلك أيضا سنة ١٨٨٧ والزوابع وان كانت قليلة الحصول في هذه البحيرة الا انه تهب بها رياح شديدة تنحدر من الجبال الشرقية فيثور منها الماء ويرغى ويزبد وعند تغير فصول السنة تعظم الرياح ويتساقط المطر والبرد بشدة حتى تصير الملاحة فيها خطرة للغاية واكثر الاشهر حرارة هناك نوفمبر وفبراير وأشد الاشهر بردا شهر يولييه ويمكن تقسيم السنة هناك الى قسمين متساويين فصل الامطار ويتبدى في نحو أواخر اكتوبر وامطاره غزيرة ويبقى حتى شهر مايو وفصل الجفاف

(طريقا في المستقبل الى الهند) تكلم فيه على الطريق الحديدي التي يجب على انجاره مدها لتصل برأ مع مستعمرتها الكيرة الاسيوبة واستنتج من آراء كثيرة أن أفيد طريق لبلاده هي الطريق التي تمر بطرابلس وحلب ووادي الدجلة وبغداد وبلاد العجم

ويشهي في اكتوبر

وشواطئها منطاة بالنباتات الاستوائية الكثيرة وجبالها جميلة المنظر جداً والملاحة فيها في الاوقات الموافقة سهلة لقلة الصخور والاعماق المتغيرة ومناخها على العموم أحسن وأصح من مناخ جهات الساحل المسامتة لها ويكثر بها السمك جداً وسواحلها خصبة يزرع فيها الارز والحنطة والقول السوداني والذرة والبطاطا وقصب السكر والقطن والخيار وغيرها وينبت بها أيضاً نخيل الزيت ويسكن شواطئها أقوام من السودان والزلولو والايوبيين وغيرهم من الامم الحرية التي تنزل الجهات الغربية من فكتوريا نيازا وتراكم هذه الاقوام على سواحلها ساعد كثيراً على ترقى الصناعة والتجارة ولولا تجارة الرقيق التي قلت من سكانها وما تنفشى بينهم من الامراض المختلفة لكان التقدم فيها اظهر مما هو فيها الآن

واعلم ان اكتشاف البحيرات العظمى بافريقية ومعرفة أحوالها حصل من الجهات الشرقية على الخصوص ونتج من هذه السياحات حل مسألة منابع النيل التي كان العلماء يهتمون بها منذ الازمنة القديمة

هذا وكان العرب والبرتغاليون من بعدم يعرفون هذه البحيرة الا ان الدلائل والاقوال التي كانوا يذكرونها عنها (في القرون الاخيرة) كانت لا تميز بينها وبين بحيرتي نياسا ونيازا وتجعلها كلها تمتد من الشمال الي الجنوب كالبحر الواحد على اكثر من ثلاثة عشر درجة أرضية وبقي الحال

على ذلك الى أن سافر أخيراً في سنة ١٨٥٧ ضابطان انجليزيان من جيش الهند هما اسبك وبرتن وبعد أن قاسيا احوالا ومتاعب جمة وصلوا الى بلدة طابوره ثم الى أوجيجي التي على شاطئ البحيرة المذكورة ومن هذا الوقت تردد عليها كثير من المكتشفين وكان لفتجستون يظن ان مياهها تجري نحو النيل ولكنه في سياحته التي قام بها مع استانلي (١٨٧١) (حينما لحق به في بلدة أوجيجي) عاد فأكد ان هذه البحيرة مقفلة من جهاتها الشمالية لأن نهر رؤسزي الذي كان ظن انه يصب في النيل يمدّها في الحقيقة وبعد ذلك بقليل اتم السائح كرون المتقدم الذكر السياحة حولها واكتشف منصبها الحقيقي (١٨٧٣) وهو نهر لوكوجا الذي يحمل الى الكنفو ما زاد من مياهها ثم ان استانلي زار في سنة (١٨٧٥) كل سواحل هذه البحيرة في سياحته الثانية بأفريقية

وتكثر على سواحل هذه البحيرة تلك الذبابة المؤذية المسماة تسي تسي وضرتها للماشية عظيم جداً وهي تنتشر على الخصوص من أول أوجيجي وحول الشاطئ الجنوبي بأجمه حتى الشاطئ الغربي وجهات هذه البحيرة وان كانت مقسومة كما قلناه بين الدول الاوربية الثلاث المارة الذكر الا أن نفوذ العرب لا يزال هناك عظيماً وأعظم اما كن لاستيطانهم هناك بلدنا أوجيجي وكيرنذه على الشاطئ الشرقي منها

وقد وجد بعض المكتشفين حديثاً (١٨٩٨) ان حيواناتها هي حيوانات المياه الملحة وحيوانات المياه العذبة معاً وقد اختلفوا في تعليل ذلك كثيراً الا

أن المقبول منها هو قول العالم الطبيعي الإنجليزي مستر مور (Moore) قال ان هذه البحيرة محصورة بين جبال جيرية قديمة متراكمة على صخور فطحية^(١) وهي عبارة عن غور جسيم طوله نحو ٦٠٠ كيلومتر في عرض نحو مائة كيلومتر ويظهر انه كان بلا شك حوضاً حدث من انخساف أرضي وان هذا الغور الذي تكوّن منذ العصر الثاني الجيولوجي لم يعوض بحوض آخر منذ ذلك العهد فيحتل حيثئذ كثيراً أن المياه بقيت به على الدوام مدة العصر الثاني والثالث فكان لنا بذلك بحر حقيقي تكون منذ العصر الجيولوجي الثاني ووجدت فيه حيوانات ذلك العصر اهـ

(ز) - بحيرة نجامي - هي بحيرة بأفريقية الجنوبية وتشغل وهددة واسعة واليها تنصب كل النهرات الموقفة التي تجري هناك في زمن الامطار وأعظم طول لهذه البحيرة من الشرق الى الشمال الشرقي نحو ١٥ كيلومتر وعرضها من الغرب الى الجنوب الغربي نحو ١٦ كيلومتر ومسطحها آخذ في الصغر مما يدل على انها ستزول بعد زمن بسبب ارتفاع قاعها كما ظنه السائح فاريني (١٨٨٥) أو بسبب جفاف مجاري المياه بأفريقية الجنوبية كما قال لثنجستون

وقد اكتشف لثنجستون هذه البحيرة سنة ١٨٤٩ هذا ويرى من التواريخ المذكورة في الكلام على بحيرات افريقية ان المعلومات الحقيقية على جهاتها

(١) الفطحل دهر لم يخلق فيه الناس بعد أو زمن نوح وسئل ابو عبيدة عنه فقال

الاعراب قول هو زمن كانت الحجارة فيه رطبة

فما اختص بالجغرافيا الطبيعية بأفريقية كلها حديثة العهد بالنسبة للجهات
الآخرى منها

رابعا — ومما تشتمله قارة افريقية أيضاً أربعة عشر صقماً طبيعياً ولا
يخفى أنه من الصعب جداً تحديد جهات هذه القارة وحصرها في عدد معين
جهاها الطبيعية المختلفة والأربعة عشر صقماً المذكورة هي الآتية

جهات اطلس وجهات الصحراء الكبرى وجهات ديوليا وجهات
بحيرة شاد وجهات سنغاليا وجهات كنف (بلاد غانا) وجهات النيل السفلي
(بلاد مصر) وجهات نجد الحبشة وجهات السومال وجهات خط الاستواء
العليا وجهات الكنفو وجهات الكاب والجهات الشرقية الجنوبية والجهات
الجنوبية العليا

خامساً — أما الجزائر التي تحيط بهذه القارة فأشهرها ما كان بالقرب
منها وبالحيط الاطلسي مثل جزائر قناريا وجزائر الرأس الاخضر وجزائر
آسوره وجزائر ماديره والى الجنوب من ذلك جزائر أخرى متشورة في دراستها
كلها فوائد كثيرة ومواد غزيرة للطبيعي والمؤلف والجغرافي ثم في جهة الشرق
وفي بحر الهند جزيرة مدغشقر العظيمة وجزيرتا الاجتماع ومورتوس ثم
جزيرة سقطري وغيرها وقد رأينا ان الاوفق شرح أحوال هذه الجزائر بمد
الانتهاء من دراسة جغرافيا قارة افريقية

مناخ افريقية في جهاتها المختلفة — الامطار — لما كانت افريقية

يقسمها خط الاستواء الى قسمين متساويين تقريباً وكان معظمها واحداً بين المدارين كان مناخها في مجموعة مداريا أي حار جداً رطب جداً مما إلا ان هذا الوصف العمومي يختلف حتماً بسبب الاحوال الآتية وهي (١) وضع جهاتها المختلفة بالنسبة لخط الاستواء ولشكل أراضي تلك الجهات الخارجي واثره في تنوع المناخ أشد من السبب الاول (٢) وبمتوسط الارتفاع قلة أو كثرة عن سطح البحر (٣) وبحالة أراضيها الجغرافية (٤) ثم بالفرق بين تعرض جهاتها للرياح المنتظمة أو الموسمية التي تهب في المنطقتين المداريتين ولما كانت المنطقة الوسطى بها وعرضها نحو ١٥ درجة يقسمها خط الاستواء الى قسمين كانت منطقة أمطار طوفانية مستمرة تقريباً مدة تسعة أو عشرة أشهر من السنة كما يؤيد ذلك أقوال السياحين الذين جاؤا بجهاتها وفي طرفي هذه المنطقة الوسطى شمالاً حتى الموازي ١٦ أو ١٧ وجنوباً حتى الموازي ٢٠ تمتد منطقة الامطار الصيفية المزدوجة ولما كان سقوط الامطار المذكورة يختلف فقط بحسب العوارض المحلية كانت تابعة على العموم لنفس سير الشمس فتي كانت في سمت الرأس تصاعدت بحرارتها البخرة جسيمة ثم تعود تلك البخرة فتسقط أمطاراً غزيرة وهكذا على الدوام ويصحب سقوطها صواعق ورعد وبرق وأعاصير شديدة حتى يكون وجه الشبه بينها وبين ما يحصل منها في المنطقة المعتدلة ضعيفاً جداً وفصل الامطار جنوبي خط الاستواء يكون من سبتمبر الى مايو أما في شماله فن ابريل الى اكتوبر ودائرة

الامطار الصيفية شمالي خط الاستواء تشمل بلاد الحبشة وجهات النيل الاعلى وكل بلاد السودان وسنغيبيا أما في جنوبه فلها تشمل بلاد الكنفو وحوض نهر زمبزي وساحل موزمبيق وبلاد زنجبار وغيرها هذا والى ما بعد هاتين المنطقتين المداريتين منطقتا أمطار شتوية يشبهان في أمطارهما أمطار أوروبا وهما عبارة عن طرفي القارة المذكورة ففي الجنوب بلاد هنتوت ومستعمرة الرأس وفي الشمال جهات أطلس ويتبعها جغرافياً بلاد الصحراء الكبرى ولكنها لما كانت قلحة الاراضي وكان تشع الحرارة بها مستمراً على الدوام تلاشت السحب التي تسوقها الرياح الى هناك قبل أن تستحيل الى مطر واعلم أن الامطار المدارية ذات شأن مهم بقارة افريقية فهي التي تغذي أنهارها الكبيرة بسقوطها الدوري وتعين أوقات فيضاناتها المنتظمة .

هذا ومن المسائل المهمة بأفريقيه مسألة المياه وذلك بالنسبة لسكنى الانسان وصحته لان الفرق بين أصقاعها المختلفة يكون أقل حصولاً وتحقيقاً بنسبة مجاورة المكان لخط الاستواء أو لبعده عنه أكثر من كون المكان جبلياً أو غير جبلي أو بسبب ارتفاعه قليلاً أو كثيراً عن سطح البحر وقد ظنوا عكس ذلك قديماً كل هذا فيما عدا الصقعين الكبيرين اللذين صيرهما علم وجود الماء خصوصاً غير قابلين للسكنى وهما الصحراء الكبرى شمالاً وقفار كلاً هاري جنوباً ثم ان الجهات المنخفضة القريبة من السواحل خصوصاً دلتات الأنهر العظيمة كدلتات ديوليا وزمبزي مثلاً وهي التي تغمرها المياه مدة قسم من

السنة وتنظيمها المستنقعات والبطائح كلها مصدر مستمر للابحرة المفنة كما هي مأوى للزواحف البشعة الخلق والحشرات المؤذية ومناخ هذه الجهات قاتل للجانب حتى ان الاهالي أنفسهم لا ينجون من تأثير هوائها المشبع بجراثيم الاوبئة والطواعين أما المناطق العالية فهي على العكس من ذلك مثل أقاليم الكنفو ونجود بلاد الكاب والكثير من الاصقاع الشرقية والبلاد المرتفعة في سنغما والاودية الداخلية بجهات اطلس وغيرها فإن مناخها كلها يختلف اختلافاً تدريجياً متسلسلاً من أول السهول المحرقة الواقعة على ساحل البحر حتى المناخات المعتدلة بأوروبا الجنوبية ومناخ بعض البلاد الجبلية كبلاد الحبشة على الخصوص وكذا الاودية العالية بجهات اطلس يكون احياناً كمناخ جهات الالب وجهات أوروبا الشمالية هذا وأحسن المناخات والطفها بأفريقيه مناخ نجدتها الجنوبي الواقع بين زنجبار والكنفو وقد صادف كل من برتن واسبك بالسهول العالية من أفريقيه الجنوبية بلاداً تشبه أغنى جهات تسانه ولبنارديا بحيث لا ينقصها الا اليد العاملة لتدر لبناً وعسلاً والسبب في صيرورة هذه السهول كذلك ارتفاعها عن سطح البحر بالغم عن موقعها المداري

الحاصلات الطبيعية — النباتات — اعلم انه من الممكن اعتبار ساحل أفريقيه الشمالي وكل جهات اطلس كأنها منطقة انتقال وتحول تمتزج فيها نباتات أوروبا الجنوبية ونباتات أفريقيه المدارية بالنباتات الخاصة بتلك الجهات وأكبر قسم من نباتات أفريقيه الشمالية يوجد ايضا في البلاد

الآخري الواقعة حول بحر الروم وتغلب فيها النباتات الحشيشية والنباتات التي تبقى زمناً طويلاً (الحولية) على النباتات السنوية فمما يكثر بها جداً أشجار الرمان والزيتون والتخيل ومما يجعل لنباتات تلك البلاد ميزة خاصة وجود فصيلة أشجار اللادن التي يحجبها الرعاة كثيراً ومنها أيضاً أشجار السندروس وهو خاص بالسفح الشمالي من جبال اطلس وبلاد برقه ولاندماج أخشابها كان من أحسن الأخشاب موافقة للتجارة وقد استعمله العرب كثيراً ونبت بجبهات اطلس أيضاً نحو ثمانية أنواع من البلوط وأنواع مختلفة من الصنوبر وقد ادخلوا ببلاد الجزائر زراعة القطن كما ادخلوا أيضاً بها أوكلبتوس أستراليا وقد نجحوا في كل ذلك نجاحاً كبيراً أما من خصوص زراعة الحبوب فيعلم من التاريخ الدرجة العظيمة من النجاح التي وصلت اليه بأقاليم أفريقيا الرومانية وكانت معتبرة كأحد امراء إيطاليا قديماً كما سيأتي بيانه

واعلم ان من المميزات الكبيرة التي تمتاز بها أفريقيا خصوصتها البالغة الدرجة القصوى بجبهات تجاور فيها القعولة القصوى وقد اشتهرت بذلك من أزمنة متطاولة وتشتهر الجبهات التي تحد المنحدرات الجنوبية بجبهات اطلس بكثرة التخيل وهو بها غابات كبيرة ومن أحسن وسائل المعيشة لسكان تلك الجبهات الان الارض تتميز عقب ذلك طبيعةً ومناخاً وذلك لانه بمجرد ما يجاوز الانسان البلاد المتوسطة بين واحات بلاد الجزائر والسبخات والمستفدرات التي تصب فيها أغلب الجداول المؤقتة المنحدرة من الجبال هناك يزداد الجفاف

جداً الدرجة أنه يستحيل أن تنبت هناك شجرة أصلاً فلا يعود الانسان يصادف الاشجيرات قصيرة القد حيث ينباع التي أوجدها الطبيعة بالصدفة مما يساعد على نمو بعض النباتات الضئيلة ومع كل هذا فان للار يصادف في بعض أماكنها أراض واسعة تغطيها حشائش برية مما تغذى بها الجمال ومتى سقط المطر على قاته وبلل تلك القيا في المحرقة ظهر منظر مدهش وهو السرعة المتناهية التي تكنسي بها الارض ببساط من الخضرة الرائقة مع انها كانت قبل قليل قاحلة عارية ومما لا يقل عن ذلك غرابة ولا ينقص عنه حيرة ما يصادفه المسافر من النباتات الجميلة بعض الواحات المثورة وسط رمال الصحراء الكبرى حيث ينباع القوة التي تروي بمياهها وسواها الجارية الاودية الكثيرة الخصب الواقعة بين بعض جبالها لهذا أطلق مسيو برت ورفقاؤه في السباحة على واحة اسبين الكبرى الواقعة بين غات وبلاد السودان اسم سويسره الصحراء

والنباتات العادية ببلاد مصر هي الاقاقيا والسدر والتمر هندي والنيوفر والنخيل وهو كثير جداً وكذا الدوم وغيرها وينطبق على مصر بالنسبة للحبوب صفة الخصوبة المتناهية مما قلناه بالاقاليم الرومانية الافريقية أما السكرم فإنه وان كان نقص جداً بسبب القحح الاسلامي الا انه لا يزال له بعض الاهمية أما نباتات أفريقيه المدارية الغريبة فالمعروف منها جيداً ما كان بالبلاد الواقعة على ساحل البحر وقد شاهد العلماء بينها وبين نباتات بلاد الهند بعض

التجانس ويظهر هذا التجانس بينها هي أيضاً على مسافة طويلة من الشاطئ من أول سنغال حتى نهر الزاير فاشجار البأ وباب المشهورة بمجسامتها العظيمة وخصخامتها الفاتكة عمومية بكل بلاد غانه وفي كل الجهات الاخرى من أفريقية حيث تشتد الحرارة وتكثر الرطوبة المساعدة على نمو تلك النباتات وبسببها تسمى الرأس الاخضر أخضراً لأنها تتوج هامته وبدلت الانهار والنهيرات بها أشجار كثيرة متشابهة متكاثفة من الجميز الهندي الا ان الروائح القتالة المتصاعدة من هذه الاراضي المنقطاة بالمياه تجعل الاقتراب منها غير ممكن لكل نباتي مهما كان جريئاً وينبت بالجهات الشديدة الحرارة من أفريقية أيضاً نباتات خاصة بها تشبه ما ينبت منها بجزر أتنيله مثل شجرة الزبدلان لها يشبه الزبد وهي في جهات مختلفة من أفريقية المدارية وشجرة الخبز وتثبت في سنغامبيا وتسمى موسنجا وهي تشبه ما ينبت منها ببلاد بولينزيا وهي من الفصيلة الانجيرية وثمرها يشبه البندق في طعمه أما النخيل هناك فقليل (وهو غير نخيل التمر) وقاصر على بعض الاماكن مثل نخيل الزيت الذي لا ينبت الا بمجوار السواحل وهذا النوع الجميل من النخيل وان كان ينبت على كل السواحل الشرقية من أفريقية الجنوبية الا انه اقل أنواعاً هناك عنه في الجهات المدارية من القارات الاخرى وتكثر أشجار الصمغ على شواطئ نهر سنغال وبجهات النيل العليا وقد اشتهرت بلاد السومال بأشجارها العطرية من القديم

هذا والمنحدران المتقابلان من نجد افريقية الجنوبية يتشابهان في حاصلاتهما النباتية مشابهة كبيرة وذلك لان وضعهما الجغرافي من ان كليهما يكون ربوات ومساطب يتلوا بعضها بعضاً يجعل نباتاتهما مشابهة لنباتات المنطقة الحارة ونباتات الجهات المعتدلة ولم يكن يعلم شيء عن نباتات المناطق العالية بالنجد المذكور قبل سياحات لفنجستون وبرتن واسبك وقد أشرنا فيما سبق الى كم يكون مقدار حاصلات هذه الجهات الداخلية عظيماً متى اُصلح فيها أمر الزراعة وكيف انها تساعد بحاصلاتها على اكثار الثروة الارضية فمن نباتاتها الكثيرة قصب السكر والبن والقطن وتمتد البلاد التي ينبت بها القطن البري هناك حتى الموازي ١٩ تقريباً وقد أصبح القطن الآن كما لا يخفى من النباتات النفيسة الضرورية للصناعة بأوروبا وهو من النباتات الاصلية بكل بلاد السودان هذا أما نباتات بلاد الكاب مما ينبت على ربوات جبال كوروس من أول سواحل البحر حتى جبال نيروولد فانها بأفريقية مخالفة تماماً لما ينبت منها في غيرها وكثيرة الانواع وانواعها وافرة جداً

الحيوانات - قال بعض العلماء لما كانت الجهات المختلفة بأفريقية توصف بالنهاية القصوى في القحولة والرطوبة كان لذلك أثر كبير في طبيعة حيواناتها وكيفية توزيعها ولما كان قسم عظيم من القارة المذكورة يتركب من سهول قاحلة بالمرّة أو لا يغطيها الا نباتات وقية تسقيها جداول لا تجري الا في وقت معلوم من السنة فقط كانت ذوات الاربع السريعة السير التي أوجدها الله لتعيش

في السهول الجافة أكثر بكثير يلاذ أفريقية من الحيوانات التي تحتاج لماء غزير وعشب وفير وتوجد هذه الحيوانات على الخصوص بالسواحل الواقعة بين المدارين وعلى الاخص في المقاصب الواسعة والغابات الكبيرة مما يكون على ساحل الانهار والنقائع وقد وجدوا منها هناك أنواعاً وأجناساً كثيرة مما لا يوجد في غيرها واعلم ان حيوانات أفريقية تختلف عن حيوانات بقية أقسام الدنيا لمناسبات عديدة منها ان ذوات الاربع بها وان كان الكثير منها معروفاً في بلاد أخرى الا ان بها منها نحو ٢٥٠ نوعاً على الأقل لا توجد الا بها فقط ومنها ان الكثير من هذه الحيوانات خصوصاً الاجناس الكبيرة موزع بلا أقل تنوع في اشكالها على كل جهات النجد الممتد من بلاد الرأس الى بلاد الحبشة من جهة وحتى بلاد سنغال من الجهة الاخرى وأن وجد فيها تنوع فتتوزع خفيف في شكل جلودها وقودها فقط أما الحيوانات المجترة فكبيرة جداً ومع ذلك فان الناس لم يستأنسوا منها الا القليل ومن أشهرها ثور الحبشة وثور برنو وهو كبير الجسم جداً ويصل محيط قرنه عند جزعه الى قدمين ويبلغ طول قرن ثور بلاد النلا أربعة أقدام وقد يكون خمسة أقدام في ثور بلاد كورومان من أراضي بلاد الرأس والاختلافات كثيرة في جواميس أفريقية فجاموس الكاب كبير الجسم ويشتهر بوحشيته المخوفة وهو يمرح في قطعان عديدة بكل أفريقية الجنوبية وكثيراً ما يكون للحمه رائحة المسك أما الضأن والمز بأفريقية وأنواعها كثيرة بها فتختلف عن

الموجود منها بالبلاد الاخرى وكلها خشنة الصوف ما عدا مرينوس اطلس الذي يقال ان المغاربة هم الذين جلبوه من اسبانيا الى هناك اه

وليس ببلاد الارض بلاد بها ما يشبه الزرافة من الحيوانات المجترة ويوجد الزراف بأفريقية من أول شواطئ نهر غريب الشمالية حتى الصحراء الكبرى ويوجد أيضاً في دنقله والجبهة وهو حيوان هبوب وديع وقليل ما يرى مجتمعاً في قطان كبيرة وصورة هذا الحيوان مرسومة على الاطلال المصرية القديمة ويمكن القول بأن افريقية هي بلاد الوعل لانه يوجد في كل اجزائها (وهو يقوم بها مقام غزال أوروبا وآسيا وأمريكا) ويسكن أغلبه السهول المكشوفة ويعيش بعضه في الغابات وقد وجدوا بها منه نحو ٦٠ نوعاً منها نحو ٢٦ نوعاً شمال مستعمرة الرأس وما جاورها من الجهات ومنه وعل قصير صغير لا يزيد حجمه عن حجم الارنب ومنه ما يبلغ حجمه حجم الثور والحصان وتنطبق على كل أنواعه صفة واحدة هي الخوف فهو يخاف من أقل شيء وغالب أجناسه تسير قطعاناً كثيرة متكاثرة متلاصقة ببعضها وقد شوهدت أحياناً في سيرها تغطي وادياً بتمامه طوله نحو ١٠ كيلومترات في عرض خمسة كيلومترات

وبأفريقية نوعان اثنان من الظباء يسكن كلاهما جبال اطلس أحدهما هو النزال أى الظبي المعروف بأورباو بأفريقية أيضاً اثنان وثلاثون نوعاً من الحيوانات القراضة وكلها تعيش بالسهول وكثير منها من الحيوانات القفازة مثل ربوع

بلاد الرأس هذا أما السنجاب فإنه قليل بنسبة الحيوانات الاخرى
 وبأفريقية الجنوبية ثلاثة أنواع من الخيل أحدها الارقط وهو يرح
 قطعانا في سهولها وكثيراً ما يشاهد مع النعام ويسميه أغلب أهل افريقية
 وكذا العرب بالحمار الوحشي وبنجد افريقية الجنوبية أربعة أنواع من
 الكركدن أي الخريت اثنان يضاوان ومثلها سوداوان وقد شاهد
 الكبتن أسبك بالنجد المذكور الكركدن ذا القرن الواحد فقط وكانوا
 يشكون من قبل في وجوده بأفريقية والكركدن ذو القرنين يختلف بها
 عن الموجود منه بآسيا وهو يعيش أيضاً في غابات جهات النيل العليا وعلى
 حدود بلاد الحبشة الشمالية أما فرس النهر فهو وان كان من الحيوانات الخاصة
 بأفريقية الا أنه لا يوجد بمصر الأنهار الكبيرة بمجآتها الاستوائية والتمساح
 الذي كان يظن قديماً أنه خاص بالنيل موجود بكل أنهارها العظيمة وحتى في
 بحيراتها الكبيرة الداخلية وفيل أفريقية يخالف في الجنس الموجود منه بآسيا
 وهو بكل البلاد الواقعة بين المدارين تقريباً ولدى العلماء دلائل تثبت أنه
 كان يعيش سابقاً في غابات جبال اطلس وقد شاهد الكبتن أسبك في
 النجد الواقع الى الجنوب من بحيرة نياسا فيلّة كبيرة الحجم جداً حتى أنه
 يظن أن نابي الواحد منها يزنان خمسمائة رطل على الاقل ولم يتمكنوا في كل
 بلاد افريقية من جعل الفيل أليفاً أنيساً وبأفريقية أيضاً من ذوات الجلد الثخين
 غير ما ذكر أنواع كثيرة من الخنازير البرية أي الحلايف

وتوجد القردة بكل بلاد افريقية تقريباً ومنها نوع يشبه رأسه رأس الكلب وهو كبير الحجم قوي مؤذ ومنها نوع ينسب لسواحل غانه وآخر عام في كل جهاتها الشمالية ويعرف بقرد البربر وبالجمبات الاستوائية الساحلية الغربية نوع لا ذنب له أما النوع المعروف بالشيمبانزي القريب في الشكل جداً من الانسان فإنه يسكن غابات افريقية الغربية من أول نهر غمبيا حتى رأس نجر و هو من غير شك القرد الذي ذكره هـنُونُ باسم غُورٍ لا وكان شاهده في جهات سِيْرَاليون الحالية وان كان النور لا يطلق الآن على نوع آخر اكبر منه وأكثر وحشية يسكن غابات بلاد غابون

والفصيلة المهرية الافريقية جميلة جداً وتحتها أنواع كثيرة فالاساد والنمور والفهود كثيرة بكل افريقية كذلك الثعالب والضباع وبنات آوى وكلب افريقية صغير الحجم على العموم هذا أما الجمل وهو الرقيق الذي لا بد منه للقبائل البدوية بافريقية الشمالية وعليه اتقل العرب طول زمن فتوحاتهم بافريقية في القرن السابع الميلادي فقد انتشر من ذلك الوقت بلا شك في حوض نهر النيل وبلاد الصحراء وجهات اطلس ولا وجود له على الآثار المصرية القديمة ومع ذلك فقد تحقق الآن انه كان معروفا لدى المغاربة وقت حربهم مع الوندال ويؤيد ذلك أن جميع أسمائه لدى التوارك أصلية محضة لا علاقة بينها وبين أسمائه في اللغة العربية أصلاً

والزواحف كثيرة جداً بافريقية بكل أشكالها واختلافاتها البشمة

وكذلك الحشرات وبعضها يكون عظيم الضرر للسياحين والاهالي كالتل
الايض والناموس والبعوض والذباب المسماة نسي نسي وهي حشرة مؤذية جداً
تقتل الحيوانات الداجنة وتنتشر من أول بلاد هنتوت حتى بلاد الحبشة
شمالاً وقسم كبير من طيور افريقه فريد في نوعه (في علم دراسة الطيور
العام) وان كان الكثير منها بالمنطقة الشمالية يشابه ما كان من أنواعه بأوروبا
والجنوب الغربي من آسيا هذا واعلم ان النعامة تسكن صحارى افريقه كما
تسكن القياقي الرملية بجزيرة العرب

المعادن - المعادن النفيسة بأفريقه كثيرة الوجود جداً في عدة جهات
من جهاتها ويستخرج سودان سنغيا العليا وجبال كنغ وكذا سكان فيض
أوغلي بجهة النيل العليا وأهالي عدة أقطار بأفريقه الجنوبية خصوصاً أهالي
بلاد سفالة على الساحل الشرقي التبر لكن بالطرق القديمة والتبر عند كل
هؤلاء الاقوام أحسن طرق المبادلة وقد درجوا على ذلك من أزمنة مضت
وقد اكتشفوا منذ عدة سنوات بالجهات الداخلية من نهر زمبيري مناجم
ذهب غنية كما اكتشفوا في جهات نهر قال مناجم أحجار الماس أما الحديد
والنحاس فيوجدان بعموم بلاد افريقه وكثير من قبائل السودان حتى
أكثرهم وحشية يستخرجون الحديد ويطرقونه ويصنعون منه أدوات مختلفة
ويستخرج الملح من عدة جهات بالصحراء الكبرى وتجارته عظيمة ببلاد
السودان ويستخرج أيضاً من المنحدرات الشرقية بنجد بلاد الحبشة

الاجناس البشرية بأفريقيه وتوزيع سكانها - اعلم ان الكثرة المطلقة بين سكان افريقيه ترجع الى جنسين أصليين ربما كانا الجنسين الاصليين بها وهما البربر والسودان ولكن لا بد من ادخال عناصر جديدة كثيرة في ترتيب سكانها الآن أولهم المهننتوت وهم جنس مستقل تماماً عن الجنس الاسود وفي الدركة الاخيرة بين سكان افريقيه بالنسبة لقواء العقيلة وموطنه الاصلي النهاية الجنوبية من افريقيه ولا ينقص مسطحه تقريباً عن ثلاثة أمثال فرنسا - ثانيهم العرب وهم في الاصل غرباء عن افريقيه ولكنهم أوجدوا لهم فيها عدة مواطن بالمنطقة الشرقية منذ الازمنة القابرة جداً وقد هاجر اليها منهم أيضاً منذ القرن السابع الميلادي عدة قبائل انتشرت كثيراً بنجاح اطلس والصحراء الكبرى حتى صاروا فيها أصحاب الغلبة والنفوذ - ثالثهم الاجناس أو الامم المختلفة التي تكونت مع الزمن أما بالاختلاط أو بالتراكم ونشأت من البربر والعرب أو من البربر والسودان أو غير ذلك ويضاف الى هؤلاء جالية أهل أوروبا من الترك والفرنسيين والاسبانيين واليطاليين والمالطيين والالمانيين والبرتغاليين والهولنديين والانجليز وكلهم أقل في العدد من العناصر المذكورة سابقاً وقد استوطنوا على الخصوص عدة جهات من الساحل ببلاد مصر وتونس وجزائر افريقيه وبلاد الجزائر ومراكش وسنغمية وبلاد الرأس وساحلي افريقيه الجنوبية ومن الاجناس النازلة بها أيضاً الملايو وقد نزلوها من زمن قديم غير معروف أوله وأقاموا بالجهات الشرقية من

مدغشقر على الخصوص هذا ولو نظرنا هذه العناصر المختلطة من سكان أفريقيا من قرب لكان تحديد بلادها كما يأتي على وجه التقريب

أولاً - البربر وهم من الامم البيضاء بالقارة القديمة ومواطنهم الحالية الزاوية الشمالية الغربية من قارة أفريقيا أي جهات اطلس وبالاقطار الوسطى والغربية من الصحراء بين اطلس وفزان وجهات ديوليا الوسطى وبلاد سنغال وساحل المحيط هذا هو موطنهم الحالي وان كان ليس بموطنهم الوحيد لان العرب يسكنونهم فيه كما يسكنهم جالية الفرنسيين ببلاد الجزائر الا أن هذه الاصقاع هي الجهات الوحيدة التي يكونون بها جنساً مستقلاً ظاهراً يعرف باسمه الاهلي أما موطنهم الاصلي الخاص بهم فانه قطر آخر وذلك لاننا اذا صعدنا الى القرون الاولى من التاريخ الميلادي رأينا قبائل البربر منتشرين على كل سواحل بحر الروم حتى حدود مصر واذا صعدنا في التاريخ الى ما قبل القرون الأولى المذكورة أي الى الازمنة القديمة لظهر لنا أن أقوال التوراة تتفق مع الدلائل العلمية التي تؤيدها المشابهات الواردة في علم دراسة طبائع الامم وأوصافها (انثروغرافيا) كما يؤيدها الآن دلائل كثيرة من تشابه الاسماء الملية فنعلم من كل ذلك أن سكان حوض النيل حتى جزيرة مروي على الاقل هم من هذا الجنس (بما في ذلك مصر) وكذا كل سواحل افريقية التي على البحر الاحمر ونجد بلاد الحبشة وكذا الاستطالة العظيمة الشرقية بأفريقية الممتدة في بحر الهند

والمنتهية برأس غاردفوى وقبائل الغلا الحاليين (واسمهم الحقيقي أومورما).
كلهم بلا شك وكذا السومال من هذا الجنس الاصلي ويدخل في ذلك
أيضاً الاقباط نسل قدماء المصريين متى كانوا خلصاً من كل اختلاط طراً
عليهم من الامم الذين أخضعوهم كالفرس والاغريق والروم والعرب والترك
وحاصل الكلام أن الجنس البربري الكبير كان قد انتشر قديماً على كل
جهات افريقيه الشمالية من أول خليج عدن حتى مضيق جبل طارق وجزائر قناريا
وكان له موطنان أصليان حوض نهر النيل وجهات اطلس وقد انتشر أيضاً
في كل واحات الصحراء (وسياًتي تفصيل ذلك عند الكلام على ممالك البربر)
ثانياً - الامم السوداء وهي تنزل جهات افريقية الواقعة بين المدايرين
على العموم تقريباً ولكن لا تصل اليهما ومع ذلك فالحدود الشمالية من
موطنهم تنتهي بنهر سنغال وبمجرى نهر ديوليا الاوسط وبحد الصحراء
الكبرى الجنوبي الذي يصل الى الموازي ١٦ تقريباً الا أن النهاية الشرقية
بالمنطقة الاستوائية الشمالية التي تشمل النوبة العليا وبلاد الحبشة وبلاد الغلا
وأرض السومال خارجة عن مواطن الامم السوداء المذكورة أي انها لا
تعد منها أما البلاد الخاصة بهم (بقطع النظر عن جاليات عديدة من البربر
والعرب) فهي بلاد التكرور وسنغميا وغانه وغابون وداخل افريقيه الجنوبية
حتى الموازي ٢٠ تقريباً ثم المنطقة الشرقية من النهاية الجنوبية الشرقية حتى
خط الاستواء تقريباً وبمايجب التنبيه اليه مع ذلك ان هذه الجهات الاخيرة

أي المنطقة الشرقية بأفريقيه الجنوبية يسكن معظمها أجناس اختلطت ببعضها بعضاً أكثر عدداً من السودانيين الخالص ولكنه بالنسبة لنقص المعلومات عن تلك الجهات الآن يصعب غالباً تبين الحدود الخاصة بكل من الطبقتين المذكورتين تعييناً واضحاً تاماً ومما يلاحظ أيضاً على العموم أنه وإن كانت جرت العادة بذكر سودان افريقيه كأنهم قسم واحد قائم بمفرده إلا أن الانواع العديدة التي يتركب منها الجنس الاسود المذكور بينها مع ذلك اختلافات كبيرة حتى في التركيب الطبيعي والسحنة وتنوع اللون (وسأني تفصيل على ذلك عند الكلام على السودان)

ثالثاً - الهوتنتوت ومواطنهم بعض مواطن السودان أي من أول الموازي ٢٠ تقريباً ويشغلون النصف الغربي من النهاية القصوى بأفريقيه ويسكن القسم الشرق منه أقوام من البنشوانا والكفره ولون جلود الهوتنتوت يميل الى الاسمر الرمادي أو الزيتوني لا الى الاسود وتقاطيع وجوههم تشبه تقاطيع أوجه الصينيين ولهم لغة خاصة بهم مما يحطهم شعوباً تختلف عن السودانيين اختلافاً تاماً بالصفات والفرائر وتشهر نساء الهنتوت بالاحديداب الباكر الذي يظهر عليهم

واعلم ان الاستعمار الهولندي أولاً والانجليزي ثانياً جعل الهنتوت ينكمشون شيئاً فشيئاً نحو الداخل بحيث أنهم قد اندموا تقريباً من المنطقة الساحلية

رابعاً - الاجناس المختلطة ويمكن أن يطلق عليهم اسم نصف سودان
 وهم متساوون من السودان الخالص ومن الاجناس البيضاء التي بأفريقيه
 الشرقية بسبب اختلاطهم معاً وبدرجات مختلفة وهم منتشرون في كل المنطقتين
 المداريتين ولا يزال العلماء الى الآن في شك من معرفة كل هذه الامم
 الخلاسية معرفة مضبوطة ومع ذلك فلورجنا الى توزيعها العمومي لوجدنا
 انها ترجع الى أربع أصول أو مجاميع شهيرة هي أولاً كل الامم الجنوبية
 النازلة بأفريقيه على سواحل بحر الهند والتي تعرف في الجنوب باسم كفرة
 وفي الشمال باسم السواحلية ثانياً الفُنج (أصحاب مملكة سنار قديماً) وأمم
 أخرى كثيرة من الذين يظهر فيهم اختلاط الدم الاجنبي وكلهم بمجمعات النيل
 العليا ثالثاً الفُلاته يبلاد السودان رابعاً التبو بالصحراء الكبرى الشرقية
 (وسياي الكلام على هذه الامم بيان أوفى عند الكلام على بلاد السودان
 والصحراء)

خامساً - العرب وقد نزلوا أفريقية في أزمنة مختلفة ومن طرق مختلفة
 أيضاً أقدمهم حسب كل الاحتمالات الذين انتشروا منهم بها بكل المنطقة
 الساحلية الشرقية من البحر الاحمر حتى جزيرة زنبار وقد وجد ملاحو
 الاغريق الاول الذين وصلوا الى ساحل ازاني (ساحل أجان وزنجبار) في
 عصر قريب من ابتداء التاريخ الميلادي عرباً هناك كانوا يترددون على تلك
 الاطراف من أزمنة قديمة العهد جداً (ربما كان أقدم من عصر حيرام وسليمان

عليه السلام) ولا ينبغي أن المؤلفين في عصر الرومان كان عمومهم يريد ببلاد العرب كل الجهات القاحلة الواقعة بين البحر الاحمر وبلاد مصر ثم خرج عرب آخرون غير هؤلاء من بلاد اليمن وقت ظهور الدين الاسلامي وبعد أن عبروا المضيق واخترقوا النوبة العليا والنيل توغلوا في قلب السودان الشرقي حتى وصلوا بحيرة شاد وهو بالتقريب رهنمايح هذه الهجرة الحميرية غير المسلمة كما يثبت من دلائل كثيرة وربما كان ذلك هو السبب في وجود عدة نزلات عربية بالجهات الداخلية المذكورة من افريقيه ثم أن الفتوحات الاسلامية الاولى التي حصلت ببلاد المغرب في القرن السابع الميلادي نشأ عنها بقاء عدة قبائل بالاقليم البربرية بجهات اطلس الا ان المهاجرة العربية العظيمة التي عمت كل هذه الاصقاع حصلت في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي كما سيأتي وكان من نتائجها طرد البربر سكان البلاد الاصيلين والتجاؤهم الى الصحراء والجبال وانتشر العرب في جهات قورينه القديمة (بلاد برقه) وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش وفي كل الجهات الغربية من الصحراء حتى بلاد سنغال ولا يزالون بها الآن

هذا أما ما يخص بجباله أهل أوروبا الذين بأفريقيه فستكلم عليهم عند الكلام على أملاك ومستعمرات أوروبا بأفريقيه كما اننا ستكلم على العرب وأصولهم وأقسامهم عند الكلام على الاجناس البشرية بقارة آسيان شاء الله الحالة الاجتماعية بأفريقيه - اعلم أن الاجناس البشرية بأفريقيه يتركون

من عناصر مختلفة وأصول مشتتة جداً حتى لا يمكن مزجهم ببعضهم للحكم عليهم حكماً واحداً ومع ذلك فإننا نرى بين الأقسام الأصلية الكبيرة منهم أي المتخلطة على تلك الأجناس نوع تدرج أدبي وعقلي من أول قبائل المجموعة البربرية النازلة على سفوح اطلس وعلى سواحل بحر الروم حتى الهوتنتوت سكان النهاية الجنوبية والبربر وإن كانت معيشتهم بدوية منذ العصر الغابرة إلا أنهم يشاركون الأمم البيضاء - وهم فرع منهم - في الصفات العالية فهم جنس زكي قابل للرق السريع وهم أيضاً أمة من أمم التاريخ وكان لهم دور مهم وحوادث كبيرة في التاريخ العام ورد بالتوراة في الفصل العاشر من سفر الخروج عند الكلام على الأجناس البشرية أن البربر فرع من الحاميين أخوة مصر إيم أصل المصريين وهي قرابة يؤيدها الاتصال الجغرافي والمناسبات التي ذكرت فيما سبق بين القبلي والبربري معاً وأصول سكان مملكة مروى في الأزمنة القديمة وكذا سكان أكسوم أو الحبشة بعد الأزمنة القديمة بقليل كانوا من البربر وبربر اطلس هم قسم هذا الجنس الذين علق بهم التسمية البربرية وغلبت عليهم أكثر من غيرهم على الخصوص وهم يسمون أنفسهم أمازيغ وكانت لهم مدة ملكهم مَسِينَسَا شهرة كبيرة في حوادث التاريخ الروماني كما أن الكثير من رؤسائهم أسسوا بالمدة الأولى من العصر الاسلامي بأفريقيه واسبانيا أسرات شهيرة ذكرها مؤرخو الاسلام خصوصاً العلامة ابن خلدون وقد اعتنق بربر اطلس الدين المسيحي باكراً ثم اعتنقوا

فما بعد الاسلام الذي طبعهم بطابعه الفخيم وأشهر أقوامهم الذين يمثلون الآن الحضارة البربرية التامة ثم التوارك ومعيشتهم بدوية ويسكنون واحات الصحراء الوسطى وسيأتي الكلام عليهم هناك اما الهوتنتوت فانهم كما قلناه أحسن أمم افريقيه وأشد حمشية وهم أيضاً من ابشع أجناس الكرة الارضية خلقة حتى ان احتكاكهم بالاوريين من نحو اكثر من ثلاثة قرون لم يحدث فيهم غير تغير قليل في عوائدهم ومعيشتهم

أما السودان فانهم على نوع ما يشغلون الحد الاوسط بين الهوتنتوت والبربر كما ان موقعهم الجغرافي متوسط بين الجنسين المذكورين فهم أقل وحشية من الهوتنتوت في أمور كثيرة وأبعد منهم عن المعيشة الهمجية لان الاغلب من قبائلهم العديدة يقيم في أماكن معلومة ويعرفون على الأقل مبادئ الزراعة ومع ذلك فانهم بالنسبة لامور أصلية أخط من البربر كثيراً والسودان جنس كسول جامد بليد مادي بالمرّة لا يعرف للرقى معنى أصلاً ولم يجاوز بعد المبادئ الاولى في الحياة الاجتماعية في أي جهة وفي أي زمن لا قبل مواصلاتهم مع أهل أوروبا ولا بعد ذلك ولم يؤسس من تلقاء نفسه اجتماعاً سودانياً أصلاً ولا نظمات مدنية وسياسية يمكن أن تشبه ولو بعض الشبه بالممالك المتحضرة بأوروبا وآسيا وزيادة على ذلك لم يحدث فيه احتكاكاً بالحضارة الاجنبية بين اسلامية ومسيحية أقل أثر ولولا النسبة لترقية عقول أفرادهم وافهامهم فهم الآن كما كانوا منذ عشرة قرون وعشرين قرناً

بل وربما أربعين قرناً أما من جهة الدين فقد بقوا على الدين الفِثشي وأما
 الاخلاق فإن أخلاقهم خسنة مادية ومن جهة السياسة فقد حافظوا على أحط
 النظمات الاستبدادية حتى في بلاد السودان التي نقل اليها العرب المسلمون
 الدين الاسلامي منذ قرون وأسسوا بها عدة ممالك اسلامية أى ان السود
 الاصليين بها لم يترقوا الى ما فوق حالتهم الاجتماعية الا خطى قليلة والحضارة
 الحقيقية في الممالك الاسلامية المذكورة هي بين الرؤساء والاعيان والامراء
 بحيث لا تعتمد على غيرهم من امم السودان

هذا وتنقسم الامم السودانية في كل ما بقي من أفريقيه المدارية الى
 ممالك صغيرة كثيرة وقبائل معادية لبعضها بعضاً مستوفذة لرد غارة كل من
 يأتي من الخارج وقد شاهد المكتشفون منذ سنوات قليلة بالمنطقة الاستوائية
 من أول بلاد الغلا الى قرب خليج بنين أمماً أكثر رقياً في أمور كثيرة عن
 سود بلاد السودان وأفريقيه الجنوبية ولكن مارووه عن شكل أجسامهم
 يدل على أنهم من أصل ابيض (والتعير بالايض هنا نسبي) وهم بلا شك
 فروع منفصلة من أصل الامورما

والشيء الغريب الذي نقله ورواه أولئك المكتشفون عن عادات
 هذه الامم التي يظهر عليهم الذكاء هو ان أكل لحوم البشر عام بينهم تقريباً
 لهذا أطلق جيرانهم على الكثير من قبائلهم اسم نيام نيام ومعناه آكلو
 الانسان ومما يستحق الالتفات ان هذه العادة المقوتة وهي أكل لحوم البشر

عمومية أيضاً لدى الكثيرين من القبائل السودانية بيلاذ غاته والكننو ولكن سكان الجهات الشرقية من افرقيه الجنوبية يستسنون من ذلك وسبب هذا بلا شك تأثير الاسلام عليهم ان لم ينسب الى أسباب أقدم من الاسلام كما يقول بعض العلماء

الصناعة والتجارة — اعلم ان الصناعة بين أمم افرقيه لا تزال بطبيعة الحال كما كانت من القديم وأشهرها عمل المنسوجات وبعض الاواني وعلى الخصوص عمل السهام والرماح وهما السلاحان العاديان لدى القبائل التي لم تتعلم بعد من أهل أوربا استعمال السلاح الناري هذا كل ما وصلوا اليه في اختراعاتهم تقريباً وأشهر اختراع عرف للسودانيين ان صح مع ذلك نسبته اليهم هو اذابة الحديد والنحاس والذهب ليصنعوا منها أشياء يزينون بها وسهاما ورماحا وغير ذلك

ولما لم يكن لديهم ما لا يكاد يذكر من الاعمال الجدية والصناعة الحقيقية كانت تجارتهم ضعيفة وأشهر وسائل المبادلة لدى القبائل النازلة على الساحلين هي الرقيق كانوا يعطونه في مقابلة ما تحمله اليهم سفن أوربا من الاشياء والادوات الصغيرة وذلك منذ القرن السادس عشر الميلادي ولما ألغت الدول العظمى البحرية بأوربا هذه التجارة المفقوتة تناقصت قيمة المبادلات جداً خصوصاً بالبلاد التي لا يوجد فيها التبر ولا ريش النعام ولا الصمغ ولا البن ولا الجلود ولا شمع العسل ولا زيت النخيل ولا القول السوداني ولا العاج

هذا وأشهر منافذ التجارة بأفريقيه خلاف سواحل بحر الروم واقعة بالجهات الساحلية منها وأشهرها سن لويس في السنغال ولاغوس وبلاد أخرى على سواحل غانه ثم غابون وسن بول لوانده بأفريقيه البرتغاليه وزنبار على الساحل الشرقى وبربره ببلاد السومال على خليج عدن ثم مصوع وسواكن وبور سودان على البحر الاحمر وقسم عظيم من المبادلة في هذه الثغور الاربع الاخيرة في يد العرب

الاقسام الجغرافية — اعلم ان من المهم في ذكر بلاد أفريقيه وعدها عداً يكون أساساً لوصف بلادها وصفاً منتظماً مرتباً هو التوفيق بقدر الامكان بين أقسامها الاصلية في الجغرافيا الطبيعية مع اعتبار توزيع الاجناس التاريخي وحصر مساكنهم الاصلية في جهات معلومة ويين لغاتهم الا ان هذا التوفيق لا يكون دائماً من السهل عمله لاضطراب الانسان في بعض الاحيان لان يجعل المعلومات التاريخية أو الجنسية الصرفة خاضعة وتابعة للحالة الموجودة الآن بالقارة المذكورة لهذا كانت أفريقيه بحسب الاعتبارات السابقة تنقسم جغرافياً الى ما يأتي

الجهات الساحلية الشمالية

٣ مملكة تونس	١ المنطقة الساحلية من بحر الروم
٤ ايلة طرابلس	١ دولة مراکش
	٢ بلاد الجزائر

٣ سيراليون	ب حوض نهر النيل
٤ ليبيريا	١ بلاد مصر
٥ غانة العليا	٢ بلاد النوبة
٦ ساحل الجيوب	٣ السودان المصري الانجليزي
٧ ساحل العاج	وبلاد النوبة الاصلية
٨ ساحل الذهب	٤ بلاد الحبشة
٩ ساحل العبيد	٥ بلاد السومال
١٠ غانة السفلى	ج الجهات الوسطى الشمالية
١١ غابون	١ بلاد الصحراء (الصحراء الغربية
١٢ الكنفو	والصحراء الوسطى والصحراء
١٣ أفريقية البرتغالية	الشرقية وسكانها وواحاتها)
و الجهات القصوى من أفريقية	د بلاد السودان والتكرور
الجنوبية	١ السودان الشرق
١ بلاد الهنتوت	٢ السودان الاوسط
٢ مستعمرة الرأس وما يتبعها	٣ السودان الغربي وجهات ديوليا
ز الجهات الساحلية الشرقية	ه الجهات الساحلية الغربية
١ بلاد الكفرة	١ السنغال
٢ بلاد تمال	٢ بلاد غينيا

٣ قناريا	٣ المستعمرات البرتغالية على
٤ جزائر الرأس الاخضر	زمبزي الاسفل
٥ جزيرة الامير	٤ موزمبيق
٦ د سن توماس	٥ زنجبار
٧ د أنوبون	ح نجد أفريقيه الجنوبيه
٨ د الصعود	١ حوض زمبزي
٩ د سنت هيلانه	٢ جهات تنجانيقا
(٢) بالمحيط الهندي	٣ بلاد أنياموزي وغيرها
١ جزيرة مدغشقر	ط المنطقة الاستوائية
٢ جزائر القمر	١ جهات البحيرات العظمى
٣ جزيرة برون أو الاجماع	ي جزائر أفريقيه
٤ جزيرة موريس	(١) بالمحيط الاطلسي أي بحر الظلمات
٥ جزائر سيشيل	١ آسوره
٦ جزيرة سقطرى	٢ ماديره

خلاصة تاريخية على قارة افريقيه - ينقسم التاريخ الجغرافي لهذه القارة الى ثلاثة أقسام منفصلة عن بعضها تمام الاتصال هي الازمنة القديمة والازمنة الوسطى والازمنة الحديثة فالازمنة القديمة تنتهي بالفتوحات الاسلامية الاولى أى قبل منتصف القرن السابع الميلادي (وربما انتهت في

النصف الاول من القرن الثانى الميلادى لان المعلومات عن افريقيه فى الخمسة سنة التى تلى ذلك هى أكثر من معلوماتنا عنها (حسباً ورد فى جغرافيا بطليموس) أما المدة الثانية أو الوسطى فانها تمتد من القرن السابع المذكور الى السنين الاولى من القرن السادس عشر وهى نحو ثمانية قرون ونصف مد اثناءها العرب فتوحاتهم ببلاد النوبة العليا وبلاد التكرور واكتشف البرتغاليون كل سواحلها الغربية حتى رأس عشم الخير (١٤٨٤ - ١٤٨٦) واكتشفوا أيضاً السواحل الاخرى من أول رأس عشم الخير الى رأس الاحتراس (غاردفوى) على الساحل الشرقى (١٤٨٦ - ١٥٠٨) أما المدة الحديثة فزمنها يزيد عن ٣٦٠ سنة ابتداءها أول القرن السادس عشر تقدمت اثنائها المعلومات التى حصلنا عليها من السيلاحين الذين جاؤوا بجهاتها الداخلية ولكنه تقدم ضعيف ببطء وبقي الامر على ذلك حتى نحو نهاية القرن الماضى التى تقدمت فيه المعلومات تقدماً سريعاً وأتت بفوائدها هذا وسنسير فى المدد الثلاث المذكورة بحسب ترتيب تواريخ السنين لنعلم كيف ترقى معلوماتنا على القارة المذكورة فنقول

أولاً - المدة القديمة - المصريون كما لا يخفى هم أقدم امم التاريخ والاقوال الواردة فى تواريخهم والتى تؤيدها مبانيهم كلها تسبق جميع أقوال الامم الاخرى بعدة قرون لانها تصعد الى نحو ٤٠٠٠ سنة الى ما قبل التاريخ الميلادى كما يثبت ذلك من أحدث الروايات وأول معلومات انتشرت فى

الخارج عن جهات افريقيه التي خضعت للقراعة صدرت عن مصر
وقد ساعد القينيقيون الذين كانوا يترددون على الجهات الغربية من بحر
الروم من أول القرن الثامن قبل الميلاد وأسسوا هناك أول مستعمرة لهم
وهي قرطاجنة على اذاعة المعلومات المصرية المذكورة التي انجس منها
النور الاول في أشعار كل من هوميروس وهزيود ولكنها بقيت حيث
هي زمنًا طويلًا لا تتقدم ثم بعد ذلك اتسعت دائرتها قليلًا في أشعار كل
من اشيل وبندار (٤٤٠ - ٥٢٠ ق م) ثم روى لنا هيرودوت أول أقوال
جديرة بالاعتبار في هذا الخصوص وكان ذلك في منتصف القرن الخامس
قبل الميلاد وأقوال هيرودوت هي كما لا يخفى أقوال مؤرخ وسأعرج
ثم بعد ذلك يأتي عصر بطليموس وهو عصر جديد في تاريخ افريقيه
الجغرافي لان المعلومات اتسعت دائرتها في زمنه وتحققت رواياتها خصوصًا
ما كان منها على جهات النيل العليا التي ذكر اراتوستين (القرن الاول ق م) شكلها
الطبيعي العمومي ووصفها وصفًا صادقًا ومن السياحات البحرية التي حصلت
اذ ذاك علم الناس معلومات جديدة على سواحل الخليج العربي وساحل بلاد
الاعطار ووجدت علاقات بين الاسكندرية وقرطاجنة مما نجم عنه على الاقل
فكرة عمومية على جهات اطلس حتى مضيق قابس
ثم قامت في وجه قرطاجنة والمشرق دولة غيرت صحيفة العالم سياسيًا
الا وهي دولة رومية لانها بانتصارها على قرطاجنة واستيلائها على قورثه

ومصر أصبحت كل ممالك الساحل الشمالي من افريقيه خاضعة لها وبذلك
 اصبحت البلاد المذكورة لا تعتمدن بلاد الجغرافيا التاريخية فقط بل دخلت أيضاً
 ضمن دائرة الجغرافيا الحقيقية فتحت في كل جهاتها طرق جديدة وقيست
 المسافات بجميع ارجائها وفتحت البعثات الحرية للاعلام الرومانية داخل
 جهات اطلس ووحدات الصحراء وعلى ذلك كانت المعلومات الجغرافية تتسع
 دائرتها ويمتد نطاقها مع الفتوحات الرومانية وقد ورد ذكر ازدياد المعلومات
 الجغرافية عن تلك الجهات في أقوال المؤرخين بمواضع كثيرة من مؤلفاتهم
 فوصفها ميلا بعد أسترابون وصفاً يشمل مجموعها ولخص بلين (قرن أولم)
 المؤرخ ما ورد عنها من الأقوال في كتابه تلخيصاً تاماً وهناك مؤلفات
 أخرى غير هذه تصف الجهات المذكورة وصفاً اتم في بعض اجزائها

وقام بطليموس بمدبلين المذكورين سنة وقد اشتمل كتابه على كثير من
 الروايات الحديثة عن افريقيه فقد ذكر في أقسامها الداخلية أمماً كثيرة كانت
 مجهولة من قبل كما ذكر تفصيلات فلكية حتى الى ما بعد خط الاستواء ولكن
 ظهر خطأؤه من نقد كتابه قدراً دقيقاً في الايام المتأخرة كما ثبت بعده عن الصواب
 في الاسس التي اعتمد عليها في رسم خرائطه وفي أسماء الامم والقبائل التي
 ذكرها والحاصل انه قد تحقق الآن نهائياً ان أقوال القدماء عن البلاد
 الداخلية بافريقيه لم تمتد في جهة من الجهات الصحراء الكبرى وانها لم تصل
 الى بلاد السودان

ثانياً - المدة المتوسطة - كانت نتيجة انتشار الاسلام بأفريقيه صيرورة النصف الشمالي منها بلاداً عربية صرفة تقريباً وان بلاد مصر والنوبة وكل المنطقة البحرية الشمالية حتى نهاية بلاد المغرب وكذا واحات الصحراء المجاورة للمحيط الاطلسي وبلاداً أخرى كبيرة من بلاد السودان كلها وكذا الجهات الساحلية من أفريقيه الجنوبية لم يصل اليها الدين الاسلامي أو تأثرت بمؤثراته فقط بل انه أغارت عليها في أزمنة مختلفة قبائل كثيرة خرجت من بلاد العرب وسوريه وسهول الفرات حتى ان عدد من نزلها منهم زاد في بعض أقاليمها عن عدد السكان الاصليين فنشأ من ذلك ان وجدت بطبيعة الحال مواصلات بين مكة وبين بلاد كثيرة داخلية لم يعرفها لا الرومان ولا الاغريق من قبلهم وعلى ذلك ظهرت هذه البلاد الجديدة تدريجياً في مؤلفات المؤرخين وسياحي المسلمين واعلم ان استيطان العرب أفريقيه ينقسم الى عصرين مختلفين كان الاول في القرن السابع من الميلاد (٦٤١ - ٦٧٠ م) وهو عصر فتوحات دينية وسياسية معاً ولكن لم يستوطنها فيه الا القليل منهم أما العصر الثاني فكان في القرن الحادى عشر (١٠٥٠ - ١٠٧٨ م) وفيه نزحت قبائل كثيرة وأغارت على أفريقيه واستولت على أراضيها من أول بلاد مصر حتى المحيط وما يجب التنبيه اليه ان معلومات العرب عن أفريقيه أخذت تظهر تدريجياً في أقوال كتاب المسلمين في المدة المتوسطة المذكورة فقط مما حصلوا عليه من المعلومات بسبب انتشارهم هناك وأقوال من كتب منهم في تلك المدة تامة وافية

تقريباً وان استزدناهم فلا يكون الا في شيء قليل واشهرهم ابن حوقل والمسعودي
واحمد بن ابى يعقوب الجغرافى البغدادى (٨٩١م) وقد عقد أبو يعقوب المذكور
وهو صاحب كتاب البلدان لبلاد المغرب فى كتابه باباً مفيداً وأول من بسط الكلام
على جغرافيا افريقيه الشمالية غير ابن ابى يعقوب المذكور البكرى الاندلسى وقد
اتم كتابه حتى سنة ١٠٦٨ م واتى بعده الادريسى فى القرن الثانى عشر ثم ياقوت
الحموى فى القرن الثالث عشر ثم أبو الحسن المراكشى وابن سعيد فى القرن الرابع
عشر ثم ابو القداء وابن الوردى وابن بطوطه السائح الشهير فى القرن الخامس
عشر ثم المقرئى (وكتابه خاص بمصر والنوبه) والحسن بن محمد القاسى
المشهور باسم ليون الافريقى وكتابه أوفى كتب الجميع خصوصاً فيما خص
بلاد السودان ولا تنسى ابن خلدون وتاريخه عن أمم البربر وقد ألقه فى
القرن الرابع عشر وبه معلومات قيصة جداً عن البربر وأصلهم وقبائلهم هذا
والبلاد التى نالت حظاً وافراً فى مؤلفات العرب خصوصاً هى مصر والنوبه
ومنطقة بحر الروم وبعض جهات الصحراء غرباً والسودان الغربى ثم البلاد
التي يغمر سواحلها بحر الهند جنوبى خط الاستواء حتى النهاية الجنوبية من
مضيق موزمبيق ولم تمتد معلوماتهم هناك الى اكثر من ذلك

وفى الوقت الذى تنتهى فيه معلومات العرب واجلهم أى فى القرن
الخامس عشر الميلادى يفتح امامنا عصر معلومات جديدة همة وهى تابعة فى
الحقيقة لتيار الاستقصاءات الحديثه التى انجس نورها اذ ذاك الا وهى أعمال

ملاحى البرتقال على الساحل الغربى من افريقيه للبحث عن طريق بلاد الهند واكتشافهم لسواحل تلك القارة من مضيق جبل طارق الى رأس عشم الخير ومن هذه النقطة حتى رأس الاحتراس وقد استغرق كل ذلك نحو قرن من الزمان ابتداء من سنة ١٤١٥ م وقد ذكر برّوس^(١) المؤرخ البرتقالى (١٤٩٦-١٥٧٠ م) فى مؤلفاته تلك الاكتشافات بحسب زمنها ولدى العلماء أيضاً خلاف المؤلفات المذكورة اثران غريبان عملا فى وقت واحد وكلاهما متقدم على فاسكودوغاما وهما كتاب مؤلف برتقالى يدعى (أزورارا)^(٢)

(١) Barros (Jean de) - مؤرخ برتقالى شهير ولد سنة ١٤٩٦ ومات سنة ١٥٧٠ م وكان محبا للدرس والمطالعة ذكيا فطنا وقد قدره حنا الثالث ملك البرتقال قدره فائزله منزلة رفيعة وعينه حاكما للزلات البرتغالية بساحل غانه ثم خازندارا عاما للمستعمرات ثم مديراً عاما لادارة المستعمرات وهي وظيفة يعادل مديرها فاضلا من نظار الدولة ثم حاكما عاليا لمقاطعة يلا دال برازيل وقد ساعده التنقل فى هذه الوظائف على تأليف مؤلفه الكبير المسمى آسيا و احوال وحركات البرتقال اثناء اكتشاف واخضاع البحار والاراضى بالشرق ويتتدي هذا التاريخ من سنة ١٤١٢ وينتهي الى سنة ١٥١٦ م واحسن طبعات هذا الكتاب وأتمها طبعة اشبونه ١٧٧٨ م وقد انزل هذا الكتاب بروس المنزلة الاولى بين مؤرخى بلاده واعطاه لقب تيت ليف البرتقالى لانه قلده فى تخليد مجد وطنه هذا ولبروس المذكور مؤلفات اخرى غير هذا التاريخ

(٢) Azurara ou Zurara (Gomez) - مؤرخ برتقالى كان فى القرن الخامس عشر من الميلاد وكان قيا على دار سجلات المملكة وقد كلفه القونس الخامس ملك البرتقال بتأليف تاريخ لمملكة البرتقال مرتب على السنين ويؤيد الرواة ان ازورارا أتلّف عدداً كبيراً من الاوراق والمستندات التي كانت بالدار المذكورة وكان ذلك سنة ١٤٥٩ م بناء على

كتبه سنة ١٤٥٣م باسم الملك القونس الخامس وقد طبع في باريس باللغة البرتغالية سنة ١٨٤١م وثانيها خريطة برتغالية رسمت سنة ١٤٨٩م لا تزال محفوظة في دار آثار لندن (بريتش موزيوم)

وقد تحقق الآن أنه قبل الاكتشافات البرتغالية المذكورة بنحو قرن أقبل ملاحون من أهل مدينة ديب بفرنسا وجابوا قسماً كبيراً من ساحل افريقيه الغربى وأسسوا هناك نزلة سموها ديب الصغرى وكان ذلك سنة ١٣٦٤م بساحل غانه في منتصف الطريق تقريباً بين سيراليون ورأس لاس بلماس ولكن لما كانت الامم البحرية الاخرى تجهل هذه السياحة بقي امرها بلا نتيجة فيما حصل بعد ذلك من الاكتشافات كما بقي الفخر في الاكتشافات البرتغالية للبرنس هنرى البرتقالى أول من شجع أمته على اجراء تلك السياحات المذكورة هذا ولا توجد اكتشافات حقيقية أخرى غير هذه الا التي ورد ذكرها وتوارى عنها في علم الجغرافيا

ثالثاً - المدة الحديثة - تبتدىء المدة الحديثة بالقرن السادس عشر الميلادى ولم تكن نعرف بعد (بارتولومودياز) ^(١) وغاما الا شواطيء هذه

طلب مجلس الامة الذي كان يقصد من ذلك التخلص من أوراق لا قيمة لها ولكن كانت بعض مجالس البلديات استسخت قدراً كبيراً من تلك الاوراق للزومها لديها وعلى ذلك لم تقف كلها ولا زورارا المذكور عدة مؤلفات أهمها كتاب في تاريخ اكتشاف بلاد غانه واستيلاء البرتغال عليها وقد طبع هذا الكتاب في باريس سنة ١٨٤١ وتوجد منه نسخة خطية قديمة بدار كتب باريس

(١) Diaz (Barthèlemy) — ملاح برتقالى اكتشف بين سنتي ١٤٨٦-١٤٨٧

القارة الكبيرة (بقطع النظر عن الجهات الشمالية التي اخترقها العرب بكل أرجائها) وبالقرن السادس عشر من الميلاد ابتدئ معلوماتنا عن جهاتها الداخلية وقد بقيت تلك المعلومات زمناً بطيئة التقدم وقاصرة على جهات صغيرة حتى ان المعلومات التي كان يحملها معهم عموم السياحين الذين وصلوا الى البلاد التي تبعد عن الساحل قليلا وهو ما حصل نادراً - كانت لا تستند الى بحث علمي وأولئك السياح كانوا اما تجارا أو مبشرين وقد استمرت هذه الحالة التي أبتت الجزء الأكبر من خريطة افريقيه أبيض خالياً من الاسماء حتى نهاية القرن الثامن عشر من الميلاد الى أن قامت جمعية في إنجلترا تشجع الناس وتسهل عليهم اكتشاف قارة افريقيه فنجحت في أعمالها زمناً وقام المكتشفون والسياحون من جديد لأجراء الاكتشافات فنخص بالذكر منهم منجويرك وهو رغان وسيترن (١)

الراس الذي اطلق عليه اسم راس العذاب وهو الراس الذي ساء فيها بعد حنا الثاني ملك البرقال باسم راس عشم الخير وقد هلك دياز في عاصفة هبت على ساحل افريقيه سنة ١٥٠٠م (١) Seetzen (Ubric, Jasper) - سائح وعالم من علماء الطبيعيات أثنى ولد سنة

١٧٦٧ ومات سنة ١٨١١ وبعد أن درس الطب والعلوم الطبيعية قام بمدة سياحات بالمانيا وهولنده ثم ساعده دوق بلاد غوتا على اجراء سياحة كبيرة كان ينوى هو انفاذها منذ زمن بلاد آسيا وافريقيه فسافر سنة ١٨٠٢ وأقام مدة بمدينة ويانه تعلم أثنائها رسم الخرائط ثم قصد القسطنطينيه ماراً يكرش (بخارست) وجبال البلقان ومكث بها ستة شهور ثم سار بآسيا الوسطى الى ان قدم ازوير ومنها الى حلب واماضي بها مدة يتعلم العربية ثم تجول ببلاد سورية وفلسطين مكتشفاً وساح كذلك بجبال لبنان (١٨٠٥) وبالاراضي الواقعة شرقي الحرمون والاردن والبحر الميت حيث توصل الى اجراء اكتشافات مهمة وفي سنة ١٨٠٧ وصل الى القاهرة وأقام بها سنتين جمع فيها مجموعة قبيسة لا تزال

وبوركهرت^(١) وكلهم ممن نال الفخر في هذه الحركة الاكتشافية وممن تذكر

تشاهد الآن بدار آثار غونا وهي تألف من ١٥٧٤ قطعة وكتاباً كلها بخط اليد و٣٥٣٦ قطعة من فن العمارة والبناء ومن مقدار كبير من القطع الجيولوجية والنباتية والحيوانية النادرة وفي سنة ١٨٠٨ سافر الى الاقاليم الوسطى من الديار المصرية وزار آثارها وديارها متظاهراً اتاه كل ذلك بالاسلام ليتمكن من الوصول الى ما لا يصل اليه الا المسلم ثم أراد الذهاب الى العقبة لارتياح آثارها ولكنه اضطر للعودة الى السويس ومنها سافر بجراً الى ينبع وجده ثم الى مكة والمدينة وفي سنة ١٨١٠ خرج من المدينة يقصد حغا وكتب منها مکتوباً تاريخه ١٧ نوفمبر من السنة المذكورة الى أحد اخصائه بمدينة غونا كان آخر رسالة وصلت منه ثم وصل خبر سنة ١٨١٥ من حغا بموته فجأة سنة ١٨١١ قرب عز ينما كان يقصد الوصول لامام صنعاء يطلب منه رد أمتعته التي كانت اخذت منه في حغا ويظن بعضهم ان الامام سقاه سماً وقد عثروا على مؤلفاته وخرائطه بأجمها قريبا بعد أن ظنوا ضياعها وطبعت باسم سياحة سيزن في سورية وفلسطين وفينيقية وفي البلاد الواقعة وراء الاردن وفي بلاد العرب الصحرية ومصر السفلى

(٢) Burckhardt (Jean-Louis) — سائح شهير ولد في مدينة لوزان سنة ١٧٨٤

ومات بالقاهرة سنة ١٨١٧ أرسلته الجمعية الافريقية بلنדרه الى أفريقيا ليم اكتشافات هورنمان (١٨٠٧) وأقام في حلب حتى حصل على قدر جيد من اللغات الشرقية ثم ادعى انه تاجر عربي ولبس ملابس الاهالي وقلدهم في كل شيء متحلاً اسم الشيخ ابراهيم وزار تدمر ودمشق ولبنان ومصر والنوبة وسواحل البحر الاحمر وجده ومكة ذهب اليها مع الحجاج وقضى مناسك الحج ثم عاد الى القاهرة وينما كان يستعد للسفر والسياحة ثانية أصيب بحمى خيفة أودت بحياته وقد ترك لدار كتب كبردج اكثر من ثلاثمائة مجلد مكتوبة كلها بخط اليد في علوم مختلفة حصل عليها من بلاد المشرق وما رواه في كتاب سياحته كله يوصف بالصدق والصحة وقد طبعت بلندن بين سنتي ١٨١٩ و١٨٣٠ ومن أهم مؤلفاته كتابه في البدو والواهبيين وكتابه في أخلاق المصريين الحديثين

أسماءهم في تاريخ الاكتشافات الجغرافية ثم لما قامت الحروب بأوروبا تمطلت تلك الاكتشافات ثم لما انعقد الصلح سنة ١٨١٥ افتتح باب الاكتشافات الكبيرة واستمر مفتوحاً ووجه كثير من الرجال الذين أخلصوا في عملهم وفي الزمن الذي عمت فيه السياحات ارجاء كثيرة من افرقيته أخذ الناس في دراسة تلك السياحات والنظر فيها بامعان وجدوا قبلوا عليها اقبالاً لم يكن لها من قبل ذلك ومن سنة ١٨٤٥ خصوصاً عاد من الارساليات المهمة فوائد نفيسة على كل فروع العلوم كالجغرافيا والتاريخ الطبيعي والعلوم الطبيعية وعلم الآثار القديمة وعلم الشعوب (اثنوغرافيا) وعلم اللغات وأشهر المكتشفين الذين افادوا باكتشافاتهم هم بارت وفوجل ورولقس^(١) وقد اكتشفوا داخل

وعوائدهم أقول وقد سمعت عن أتق بقوله من أهل سويسره ان قبر بوركهوت هذا خارج باب النصر من أبواب القاهرة ويعرف بالشيخ بركات وانه مات على الاسلام

(١) G. Rohlfis - ساحح الماني شهيد ولد سنة ١٨٣٤ درس الطب اولاً ثم تعلم العربية ببلاد الجزائر وخرج للسياحة سنة ١٨٦١ ببلاد مرا كش متظاهراً بالاسلام ولمعرفة الطب تقرب من كثيرين من أشرف مرا كش وفي سنة ١٨٦٢ جال بالصحراء المرا كشية وقد هم أدلاً وبقته ولكنه نجح منهم ثم حصل على وصية من شريف وزان جاب بها جبال الملس آمناً مطمئناً وهو أول أوربي وصف جهات توات ورسوم خريطة ثم عاد الى مدينة طرابلس ماراً ببلدة غات (١٨٦٥) ثم عاد قسافراً الى غدامس على نية السياحة بالصحراء الكبرى ولما لم يتمكن من ذلك ذهب الى مرزوق وأقام بها حتى سنة ١٨٦٦ ومن هناك سافر الى برنو ماراً بواحة بلما فكان أول أوربي سار بهذا الطريق وأقام بواحة كوار مدة تمكن فيها من معرفتها ثم وصل الى كوكا سنة ١٨٦٦ واكرمه سلطانها وفي اثناء اقامته هناك عليم بما أصاب الساحح بورمان الذي قُتل في

السودان وكرّفت (Kruft) وأبادى (١) وتلستون يك (٢) بلاد الحبشة وبكر

ودّأى ثم عاد الى الساحل الغربى من افريقيه ماراً بمملكة سكتو ثم وصل أخيراً الى
لاغوس على ساحل غانّة ومن هناك عاد الى ليفربول سنة ١٨٦٧

(١) Abbadie (Antoin-Chamson) سائح فرنسوى ولد سنة ١٨١٠ وكان يميل
جداً من صغر سنه للعلوم والسياسة وفى سنة ١٨٣٥ كاتمه أكاديمية العلوم بأمورية يلا
البرازيل ثم ذهب الى بلاد مصر فى أواخر سنة ١٨٣٦ حيث تقابل مع أخيه ثم ذهباً معاً
الى بلاد اتيوبيا وأخذ فى السياحة والاكتشاف بها من ١٨٣٧ - ١٨٤٥ ثم انتقل الى
بلاد الفلا وأقام بها حتى سنة ١٨٤٨ ثم عاد الى فرنسا حاصل على كثير من المشاهدات
والمعلومات المفيدة خصوصاً ما تعلق منها بعلوم اللغات وعلم الشعوب التى جال فى بلادها
ثم عاد الى السياحة ثانية يلا اتيوبيا وبعد ذلك عاد الى فرنسا سنة ١٨٥٣ وكان عضواً
فى عدة جمعيات علمية وقام أخوه المسمى ارنود ميشيل أبادى (Arnaud-Michel)
بسياحة يلا الجزائر سنة ١٨٣٣ وبعد ثلاث سنوات ذهب الى الاسكندرية وهناك تلاقى
مع أخيه أنطوان وسافر معه الى بلاد اتيوبيا كما سبق

(٢) Beke (Charles Tilostone) — سائح انجليزى ولد سنة ١٨٠٠ اشتغل بالتجارة
أولاً ثم درس الحقوق ثم انكب تماماً على التاريخ وعلم الشعوب والجغرافيا ولما علم ما لبلاد
الحبشة من الاهمية انكب على بالنسبة للمواصلات التجارية مع افريقيه الوسطى عزم على
السياحة بارجائها فدخلها سنة ١٨٤١ وساح بجبهاتها الجنوبية وذلك قبل حملة الماسجور
هريس (Harrib) عليها ولما وصل هاريس بجنوده خرج بك من بلاد شوا وتجول بجبهات
قوجام وبالبلاد التى بالجنوب والغرب من الحبشة وكان أهل أوربا يجهلون هذه البلاد
تماماً وقد كتب بك كثيراً على التاريخ القديم والجغرافيا وعلم اللغات والشعوب وله كتاب
اسمه مباحث على الصور الاولى (Biblica) طبع سنة ١٨٣٤ وقد نشرت نتيجة اكتشافاته

وشونيفرت حوض النيل الابيض وبورتن وأسيك ولفنجستون وكرون جهات
البحيرات العظمى من المنطقة الاستوائية الجنوبية وروسجر^(١) وليسيوس^(٢)

الجغرافية في كتاب اسمه (A. Statement of facts) أى ذكر الحقائق (١٨٤٥-١٨٤٦)
وقد لخصته جميعاً لندره وباريس الجغرافيتين في مجموعتهما ومن الكتب التى نشرها هو
كتاب اسمه التوزيع الجغرافى للجهات الاحباش (١٨٤٩) وثلاث رسائل على النيل ومناصبه
المعجبة وأخصارساته التى عنوانها (On the Sources of the Nile (London 1849)
وقد قند فى رسالة من تلك الرسائل النتائج التى زعم أبأدى أنه حصل عليها أثناء سياحته
ببلاد كافا (١٨٥٠) هذا وكانت وفاة بك سنة ١٨٢٤

(١) Russegger (Joseph) - سائح وعالم المانى من علماء المعادن ولد سنة ١٨٠٢
ومات سنة ١٨٦٣ وبعد ان أمم دراسته بمدرسة المعادن عمل فى عدة وظائف ثم انه فى
سنة ١٨٣٤ طلب المرحوم محمد على باشا من مملكة النمسا ان ترسل اليه بعض العلماء
ليبحثوا له عن المادن بأرض مصر فأجاب طلبه وعينت روسجر المذكور رئيساً لمن
أرسلتهم من العلماء فقتل روسجر بأرض مصر كلها وبلاد النوبة وكردقان وما جاورها
من البلاد وكان ذلك بين سنتي ١٨٣٦ - ١٨٣٨ م وبعد ان عاد الى القاهرة خرج
وساح فى جزيرة طورسينا وبلاد فلسطين ثم عاد الى اوربا عن طريق أزمير والقسطنطينية
وبلاذ اليونان ثم ساح باوربا والى كتباً عنوانه سياحة باوربا وآسيا وأفريقيه يشتمل
على معلومات قبيصة على بلاد أمم أفريقيه الخاضعين اذ ذاك لمحمد على باشا وما فى بلادهم
من الثروة الطبيعية وله غير ذلك من الاعمال

(٢) Lepsius (Charles-Richard) - مستشرق ألمانى ولد سنة ١٨١٣ م درس
منذ صباه علم اللغات ومقابلتها بعضها ونال بعد ذلك عدة ألقاب وأوسمة علمية وله مؤلفات
جليلة فى علم اللغات واشتقاقها ومقابلتها بعضها ثم انه صرف عنايته فى دراسة لغات مصر
وآثارها القديمة ثم سافر الى مصر مع العالم الانكليزى دويونين (De Bunsen) وقد نصح

بلاد النوبة وجهات النيل الوسطى وهنرى دوفيرييه^(١) الصحراء

عن هذه السياحة التي استمرت أربع سنوات فوائد جلية جدا وكان بصحبتهما كثيرون من علماء الانكليز والالمان (١٨٤٢) وبعد ان عاد الى المانيا وتعين بها في وظيفة علمية مهمة انكب علي جمع وترتيب اتجاه التاريخية والجغرافية والاثوغرافية والارخولوجية الخاصة ببلاد مصر ومن أهم مؤلفات لبيسوس كتبه الخاصة بآثار مصر والنوبة وتاريخ بلاد مصر وأول معبودات المصريين ورسائل على مصر واثيوبيا وشبه جزيرة سيناء ثم كتاب عنوانه أهمية بعض الآثار المصرية في معرفة تاريخ البطالسة وغير ذلك من المؤلفات (١) Duveyrier [Henri] — سائح فرنسوى ولد سنة ١٨٤٠ كان له من اول

حياته شغف بالسياحة ولما صمم على اكتشاف وسط افريقيه سافر الى بلاد الجزائر سنة ١٨٥٩ ثم قصد عمالة قسنطينة واخرقها متجها نحو الجنوب حتى وصل الى واحة يقال لها (الجوليا) وهي على نحو ٤٠٠ كيلومتر من الاغواط الا انه اضطر للعودة لان الاهالى كرهوا وجوده بينهم وبعد ان ساح في عدة بلاد من الصحراء الجزائرية انتقل الى الصحراء التونسية في أوائل سنة ١٨٦٠ ثم عاد الى مدينة الجزائر وقد أصبح متمكناً من معرفة لغة الاهالى وأرسلته الحكومة سنة ١٨٦١ الى بلاد الصحراء ليعقد مع قبائلها معاهدات تجارية فذهب الى غدامس ثم الى غات ولم يمكنه التقدم جنوباً لان شيخ تواركها لم يسمح له بدخولها وقابله خارج أسوارها ومع ذلك فانه تمكن من المحاربة مع بعض مشايخ التوارك وعقد معهم باسم فرنسا معاهدات تجارية واستصحب بعضهم الى باريس (١٨٦٢) وقدمهم الى نابليون الثالث وكافأته الحكومة والجمعية الجغرافية دلاوسمة والمنح وطبع سياحته سنة ١٨٦٤ تحت اسم اكتشاف الصحراء وتوارك الثمان | Exploration du Sahara, les Tounegs du Nord | ثم بعد ذلك تعين في عدة وظائف ومأموريات علمية فقام بها خير قيام وله أيضاً مؤلفات وسياحات أخرى أفادت الجغرافيا فوائد كبيرة

الجزائرية وكتليه وأن رَقِينْل (١) وماج (٢) بلاد السنغال والجمعات المجاورة

(١) Ruffenel (Jean-Baptiste-Anne) — سائح فرنسي ولد سنة ١٨٠٩ ومات سنة ١٨٥٨ بمدغشقر توظف بإدارة البحرية سنة ١٨٢٥ وبعد ذلك قليل خرج للسياحة وجاب بلاد إندونيسيا والبرازيل والممالك المتحدة وبلاد الجزائر ومدغشقر وبوربون وسواحل أفريقيا وكان ذلك بين سنتي ١٨٢٦ و ١٨٤٢ ثم ساهم بإعداد سنغال بصفته عضوا من جمعية قامت باكتشاف داخلية هذه المستعمرة وكان ذلك بين سنتي ١٨٤٣ و ١٨٤٤ وقد أفاد بلاده بذلك كثيراً وله كتاب سياحة بأفريقية الغربية طبع سنة ١٨٤٦ ثم أنه في سنة ١٨٥٠ قبل مأمورية اختراق قارة أفريقيا من الغرب إلى الشرق بين الدرجة ١٠ و ١٥ من العرض الشمالي أي بالمنطقة التي كانت من المناطق المجهولة بأفريقية إذ ذاك وتوغل حتى وصل نهر النيجر الأسفل ومملكة سيغو ثم قصد نمبكتو ثم خانة أدلاؤه فوقع أسيراً في يد بعض القبائل ولم يطلق سراحه إلا بعد ثمانية شهور وفي مدة أسره ألف سياحته الجديدة بلاد السود وألحقها بكلام على مستعمرة سنغال وغير ذلك وبعد عودته لفرنسا عين حاكماً لجزيرة سنت ماري بمدغشقر سنة ١٨٥٥ وهناك لقي حتفه

(٢) Mage (Abdon, Eugène) — ملاح فرنسي ولد سنة ١٨٣٧ ومات سنة ١٨٦٩ اشتهر بالذكاء والاقدام منذ صباه سافر إلى بلاد غابون ثم قاد حملة عسكرية في سنغيبيا العليا وقد امتاز انتابها باقدامه وبقظه كما امتاز بكل ما قام به من الاعمال غير ذلك فأعلنت حكومته درجته ولما عاد إلى فرنسا حصل على الاذن له بأن يرأس سياحة بلاد سنغيبيا العليا وأفريقية الداخلية كان السائح فيدرب (Faidherb) رسم خطها من من قبل وكان القصد منها فتح طرق جديدة للتجارة الفرنسية فخرج سنة ١٨٦٣ وذهب إلى بلدة سيغو وسار على ساحل نهر النيجر ورسم خرائط ما اخترقه من البلاد ثم عاد إلى فرنسا بمد مشاق ومتاعب جمة ونشر كتاباً اسمه سياحة بالسودان وأفريقية الشرقية مشتملاً على مباحث في الجغرافيا واللغات وعلم الشعوب وقد كافأته الجمعية الجغرافية

لها مما يمر بها نهر ديوليا الاعلى ودوشيو^(١) الجهات المنخفضة من نهر أجوائى ولادسلوس ماجيار^(٢) داخل بلاد الكنفو وغيرهم من السياحين والمكتشفين الذين اقتصرت سياحاتهم على أمكنة ضيقة وهم كثير وعملهم يدل على المهمة التي بذلوها في معرفة افريقيه هذا وفي الزمن المذكور قاس العلماء

على ذلك بنشائها الذهبي ثم مات غرقا هو وسفينته وكل من بها على سواحل فرنسا بمصافة شديدة هبت عليهم سنة ١٨٦٩

(١) Chaillu (Paul de) — سائح امريقي فرنسوى الاصل ولد في نحو اول القرن الماضى سافر مع والده الذى كان اسس نزلة تجارية على ساحل افريقيه عند مصب نهر غابون وبعد ان تعرف احوال البلاد وتجهز بما يلزم سافر في شتاء سنة ١٨٥٥-١٨٥٦ الى داخل القارة وأقام يتجول بها مكتشفاً نحو اربع سنوات وما وجده هناك سلسلة جبال يصل بعض قممها الى أربعة آلاف متر في بلاد كثيرة الغابات وتلك السلسلة تمتد من الشرق الى الغرب وقد ظن انها مركز خروج الانهار الاربعة الكبيرة التي بافريقيه وقد احضر معه كثيراً من الطيور الغريبة والحوانات العجيبة كالغورلا والقرود والعظيمة الخلقه مما ذكره هيروودوت ونشر في سنة ١٨٦١ نشرة باكتشافاته وسياحته كانت لها رنة في بلاد الانجليز وقد اشترت منه دار الآثار الانجليزية ما جمعه من الاشياء التي جلبها معه

(٢) Magyar (Ladislaus) — سائح مجرى ولد سنة ١٨١٧ ومات سنة ١٨٦٤ ساح بالملك المتحدة بامريكا والهندستان وأقام بالبرازيل وبعد ذلك اشتغل بدراسة احوال المستعمرات البرتغالية التي بافريقيه الجنوبية وخرج من بنجويلا مع قافلة كانت عائدة الى داخل البلاد وهناك تزوج بابنة أحد الملوك من آكلى لحم البشر وأقام معها عدة سنوات أجرى اتانها اكتشافات عجيبة وقد طبع هذا القسم من أعماله بمدينة يشته (يست) (١٨٣٠) ثم دخل في خدمة البرتغال وأسس لهم بعض المستعمرات

محيط قارة افريقيه بأجمعه ورسومه بدقة وأحكام تام مما يستدعيه فن الملاحه

الحضارة الافريقية

لو قارنا الحالة السيئة المحزنة التى عليها الجنس الاسود بأفريقيه بما عليه أهل أوربا الآن من الحضارة الفائقة والمدنية الزاهية الراقية لأدت بنا هذه المقارنة الى اعتقاد لا يتوره شك هو أنه لا بد من أزمنة طويلة واحتباب فسيحة تضى قبل أن يصل الافريقيون الاصليون الى حياة عالية صحيحة لانهم من حيث الدين والآداب قد بقوا فى المرحلة الاولى منهما فهم جهلاء مبالغون الى اعتقاد الخزعبلات يخضعون فى الغالب الكثير الى أخشن وأجعد الفرائض أما من حيث السياسة فانهم لم يجاوزوا الآن الشكل الابتدائى فى الاستبداد والظلم ونظام الاسترقاق القديم الوحشى الذى زالت آثاره الآن من بين أغلب الامم لا يزال معمولاً به فى بلادهم وأكل لحوم البشر لا زالت من العوائد المنتشرة فى حوض نهر الكنفو وغيره من البلاد كما سبقت الاشارة الى كل ذلك

ولكن مما يجب الاعتراف به ان المناخ له الفعل الكبير فى أكثر ما عليه أهل السودان من الرذائل التى يوصفون بها كضعف العزيمة وضعف الاقدام على الاعمال وفضلاً عن ذلك فان الشرور التى نزلت بالافريقيين المتكودى الحظ يجب أن يلقى أصلها بالبيض من الاوربيين وبالغرب من بعدهم

لان خطف العبيد الذى هو سبب الفقر ومصائب كثيرة كان يقصد منه سابقاً تدارك ما يلزم من هذا المتجر الانسانى لاسواق أمريكا وهل ننسى الاشربة الروحية المسمومة التى غمر بها الاوروبيون القارة المذكورة وما سببته من الاضرار وجلبته من المصائب على أهاليها ومع ذلك فإنه يجب الاعتراف بان السود قد تقدموا تقدماً لا بأس به فى ميدان المنافع المادية لان أغلبهم صار يعيش فى أمكنة معينة من الارض وقد تعلموا الاستفادة من المملكة النباتية والحيوانية بزراعة الارض وتربية الماشية والعالم مدينون لهم باستعمال كثير من النباتات كالذرة والنخيل والموز ولا ننسى أيضاً أن من أفريقيه خرجت حبة القهوة النفيسة وان سكلها قد أنشأوا حيوانات ك انواع الكلاب والقطط وخزير سنار والدجاج المعروف بدجاج فرعون وغير ذلك من الحيوانات والسودانيين معرفة بصنائع اكثر مما كان يظن فيهم سابقاً فانهم يعرفون تجهيز الاطعمة وتجهيز لحوم الصيد والسمك وبناء الاكواخ الكبيرة الواسعة الموافقة للسكنى وعمل الاوانى وبناء الزوارق يتخذونها من جذوع الاشجار ونسج اللبوسات الخشنة وعمل الحصر والسلال والاسفاط وغير ذلك

وبينما كان الكثير من قبائل أمريكا والاوقيانوسية فى العصر الحجري كان الافريقيون يستخرجون الحديد والنحاس والذهب ويصنعون منها آلات وأدوات للزينة والقتال منذ عصور غابرة وقد توصلوا الى عمل أشياء اشتهرت

بدقة الصنع ولطافة الشكل ولاعتيادهم على الصيد والقتل والحرب مروا
أيضاً على عمل الاسلحة المختلفة الشكل كالرمح والسهام والنبال وغيرها أما
التجارة فإنها من الاعمال التي يميل اليها السودانيون ميلاً تاماً والتجار الذين
يجوبون الجهات الداخلية بأفريقيه يجلبون معهم للسودانيين مصنوعات أوربية
منها الاقمشة والخرز والاسلحة وذخائرها والمشروبات الروحية وغيرها
ويأخذون بدلها منهم العاج والتبروريش الناعم والصنع والبن وقد أصبحت هذه
التجارة الآن في يد الاوربيين على الخصوص ثم في يد العرب وهم يستأجرون
السودانيين في نقلها من مكان الى مكان ومع ذلك فن المحتمل جداً أن يأتي
يوم ينتزع فيه منهم السودانيون هذا الاحتكار لاتصافهم بما يلزم التاجر
الحقيقي من الصفات كسهولة التعبير ودقة التلطف وحسن المعاملة ولما كانت
التجارة الافريقية في جهاد مع عوائق وموانع مختلفة كثيرة كانت ضعيفة جداً
بنسبة ذلك ومن هذه العوائق عدم وجود نقود للمبادلة متحدة الشكل قبلها
الكل لان نقود المبادلة هناك تختلف باختلاف الجهات فتارة تكون اصدافاً
وقواقع وأخرى تكون قطعاً من الحديد والقماش أو قضباناً من الملح أو
قروشاً أو ريلات من النوع المسمى بأبي طيره وغير ذلك وقد تقدمت
المواصلات بأفريقيه نوعاً في هذه السنين المتأخرة بإنشاء الطرق الحديدية
والملاحة البخارية في الكثير من انهارها وبحيراتها الا ان الطرق الممتدة من
ثغورها البحرية والذاهبة لداخلها لازالت غير كافية ولا يتم ذلك الا اذا تمت الطرق

المعتبرة نقط ابتداء وهى التى أخذت مصر وبلاد الجزائر وغاته العليا والسفلى وبلاد الرأس والساحل الشرقى فى مدها وتوصيلها الى داخل افريقيه ومتى امكن أيضاً الانتفاع بكل البحيرات والانهار القابلة للملاحة عند ذلك يمكن لتجارة افريقيه أن تهض نهضة كبيرة وتنب الى الامام وثبة خطيرة هذا وبعد زمن ليس بالطويل يتم انشاء ذلك الخط التلغرافى الكبير المار بوسطها وهو الذى سيربط مدينتى الرأس والقاهرة ببعضهما

هذا وقد ازدادت الآن المستعمرات الاوربية بافريقيه مسطحاً واهمية بنسبة كبيرة جداً وكان ذلك فى القرن التاسع عشر الميلادى على الخصوص ومن نحو ثلاثين سنة على الاخص وقد كانت تلك المستعمرات فيما سبق قاصرة على نزلات تجارية على ساحل البحر واعلم ان الانجليز والفرنسيين والبرتغاليين والالمانيين والبلجيين والليانين كلهم بعد أن أخضعوا القسم الاعظم من سواحلها تقدموا الان وتوغلوا فى داخلها وأسسوا مباني مختلفة ولما خافوا من وقوع نزاع وخصام يقوم بينهم بسبب هذه الاملاك والمستعمرات عقدوا بمدينة برلين مؤتمراً دولياً سنة ١٨٨٥ وبعد المداولات أقرروا على الاحوال الواجبة التى تلزم لتعيين مواقع هذا الاحتلال الجديد والاعتراف به وقد اصبح الآن اكثر من تسعة أعشار افريقيه تابعا لدول أوروبا وبعضه مستعمرات حقيقية وبعضه مناطق تؤذ لها تحتله فيما بعد ولا يخفى ان القسم الاكبر من افريقيه الاستوائية لا يكون الا مستعمرة استغلال فقط فان البيض أى أهل

أوروبا لا يمكنهم الإقامة بها بخلاف جهات اطلس وأفريقية الجنوبية والبلاد المرتفعة من نجودها الداخلية فلها قابلية للاستعمار الاوربي إستعماراً تاماً لموافقة مناخها وجودة هواها

وماذا تكون نتائج هذه المواصلات والمناسبات التي قامت بين العالم الابيض بأوروبا والعالم الاسود هل العالم الابيض سيحسن حالة الافريقيين وينهض بهم من حضيض التأخر الى ذروة الرقي ؟ ذلك ما نرجوه لهم لان الدلائل تقسح الآمال فيه سيما وأهل أوروبا كما يقول علماءهم يحسون بان الامر في افريقية بالنسبة اليهم لا يقتصر فقط على الاستفادة من الثروة التي تشملها بلادها بل لهم هناك عمل آخر هو تربية وتهذيب سكانها ومن الوقت الذي رفع فيه لفنجستون صوته في مصلحتهم تولد لدى الامم المتقدمة ميل ورغبة في ذلك كانت تبيجها ان اجتمع بمدينة بروكسل سنة ١٨٩٠ مؤتمر حضره مندوبون عن سبع عشرة دولة وأقروا فيه على قرارات كثيرة كلها ترمى الى وضع حد للاكلام والمصائب التي تنجم عن التجارة في الرقيق والى حماية الامم السوداء بادخال عوامل السلام والحضارة فيما بينهم وذلك لان العالم المتمدين لا يريد من انتقال ملكية الاراضي بافريقية أن تكون نتيجة القضاء على الاهالي الوطنيين سريعاً كما حصل بأمريكا والاقيانوسية بل أن العالم المتمدين يفهم ان الواجب عليه مساعدة السود للوصول بهم الى حالة أحسن من حالتهم أو ليرد لهم تلك الحضارة التي وصلت اليه هو نفسه من جهات

النيل السفلى كما يقول مسيو اليزيه ريكلو .

• النقص الحال في جغرافيا افريقيه - اعلم انه بعد المعلومات الوفرة التي حصلنا عليها في هذا الزمن لا زال بافريقيه مع ذلك اما كن كثيرة في احتياج لعمل المكتشفين فما بقى اتمام الاكتشاف العلمي لاغلب جهاتها وبقى أيضا معرفة أحوال بلاد واسعة داخلية وهي جهات لم يدخلها أوربي الى الآن تقريباً وهذه الجهات هي - أولاً بلاد التبو بالصحرَاء الشرقية بين فزان والواحات المصرية - ثانياً بعض جهات السودان الشرقى (حيث بلاد ودّاي) بين بحيرة شاد والنيل الاعلى اللهم الا ما كان من سياحة الدكتور نختيجال^(١) - ثالثاً معظم الجهات الداخلية بفانه العليا بين ديوليا ومملكتي اشنتي

(١) Nachtigal (Gustave) - طبيب وسائح الماني ولد سنة ١٨٣٤ ومات قرب الرأس الاخضر سنة ١٨٨٥ وحصل ان اعتلت صحته فاقطع عن التطيب ثم ذهب الى بلاد الجزائر سنة ١٨٦١ ثم الى تونس والتحق طبيباً متطوعاً في جند كاف أعدده باى تونس لقتال بعض القبائل الماوية (١٨٦٣) وحصل ان غليوم ملك بروسيا كلف رولفس سنة ١٨٦٨ بان يحمل ملك برنو هدايا وتحنفاً علامة لشكره اياه على مساعدته سياحي الالمان وهم بارت وفوجل وبورمان (Beurnmann) وجيرارد رولفس المذكور ولما مر رولفس بمدينة تونس قابل هناك نختيجال الذي طلب منه أن يذهب هو الى كوكا عاصمة برنو فقبل رولفس طلبه وسار نختيجال الى طرابلس وغادرها سنة ١٨٦٩ الى فزان ثم الى مرزوق والقطرون يلاذ التبو التي لم يكن زارها أوربي قبله وهناك أخذ أسيراً ثم تمكن من الخلاص وعاد الى مرزوق وامضى بها فصل الشتاء ثم عاود السفر سنة ١٨٧٠ قاصداً برنو واكتشف بحيرة شاد واحسن سلطان برنو لقباه ثم اخترق بلاد كانم وبرنو وقرمي (١٨٧٢) وأخيراً وصل الى ايشه (١٨٧٣) بعد

وداهوى - رابعاً قسم كبير جداً بالمنطقة الاستوائية بين زنجبار ونهاية خليج بنين وهي الجهات التي يكون بها منابع النيل وشارى وبنوى وإجوانى والزابر وزمبىزى - خامساً كل بلاد الفلات تقريبا (جنوبى بلاد الحبشة) ومعظم بلاد السومال الواقع في النهاية الشرقية التي بها رأس غاردفوى - سادساً كل الجهات الداخلية الواقعة الى الغرب من بحيرة تنجانيقا (وهي التي ساح فيها كل من برتن واسبك سنة ١٨٥٨ وساح فيها أيضاً بعدهما بزم من كل من لثنجستون واستانلى وكرون) حتى الساحل الغربى - سابغاً كل الجهات الواقعة الى الجنوب والجنوب الشرقى تقريباً من تنجانيقا حتى نهر زمبىزى وسواحل موزمبيق لان السياحات التي قام بها لثنجستون بهذه الجهات الواسعة من سنة ١٨٦٦ حتى سنة ١٨٧٣ وبقي في السياحة الاخيرة منها نحو ست سنوات لم تكشف القناع تماماً عن هذه الجهات - ثامناً وأخيراً بعض الجهات الوسطى من مدغشقر

متاعب حجة ثم وصل الى دارفور ومنها الى بلاد مصر (١٨٧٤) وقد طبع سياحته هذه باللغة الالمانية سنة ١٨٧٥ وترجمت للفرنسية سنة ١٨٨١ وعينته حكومته قصصاً لها بزبار ثم قصصاً لها عاماً بتونس سنة ١٨٨٤ ثم جعلته قصصاً عاماً في أفريقيا الغربية وكلفته بتعيين حدود الاملاك التي استولت عليها هناك وكانت نفسه تحمده بأنه سيموت عن قريب كما أخبره بذلك الكردى نال لافيجيرى (Lavigerie) قبل ان يارح تونس ذاهباً الى محل ما مورته الجديدة وأراد الله ان يصدق حدسه فانه مات بعد قليل سنة ١٨٨٥ وهو بالبحر أمام جزائر الرأس الاخضر ودقت جنته برأس النخيل وأقامت له الجمعية الجغرافية هناك أثراً لتخليد ذكره وجعلته قاراً في آن واحد

جهات جبال اطلس

مرّاكش والجزائر وتونس وطرابلس

شكلها العمومى - اعلم ان جهات اطلس يحدها البحر والصحراء وكلها متشابهة تشابهاً كبيراً فى شكلها الجغرافى وكانت علاقتها مع البلاد الواقعة على بحر الروم من أوروبا فى كل وقت اكثر منها مع ما بقى من بلاد افريقيه وكثيراً ما يطلق بعضهم على هذه البلاد اسم بلاد البربر وافريقيه الصغرى ويسمونها العرب بلاد المغرب

واشهر جبالها هى جبال اطلس وقد سبق الكلام عليها تفصيلاً وتركب من سلاسل وهضاب منفصلة عن بعضها ومن نجود تركيبها واحد فى مجموعها تقريباً والجبال المذكورة عبارة عن طية أو ثنية جسيمة من طيات القشرة الارضية ويبتدىء اتجاهاها العمومى من خط ممتد من بركان تيد (Teyde) بمجزيرة تريف الى بركان أتنا وهى موازية موازاة ظاهرة لاتجاه جبال الالب الكبرى وبذلك كانت جبال اطلس تابعة لأوروبا الجنوبية لانه يرى فى تركيبها صخور من الارض الجيولوجية الثانية على الخصوص أى انها تركيب من صخور تشبه صخور جبال جوره ومن صخور طباشيرية أثر عليها الضغط الجانبي فأوجد بها تجمعات وتوجات كما أثر فيها أيضاً فعل المياه فانحفرت بها أودية على اتجاه الطية المذكورة وفتحت بها منافذ وثلاث وسط سلاسلها واعلم ان المياه هى التى

أوجدت الارض الثالثة في شكلها الاصلى وأرسبت في الاماكن المنخفضة طبقات الارض الرابعة كما يقول علماء طبقات الارض هذا والارض الثالثة تشغل مسافة عظيمة من جهات اطلس

وأعلى القمم في القسم الجنوبي من اطلس العليا أو اطلس الكبرى وهي التي تشغل مكاناً وسطاً في اطلس الراكشية قمة تنجرت والياشين وكانت هذه السلسلة قديماً تغطي رؤوسها بالثلوج ولا تزال الآثار الدالة على ذلك باقية للآن ويفصل اطلس الكبرى للراكشية عن اطلس الشرقية الممتدة الى جنوب السلسلة الاصلية والموازية لها موازاة تامة وهذه طويلة تقطعها وديان في بعض اجزائها

وصفات هذه الجبال بالقسم الشرقى من مراكش مختلفة عن بعضها بعضاً وعلى الخصوص ببلاد الجزائر لانه يتفرع من محورها هناك نجوم وهضاب كثيرة يبلغ ارتفاع الواحد منها نحو ١٠٠٠ متر ويحد تلك الهضاب في الشمال والجنوب سلاسل جبلية في الشمال جهات التل ويقطعها عرضاً ثلثات تقسمها الى هضاب وتلعات منفردة ذات منحدرات قائمة في جهاتها الشمالية ضيقة الميل في سفوحها الجنوبية وأعلى ارتفاع لها هو ٢٣٠٠ متر وذلك في جبل جرجور و الى الجنوب اطلس الصحراء وهي مقسومة أيضاً الى أجزاء بأغوار ووهاد ثم تزداد عرضاً وارتفاعاً في جبل أوراس حيث تبلغ هناك ٢٣٣٠ متراً وبين السلسلتين المذكورتين نجوم عالية متحدة الشكل في

سطوحها الغربية ويجتمع فوقها في زمن الامطار مياه يحدث عنها برك سطحية
أى لا عمق لها ثم تأخذ السلسلتان الاصليتان في الاقتراب من بعضهما شرقاً
الى أن تتماسا فتتطيان مملكة تونس بما يتفرع عنهما من الجبال وهناك اختلاف
وتضاد ظاهر بين الجهات الشمالية من اطلس الكثيرة التضاريس والمياه
والخصوبة وهى المعروفة ببلاد التل وبين المنطقة الصحراوية التي بتبدى من
حضيض جبال اطلس الجنوبية وتكثر المراعى ومجارى المياه والواحات الخصبة
بالجهات الغربية من هذه الجبال ولكن الى الجنوب من ذلك نجد تعرف
هناك بالحماة وهى نجد تنطيطاً لأحجار والحصباء كما توجد الكشبان التي تعرف
عند أهل الصحراء بالمروق

واعلم ان قرب البحر وقلة الامطار مانعان من أن ينبع من جبال اطلس
أنهار عظيمة ومع ذلك فانه يخرج منها عدة أنهار من أشهرها تجردة
وشلف وملوية ووادي سبو وأم الربيع ومن هذه الانهار ما يزاحم اليرين والرون
وغارون في طول مجراه واتساع حوضه ولكن لا يمكن أن تشبها في مقدار
تصريف المياه وهى تفيض مدة أمطار الخريف والشتاء بينما لا يجرى في
الكثير منها صيفاً من الماء الا ما لا يكاد يذكر ولا يمكن أن يزيد مقدار
متوسط التصريف الكلى في أنهار مراكش وهى كما لا يخفى احدى جهات
اطلس الكثيرة المياه عن ٢٢٥ متراً مكعباً في الثانية الواحدة ويجرى فوق
النجد العاليه غدران تنصب مياهها في بحيرات ملحة فتصير أحواضاً مائية

تعرف باسم شطوط واحدها شط ولكن مياهها تنور في فصل الجفاف
ويتغلى قاعها بطبقة من الملح

وبالجنوب والشرق من أطلس وهدة عظيمة فيها شطوط تونس والجزائر
وهذه الشطوط تجاوب مختلفة السمة ملأى بالملح أو الرمل أو الطفل أو الماء
تعقب بعضها بعضاً يراها الانسان ممتدة على مسافة عظيمة ومن هذه الشطوط
الشط الشرقي ويسمى شط الجريد وهو أعلى عن سطح البحر بنحو ٢٠ متراً
أما الوهاد الواقعة الى الغرب من الشطوط الاولى فإنها منخفضة عن سطح
البحر كشط ملير ومقدار انخفاضه نحو ٣١ متراً وكان العلماء قبل أن ينظروا
في أمر تلك الشطوط نظراً علمياً يظنونها خليجاً قديماً يكفي لاعادته الى
ما كان عليه حفر برزخ قابس الفاصل له عن بحر الروم وقد ظهر خطأ هذا القول
الآن بما ثبت من أن الشطوط بحيرات قديمة زال بعضها بالتبخرات ليس الا
ولذلك فقد تركوا فكرة اغراق حوض الشطوط المذكورة وتحويلها الى بحر
داخلي كما كانت سابقاً

والارض الواقعة حول تلك الوهة العظيمة المذكورة كلها تميل نحوها
وكان يصب فيها من الجنوب قديماً نهر يسمى أجرجار كان يبلغ اتساع
حوضه هو والهيئات التي تصب فيه اتساع حوض نهر الدانوب تقريباً وقد
زال هذا النهر الآن ويعرف مجراه من الآثار الباقية الى يومنا هذا في قاعه
الجاف وعلى شاطئيه وفي المستنقعات والبرك والينابيع التي تلو بعضها بعضاً

وهي ممتدة على مسافة عظيمة ههنا شواعلم ان تقسيم جهات اطلس الى مناطق طويلة متوازية والى هضاب ونجود وأودية وأحواض مائة صغيرة يفصلها عن بعضها جبال صعبة الاختراق فى الغالب كل ذلك ساعد على تقسيم هذه البلاد السياسى ويعلم من التاريخ ان قد أغار على هذه البلاد كل من الرومان والوندال والبوزنطين والعرب والترك والفرنسيين على التعاقب ومع ذلك لم يتم لامة منهم أن تمزج وتختلط بسكان هذه البلاد الاصليين المختلفى الاصول والاجناس اختلاطاً تاماً

هذا وتنقسم هذه البلاد الآن سياسيا الى أربعة أقسام هى مراکش والجزائر وتونس وطرابلس

❦ دولة مراکش ❦

موقعها وحدودها ومسطحها - تعرف هذه البلاد فى كتب العرب بالمغرب الأقصى وهى واقعة فى الزاوية الشمالية الغربية من قارة افريقية وقد جرى العرف بتسمية كل هذا الانساع العظيم المحصور بين المحيط وبحر الروم وبلاد الجزائر والصحراء باسم مراکش وهى تسمية غير حقيقية بالرة لأن أكثر من نصف هذا المسطح خارج عن كل نفوذ لسلطان مراکش وذلك لأن بلاد تيديككت وتوات وغوراره وكل مجموع واحات الصحراء الواقعة لجنوب الغربى من بلاد الجزائر تعترف على الاكثر بنفوذ السلطان الدينى

ولكنها لا تعترف له أصلاً بسيطرة أو حكم أما السلطان فقد أعلن هو من جهته انه غير مسئول عما يقع من التعديات في هذه الواحات على سياحي الفرنسيين والحال كذلك أيضاً في كل البلاد المعروفة بالصحراء المراكشبة الممتدة من وادي قير الى المحيط والمشملة على واحات وادي درعه ووادي نون والساقية الحمراء وكل هذه البلاد مستقلة عن سلطان فاس استقلالاً تاماً وعلى ذلك يمكن تقسيم دولة المراكش الى قسمين الاراضي المخزنية وهي التي يمتد عليها حكم السلطان مباشرة والبلاد غير المخزنية وهي مجموع البلاد التي يتمتع قبائلها عن دفع الخراج والخدمة العسكرية أي انها هي البلاد التي لا تخضع للسلطان الا في أحوال غصوصة وبالقوة ويشمل القسم الاول ما يأتي بمملكة فاس القديمة ويتبعها مدينتا طنجة وتطاوين ومملكة المراكش الحقيقية وهي الواقعة بين جبال اطلس والمحيط وبلاد السوس الممتدة على الساحل الجنوبي رأس قير وواحات تافيلت جنوبي اطلس وواحة فجيج ثم عمالة وجده بالشمال الشرقي في حدود بلاد الجزائر

أما البلاد الغير الخاضعة فهي بلاد الريف أي جميع سواحل البحر الابيض المتوسط تقريباً من ملوية الى تطاوين وقطر واسع شمال أطلس بين فاس ومراكش بحيث لا يبقى للسلطان هناك الا ساحل رباط الفتح ثم الاراضي العظيمة التي يشغل مركزها شط تفرى تقرىا وهي الى الجنوب من وجده ومن الجهات الخارجة عن نفوذ السلطان أيضاً نجد وادية اطلس الوسطى

هذا ولو اعتبرنا مراکش في أكبر عرضها الجغرافي بما يتبعها من الصحراء وصرفنا النظر عن اقسامها السياسية لرأينا ان طول سواحلها يبلغ ١٧٥٠ كيلومتر (منها ٤٢٥ على بحر الروم و ٦٠ على المضيق و ١٣٠٠ على المحيط) ويبلغ مسطح هذه البلاد كما يؤخذ من اضبط الخرائط ٨٠٠.٠٠٠ من الكيلومترات المربعة تقريباً منها ٢٠٠.٠٠٠ للبلاد الخاضعة للسلطان مباشرة وما بقي لاراضي القبائل المستقلة والواحات التي يلصقها الجغرافيون بمراكش هذا ومن الصعب وصف هذه البلاد وصفاً ضبوطاً لأنه بالرغم من مجاورتها لأوروبا فلا يعرف من أشكالها الشهيرة وأحوالها الكبيرة الا القليل وقد ذكر احدث السياح ان جميع ما بين أيدينا الآن من خرائط مراكش خطأ ومع ذلك لم ينشر لنا واحد منهم الى الآن خريطة مضبوطة زيادة على ذلك ان اكثر من ثلثي مراكش لم يكتشف اكتشافاً علمياً وما يعرف عن الثالث الباقي قاصر على رهنامجات صغيرة من غير ذكر وصف عام شامل لما اخترقه السياحون من أراضيها وكذلك لا يصح أن نعتمد على ما نشر من الرسائل والمؤلفات التي يسميها أصحابها باطلاً (الوصف التام لمراكش) وما مائل ذلك من الالفاظ والتعيرات

سواحلها - اعلم أن سواحل مراكش الواقعة بين حدود الجزائر وجبل موسى من جهة مدخل مضيق جبل طارق يعلوها جبال صعبة المرتقى هي جبال الريف وقل أن يكون بها ساحل منبسط أو ملجأ للسفن حتى الصغيرة منها

ولا يوجد على نفس المضيق بين جبل موسى ورأس أسيرتل المعروف لدى
 الاهالى باسم طرف الشقر غير مرسى متوسط الاتساع هي مرسى طنجه ثم
 ينحرف الساحل فجأة نحو الجنوب الغربى وليس به ثغور بحرية جيدة أصلاً
 رغمًا عن امتداده العظيم وساحل البحر بين طنجه والصويرة (مغادور)
 والمسافة بينهما تزيد عن ٦٠٠ كيلومتر في كل جهانه تقريباً حتى عند قاعدة
 الجبال الساحلية رملى منخفض خطر على الملاحة وتجهد السفن في الارتفاع
 عنه ولا يصل عمق الماء فيه الى ٢٠٠ متر الا على بعد يزيد عن ٥٠ كيلومتراً من
 الساحل المذكور وعلى الساحل كثبان يثبتها على المنحدرات المواجهة للبحر
 ما يثبت هناك من أشجار القسق خصوصاً واكبر صخرة يصادفها الانسان
 في هذه المسافة العظيمة هي صخرة رأس الفنطو (C. l'ant) قال بعضهم
 ان فوق هذا الشاطئ علامات تدل على ان الارض قد ارتفعت في عدة
 نقط منه ويظهر ان مدينة الصويرة واقعة فوق مسطبة في أرض انخفضت قديماً
 أما ثغرا العرائش ورباط القنح قليسا الا مصيين نهريْن أما ثغور الدار البيضاء
 ومزغان أى الجديدة ومغادوراي الصويرة فكلها مراسى واقعة على الساحل
 تماماً ورأس قير حيث تنتهى سلسلة اطلس الكبرى هو اكبر بروز في هذا
 الشاطئ الذى بعد أن يكون ثغرا قدير يمتد الى الجنوب الغربى ويكون في
 هذه المسافة منخفضاً رملياً الى أن يصل الى رأس جوبى أو رأس أبو اليشيه
 الواقع أمام جزيرة قناريا الكبرى (وفي عرض واحد معها) شمالى مصب

الساقية الحمراء وهي نهر الى أقصى الجنوب بلاد مراکش على ساحل المحيط
هذا واعلم ان سواحل مراکش التي على المحيط خالية من الجزائر
بالمرّة وجزائرها القليلة الصغيرة الواقعة على ساحل بحر الروم لا قيمة لها وكلها
تابعة لاسبانيا وأراضيها صخرية جرداء وقد اتخذها اسبانيا منفى لأرباب الجرائم

مناخ جهات اطلس

مناخ مراکش - مناخ مراکش صحى على العموم ودرجة حرارتها أقل
ارتفاعاً على السفوح الشمالية من جبل اطلس أكثر مما يمكن أن يظن بنسبة
عرضها وهو ينقسم مع ذلك الى خمس مناطق مناخية تحدث فيها اختلافات محلية
وعرضية وهى - أولاً منطقة الساحل ولا يشدبها البرد أصلاً وحرارة صيفها
معتدلة بسبب نسيم البحر وبسبب الجبال التي تمنع الرياح الآتية من الصحراء
وتهب بها الرياح التجارية معظم السنة ويمتاز مناخها وخصوصاً مناخ الصويرة
بعدم تغيره وبقائه على حالة واحدة تقريباً أما ساحل بحر الروم والساحل الجنوبي
من المحيط الذي يؤثر عليه مجاورته للصحراء فان مناخها متغير - ثانياً ان المنطقة
الاولى وان كانت أقل عن هضبة اطلس الكبرى ارتفاعاً الا انه بالنسبة
لارتفاعها عن سطح البحر وقربها منه كانت أشد رطوبة صيفاً وأكثر ثلجاً وبرداً
في الشتاء - ثالثاً ان منطقة السهول الداخلية المحصورة بين سلاسل الجبال معرضة
صيفاً الى حرارة شديدة بحيث لا يطفئها لا النسيم ولا ارتفاعها عن سطح
البحر وتسقط فيها أمطار غزيرة في فصل الشتاء - رابعاً ان منطقة الجبال

الكيرة يصيبها كل ما يقع من الشدائد في فصل الشتاء هناك وتستمر الثلوج فوق قممها العالية أغلب السنة - خامساً ان المنطقة الصحراوية وهي بلاد رملية على العموم قليلة المياه والنبات لكنها كثيرة الواحات ويسقط بها أحياناً في فصل الشتاء أمطار غزيرة يعقبها حرارة شديدة

هذا ويتبدى سقوط الامطار الغزيرة في بلاد الساحل في نهاية شهر اكتوبر ويأخذ الحر يشتد من شهر مارس والحاصل ان بلاد مراکش أحسن تقسيماً عن بلاد الجزائر بالنسبة لزراعة الامطار حتى ان الرياح الشرقية تجلب معها بعض الرطوبة في الجهات الشمالية من مراکش مع انها تكون جافة في العادة

مناخ بلاد الجزائر - تعد بلاد الجزائر من البلاد الحارة بالنسبة لموقعها غير انها لما كانت ممتدة على نحو أربع درجات من الشمال الى الجنوب كانت بها كل المناخات وكل الحاصلات من مناخ البلاد المدارية الى شتاء الجهات الشمالية الشديد وليس بالجهات المنخفضة المجاورة للبحر ببلاد الجزائر والتي يطلق عليها العرب اسم بلاد الساحل عموماً في الحقيقة غير فصلين متساويين تقريباً هما فصل الجفاف أى الصيف وفصل الامطار أى الشتاء ويستمر الاول من ابريل الى سبتمبر والثاني من اكتوبر الى مارس وشهر ايلول واغسطس أشد الا شهر جفافاً وحرارةً وامطار الصيف هناك ضعيفة ولا تبقى الا زمناً يسيراً بخلاف أمطار الشتاء فلها غزيرة وتكون كالسيل في بعض الاحيان

بحيث ان متوسط ما يسقط من مياهها يكون اكثر مما يسقط منه بفرنسا
غير ان اوقات سقوطها هناك اقل منها بفرنسا واكثر البلاد أمطاراً عمالة
قسنطينة ويهب من البحر صيفاً نسيم يكون هبوبه بانتظام واستمرار بحيث
يخفف شدة الحر جداً وحرارة الشمس في الشتاء قوية حتى تجعل الشتاء
لطيفاً محتملاً كما تساعد على نمو النباتات

وفصل الربيع الذي لا يوجد في الحقيقة ببلاد الجزائر غالباً الا في كتب
التقاويم موجود بكل صفاته فوق جهات التل فالسكان هناك يتمتعون بكل
لطائمه ومسراته وهذه الملحوظات تنطبق خصوصاً على الجهات الساحلية أى
الجهات التي استفاد منها أهل أوربا في الاستعمار ولكنها تتغير تغيراً ينامتي دخل
الانسان في الاودية وذلك لانه بمجرد الابتعاد عن الساحل والصعود نحو النجد
يصير المناخ أوربيا اكثر منه افريقيا والاشجار العظيمة التي تغطي منحدرات
هذه الاودية الجميلة كالسنديان والفسق والزيتون البرى والصنوبر والقلين
والحور الايض كلها تذكر الانسان هناك بأوربا كما يذكره (الأوكالبتوس
باوستراليا) وأراضى الجهات المذكورة خصبة جداً بحيث تؤيد معنى التسمية
التي كان يطلقها الرومان قديماً على بلاد التل ويعنون بذلك الارض المغذية
الحقيقية ولا ارتفاع موقع مدن الجهات الداخلية من بلاد التل كانت أحوالها
الصحية جيدة للغاية وشتاء أوربا هو شتاء هذه الجهات وقد اندهش القرنسويون
في أول دخولهم لما وجدوا الثلج والجليد يغطيان أراضيها

هذا ولا يمكن ذكر مناخ بلاد الجزائر من غير التعرض لذكر الريح المعروف باسم سيركوكو وهو ريح حار يهب من الجنوب في فصل الجفاف ويصل الى سواحل البحر ولشدة حرارته يصيب الاجسام منه أذى وهزال حقيقى وهذا الريح هو بعينه المعروف بريح الخمسين في مصر

مناخ تونس — يمكن أن تمد بلاد تونس بين البلاد الحارة المعتدلة اذا قطعنا النظر عن الصحراء التابعة لها واقتصرونا على بلاد التل والتجود فهي على ذلك مثل ايطاليا وفرنسا الجنوبية واسبانيا وبلاد الجزائر والفرق بينها وبين بلاد الجزائر ان لتونس ساحلين مطلقين على البحر لا ساحل واحد كما في الجزائر وانها ليست منعزلة مثلها عن الصحراء فالجبال التي تفصلها عن الصحراء أقل ضخامة وارتفاعاً عنها بالجزائر والوصف الاول من الوصفين المذكورين مفيد لتونس وثانيهما مضر بها وينشأ من أولاهما صيرورة مناخ تونس في مجموعه أقل حرارة وبرودة عن مناخ بلاد الجزائر وينشأ من الثانى سهولة دخول الرياح الجنوبية بها

وليس في فصول السنة هناك ما يجعلها تشبه فصول أوروبا لان فصل الشتاء الذى يمكث مدة شهرين وربما امتد في بعض السنين أكثر من ذلك لا يدل عليه هناك لا ثلج ولا جليد (الا في الجبال المرتفعة) بل هو فصل أمطار تكون غزيرة أحياناً الا ان سقوط مثل تلك الامطار يكون نادراً في الاغلب ويجب التونسيون هذا الشتاء لهذه الامطار خصوصاً متى

كانت غزيرة كثيرة السقوط لان كثرتها وغزارتها فال حسن أكيد دال على جودة المحصول لانه لو حدث جفاف توقفوا القحط ويساعدهم الشتاء المطر أيضاً على تخزين المياه في صهاريجهم . وأصبح الرياح بتونس الرياح الآتية من البحر وتجلب معها الامطار ولكنها ليست منتظمة دائماً وكثيراً ما يعثرها تغير فجائى ويهب في خليج تونس ربح شديد يضطرب به الماء ويعرف هذا الربح لدى النصارى من القرون الاولى باسم سييرين (Cyprien) لانه كثيراً ما يقع في يوم الاحتفال بموت مطران لهم يسمى سييرين وقد تساءل العلماء عما اذا كان مناخ تونس قد تغير عما كان عليه مدة الرومان وعما اذا كان أقل مطراً الآن عما كان عليه اذ ذاك وقد قال بهذا القول الاخير أغلب الذين كتبوا على تونس ولكن يظهر ان الحق ليس بيدهم وأذا كان حصل تغير حقيقة فليس تغيراً أصلياً هذا ومناخ تونس صحى على العموم وان كان رديئاً في جهات كثيرة منها كبعض الاودية والسهول الداخلية حيث الاراضى هناك ليست بذات سفوح ولا مصارف لتصريف المياه فيشتد الحر ولا يتجدد الهواء

مناخ طرابلس — من المعلوم ان بلاداً تبعد أقطارها جداً عن بعضها واقعة في مواقع متباينة من حيث الارتفاع عن سطح البحر والعرض الجغرافى والبعد عن البحر وغير ذلك كما هو الحال في اياالة طرابلس فلا بد وان يوجد فرق كبير في المناخ بين جهاتها المختلفة الواسعة كما يوجد تباين

ظاهر جداً على الخصوص بين جهاتها المجاورة لبحر الروم وجهاتها الواقعة في الصحراء ومناخ البلاد الواقعة على ساحل البحر معتدل تماماً يشبه مناخ مايق من أفريقية الشمالية ولكنها لما كانت واقعة الى الجنوب أكثر منها كان متوسط مناخها أعلى ببعض درجات عن متوسط مناخ الجزائر وتونس وتعاقب هبوب نسيم البحر والبر يطفئ شدة الحر كما يخفف برد الشتاء وكما ابتعد الانسان عن الشاطئ كان الفرق عظيماً بين هواء الليل وهواء النهار ولما كان نجد برقه مرتفعاً وكانت تهب على جهاته أهوية متخلطة برطبها النسيم البحرى المتتظم كان مناخها يشبه مناخ إيطاليا الجنوبية مشابهة كبيرة أى أنه جاف صحيح مقو للابدان وهو يفضل على مناخ جزائر ماديره بالنسبة للمصدورين

ومناخ البلاد غرباً الى ما خلف الجهات الجبلية وعند قاعدة نجد برقه شرقاً قارى صحراوي ومتوسط درجة الحرارة السنوى هناك مرتفع جداً بسبب طول فصل الصيف وبسبب انعدام رياح الشمال تماماً وعدم وجود النسيم البحرى التى تحول الجبال دون هبوبه واكبر خطر يهدد حياة الكائنات المضوية فى هذه الجهات هو الفرق الجسيم بين الشتاء والصيف وبين الليل والنهار فعند طلوع الشمس شتاء لا يتجاوز الترمومتر الخمس أو الست درجات أما فى الليل فان الماء ينجمد فى عدة جهات وقد شاهدوا الثلج على قمة النجد المذكور أما فى الصيف فالامر على عكس ذلك لان

الترمومتر يبقى نهائياً بين ٣٥ و ٤٠ درجة وقد قال السائح دو فرييه انه شاهد
الحر وصل في شهر يولييه ببلدة مرزوق الى ازيد من ٤٤ درجة في الظل وكثيرا
ما يصل الى ٥٠ في الصحراء وحتى يصل الى ٦٠ في الشمس

وكل بلاد طرابلس ما عدا برقة جافة بالمرّة وكمية ما يسقط من
المياه بها قليلة جداً دائماً حتى ما يسقط منها على الساحل بخلاف ما يسقط على
سفوح الجبال الشمالية فانه ضعف ما يسقط منه هناك لان الجبال تحول دون
مرور الابخرة التي تجلبها معها الرياح الهابّة من بحر الروم فتجلبها الى امطار
والبلاد الواقعة الى الجنوب من ذلك لا يوجد بجوها رطوبة أصلاً وعلى
ذلك تبقى جهات بالصحراء هناك سنين كثيرة لا تنزل بها قطرة مطر واحدة
والامطار نادرة السقوط في بلاد فزان وان أمطرت فلا يكون الا في فصل
الشتاء أى حينما تصادم رياح الشمال مع رياح الجنوب والهواء هناك جاف
جداً حتى لا يسقط الندى رغماً عن برودة الجو ليلاً مع ان برودة الجو ليلاً
في ظروف عادية تكون سبباً في تكون الندى أما البلاد التي تسقط بها
الامطار بدرجة كافية تقريباً فهي بلاد برقة وذلك لانه بسبب موقعها الذي
يشبه الجزيرة تقريباً كانت كل الرياح الا رياح الجنوب تجلب لها هواء ممحلاً
بالرطوبة وعند اجتياز هذا الهواء سفوح الجبل الاخضر يبرد ثم يتحول الى
امطار وأحياناً تكون هذه الامطار غزيرة حتى انها تتحدّر بشدة من القمم
الى الاودية والوهاد ومع ذلك فان متوسط كمية تلك الامطار السنوي

لا يزال ضعيفاً لانه لا تسقط أمطار أصلاً من مايو الى نوفمبر وبمض هذا الماء وهو الذى يذهب فى الاخاديد والشقوق بمد الينابيع الكثيرة التى تنفجر هناك فى أمكنة عديدة

ومناخ طرابلس صحى على العموم لجفاف هوائه ولا يكون مضرّاً بالصحة الا فى الاماكن المنخفضة حيث تركز المياه وتأسن ومن جاراتها المضرة بالصحة للأجانب خصوصاً جهات السبخات ببلاد طرابلس الاصلية وواحة أوجلة ووهدة مرزوق فى فزان وقد شبهها السائح نحيجبال من حيث رداثة مناخها بالجهات ذات المياه الراكدة الواقعة حول بحيرة شاد وقال ان مرض الحمى كثير الانتشار هناك وهى تصيب العرب والبربر فى مرزوق فيعترهم منها هزال وضعف يلازمانهم مدة حياتهم ومن الامراض المتفشية فى كل بلاد طرابلس لا بواحاتها فقط الرمد ويساعد على شدة وانتشاره العثير المتطاير فى الجو فى غالب الاحيان ويزيد عليه عدم الاعتناء بالنظافة هذا أما بقية الامراض التى تنتشر هناك فهى نفس الامراض التى تنفشى بالبلاد المائلة لها بالجزائر وتونس

الحاصلات الطبيعية ببلاد البربر وطبيعة اراضيها

مراكش - اعلم ان جبال مراكش تغطى عموماً بطبقة سميكة من الارض الخصبة وارضيتها الزراعية العادية تتركب من الطفل والرمل تحتها طبقات جيرية

معادنها - قدموا الناس في قلوبهم ان بلا مراکش تيمم في سنة ١٠٠٠ هـ
وافرة ومما قوى هذا الوم وجود الان والملا ل على د ر م
الذهب وهو في عدة اماكن ويوجد على هيئة شنو. و تراب متحد
بالكوارتز والاسبات الجيرى والنحاس ويشاهد في قاع النهرات يسلا
السوس يلعب لمانا ويوجد ايضا في وادى نون وبالوادي اللذكور كذلك معادن
ومناجم للنحاس كثيرة وافرة للغاية ومن معادن مراکش ايضا الحديد وهو
كثير الوجود جدا بجبال اطلس ويرى على الحالة الاولى من تكونه كتلا
جسيمة او عروقا ويكون ذلك على الخصوص بجبل الحديد ولا يستخرج
الا في الجهات التي لا تخضع للسلطان ومنها الاتيموان وهو كثير بجبال تيدلا
ومنها الاثمد المعروف بالكحل وغيرها وكلها من معادن مراکش وبالقرب
من مدينتى مراکش وآزمور معادن كبريت يأخذ منها اهل الجبال
ما يستعملون به على صناعة البارود اللازم لهم ومنها ايضا الرصاص الفضى
قرب تطاوين ويظن بعضهم ان كثيرا من عروق مناجم الاندلس تولد في
مراكش وبالجبال كثير من الملح لاندرانى بل ان هناك جبالا يتماها
مكونة منه ويؤكد المارفون وجود لحم الحجرى بمدة اماكن الا ان
الحكومة تمنع في كل بحث وتفتيش لوقوف على تلك المعادن ويستخرج
الجلس قرب مراکش وفاس ويظهر ان مناجم كثيرة وبكل البلاد هذه لثومنها
البلور الصخرى الجميل وهو يلاذ الرف ويوجد بها ايضا من الاحجار

الكريمة الكركمان وغيره ومن معادنها الكثيرة ايضا الرخام المجزع ويوجد على سطح الارض ومنها ايضا المغره الحمراء وهي كثيرة جدا

اما ليلاه المدينه فكثيرة بمراكش الا ان خصائصها وفوائدها وتحاليلها لم تعلم للآن وبالقرب من طنجه ينابيع معدنية جديدة

نباتاتها - اعلم ان نباتات مراكش في مجموعها هي من نباتات بلاد البحر الروم وتشبه كثيرا نباتات اسبانيا واكثر من العشر من أنواعها خاص بمراكش وبجبلاتها الجبلية والسهلية غابات كثيرة ومراكش اكثر مياها ونباتات وغابات عن بلاد الجزائر ومنظر الجهات الشمالية منها يشبه كثيرا عمالة قسنطينه واكثر الاشجار وجودا بجبهات الشمال هي البلوط الاخضر والفلين والصنوبر والخرنوب والقطب والارز والاقاقيا والعفص والدقلى وكلها مما تزدان به شواطئ الانهار وباطن الاغوار وكلما تقدم الانسان نحو الجنوب صادف أشجاراً من فصيلة المستحية والعرعر والنخيل وينبت النخيل في طنجه ولكنه لا يثمر بمراكش أيضاً كثير من أخشاب الحريق وأخشاب التجارة بأنواعها ولو فرتها يمكن أن يصدر منها للخارج مقادير عظيمة ولكن الغابات هناك لا يعتنى بأمرها وبها أنواع كثيرة من الصمغ أشهرها أربعة هي صمغ القربون (التاكوت) وهو مسهل شديد يستعمل في الطب لزقاً منقطه والثاني السندروس ويدخل في تركيب الادهان والثالث صمغ احمر يعرف في التجارة باسم صمغ مراكش ويستعمل في تهيشة الاقشة

والرابع صمغ ذورأثمة حادة يرسل الى مصر وبلاد العرب حيث يستعمل في التبخير (الفاسوخ) ويجمع سكان الجبال من فوق الصبار بيض القرمز وهو حشرة نصفية الجناح يأخذ منها صباغو مرا كش لونا قرمزيا لا نظير له

ومن الاشجار الالهية المشهورة جداً بمر اكش شجر يسمى لوزالبربر وكثيراً ما يشبهونه بالزيتون ولا يكون الا بالجهات الجنوبية جنوبى وادى تنسفت وهو ينبت فى أقل الارض خصوبة ولا يحتاج للسقى أصلاً فينبت على جوانب الجبال القاحلة مادأجزعه المروج الكثير المقد واغصانه المترعة ذات الاوراق الضامرة وتأكل الحيوانات الداجنة غير الخيل والحير ثمره بشراة ويأخذ الالهالى عجمه ويستخرجون منه زيتاً له رائحة مخصصة أما خشبه فانه صلب جداً ولذلك سميت شجرته بشجرة الحديد وخشها بالخشب الحديدى

اما أشجار الزيتون فكثيرة جداً وهم يتركونها على الحالة البرية ومن النباتات أيضاً الكرم والتين ولواعتوا بزراعتها وعمموها لا عطيا غلة وافرة ومنها الحناء وتزرع خصوصاً ببلاد آرمور والجديدة ويستعملها اليهود والمغاربة بكثرة ومنها السنديان وليست قشوره مطلوبة بكمية كبيرة كما كانت تطلبها التجارة الاجنبية سابقاً ومنها القطن وينبت طبعياً ولكنهم لا يعرفون العناية به ولا يوجد ببلادهم آلات لخليجه ومنها قصب السكر وقد كان قديماً كثير جداً أدخله العرب هناك كما أدخلوه أيضاً باسبانيا ومن اسبانيا انتقل الى جزائر قناريا

ومن قنارها الى اتيلة وبلاد مرا كش مواقة لزراعة التوت وتربية دود الحرير
لو مال اهلها الى الاشتغال بصناعة تحتاج لعناية كبيرة ويكثر العسل بهذه
البلاد لذلك كان من حاصلاتها الشيرة شمع العسل

والثمار بهذه البلاد كثيرة متنوعة منها العنب والبرتقال والليمون والبلح
ومن البلح نوع خاص يلاذ تافيلت وهو كبير الحجم كثير الدسم ونوع
آخر يعرف بالسكري وهو صغير الحجم يابس يذوب في الفم كما يذوب
السكر النقي تماماً ومنه نوع آخر شفاف كالبلور ومن الثمار أيضاً الموز والمان
والتين واللوز والكثير والتفاح والبرقوق والجوز والقسطل والخوخ وغيرها
كثير ومن ثمارها البرية العناب والنبق والصابر والخروب والعوسج والقطلب
وغیرها ومن حاصلاتها النباتية أيضاً الخطة والشعير والذرة والارز والقول والحصى
والبسلة والعدس وكل أنواع الخضراوات وكذا الكتان والزعفران والسمسم
والآيسون والسكررة وكلها من الأنواع الجيدة ثم الشمر وعباد الشمس
والزيتون وقبار وغيرها وكلها تنبت من تلقاء نفسها وبالأقاليم الجنوبية على
الخصوص وبما لا شك فيه ان بلاد مرا كش بها من النباتات الطيبة ونباتات
الصباغة شيء كثير مما هو غير معروف لدى أهل أوروبا وغيرهم

الحیوانات - الحيوانات يلاذ مرا كش كثيرة الأنواع لا تختلف عن
الموجود منها بلاد الجزائر الا في أنواع قليلة ولا يوجد الاسد والفهد الا
بعض جهاتها خصوصاً بجبل الريف بالقرب من حدود الجزائر ومن حيواناتها

أيضاً الدب والخلوف وهو كثير والقرود وهى قليلة والموجود منها هناك هو نفس الجنس الذى يوجد بجبال طارق ومنها النعامة والغزلان وهى كثيرة الانواع والاشكال وكلها بالجبال الجنوبية والحية القراء والثعابين والعقارب وكلها تكثر فى بعض الجبال فقط ومنها علق الدم ويصدرون منه الى الخارج قدراً وافراً وخيلها وبغالها تعتبر فى الدرجة الاولى من حيث أجسامها وصفاتها وفراحتها وبغالها جميلة المنظر تصبر على السير وتسرع فيه حتى أنها لا تمدو عدواً بل تطير طيراناً ومنها الحير والجمال وتكثر بالجنوب حيث القوافل الكبيرة ومن جمالها المهارى وهى مشهورة بدوها ومنها الضأن والمعر وهى تسرح فى المراعى وعلى سفوح الجبال

وأعظم ضرر يصيب المزروعات هناك يأتى من الجراد وهو أنواع كثيرة وأشدّه خطراً الأحمر الجاف ويأتى من الصحراء فى شهر مايو ويلقى بيضه فى الحقول بشرات الملايين ثم يفقس فى يونيه ويوليه وأغلب أنهارها كثيرة السمك وكذا البحار المحيطة بها حتى يمكن أن تشبه بجزيرة الارض الجديدة ومنها السلاحف وتكثر فى بعض الأنهار وتختلف حيوانات بحارها قليلاً عن حيوانات بحر اتيله وقد كان خليج طنجه وسواحل البربر حتى الرأس الايض شهرة لدى الرومان فى أنواع كثيرة من السمك



بلاد الجزائر

﴿ حاصلاتها الطبيعية ﴾

نباتاتها - لو أردنا الحصول على معلومات مضبوطة عن نباتات بلاد الجزائر. وجب علينا تذكر الاحوال الاساسية في شكل أراضيها وان نعرف ان بها جهات تختلف عن بعضها اختلافاً يبنياً وهي جهات التل وجهات النجد وجهات الصحراء وقد وصف أحد قواد الجنود من القرنسوين هذه الجهات وصفاً عمومياً بالنسبة لما ينبت بها من النباتات التي تخرجها أرضها من تلقاء نفسها فقال ينبت بجهات متيجة وهي سهل جليل بمالة الجزائر أشجار العود والنخيل والتين الشوكي والبرتقال وكلها لا تصلح بجهات اطلس لان أشجار اطلس هي أشجار فرنسا الجنوبية وهي الدردار والبلوط الاخضر والصنوبر والعفص والسرو وغيرها وأشجار الصحراء (أى النجد) هي القسق والمعراو والخروب والتمر هندی وينبت الاخير ان بالجهات الرطبة وينبت في بساتين القصور أى القرى المرية الواقعة بالجهات الغربية من النجد المذكور كل الاشجار المثمرة التي تنبت بفرنسا وبمدينة الجزائر وأشجار جبل عامور وجبل سحارى الواقع بين عامور وأوراس هي القسق والعفص والسرو والصنوبر والبلوط الاخضر وهو ينبت بالجهات العالية ولا يثمر النخيل في سهل متيجة المذكور ولا يوجد أصلاً بجبال اطلس (الاودية العالية من

بلاد التل) ولا بالنجد ولا بجبل عامور فهو لا يثبت الا بالصحراء حيث
يكثر اثماراً وافرة لهذا عرفت تلك الجهات باسم بلاد الجريد وبعد هذه
الحدود والامكنة يندر وجود الحنطة والشعير ويكون التمر هو الاساس في
غذاء الاهالى وفي شهرى مايو ويونيه يثبت بالنجد قدر وافرجداً من الحشائش
الجيدة ولا تكون هذه الحشائش بالصحراء الكبرى الا في بعض جهاتها
الرطبة ويكثر ببلاد الجزائر نبات الحلقاء في كل جهاتها قال ذلك القائد ان منظر
البلاد العمومي كان وقت وجوده هناك كالمرج العظيم من الحلقاء وفي أواخر
يونيه تجف تلك الحشائش وكذا الحلقاء فتستغذى منها الحيوانات الداجنة ثم
تعود الاراضى فتخضر ثانية بعد نزول الامطار الاولى في شهر نوفمبر اهـ

هذا وقد أصبحت الحلقاء الآن من أهم موارد الثروة ببلاد الجزائر
خصوصاً بمالة وهران وتصدر الى انجلترا ويصنعون منها الكاغد وينبت
بمروج بلاد الجزائر حشائش كثيرة جيدة تستعمل جافة لغذاء الخيل لانها
كلها تقريباً نباتات بقولية وأشهر ما يزرع هناك من الحبوب الحنطة والشعير
لا غير ومع ذلك فان بعض الجهات تزرع الذرة أيضاً

ومن النباتات هناك أيضاً الفول والبسله والهلجون والبصل والجزر
والبطاطس وغير ذلك من الخضراوات التي تصدر خضراء وجافة ويكون منها
للسكان مكاسب وافرة ومما يجود ببلاد الجزائر التوت غير ان زراعته لم تنتشر
كثيراً والكرم وحاصلاته كثيرة جداً والزيتون وينبت هناك في كل مكان

تقريباً وهو من أهم موارد الثروة والبرقال والليمون وأحسن مزارعها في
البلدة وبنى موسى وشرشيل ويصدرون منها مقادير وافرة جداً والتين الشوكي
والخيار والقاوون والقرع وغيرها من النباتات المنتشرة هناك ومنها أيضاً
المشمش والعناب وثمره جيد والموز والجوز والقسطل إلا أن أهم هذه النباتات
وأشهرها هو النخيل ويعتق المغاربة جداً بزراعة الأزهار ومن نباتات
الصناعة التبغ والقطن والقنب والقوه والحناء والقرطم والقول السوداني
والسلجم والسمن وقصب السكر والافيون والخروع والتيل والبن والقانيلا
والشاي والسكرتشي والقلقل والكنكينا وغيرها مما ادخله الفرنسيون
هناك ونجح بعضه نجاحاً عظيماً

أما الغابات فليست موجودة بكل الاقاليم على السواء فهي نادرة تقريباً
وقليلة الامتداد في عمالي الجزائر ووهران واكبرها ما كان بعمالة قسنطينة
حيواناتها - اعلم ان بلاد الجزائر بها ما بأوروبا الجنوبية من الحيوانات
المنزلية تقريباً فمن حيواناتها الخيل والبغال والثيران والضأن والجمال وقد
اشتهرت الخيل النوميديّة في الازمان القديمة بسرعة عدوها ولا تزال هذه
الشهرة لما تناسل منها أما الضأن فانه وأن كثر عدده واعتمد عليه العرب
الرحل في معيشتهم الا أن أصوافه ليس لها من الصفات ما يجعلها مطلوبة
بمعامل أوروبا ولا تخفى أهمية الجمل لسكان الصحراء والجمل الافريقي هو الجمل
العربي بعينه اعني ذا السنام الواحد أما الجمل الحقيقي أو ذوالسنامين فلا يوجد إلا

في شمالي بلاد الفرس وفي التركستان وبكل آسيا الوسطى عموماً وكان أهل
نوميديا يعرفون الجمل قبل العصر الاسلامي الا أن وجوده هناك بكثرة
وانتشاره بكل جهات الصحراء لم يكونا الا من وقت الفتح الاسلامي

هذا والحيوانات الوحشية بالجزائر هي الاسد والقهد والضبع والثمر
والنمس والثفه واليربوع والقنفذ والثعلب وابن آوى والقط البرى والحلوف
والارنب والقرد والثور الوحشى والاروى والغزال وذكر القدماء من
حيواناتها الوحشية دب نوميديا وقد انقرض جنسه الآن أما الاسد فانه في
الاودية ببلاد التل وفي الجهات المجاورة للنجد وهو لا ينزل في سهول الصحراء
أبداً والنعامه وهي تسكن الصحراء وربما وصلت الى وهران ويصطادها العرب
كثيراً وبالصحراء كثير من الحيات القرناء وهي شديدة الاذى جداً والضب وقد
يبلغ طول الواحد منه متراً والثعابين وكثيراً ما يبلغ طول الواحد منها نحو ثمانية
أقدام والحيوانات الكاسرة تسكن عمالة قسنطينه على الخصوص لا تساع غالباً
معاذها - المعادن كثيرة ببلاد الجزائر من أشهرها النحاس والحديد

والزئبق والرصاص القصى وقد زاد مقدار المستخرج من المعادن هناك الآن
زيادة كبيرة وقد اشتهر رخام نوميديا لدى الرومان ولم يجدوا الى الآن على التحقيق
كل المقاطع التي كانوا يأخذونه منها وهو هناك أنواع وأشكال ومنها أيضاً
الملح وهو بالجهات البحرية من بلاد التل ومنها أحجار الطباقة والاردواز
والكبريت أما أحجار البناء فكثيرة وكذا الاحجار الجيرية وبها نوع

صلصال يصنع منه البربر أواني مشهورة ومما يجب أن يذكر أيضاً المرجان
ويصطاد كثيراً في الشواطئ وشهرته عظيمة من القديم والمياه المعدنية الحارة
كثيرة يبلد الجزائر وهي بين كبريتية وحديدية وملحية والمروف منها
يزيد عن مائة ينبوع

أياالتونس

محاصلها الطبيعية

المعادن - ليست الحاصلات المعدنية بهذه البلاد وافرة ومع ذلك فمنها
الذهب ويوجد في رمال مجردة وبالقرب من قرطاجنه على ساحل البحر وقد
اشتغل العرب مدة زمن باستخراجه ثم عادوا فتركوه ومنها الرصاص والزنك
ويستخرجان من جبل الرصاص وقد استخرج العرب أيضاً من هناك
الرصاص كما استخرجه الرومان من قبلهم ويبلد تونس ينابيع معدنية حارة
كثيرة اشتهرت لدى العرب كما اشتهرت لدى الرومان ومنها أيضاً أحجار
البناء والرخام وهي جيدة جداً ومن الرخام نوع لطيف قال عنه بلين المؤرخ
انه كان يباع في روميه بوزنه فضة ومن معادنها أيضاً البلور الصخري والجص
والجبس وفسفات الجير وغيرها

النباتات - اعلم ان ثروة تونس ليست آتية من معادنها بل من أراضيها
الخصبة وقد اشتهرت خصوصتها في كل الازمنة ومن له الملم بالتاريخ يعرف

الشهرة التي كانت لخطّة تونس وكيف ان هذه الخطّة كانت تغذى رومية سيدة العالم هي وخطّة نوميديا ومصر وصقلية ولم تكن تلك الخطّة تأتي فقط من شمالي البلاد الذي هو الآن أكثر من الجنوب خصوبة بل كانت تأتي من ذلك الجنوب الحالي بمينة وقد ذكر سيلكس الجغرافي (Scylax) وكان معاصراً لداراهستاسب (في نحو سنة ٥٣٠ الى ٥٢٢ قبل الميلاد) خصوبة هذه البلاد العجيبة وكان يندار من بعده يتنزل في كثرة حاصلات لوييه وكذلك فعل هيرودوت وأرستطاليس وبوليب (Polybe) وسلوست (Salluste) واسترابون وديودور الصقلي وبلين وكلهم قد أعجبوا بخصوبة هذه البلاد الافريقية ولكن حصل فيما بعد ان رياح الجنوب طردت رمال الصحراء الكبرى نحو تونس شيئاً فشيئاً وكان قبح افريقيه أحسن الانواع اعتباراً بعد قبح يوتيا وصقلية وقد أوجد الامبراطور كمود (١٨٠ - ١٩٢ م) عمارة مخصوصة لنقل الخطّة من البلاد المذكورة ولقد كانت هذه الاقاليم الوافرة الغلة وهي التي انتزعها الرومان من القرطاجنيين والنوميديين ترسل الخطّة لسيدها رومية مدة ثلثي السنة وكانت مصر ترسلها مدة الثلث الباقي من السنة والآفات التي كانت تنزل بتلك البلاد قديماً هي آفات اليوم وهي الجراد والجفاف ولما ساح الامبراطور ادرينوس (القرن الثاني م) بافريقيه لم تكن الامطار سقطت بها منذ خمسة أعوام مضت وبينما هو مقيم هناك نزل المطر فنسب الاهالي هذه النعمة الالهية الى وجوده بينهم

وكانت أفريقيا أى بلاد قرطاجنه أو ايلة تونس الحالية مشهورة لدى الرومان بخصوبتها العجيبة على الخصوص وكانوا يعتبرونها أحد المهرين التابعين لاطاليا وكان المهرى الثانى مصر نعم ان عدة جهات بتونس لا تزال تشتهر بجودة أراضيها الا انه لا يمكننا أن نجد من يخصها بالقوقان فى الخصوبة الآن وهى تلك الخصوبة التى كانت لها فى السابق فهل تغيرت البلاد؟ كلا ان البلاد لم تتغير بل الذى تغيرم الناس وتغير معهم رقى الصناعة ونشاطها وهو ما كان يساعد الطبيعة ويقوم مقامها ولا يخفى ان حاصلات الارض توقف فى البلاد الحارة على توزيع المياه قال بعض العلماء أن أراضى تونس لما كان معظمها طفيفاً أو رملياً كانت خصبة على العموم بشرط أن تروىها الامطار فى الاوقات المناسبة ولكن اذا اتفق ولم تنزل بها السماء فلها تصبح عقيمة بالمرّة بعد زمن قليل ولا تعود تنجود بالزراع بل تنمرى من كل نبات اه

وقد حدث ذلك كثيراً فى جهاتها الوسطى وحصل بكيفية مستمرة بالنسبة للمزروعات الغذائية وعلى الاقل بالجهات القاحلة الجنوبية ومع ذلك فيجد الانسان غالباً فى أقاليم الوسط حيث زراعة الجبوب محرومة ممن يعتنى بها الاعتناء الذى يكون لها فى أودية التل دلائل وعلامات تدل على تلك الخصوبة التى اشتهرت بها هذه البلاد قديماً

وجميع أنواع الجبوب تنجود جداً فى تونس ولو كان جوها يساعد على نزول المطر أكثر مما هو عليه وبكيفية أكثر انتظاماً لكانت تونس أحسن بلاد

العالم وأكثرها حبوباً ويزرع الناس هناك الشعير لغذاء الخيل بدل الشوفان وأكثر الجملات حبوباً سهل مجردة وسهل سليمان (بشبه جزيرة رأس بون أو رأس أدار) وسهول ولد سعيد بالجنوب الشرق من زغوان والشمال الشرق من القيروان هذا وجوب تونس معدودة من أحسن حبوب العالم بالنسبة لوزنها ونوعها

حيواناتها - تختلف حيوانات تونس (كالاختلاف نباتاتها) عن حيوانات بلاد الجزائر وطرابلس بقليل من الاجناس إلا أن أشكال حيواناتها أكثر قليلا منها في البلاد المجاورة للصحراء الواقعة على ساحل خليج سرت الكبير وحيواناتها أقل قليلا عن حيوانات موريتانيا الغربية التي تزداد فيها الانواع تدريجياً من الشرق الى الغرب غير أن الحالة في تونس وفي البلاد المجاورة لها تماماً هي بخلاف ذلك لان التغيرات الكبيرة التي حصلت منذ الازمنة التاريخية نوّعت حيواناتها فكانت نتيجة تحطيم الغابات بها زوال عدة أنواع حيوانية أو تقليل اناسع منطقة سكنها وقد أدخل الناس بها من جهة ثانية حيوانات داجنة وربما أدخلوا أيضاً حيوانات وحشية مثل الأيل لان هذا الحيوان لم يكن موجوداً بأقاليم أفريقيه فان أهل قرطاجنه هم الذين جلبوه وصيروه نصف داجن ليقدموه قرباناً لمعبودهم بل حمون كما روى ذلك مؤرخوا القدماء ولا يزال هذا الحيوان الآن على قلة بالجلال الغربية من تونس خصوصاً جنوبى طبرقة وفي جبال الحمير ويظن ان الدب كان

موجوداً في كل بلاد تونس لكنه اختفى في أول القرن الماضي على ما يظهر ولا يشاهد القرد الآن إلا بجحات الشطوط الجنوبية والاسد ولا يزال بالجبال المجاورة لحدود الجزائر وهو وأن وجد في جحات قبائل الحمير كثيراً إلا أنه أقل الآن مما كان عليه في زمن القرطاجين ويدل على وجود القيل بهذه البلاد في العصور الأولى دلائل كثيرة إلا أنه زال الآن بزوال الغابات التي كان يعيش فيها وربما كان آخر القيلة بها في عهد الرومان ومن الحيوانات أيضاً الجاموس البرى ولم يندم كما اندم القيل بل بقيت منه إلى الآن قطعان حول بحيرة بنزرت وفي جزيرة وسط البحيرة المذكورة وهو لا يوجد إلا بهذه الجهة ومنها أيضاً الغنم البرية بالجبال الجنوبية واعلم أن دخول الجمل في هذه البلاد قد أفاد كثيراً كما أفاد بأفريقيه الفرية وهو الآن كما كان قديماً حيوان النقل الذي لا بد منه ومنها أيضاً الثعابين وتكثر في بعض الجهات وتكون شديدة الأذى وكثيرة الأنواع ومنها المقرب وهي أشد خطراً عن الموجود منها في الجزائر ومراكش ومنها الجراد وضرره شديد على المزروعات

وتونس أنواع كثيرة من الطيور بعضها خاص بها وبحار تونس كثيرة السمك والاسفنج والمرجان

طرابلس

﴿ حاصلاتها الطبيعية ﴾

النباتات - لو نظرنا في نباتات طرابلس لوجدناها عدة جهات أو مواطن مختلفة ومع ذلك فإنه يمكن رد تلك المواطن الكثيرة الى أربع مناطق أصلية هي منطقة نجد برقه ومنطقة ساحل طرابلس ومنطقة الجبل ومنطقة الصحراء وبلاد برقه من أجل جهات أفريقيه الشمالية وإذا كان الانسان لا يرى فوق القسم الاعلى من جهات نجدها حيث ينور الماء في شقوق وأخاديد إلا أما كن سنجابية اللون مغطاة بالقليل من الحشائش تنصرها الشمس صيفاً وينبت بها هنا وهناك بعض شجيرات صغيرة من الأفاقيا والقسق والبطم والحبة الخضراء إلا أن الحال بخلاف ذلك كله فوق النحدرات وفي الاودية والاماكن المنخفضة منها حيث تنبت الاشجار العظيمة من الدفص والسنديان والسرو والجسيم وفي ظلالها ينبت الآس والنسرین والقطلب والقسق والبيلسان ومن أشجارها أيضاً الخرنوب وينبت بالقرب من سواحل البحر ويضرب البدو حوله مضاربهم ويطعمون ثمره حيواناتهم وثمره من الاغذية الجيدة للحيوان وللانسان معاً ومن نباتات هذه الجهات أيضاً الزيتون البري واكثرته يكون ذبابة حقيقية ومتى نضجت ثماره أطعمها الرعاة حيواناتهم فتأكلها بشراهة ومن نباتاتها أيضاً الموز والبرتقال والليمون والخوخ

والشمش والكرم وغيرها من النباتات الكثيرة الوفيرة التي تنبت بعدة أماكن منها حتى ظن بعض سياحي التأخرين أنهم وجدوا بذلك البستان المشهور في خرافات الاغريق المسمى هسبريد^(١) ومن نباتاتها أيضاً الدفلا وهو كثير ويكون في باطن الاودية وبسهول برقه يزرع الشعير والحنطة كما تنبت بها بعض الراعي ومن أشهر نباتاتها أيضاً نبات يسمى انجدان^(٢) أو عود الرق وهو من الفصيلة الخيمية وترى صورته منقوشة على نقود هذه البلاد قديماً ويعتبر الناس عصارة هذا النبات كعلاج عام لكل الامراض وكانت تباع في كل

(١) Hespérides (Jardin des) - للمؤرخين والقصاصين ورواة الاخبار من القدماء والحديثين أقوال وروايات غريبة يروونها عن هذه الجنة وقد فسرها كثيرون منهم بتفسير غريبة واستنتج منها كل ما ارتضاه من المعاني والرموز وقال بعضهم انها واقعة الى الغرب من بلاد برقه وقال غيرهم انها في سفح جبال أطلس وقال آخرون انها في بلاد موريتانيا وجعلها البعض في جزائر السمادات (فَرُطُنَاتُش) وكان قدماء الاغريق يسمون ايطاليا باسم هسبري (Hespérie) لانها الى الغرب من بلادهم وكان الرومان يطلقون هذا الاسم على بلاد اسبانيا هذا وللهسبريد المذكورة ذكر كبير في خرافات القدماء

(٢) Silphéum ou Silphéum - هو نبات نحت أنواع كثيرة ينبت بالممالك المتحدة من أمريكا على الخصوص ولا يعرف العلماء الآن ما هو السِّلْفَيْسُون عند القدماء ويظن انه الإنجيدان وعليه أطباء العرب كما ورد في مفردات ابن اليطار - قال مترجم المفردات ظن بعضهم أن السلفيون هو التافسيات المسماة أيضاً أدرياس بالبربرية (Thapsia Garganica) وأن أوراقه تشبه أوراق الككخ أو النقنة المعروفة بالنقناوشق وقال بعضهم أن الانجدان هو الحلتيت أو هو ورقه أو الحلتيت صمغه والمحروث جذره وقبل غير ذلك

العالم قديماً بوزنها فضة وبعد نزاع وخصام وقع بين العلماء في هذا الخصوص نراهم قد اتفقوا الآن تقريباً على الاعتراف بهذا النبات وبما له من الخاصة القابضة وهو كثير جداً بالسهول هناك ويرى بعض الأطباء أن لا بد من ظهور هذا النبات في علم تحضير الادوية الحديث بالنسبة لخواصه المروقة المنقية ثم ويمض جهات برقه أيضاً غابات من النخيل حتى على ساحل البحر أما نباتات جهات ساحل طرابلس فنشبه كثيراً ما كان منها ببلاد برقه إلا أنها أقل منها أنواعاً وتتصل الصحراء بساحل البحر في أماكن كثيرة وينبت بالأمكنة القليلة الخصب بها الخنطة والشعير والذرة والزعفران والحناء والقطن والقوه وغيرها وبساتينها كثيرة الأشجار المثمرة التي منها السكرم والوز والبرتقال والليمون والشمش والخوخ وغيرها ومما يمتاز به جهات الساحل أيضاً وفرة أشجار النخيل والزيتون وهي هناك غابات حقيقية وتشبه في مجموعها ما كان منها على سواحل بلاد الجزائر وتونس تقريباً قال بعض العلماء أن نباتاتها وسط بين نباتات جهات أطلس ونباتات المشرق أما نباتات الجهات الجبلية بطرابلس فلم تكتشف وتعرف خواصها جيداً إلى الآن ويظهر أنها في الجهات الشاهقة من جبالها تشبه كثيراً ما كان منها ببلاد الجزائر ويشبه ما ينبت منها بالجهات المنخفضة نباتات الواحات يزيد عليها النخيل وهو كثير جداً هناك مترام متكاثف على بعضه إلا أن ثمره متوسط الدرجة

أما نباتات صحراء طرابلس فقليلة جداً بطبيعة الحال لان أنواع

النباتات بالصحراء الكبرى على اتساعها العظيم لا تزيد عن خمسمائة نوع تقريباً زيادة على أنها موزعة توزيعاً عجيباً وهي ذات أشكال غريبة وأكثر الجملات ألقاراً هناك هي النجود المعروفة بالحمد فلا تنبت بها أشجار أصلاً غاية الأمر أنه ينبت بين أحجارها بعد أمطار الشتاء قليل من شجيرات العليق والفاصول أي الاشنان ومع ذلك فالحياة النباتية تنعدم تماماً في بعض جهات الحماة كما في الحماة الأحمر مثلاً وتكثر النباتات نوعاً في جهات الكثبان والجهات الرملية وعلى الخصوص في مجارى الأودية ونباتاتها عموماً ذات نسيج يابس جداً وأوراقها صغيرة الحجم وأشهرها الأفاقيا وأنواع البطم (التربتين) والطرفاء والسدر والفسق والنباتات المتسلقة مثل حبّ الراعى والسعر والحنظل كما ينبت بها أيضاً بعض نباتات من الفصيلة النجيلية تكون غذاء للجمال أما النباتات الزراعية الموجودة في كل الواحات تقريباً أي في فزان وغدامس وأوجله فربما كانت أكثر أنواعاً من النباتات البرية لأنه يمكن أن يزرع في تلك الجهات الخصبية الحنطة والشعير والذرة والتبغ والخضراوات وخضراواتها تشبه ما ينبت منها بأوروبا تقريباً والقاوون والبطيخ وما كان من فصليتهما والقطن والتيل والتين والكرم والخوخ واللوز والشمش وحتى يمكن زرع الزيتون والبرتقال والليمون إذا اعتنوا بها غير أن النخيل هو أهم ثروة سكان الواحات ويظهر أن بلاد فزان هي الوطن الحقيقي لهذه الشجرة المباركة وكثيراً ما تشاهد هناك على الحالة

البرية وأنواع النخيل بفران كثيرة حتى أنها لا تقل عن ثلثمائة نوع وأفراد كل نوع تعد بالملايين والمرعى بصحراء طرابلس أقل منها بصحراء الجزائر ومراكش كثيراً وعلى ذلك كانت أقل منهما سكاناً فالمعيشة أذن غير متيسرة تقريباً إلا في الواحات منها

الحيوانات - أعلم أن الحيوانات سواء الداجن منها والوحش قليلة العدد بكل بلاد طرابلس وليس بها شيء من تلك الحيوانات الكبيرة الكاسرة كالأسد والفهد مما يوجد بالجزائر وتونس حتى أن ابن آوى والضبغ لا يوجدان بها بكثرة ومع ذلك فهما يبلدان طرابلس الأصلية وبلاد برقة لا غير ويحل عليهما في فزان وأوجه الفتنك المعروف أيضاً بشلب الرمال ويكن قريباً من الخيام والاكوخ يتصد فريسته ومن ذوات الأربع بها أيضاً الغنم البرية والغزال والارنب واليربوع والخنزير البرى وهو يبلدان برقة حيث المستنقعات وقد انعدمت النعمة من كل جهاتها تقريباً وينزل على سواحلها في بعض أيام السنة طيور كثيرة ويتردد على فزان في زمن الصيف أنواع من البط والترغل وقت عودتها من البلاد السودانية ومن الطيور أيضاً الصقر والعقاب والغراب وغيرها كل ذلك خلاف المصفر الدورى المنتشر في كل جهة يكون بها الانسان وتعدم الطيور تماماً تقريباً بالصحراء جنوبي برقة بخلاف الزواحف والحشرات فانها هناك كثيرة ومن أشهرها حية الرمل والحية القرناء والمقارب والورل وتوجد بكل جهاتها تقريباً ولا توجد البراغيث بفران ولا بصحراء

لوييه كذا الذباب لا يكون هناك الا في بعض الجهات فقط ويوجد الجراد بالبلاد القرية من برقه وهو ينقض من وقت الى آخر على النبات فييده أكلًا

وقد كان للثيران قديماً المحل الاول بين حيواناتها المنزلية وعلى بعض الصخور هناك نقوش عتيقة يرى فيها الثور يجرب عربة أو يحمل حملاً أما الآن فقد نقص عددها وصغر حجمها وقل الاعتناء بها ولا تكون بكثرة إلا في البلاد الساحلية والجهات الجبلية والثيران التي أخذت من هذه الجهات وأرسلت الى فزان أصبحت ضعيفة لان مناخ تلك البلاد يؤثر عليها ولا وجود للثيران أصلاً بواحة أو جله أما الخيل فالكثير منها عند بعض القبائل الرحالة النازلة بالشمال ولدى قبائل بنغازى نوع من الخيل صغير الجسم رديء الخلقة لكنه ذو صبر عظيم على تحمل المشاق والجوع والعطش ولا توجد الخيل تقريباً بالصحراء والوجود منها بفزان لا يكاد يذكر جلبوه إليها من الشمال والحميز كثيرة العدد وتؤدي في كل مكان هناك أعمالاً مهمة في النقل أما النعاج فنوعان نوع بجهات الساحل وهو عظيم الأذنان غزير الصوف ونوع بالجنوب وهو ضئيل الجسم ظاهر العظام طويل الذنب منفوش الشعر طويل الرقبة صغير الرأس يشبه صوفه صوف المزمز ولحمه متوسط الجودة وهو اللحم الوحيد تقريباً في كل بلاد طرابلس وتوجد المزمز في كل مكان هناك وتكثف في غذائها بنباتات جافة لقلة المرمى والطيور المنزلية هناك كثيرة أما الحيوان الداجن الوحيد

الذى يقاسم الانسان فى أعماله فهو الجمل وهو كثير ويشغل برتيته فى الشمال عدة قبائل تقدم منه للتجارة ألوفاً مؤلفة وهو كذلك كثير جداً ببلاد فرزان ونوعه هو نوع جل التوارك وجل التبو ويمتاز بمضه بارترع قامته وقوة أعضائه ويتغطي جسمه شتاءً بشعر كثيف يجزونه فى الصيف ويأخذون منه المادة اللازمة لعمل البسط والخيام

دولة مراکش

سكانها - أعلم أن العثور والوقوف على صورة أصلية مقبولة يعترف بها الجميع بين أمة كالامة المراكشية مكونة من عناصر مختلفة أمره صعب كثيراً قال بعض من لهم اطلاع تام على أفريقيه الشماليه وتاريخها وعاداتها فى هذا الخصوص ما يأتى

أن الصورة الاصلية الشقرآء بمراكش أكثر منها فى بقية ممالك أفريقيه الشماليه وقد وافق على ملاحظاتي هذه السيرجون درومند هاى قنصل الانجليز فى طنجه وهو قد أقام فى هذه البلاد أزيد من ثلاثين سنة وأن الثلث من سكانها كلهم شقر تقريباً وتكون نسبة الشقر أكثر من ذلك جداً لأن ما ذكرناه لا يشمل الا أمة بربريه اختلطت بغيرها كثيراً أما مجموع البربر الخالص الذين يسكنون جبال اطلس الكبرى وجهات الريف فأنهم لا يدخلون فى ذلك لأنه لم يمكن دراسة أحوالهم لتطبيق ذلك عليهم

وثلاثا جالية الريف يبلاد طنجه شقر أو سمر سماراً فاتحاً والثالث الباقي سمر
 تماماً وصورتهم الاصلية تشبه الصورة التي بالجنوب الغربي من فرنسا وبربر
 أقليم طنجه الذين استعربوا وهم من القبائل البربرية الكبرى من صنهاجه
 وكتامة ينهم تلك النسبة بعينها وهي أن الكثير من نسايم شقر الالوان
 وصورة أغلبهم سمر آء فاتحة أما الاثني منهن من الصورة السمر آء فان صفاتهن
 وتقاطيع وجوههن تشبه تماماً الفلاحات السمر الالوان من القرنسويات من
 سكان بلاد برغونيا واقليم بررى لهذا كان القول بأن هذا الجنس على عمومه
 من جنس مشابه للجنس الفرنسي من الاقوال المعتبرة المول عليها ولبربر
 الشمال والوسط من مراكش هيئة أوربية أصلية فأخلاقهم وعوائدهم تقربهم
 من الفرنسيين وهو ما يؤيد القول بأنهم من أصل واحد ويظهر لي أن البربر
 المخلص من سكان جبال أطلس جنوبي مراكش وكذا بربر الجبال المستقلة
 التي في وسط الدولة المذكورة (ضواحي مكناس وجبل زرهون وشرقي
 فاس) هم من ذلك الجنس ذي السحنة الاوربية وأن أغلب رؤساء البربر
 الذين مكنتني الفرصة من الكلام معهم اثناء سيرنا من مراكش الى الصويرة
 على المنحدرات الشمالية من سلسلة الجبال الممتدة على ساحل المحيط كانوا
 يتكلمون لهجة تختلف قليلا عن لهجة الريف وكلهم تقريباً سمر الالوان قليلا
 أو كثيراً وقد علمت مما وصل الى من المعلومات أن سكان الجهات العالية
 الواقعة على سلسلة جبال المحيط كلهم شقر الالوان كثيراً وعيون الكثير

منهم زرقاء أو خضراء أو سنجابية تشبه عيون القطط كما عبر بذلك مخبري
وأهم متوسطو القامة كبار الرؤوس نوعاً ولون من رأيتهم كثيراً من
سكان بلاد السوس السمار الواضح وشعورهم سوداء وكذا عيونهم وسنحتهم
تشبه سحنة فلاحى صقلية وهم لا يضعون على رؤوسهم عمارة ما ويفرقون
شعر رؤوسهم والواحد منهم يشبه فى نصف وجهه صورة اللاتين الاصلية
وهى التى حفظ لنا علم معرفة الصور الرومانية شكلها وبجانب هذه الصورة
الاوروبية أيضاً صور عديدة من جنس اختلط بالسود أو بالعرب سكان
الصحراء وهناك أيضاً صورة سمراء ولكنها من جنس شرقى أو جنس
استشرق باختلاطه واقتترانه مع الغير شاهدها فى قبائل آزموور من الشلوخ
وغيرهم ممن يسكنون الجبال بين سبو وأم الريع ويظهر أنهم هم الذين ذكرهم
مؤرخو القدماء وسموم أو تولول^(١) وأن فى تقاطيع وجوههم وانسدال شعورهم
المنفوشة الجمدة التى يحفظونها بعصابة أو طوق من المعدن ما يذكر بالصورة
النوميدية الاصلية التى لاتزال مرسومة على بعض الاوسمة والمباني القديمة
ولم أشاهد فى أى جهة من جهات مراکش أصلاً الصورة المصرية
القديمة التى ظن قوم أنهم وجدوها بين بربر جرجوره وحاصل الكلام

(١) (Autololes) - أمة قديمة من العجيتول كانت تسكن الساحل الغربى
من أفريقيا إلى الشمال والجنوب من جبال أطلس ذكرها مؤلفو القدماء وكانت لهم مدينة
تسمى أتولولا لا يعرف موضعها الآن

اننى قد شاهدت الاجناس الآتية فى مرا كش أوعلى الاقل هى ماشاهدته
منها الى ذلك الوقت وهى

- ١ جنسان هيئة وجوههما أوربية أحدهما أشقر والآخر أسمر يشبهان
الجنسين الاسمر والاشقر اللذين بفرنسا (لويون أصليون)
- ٢ جنس أسمر يشبه فى صفاته سكان الجنوب ومع ذلك فانه أوربى
- ٣ جنس أسمر من أصل شرقى

٤ جنس أسمر ربما كان بربرياً ولكنه اختلط مع الجنس الاسوداه بتصرف
هذا وينقسم سكان مرا كش عموماً الى خمسة أجناس هى ١- البربر
وهم سكان البلاد القدماء ٢- العرب وهم القماحون ٣- المغاربة وهم الذين
طردوا من أسبانيا ٤- اليهود وهم الذين طردوا من أسبانيا كذلك هـ السود
وأصلهم من بلاد السودان

وينزل البربر جبال أطلس والجبال المتفرعة منها وينزل العرب السهول
والاودية القريبة من ساحل البحر وينزل المغاربة واليهود والسود المدن أما
الجنسان الاخيران فيوجدان هناك فى كل مكان تقريباً ومن اليهود عدد قليل
يسكن القلوات مع البربر حتى حدود الصحراء بوادى نون ومدينة عكا

والبربر أو الامازيغ وأن لم يكونوا هم سكان البلاد الاصليين فهم على
الأقل أقدم سكان البلاد وقد مانعوا وصدوا فى كل وقت كل من أغار عليهم
(والتازلون منهم بالشمال يسمون أخازيل وسكان الجنوب يعرفون باسم

شلوح) وهم مختلطون في مراكش الجنوبية وفي واحات الصحراء بالخرائين أو البربر السود الذين يزداد عددهم بالتدريج من الشمال إلى الجنوب ولا يزال أغلب البربر إلى الآن في استقلال تقريباً ويقتصر خضوع الذين يتظاهرون منهم به على دفع الخراج للسلطان حيناً يرون من تقسيم عدم القدرة على الدفع وأحياناً يكون خضوعهم دينياً وأحياناً يكون عبارة عن تحالف قبائليهم مع السلطان لا غير وهناك قبائل مستقلة استقلالاً تاماً مثل قبائل رياطة النازلين بالجبال بين فاس وتلمسان

والبربر على العموم طوال الاجسام أقوياء أشداء شجعان ولكنهم أهل قساوة وغلظة في الطباع ودينهم الاسلام جميعاً وأن كان بعضهم لا يعرف من الاسلام إلا اسمه وهم قليلوا التعصب لدينهم ويعترفون بخلافة سلطان مراكش والقناعة من أخص صفاتهم لهذا كان يمكنهم أن يعيشوا من حاصلاتهم الزراعية القليلة ومن حاصلات قطعانهم وهم يخالفون الاقوام الرحل الذين بالجنوب ونصف الرحل الذين بالجنوب والشمال في أنهم يسكنون كلهم تقريباً في بيوت مبنية من الحجر تكون تارة منزلة وتارة مجمعة فيتكون منها قرى أو ما يعرف بالقصور وهذا واعلم أن الاختلاف كبير بين كل قبائل البربر بالنسبة لصورهم الاصلية وازيائهم واخلاقهم

أمة البربر

﴿ نظرة عمومية - أسماؤهم - مساكنهم - أقسامهم ﴾

البربر أمة كبيرة تنزل الشمال الغربى من أفريقيا وقد صار لهذا الأسم الآن على الخصوص قيمة تاريخية وهو وأن استعمل عادة وأطلق في العرف على طائفة من الشعوب البشرية ذات صفات خاصة متميزة تميزاً تاماً إلا أنه لا يكاد يعرف في الاصطلاح الرسمى وسبب ذلك بلا شك أن أمم هذا الجنس أصبحت هى نفسها لعدم وجود علوم آداب لها لا تعرف هذا اللفظ إلا بطريق الاسناد البعيد أو بسبب علاقتها الحالية مع أوروبا ولا تستعمله أصلاً فيما بينها لأن التسميات الجزئية كأسماء القبائل وأسماء المجتمعات الجغرافية مثلاً قد تخرج بالاسم الاصلى الى الابتداء عن الاستعمال وتلقيه في زوايا النسيان

ومع ذلك فإن هذا الأسم الاصلى لا بد وأن يكون قد انتشر قديماً انتشاراً عظيماً فكان في كل المنطقة الشمالية من أفريقيا وهى المنطقة التى تنتهى من جهة يجر الهند بواسطة حوض نهر النيل ومن الجهة الاخرى بالمحيط الاطلسى بواسطة جبال أطلس قال ابن خلدون هؤلاء البربر جيل وشعوب وقبائل أكثر من أن تحصى وقال أيضاً ولم تزل بلاد المغرب الى طرابلس

بل وألى الاسكندرية عامرة بهذا الجبل بين البحر الرومى وبلاد السودان
من أزمنة لا يعرف أولها ولا ما قبلها اهـ

ولو قطعنا النظر عن العناصر الاجنبية المعروفة فى التاريخ دخولها فى
افريقيه لأتج معنا علم الشعوب (الانثوغرافيا) القاعدة الآتية وهى أن كل
من ليس بأسود فى شمال أفريقيه هو بربرى وقد قال مؤلفوا الاغريق واللاتين
وجغرافيو العرب من بعدهم بوجود بربر فى بلاد السومال الحالية وعلى
الساحل الغربى من البحر الاحمر ولا تزال الحال كذلك الى اليوم فأن وادى
النيل من الخرطوم حتى حدود مصر يسكنه قبائل أصلها واحد ولا يزال
بعضها الى الآن يتسمى بالبربر (برابره) وهو الاسم الذى نسى عند أغلب
اخوتهم ويعلم من أقوال مؤلفى الاسلام أن الواحات الواقعة فى الغرب من
وادى النيل النوبى وكذا الواحات التى بشمال الصحراء الكبرى كانت حتى
القرون الاولى من الاسلام يسكنها كلها بلا استثناء أمم بربرية وأنهم وأن
كان العرب طردوهم من ذلك الوقت من الواحات الشرقية الا أنهم استمروا
يسكنون كل الواحات الشمالية من أول سيوه حتى بلاد مزاب وقوات
ثم أن الأم التى تتكلم لغة البربر تؤلف مهما اختلفت أسماؤها الاهلية مجموعة
متكاثفة فى كل أفريقيه الشمالية الغربية من أول بلاد فزان حتى مضيق جبل
طارق والمحيط الاطلسى

ويطلق على هذه الجهة من أفريقيه فى الاصطلاح العادى لفظ بلاد

البربر متى استعمل من غير تخصيص وتعيين خاص هذا خلاف القبائل
العديدة المتفرقة بالوحدات الداخلية من الصحراء الغربية بين بلاد الجزائر
ومدينة تمبكتو وخلاف الامم المختلطة الاصول النازلة على حدود بلاد
السودان أو التي دخلته منهم مثل مقاربة السنغال الاسفل ومثل قبائل الحوصه
وربما كان منهم أيضاً الفلانة والتبو هذه هي أم قبائل البربر وعلى ذلك
كانت هناك سلسلة من الامم يدل على أنها من أصل واحد شكل أراضيها
الطبيعي وتجاورها الجغرافي وشهادة التاريخ وتقاليدها القديمة واشتراكها
في الاسم الاصلى الاهلى وتكلم الكثير من قبائلهم لهجة واحدة هذا
واعلم ان هذه الرابطة الاخيرة وهي رابطة اللسان أصبحت غير موجودة
بين بربر أفريقيا الشرقية وكذا بين بربر بلاد النوبة ولكنها محكمة
العري بين كل بربر الشمال والشمال الغربى من أول سيوه حتى مراکش ونهر
تيمبكتو لهذا لا نتكلم في هذا الفصل الا على الاخيرين منهم تاركين الكلام
على غيرهم الى أن نتكلم على بلادهم كما سيأتى في بلاد السومال والنوبة والتبو
والحوصه والمقاربة والفلانة وغيرهم

هذا وينقسم بربر الشمال الغربى الى ثلاثة أقسام أصلية وهي أقسام
تاريخية وجغرافية معاً وهي قبائل الجزائر وبعضها يسمى بالشاوية أو الرعاة وهم
ينزلون جبال عمالة قسطنطينة ثانياً شلوح مراکش ثالثاً توارك الصحراء أما
بربر تونس وطرابلس فليس لهم لفظ واحد جنسى يدخلون تحته ولما كان

التوارك منفصلين انفصالاً تاماً وبسيدين عن كل مخالطة مع العرب كانوا أصفى وأخلص القبائل التي تشخص هذا الجنس وكنا نجد أيضاً في دراسة لغتهم على الخصوص وكذا في الوقوف على عوائدهم ورسومهم الصفات الأصلية للأمة البربرية

أشتقاق اسمهم — أعلم أن لفظ بربر كأغلب أسماء الأمم ضائع الأصل في ظلمات التاريخ والأشتاقات التي قالوا أن ذلك اللفظ مشتق منها هي أما وهمية أو قد جازفوا فيها مجازفة شديدة ومع ذلك فأن عموم العلماء قد قبلوا أحدها على علته وهو ما كان له علاقة بلفظ بربروس وهو الاسم الذي كان الرومان يسمون به أغلب الأمم الأجنبية كما فعل الأغريق من قبل ولم يكن الأغريق والرومان يطلقون هذا اللفظ على الأمم غير المهذبة ذات الأخلاق الخسنة كما يستفاد من معنى اللفظ الذي رجحناه على غيره بل كانوا يطلقونه أيضاً على كل من يتكلم لغة غير لغة أئتنا ولغة روميه ألا أن هناك مع ذلك ما يخالف هذا القول مخالفة تامة وذلك مثل تسميم الاسم الأصلي الواحد في كل المنطقة التي يسكنها الجنس المذكور ودوام هذه التسمية عند بعض القبائل كبربرة بلاد النوبة الذين يستحيل قبولهم تسمية أجنبية غير أسمهم الملى وزيادة على ذلك فقد ثبت بشهادة الأدلة والآثار أن هذا الاسم كان مستعملاً قبل ظهور الأغريق والرومان في التاريخ بعدة قرون ففى إحدى قاعات هيكل الكرنك كتابة من زمن رمسيس الثاني المعروف بالكبير ورد فيها أن من أم

الجنوب (يريد أيوبيا) التي قهرها الفرعون المذكور وأخضعها ذكر
 أليير آيبر آما وهذا اللفظ لا يمكن أن يكون بلا جدال ألابرابرة النوبة الحاليين وقد
 مضى على هذه الكتابة أكثر من ألف وربعمائة سنة قبل الميلاد فنستنتج من
 ذلك ضرورة أن لفظ بربر أسم إلى أو أسم أصلي يطلق على تلك الأمة لا غير
 وبما لا شك فيه أيضاً أن هذا الأسم كان قديماً أسماً عمومياً يطلق على أمة من
 الأمم وجنس من الأجناس وأنه بتعاقب الأزمنة وتكرار الدهور وبسبب
 انفصال القبائل وتشتتها وابتعادها عن بعضها نسي الكثير منها الأسم القديم
 أو أنها حافظت عليه مع تسميتها باسماء محلية ومع عدم نسيانها له تماماً كما في بعض
 الجهات وأما إطلاق الأسم على الجنس بتمامه فهو إطلاق مبهم من الأزمنة القديمة
 ولم يكن الرومان مجهلون هذا الأسم ولكن سهل عليهم مزجه بلفظة بربروس
 وإطلاقه على تلك الأمة ولم تعد لهذا الأسم قيمته التاريخية بأفريقيه الغربية ألا
 بعد الفتح العربي ويسمى مؤلفوا المسلمين البلاد الواقعة بين برقه وبحر الظلمات
 أحياناً بلاد البربر كذلك فعل ابن خلدون في تاريخه الذي ألفه على هذه الأمة
 الكبيرة حيث سماه تاريخ البربر

قال ابن خلدون هذا الجبل من الآدميين هم سكان المغرب القديم ملؤا
 البسائط والجبال من توله وأريافه وضواحيه وأمصاره يتخذون البيوت من
 الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر ويظن أهل العز
 منهم والنبله لا تتجمع الراعي فيما قرب من الرحلة لا يجاوزون فيها الريف إلى

الصحراء والقفار الأملس ومكاسبهم الشاه والبقر والجليل في الغالب للركوب
والنتاج وربما كانت الأبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب ومعاش
المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة ومعاش المعتزين أهل الأتجاع
والأظمان في نتاج الأبل وظلال الرماح وقطع السابلة ولباسهم وأكثر
أثاثهم من الصوف يشتملون الصماء بالأكسية الملحمة ويفرغون عليها البرانس
الكمال رؤوسهم في الغالب حاسرة وربما يتماهدونها بالخلق ولغتهم من الرطانة
الأعجمية متميزة بنوعها وهي التي اختصوا من أجلها بهذا الاسم يقال أن
أفريقش بن قيس بن صيفي من ملوك التباينة لما غزا المغرب وأفريقه وقتل
الملك جرجيس وبنى المدن والأمصار وباسمه زعموا سميت أفريقه لما رأى هذا
الجليل من الأعاجم وسمع رطانهم ووعى أختلافها وتنوعها تعجب من ذلك وقال
ما أكثر بربر تكفسموا بالبربر والبربرة بلسان العرب هي اختلاط الأصوات
غير المفهومة ومنه يقال بربر الأسد اذا زار بأصوات غير مفهومة اه وقال
غيره البربر قبائل شتى من حمير ومضر والقيبط والمالقة وكنعان وقريش تلاقوا
بالشام ولغطوا فسماهم أفريقش البربر لكثرة كلامهم

صورتهم الأصلية الطبيعية — أعلم أن القبائل المتصلة بالنسب بجنس
البربر الكبير متفرقة في كل النصف الشمالى من أفريقه وليس بينهم اتصال
ولا تجمعهم ذكرى عامة لحادثة من حوادثهم ألا أنهم كلهم يتلاقون في نقطة
واحدة سواء في ذلك منهم قبائل جهات النيل وقبائل الصحراء أو الجبال

وهذه النقطة هي كونهم من الأثم البيضاء كما أن القبائل السوداء من الجنس الأسود حتى أن الذين اسودت بشرتهم منهم بشمس الجهات المدارية أو غلظت تقاطيع وجوههم وتغيرت شعورهم بامتزاجهم بالدم الأثيوبي يظهرون نفوراً شديداً من تسميتهم باسم سودان فبربر جبال أطلس وحتى عموم التوارك الذين وجدوا في ظروف ساعدتهم على حفظ دمهم خالصاً كلهم في الحقيقة أوريون من حيث شكلهم الطبيعي وكثيرون منهم ليسوا أكثر سماراً من أهالي صقلية أو الأندلس وكثيرون منهم أيضاً يرض كفر نسوى الشمال وإذا قارنا البربرى بالعربى أو الأوربى لوجدناه يختلف في هيئة الوجه فقط لا في الصورة الأصلية فوجهه ربما كان أقل استطالة عن وجه العربى وأنفه أقصر وأقل تحديداً عن العربى وفكه وذقنه أكبر منهما عند العربى ومجموع جسمه أقل رشاقة وعينه وشعوره سود على العموم ومع ذلك فأننا كثيراً ما نجد بين البربر عيوناً زرقاء وشعوراً شقرآ كما سبق مما لا يوجد عند العربى قال بعض السياحين أن الكثير من القبائل ذوى اللون الفاتح والشعور الشقرآ يشبهون فلاحي أوربا الشمالية أكثر من مشابهتهم سكان أفريقيا وذكر كثيرون غيره هذا القول وقد نسبوا هذا التباين فى الغالب إلى الاختلاط بالوندال ثم بجالية الرومان غير أن هناك من الأقوال ما ينقض ذلك منها دليل قبل زمن هيرودوت يذكره سيلكس فى سياحته وهو قوله أن هناك قبيلة شقرآ نازلة حول خليج سرت الصغير فى أيلة تونس الحالية ثم أننا نشاهد بين الصور

الرسومة بالهياكل المصرية التي يصعد تاريخها إلى القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر قبل الميلاد أمم أفريقيه الغربية مرسومين بجلود حمراء وعيون زرقاء وشعور حمراء أو شقراء وهذه الخصوصية وهي خصوصية الصورة الشقراء بين البربر ليست في قبائل بلاد الجزائر فقط بل توجد أيضاً بين شلوخ مراکش وتوارك الصحراء حتى أن الشعور الشقراء وهي بين كل قبائل البربر تعتبر من علامات الجمال في النساء ويشاهد هذا التمييز على قلته بالبلاد التي كانت تسكنها البربر بأفريقيه الشرقية قديماً فهو عند قبائل أفاير بتاجورة كما هو عند القبائل الأخرى النازلين حول خليج سرت وقد بسطنا الكلام نوعاً على هذه الميزة الطبيعية لأنها تلازم جنس البربر وربما كان من المفيد أن نذكر أيضاً أن هناك خاصية مشابهة لهذه الخاصة بين أغلب الأجناس ذوى الشعور السوداء الذين هم من الأصل الهندى الأوربى فأنها في إيران والقوقاز وبين الصقاله وقدماء الأغريق كما هي بين الحديثين منهم وبين القلت (Celts) وغيرهم من الأمم لغة البربر وكتابهم - أعلم أن البلاد التي تسود فيها الآن لغة البربر بتبندى من سيوه شرقاً حتى مراکش غرباً ومن هناك تنحدر نحو الجنوب والجنوب الشرقى حتى سواحل سنغال ونهر ديوليا عند أطراف بلاد السودان وذلك عبارة عن بلاد فزان وما جاورها من الواحات وجهات أطلس وكل الصحراء الغربية واعلم أن اللغة البربرية ليست هي المنتشرة بمفردها في هذا الأتساع العظيم بل تزاوجها بالجهات المذكورة اللغة العربية حيث تنزل قبائل

عربية عديدة ولكن للبربرية السيادة ولا حرج عليها في ذلك لأنها في نفس بلادها بل أن مزاحمة العربية لها وتعديها عليها يعد ظلماً وعدواناً واللغة البربرية واحدة في اعتبار العلماء ولكنها تنقسم في اصطلاح القبائل إلى لهجات كثيرة وتنقسم تلك اللهجات أيضاً إلى أقسام أخرى وقد علم أهل أوربا بوجود اللغة البربرية بالشمال الغربي من أفريقيا من منذ نحو قرن من الزمان واعلم أن استيلاء فرنسا على الجزائر صير للدراسة هذه اللغة أهمية سياسية وعلمية (وكان ذلك من سنة ١٨٣٠) وحصلت من هذا الوقت أبحاث جدية أخذت أهميتها تظهر بالتدريج وألف كثير من أبواب البحث مؤلفات عديدة في لغة البربر ولهجاتهم وألف آخرون في العلاقات التي بين لغة البربر واللغات السامية وفي العلاقة التي بينها وبين القبطية ولغة النلا وتزداد أهمية هذه الأبحاث كلما زاد علم العلماء بأصل البربر وتوارك الصحراء ويسمى شلوح مراکش لهجتهم باسم تماشك أو تمازغت وسندكر معنى هذه التسمية عند الكلام على التوارك

ولم يحافظ التوارك فقط على لغتهم التي كان يتكلم بها أهل نوميديا وقبائل الجيتول^(١) كما حافظ عليها أيضاً سكان الواحات وسكان أطلس بل أنهم حافظوا

(١) Gétules - هم قبائل حرية كانوا يترلون قديماً جنوبي نوميديا من أول بلاد النجرم منحت حتى بحر الظلمات وكثيراً ما جندت منهم قوّلاً جنّة عسكرياً وأشهر أئمتهم الجيتول المذكورون والجيتول السود والأثولول والتامبل ويقال أن الجيتول أول من سكن أفريقيا وكانت معيشتهم همجية بالمرّة وأقدم ملوكهم يسمى لارياس وكان

كذلك على شيء لا يوجد عند البربر الآخرين ألا وهو الكتابة البربرية التي يصعد تاريخها على الأقل إلى زمن تأسيس قرطاجته ويبدأ اكتشاف هذه الكتابة التي لم يكن يحلم بوجودها أحد بأوروبا ولم يذكرها العرب من الحوادث المهمة الجديدة لأن اكتشافها كان في سنة ١٨٢٢ فقط (ومع ذلك فقد أشار ليون الأفريقي إلى وجودها إشارة ولكنها مبهمه وذكرها الأدريسي في كتابه) أما كيفية هذا الاكتشاف فهي أن سائحاً فرنسياً يسمى الدكتور أودنى (Dr. Oudney) شاهد في سفره من مرزوق إلى غات حروفاً منقوشة على صخور هناك ولما كانت هذه الكتابة لم يذكرها أحد من قبل لم يعرف السائح المذكور في بادئ الأمر إلى أي الكتابات يجب أرجاعها ثم لما أخبره الأهالي هناك بمضمونها اعتقد أنه كانت لهم كتابة خاصة بهم بجارة للعرب في ذلك وفي سنة ١٨٤٥ سمع أحد ضباط الفرنسيين بمالة قسطنطينه بوجود كتابة مستعملة لدى سكان واحة توات تسمى تفيناج وقلوا له منها اثني عشر حرفاً ولما نظر فيها وجدها توافق الأحرف التي رسمها السائح أودنى المتقدم ومن ذلك الوقت شاهد السياح هذه الأحرف والكتابات أو ما يقاربها بواحات غدامس وبنغازي وغيرها ولما شاهد تلك الأحرف علماء أوروبا الذين معاصراً لاديدون ولما هزم جوغرطه التجأ اليهم وألف منهم جيشاً تمكن به من متابعة القتال مع الرومان زمناً طويلاً ويظن أن بعض القبائل يلاذ الجزائر متأسل منهم

يشتغلون بالكتابات السامية القديمة اندهشوا جداً لمشابهتها الأحرف اللوية التي علمت من نحو قرنين مضيا والتي شوهدت محفورة بجانب كتابة قرطاجنية على قبر واقع على يمين أو ثلاثة ألى الجنوب من خرائب قرطاجنه وقد صدق العلماء في ظنهم وقامت الأدلة والشواهد على ذلك قال بعض العلماء أن الحروف الهجائية اللوية أو النوميديّة التي يستعملها البربر الآن كما في السابق في كتابة لغة غير سامية هي إحدى المشتقات المديدة الآتية من الكتابة الآرامية القديمة الأصلية وأنها تشبه في بعض أجزائها بل وتقرب منها أكثر من قربها من اللغة الفينيقية ولا يذهب الظن بالقارىء مع ذلك ألى أن اللويين وصلت أليهم الكتابة من قوم أقدم عهداً من الفينيقيين أنفسهم وكل ما يمكن استنتاجه من ذلك هو أن الحروف اللوية هي من الحروف الفينيقية خرجت منها في عصر يصعد ألى ما قبل العصر الذي وضعت فيه الحروف الفينيقية التي وصلت ألىنا اه العرب الفاتحون - أن العرب الذين سكنوا أفريقيا الشمالية عند أغارتهم عليها في نهاية القرن السابع من الميلاد وفي منتصف القرن الحادى عشر على الخصوص وحكموها لونهم أشد سماراً من لون البربر وهم أيضاً أقل منهم قوة أجسام ولكنهم أذكى وأمهر في معرفة حيل وأساليب الحكم ويطلق على عموم الذين ينزلون منهم الجنوب ويميشون وسط الشلوخ والحراثين أسم عرب كأنهم هم الذين يشخصون أمتهم ويزيد عددهم هناك عن نصف مليون ولهم الغلبة العظمى بالمدن وكلهم ينزلون أمكنة معينة من الأرض ألا الذين

منهم في جنوبي جبال أطلس قال في الاستقصاء

« أن أرض أفريقية والمغرب لم تكن للعرب بوطن في الأيام السالفة لا في الجاهلية ولا في صدر الإسلام وإنما كان للمغرب وطناً لأمة البربر خاصة لا يشاركونهم فيه غيرهم ولما جاءت الملة الإسلامية وأظهرها الله على الدين كله زحفت جيوش المسلمين من العرب إلى أرض المغرب في جملة ما زحفت إليه من أقطار الأرض لكن العرب الداخلون إلى المغرب في ذلك العصر إنما كانوا يدخلون إليه غزاةً مجاهدين على ظهور خيولهم فيقضون الوطر من فتح الأقطار والأمصار ثم ينقلب جمهورهم إلى وطنهم ومقرهم من جزيرة العرب وأن بقي القليل منهم به فأنما كانوا يستوطنون منه الأمصار دون البادية ويسكنون القصور دون الخيام فلم تكن العرب تسكن المغرب يومئذ بقبائلهم وخيامهم ولا استوطنوه بأحيائهم وحللهم كما هو شأنهم اليوم لأن الملك الذي حصل لهم والغلب الذي مكنتهم الله منه كان يتمتع من سكنى البادية ويمد لهم إلى الحاضرة ولا بد فكانت الخيمة بأرض المغرب معدومة رأساً أو قليلة جداً لبعض البربر ممن كان يتخذها منهم وهم قليل وإنما كان يسكن منهم بالمداشر وكهوف الجبال واستمر الحال على ذلك إلى أواسط المائة الخامسة فدخلت العرب أرض أفريقيا واستوطنوها بحللهم وخيامهم ثم لما كانت أواخر المائة السادسة في دولة يعقوب المنصور رحمه الله نقل الكثير منهم إلى المغرب الأقصى فاستوطنوه بحللهم وخيامهم كذلك وصارت أرض المغرب منقسمة بين أمتين أمة العرب أهل اللسان

العربي وأمة البربر أهل اللسان البربري بعد أن كانت بلاداً خاصة بالبربر
لا يشاركون فيها غيرهم كما قلنا»

«وأما خبر دخول العرب إلى المغرب والسبب فيه فقد ذكر المؤرخون
أن بني سليم بن منصور وبني جشم وبني هلال وكلهم من مضر وأن كهلان
من بني قحطان انتقلت إلى أفريقيا والمغرب وانتقل إليها أيضاً غيرهم من
القبائل لكنهم ليسوا بمشهورين كالأربعة المذكورة وذكر المؤرخون أن بني
سليم بن منصور وبني هلال بن عامر المذكورين لم يزالوا بجزيرة العرب برهة
من الدهر إلى أن مضى الصدر من دولة بني العباس وكانوا أحياء ناجحة
بأرض الحجاز ونجد فبنو سليم مما يلي المدينة المنورة وبنو هلال في جبل
غزوان عند الطائف ثم تميز بنو سليم والكثير من هلال بن عامر إلى البحرين
وعُمان وصاروا جنداً للقرامطة ثم غلب القرامطة على بلاد الشام وظاهرهم
على ذلك بنو سليم وبنو هلال ثم انتقلت دولة العبيديين من أفريقيا إلى مصر
وغلّبوا القرامطة على الشام وانتزعوه منهم وردوهم على أعقابهم إلى البحرين
ونقلوا أشياعهم من بني سليم وبني هلال فأنزلوهم بصعيد مصر في العُدوة
الشرقية من بحر النيل فأقاموا هنالك وكان لهم أضرار بالبلاد ولما انتقلت
الدولة العبيدية من أفريقيا إلى مصر كما قلنا استنابوا على أفريقيا بني زيري
ابن مناد الصنهاجيين فلكوها وكانوا يخطبون للملك العبيديين على منابرهم
ويضربون السكة بأسمائهم ويؤدون إليهم أتاوة معلومة وطاعة معروفة ولما

انساق ملك أفريقيا إلى المعز بن باديس بن المنصور بن بُلْكَيْن بن زيري بن
مناد الصنهاجي سنة ٤٠٨ كان له رغبة في مذهب أهل السنة خالف فيه أسلافه
الذين كانوا على مذهب الشيعة الرافضة وكان الخليفة من العبيديين بمصر يومئذ
المستنصر بالله معذَّب الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز لدين الله والمعز
هذا هو الذي انتقل إلى مصر وبني مدينة القاهرة وكان المعز بن باديس
الصنهاجي لا تزال المراسلات والهدايا تختلف بينه وبين المستنصر العبيدي
صاحب مصر كما كانت أسلافهما ثم أن المعز بن باديس ركب ذات يوم
لبعض مذهبه وذلك في أول ولايته فكبا به فرسه فنادى مستغيثاً بالشيخين
أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فسمعت العامة وكان جمهورهم سنية فتاروا
بالرافضة وقتلوهم أبرح قتل وأعلنوا بالمعتقد الحق ونادوا بشعار الأيمان وقطعوا
من الآذان حتى على خير العمل وكانت هذه الواقعة في أيام الظاهر العبيدي
والد المستنصر فكاتب المعز بن باديس في ذلك فاعتذر إليه بالعامة فأغضى عنه
واستمر بن باديس على أقامة الدعوة لهم والمهاداة معهم وهو في أثناء ذلك
يكاتب وزيره القائم بأمور دولتهم أبا القاسم علي بن أحمد الجرجاني ويستميله
ويعرض يبنه عبيد وشيعتهم ويفض منهم ثم هلك الوزير أبو القاسم سنة ست
وثلاثين وأربع مائة وولى الوزارة بعده أبو محمد الحسن بن علي اليازوري أصله
من قرى فلسطين وكان أبوه فلاحاً فلما ولى الوزارة خاطبه المعز بن باديس
دون ما كان يخاطب من قبله من الوزراء كان يقول في كتابه إليهم عبدكم

وصار يقول في كتاب اليازورى صنعتكم فخذ ذلك عليه وصارت القوارص تسرى من بعضهم إلى بعض إلى أن أظلم الجو بين المعز بن باديس وبين المستنصر العيىدى ووزيره اليازورى فقطع ابن باديس الخطبة بهم على منابرهم سنة ٤٤٣ وأحرق بنود المستنصر ومحا اسمه من السكة والطراز ودعا للقائم العباسى خليفة بغداد وجاء خطابه وكتاب عهده فقرأه بجامع القيروان ونشرت الرايات السود وهدم دور الأسماعية وبلغ الخبر بذلك كله إلى المستنصر بالقاهرة فقامت قيامته قفاوض وزيره أبامحمد الحسن بن على اليازورى فى أمر ابن باديس فأشار عليه بأن يسرح له العرب من بنى هلال وبنى جشم الذين بالصعيد وأن يتقدم اليهم بالاصطناع ويستميل مشائخهم بالمطاء وتولية أعمال أفريقيا وتقليدهم أمرها بدلا من صنهاجة الذين بها لينصروا الشيعة ويدافعوا عنهم فان صدقت الخيلة فى ظفرهم بابن باديس وقومه صنهاجة كانوا أولياء للدولة وعمالا بتلك القاصية وارتفع عدوانهم من ساحة الخلافة وأن كانت الاخرى فلها ما بعدها وأمر العرب على كل حال أهون على الدولة من أمر صنهاجة الملوك فبعث المستنصر وزيره الى هؤلاء الاحياء وأرضخ لامرائهم فى المطاء ووصل عامتهم بغير وديار لكل واحد منهم وأباح لهم أجازة النيل وقال لهم قد أعطيناكم المغرب وملك ابن باديس العبد الآبق فلا تشكرونا بعدها وكتب اليازورى الى المعز «أما بعد فقد أتمدنا إليك خيولا خولا وأرسلنا عليها رجالا كهولا ليقضى الله أمرآكل مفعولا» فشرهت العرب

اذذاك وعبروا النيل إلى برقة فزلوا بها واستباحوها وافتحوا أمصارها
وأعجبتهم البلاد فكتبوا لأخواهم الذين بقوا شرق النيل يرغبونهم في البلاد
فأجازوا إليهم بعد أن أعطوا للمستنصر لكل رأس دينارين فأخذ منهم أضعاف
ما أخذوه وتقارعوا على البلاد فحصل لبنى سليم شرقها ولبنى هلال غربها
ثم انتشروا في أقطار أفريقية مثل الجراد لا يبرون بشيء إلا أتوا عليه
وبالجملة فلم تمر ألا مدة يسيرة حتى استولوا على ضواحي أفريقية ونازلوا
أمصارها واقتضوا من أهلها الأتاوة وحصروا ابن باديس في قصره وصاهرهم
بيناته تأييداً لهم ومع ذلك فلم يجد شيئاً

«قال ابن خلدون ولهوؤلاء الهلاليين في الحكاية عن دخولهم إلى أفريقية
طرق يزعمون أن الشريف ابن هاشم كان صاحب الحجاز ومكة ويسمونه شكر
ابن أبي الفتوح وأنه أصر إلى الحسن بن سرحان في أخته جازيه فأنكحه
أياها وولدت منه ولداً اسمه محمد وأنه حدث بينهم وبين الشريف المذكور
مفاضلة وقتته فأجمعوا الرحلة عن أرض نجد إلى أفريقية وتحملوا عليه في
استرجاع أخته جازيه المذكورة فطالبته بزيارة أبويها فأزارها أيامهم وخرج
بها إلى حلهم وأقام معها مدة الزيارة فارتحلوا به وبها وكتبوا رحلتهم عنه
وموهوا عليه بأنهم يباكرون به للصيد والقتص ويروحون به إلى بيوتهم
بعد بنائها فلم يشعر بالرحلة إلى أن فارق موضع ملكه وصار إلى حيث لا يملك
أمرها عليهم فقارقه ورجع إلى مكانه من مكة وبين جوانحه من حبها داء

دخيل وأنها من بعد ذلك كلفت به مثل ما كلف بها إلى أن ماتت من حبه
ويتناقلون من أخبارها في ذلك ما يعني على خبر قيس وليلى ويروون كثيراً
من أشعارها محكمة المباني مثقفة الأطراف وفيها المطبوع والمتحل والمصنوع
لم يفقد فيها من البلاغة شيء وأما فقدتها الأعراب فقط ولا مدخل له في
البلاغة وفي هذه الأشعار شيء كثير دخلته الصنعة وفقدت فيه صحة الرواية
فلذلك لا يوثق به ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد بآياتهم ووقائعهم
مع زناته وحروبهم وضبط لأسماء رجالهم وكثير من أحوالهم لكننا لا نثق
بروايتها وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع منها وغيره وهم متفقون على الخبر
عن حال جازية هذه والشريف خلقاً عن سلف وجيلاً عن جيل ويكاد القادح
فيها والمستريب في أمرها أن يرى عندهم بالجنون لتواترها بينهم إلى أن قال
ومات الشريف شكر المذكور سنة ٤٥٣هـ وولي بعده أبنة محمد الذي يزعم هؤلاء
الهلايون أنه من جازية هذه»

«هذا هو سبب انتقال هؤلاء العرب من الحجاز ونجد إلى أفريقيا وأما
سبب انتقالهم من أفريقيا إلى المغرب الأقصى فقد ذكرنا أن بني سليم
بن منصور وبني هلال بن عامر اقترعوا على بلاد أفريقيا فكان لبني سليم
شرقها ولبني هلال غربها ثم تغلبوا على ضواحيها وأمصارها وضائقها ملوكها
بها وانضم إلى بني هلال ابن عامر بنو جشم فملت أيديهم على الجميع واستمر
أمرهم على ذلك إلى أن كانت دولة يعقوب المنصور الموحدي رحمه الله وثار

ابن غانية عامله ببلاد أفريقيه فظاهرتة العرب من جشم وهلال على الموحدين وأوقعوا بمقدمة المنصور فمض أليهم من تونس وأوقع بالثمين أولاً ثم بالعرب ثانياً وقد جمعهم واتبع آثارهم إلى أن شردهم إلى صحارى برقه وانزع تلك البلاد من أيديهم ثم راجعوا بصائرهم فأثوه خاضعين طائعين وكان الذين قاتلوه أولاً ثم راجعوا طاعته ثانياً هم قبائل هلال بن عامر وجشم بن معاوية بن بكر وهم أصحاب غرب أفريقيه وأما بنو سليم بن منصور فلم يقاتله منهم أحد فلذلك بقى بنو سليم بأرض أفريقيه ونقل المنصور رحمه الله بنى هلال وبنى جشم إلى المغرب الأقصى حين أثوه طائعين وكان ذلك سنة ٥٨٤هـ فأنزل قبيلة رياح من بنى هلال ببلاد الهبط فيما بين قصر كيتامه المعروف بالقصر الكبير إلى ساحل البحر الأخضر فاستقروا بها وطاب لهم المقام وأنزل قبائل جشم بلاد تامسنا ما بين بلاد مراکش وهى أوسط بلاد المغرب الأقصى وأبعدها عن الثنايا المقضية إلى القفار لأحاطة جبل درن بها فلم ييموا بعدها قفراً ولا أبعدوا رحلة اهيمض تصرف

٢ المغاربة—أما المغاربة الذين يسميهم الأفرنج مؤر (Maures) فانهم متناسلون من الجنسين السابقين ومن الذين أخرجوا من الأندلس بعد ضياع غرناطة (١٤٩٢ م) وقد بقى فيهم اللون القاتم لون البربر ودهاء العرب ويتصفون على العموم بموائد وأخلاق يمتازون بها عن غيرهم ويشغل أغلبهم بالتجارة

والصناعة وهم فوق العرب هناك ثروة وعلماً ويشغلون الوظائف العليا في الدولة ومنهم الحكام في البلاد الخاضعة للسلطان وقد أطلق بمض العلماء هذا الأسم الآن على قوم تفرقوا هناك في جهات متباعدة اختلفت صفاتهم كما اختلفت عناصرهم ولما كان أغلب السكان الأقدمين بأفريقيه الشمالية من البربر كان في الأماكن أن تقول أن أولئك المغاربة (مور) هم عموماً وقبل كل شيء برابر لغتهم العربية أو أنهم قد استعربوا وكان نفس هؤلاء البربر يتألفون قبل الفتح الإسلامي من خلاسين خصوصاً بالمدن القديمة التي كان يحكمها الرومان ومنهم أقوام كانوا قد انحلوا في عناصر سوداء مثل مغاربة السنغال الذين يقولون أنهم عرب مع أنهم سودان حقيقيون بلون بشرتهم وشكل شعورهم أمالونهم في الغالب أسمر فاتح وشعورهم كالصوف تشبه شعور السودان وتقاطيع وجوههم تشبه البربر وأهل أوروبا والعرب وقد كانوا في أسبانيا أرقى السكان وأعلام حضارة

والرومان أول من سمي سكان أفريقيه الشمالية بأسم مور كما سمو بلادهم موريتانيا وكان يطلق هذا الأسم في وقت الفتح الإسلامي على سكان المدن المختلطة الدماء ولما استولى المسلمون على أسبانيا أطلق الأيبانيون لفظ مور على أولئك العرب الذين فتحوا بلادهم وقد بلغ المغاربة المذكورون أو عرب أسبانيا درجة عالية في الحضارة التي شادوا صروحها ووطدوا

دعائهم مما ساعد كثيراً على ترقى الحضارة بأوروبا الجنوبية هذا وبعد سقوط
غرناطة بقي بعضهم بأسبانيا ثم اعتنقوا الدين المسيحي ظاهراً واضطهدهم
الأسبانيون بقساوة وأظهروا عليهم تعصباً شديداً مع خلودهم للسكنة مما
اضطربهم للقيام بثورتين عظيمتين أحدهما في سنة ١٥٦٨ م والثانية في سنة
١٦٠٩ م وبعد ذلك خيرهم الأسبانيون في الرحلة فهاجر معظمهم ثم طردهم
الأسبانيون جميعاً تقريباً ولم يبق منهم إلا بقية ضئيلة التجأوا إلى الجبال أما من
وصل منهم إلى بر العدو سلماً فانتشر في أفرقيته وازداد به عدد سكان المدن
ويطلق أهل أوروبا الآن لفظ مؤر في تلك البلاد على كل طبقة التجار تقريباً
وهم أقوام يتألقون من عناصر بربرية وعربية وأسبانية وهم يبيض البشرة
مهاجرو الطلبة يرسلون لحاهم في العادة وتميل أجسامهم إلى السمن ويتصفون
بما يتصف به التجار من الفضائل والذائل ولقنهم العربية يدخلون عليها ألفاظاً
بربرية وأسبانية كثيرة ولا يزال بعض العائلات منهم إلى الآن يفتخر
بالانتساب إلى الأندلس وكثيرون منهم يحفظون أنسابهم لتصل بهم إلى
أصل أندلسي

أما مغاربة السنغال النازلون شمالي هذا النهر كالطرازه والبراكنه
فكلهم خلاسيون تناسلوا من السود والعرب والبربر أو اختلطوا بالعرب
والبربر الخالص وهم يشبهون مؤر أو مغاربة بلاد البربر شكلاً غير أنهم يشتغلون
برعاية الماشية وهم حريون ويتألقون من طبقات اثنتان منهما للأمة القائمة وهما

الحريون والمرابطون والثالثة الأتباع والرابعة العبيد

هذا وبجزيرة سيلان نحو ٢٠٠.٠٠٠ من المور كلهم خلاسيون تناسلو من العرب الذين أتوا من الجهات الجنوبية بجزيرة العرب ومن السِّنْكِليز وهم طائفة من سكان هذه الجزيرة القدماء وقد قبض المور على زمام التجارة هناك وتصرفوا فيها مدة القرن الرابع عشر وفي القرن الخامس عشر تسلطوا على تلك الجزيرة وبقي الحكم في يدهم حتى انتزعه منهم أهل أوربا

٣ اليهود - أما اليهود فأنهم من نسل الذين طردوا من أسبانيا سنة ٦٩٤م بأمر أصدره مجمع الأساقفة بمدينة طليطله ثم طرد الملك فرديناند الكاثوليكي من بقي منهم هناك بعد ثمانية قرون من التاريخ المذكور ويمتازون على الخصوص بصورتهم وأزيائهم كما يمتازون بالذكاء وبميلهم للتجارة وهم الذين يقرضون الحكومة هناك ما تحتاجه من الأموال عند الضرورة ولهذا كانوا أصحاب علاقة بكل المعاملات التجارية بين كبيرة وصغيرة سواء في أعمال الحكومة أو أعمال الأهالي وحالتهم سيئة جداً حتى أنه لولا ما يعود عليهم من القوائد والمكاسب العظيمة لما احتملوا وصبروا عليها وكذلك لولا حماية القبائل لهم في القرى والخلوات لأوقع الناس بهم

قال في صفوة الاعتبار «واليهود يسكنون في المدن وغيرها على صفة أهل الذمة غير أن عوائدهم القديمة معهم تجاوزوا فيها حد الشرع في أهانتهم وأذابتهم حتى فتحوا عليهم باباً لمداخلة الدول بواسطة الجمعيات اليهودية في

ممالك أوربا» وهم يسمون أنفسهم بمطرودى قشتاله وقد اختلف العلماء فى تقدير عددهم والغالب أنهم لا يتقصون عن ٣٠٠.٠٠٠ نفس

٤ السود — أما السود هناك فكلمهم استجلبوا من بلاد السودان عبيداً وحالة جميعهم جيدة فى بلاد لا أثر فيها لاحتقار الألوان تقريباً سيما وأن الكثير من الشرفاء ببلاد مراکش متناسل من أماء سودانيات وينظر إليهم فى الحقيقة كما ينظر إلى الخدم لا كما ينظر إلى العبيد وكثيراً ما يصل الواحد منهم إلى درجة معتبرة من الثروة والجاه

هذا وزيادة عن هذه العناصر المذكورة فإنه يوجد بمراكش عدد قليل من الأروبيين أكثرهم من الأسبانيين ويتلوهم الفرنسيون وكلهم تقريباً يسكنون مدينة طنجة هذا خلاف من يوجد من الأروبيين بالمستعمرات الأسبانية التى على سواحل بحر الروم

اللغة — اللغات المستعملة بمراكش هى البربرية أو لغة تمازغت ثم العربية وتسمى البربرية فى الجنوب باسم شلُوح أو شلاحه ولا يكتب منهما إلا العربية وعربية العامة هناك فاسدة بما التصق بها من التعبيرات والألفاظ الدخيلة ويختام نظفهم بها مع فسادها فى الأقاليم الواحد عنه فى الأقاليم الأخر بحيث تنبو الأذن الصحيحة عن سماع تلك العججات وتحكم بفسادها من أول سماعها لها والعربية التى تخرج من فم اليهود طمطانية لا تفهم تقريباً وكثيراً ما يستعمل أهل تطاوين وطنجة والعرائش اللغة الأسبانية فى كلامهم

ويفعلون بها فعلهم بالعربية وينطق السود بالعربية نطقاً يختلف عن ذلك أيضاً ويستعمل الكثير منهم فيما بينهم لغة الماندينج أولغة ببارا ويسمونهم باللغة الفيناوية (نسبة إلى غاه) ومع ذلك فإن العربية الفصحى تدرس ويتكلم بها العلماء قال في صفوة الاعتبار «ولعمري أن صناعة الانشاء في الدول باللغة العربية كادت الآن أن تكون مقصورة على دولة مراكش وأما غيرها من الدول العربية فقد تذبذبوا وكادت كتابتهم أن تخرج عن الأسلوب العربي بل صاروا لا يتحدثون عن اللحن والكلمات البربرية بخلاف كتاب المغرب وهذا يدلهم من قديم» اهـ

الدين — الدين السائد بهذه البلاد هو الإسلام على مذهب الإمام مالك وقل أن يخرف المغاربة والمرب هناك عن أوامر الدين ونواهيه فيحافظون عليهما محافظة تامة ويتحاشون عن المعاصي وكل قاذح في المدالة والقرآن هو الأصل في قوانينهم ونظاماتهم أما البربر فأكثر قبائلهم لا تعرف من الإسلام إلا اسمه حتى يقول بعض علماء الجغرافيا أن هناك عدة قبائل بربرية لا تعتبر الحنج من قواعد الاسلام والسود مع شدة تمسكهم بأداب الدين يشتغل الكثير منهم بالسحر والعرافه وما مثلها أما اليهود فيقيمون مذهب البرتقال في اليهودية وكلهم جهلاء يميلون للاعتقادات الباطلة ويتمسكون بتعاليم التلمود حرفاً بحرف كما فسرهم علماءهم هناك

عدد السكان — لا شيء أكثر مجاذفة من تقدير عدد سكان مراكش

ولو بكيفية تقريرية فإن عدم يختلف كما ورد عن سياحي أهل أوربا بين مليونين وخمسة عشر مليوناً ولا توجد طريقة أصلاً لتقدير عددهم قال ميسو تيسو (Tissot) وكان قنصلاً لفرنسا هناك أن عددهم لا يقل عن اثني عشر مليوناً وقال اوسكار لنز (O. Lenz) أننا لا نبالغ إذا قلنا أن عددهم يبلغ ثمانية ملايين خصوصاً وأن الكثير من المدن يسكنها عدد عظيم منهم سواء في ذلك مدن الداخل أو المدن التي على ساحل المحيط والمحقق في تقديرهم أن البربر أكثر من العرب وأن العرب أكثر من المغاربة وأن المغاربة أكثر من السود وأن السود أكثر من اليهود وعدم الذي ارتضاه كثير من الجغرافيين الآن يبلغ الاثنى مليوناً تقريباً بينهم نحو ١٩٢٠٠ من أهل أوربا

أقسامها الإدارية — كانت هذه البلاد منقسمة إلى زمن قريب إلى مملكتين منفصلتين عن بعضهما هما مراکش وفاس وكان القتال بينهما لا يقطع تقريباً تريد كل منهما الاستئثار بالنفوذ والسلطان أما الآن فقد توحدت المملكتان ولم يبق منهما إلا عاصمتيهما مراکش وفاس ويقع السلطان الآن تارة في فاس وأخرى في مراکش وعلى ذلك كانت فاس كأنها عاصمة الشمال ومراكش عاصمة الجنوب وتنقسم الدولة إلى أقاليم بكل إقليم عدة قبائل موزعة في جهاته وليس لدينا من الأسانيد ما تمكن به من ترتيب تلك الأقاليم وذكرها ذكرًا صحيحاً قال الدكتور لنز (في كتاب له بالألمانية يسمى سياحة في مراکش طبع في ليبسج سنة ١٨٨٤) أن عمالاتها أربع وأربعون عمالة

منها خمس وثلاثون شمالى أطلس وتسع جنوبيه ويختلف عددها كما تختلف مساحتها كأرادة السلطان وعدد القبائل في كل إقليم يختلف بين قبيلتين وخمسة عشرة قبيلة وكل قبيلة تنقسم إلى أقسام صغيرة يعرف الواحد منها بالدوار في السهل وبالشور في الجبل والدوار عدة خيام ينقلها سكانها من مكان إلى آخر والشور كفر أو قرية صغيرة بيوتها من الحجر أو الطين وسقفها من البوص ولكل قبيلة من تلك القبائل تاريخ أهلى وتقاليد توارونها وألقاب شرف لبيوتاتها وكلهم تقريباً متخاصمون لا يتحدون إلا في النادر ولا يمتزجون ببعضهم أصلاً

الحالة السياسية - الحكومة - ليس لبلاد مراکش قانون لورثة التاج فنصب السلطان هناك في الحقيقة انتخابي فكل مسلم اجتمعت فيه الصفات التي قررها الفقهاء في ذلك يمكنه أن يكون أمير المؤمنين ومع هذا فتاج مراکش وراثي منذ أكثر من ثلاثة قرون في الأشراف الفلاليين الذين تتصل نسبهم بالنبي عليه السلام ألا أن نظام الوراثة لم يرتب في هذه الأسرة أيضاً فقد انتقلت السلطنة والخلافة على التعاقب لمن كان منهم أسعد حظاً وأكثر قوة فكانت من الأب للأبن قارة وأخرى من الأخ لأخيه أو من العم لابن أخيه ويحصل أن ينتخب السلطان الحاكم ولي عهده ألا أن هذا الانتخاب لا يكون نهائياً ألا بعد أن يعلن أمره في فاس وقت خلو كرسي السلطنة ويقرره مجلس الأعيان الذي يتألف من العلماء وقواد الجنود وكبار تجار العاصمة قال في صفوة الاعتبار «أن المتولى لا يمهّد إلى معين من عائلته وإنما له أن يوظف

منهم من رآه أهلاً في كبار الأعمال وعند فقد السلطان تجتمع أعيان الموظفين والعلماء وأعيان الأهالي وينتخبون أحد أعضاء العائلة ويبايرونه بالسلطنة وبقية أعضاء العائلة يجب عليهم قراءة العلم ومن يوظفه منهم السلطان يشتغل بوظيفته ومن لا وظيفة له يشتغل بصناعة يتميش منها وهي لا تكون إلا عالية كالتيجارة والتدريس والفلاحة ومع ذلك يجبل لهم من بيت المال شيء لا يكاد يسد من عوز» اهـ

والسلطان مطلق التصرف في الأمور السياسية فقط وأرادته تقريباً هي القانون إلا ما خالف منها الشرع وقوانينهم مستمدة من الشرع الشريف أكثر منها في أي مملكة إسلامية أخرى وليس هناك وزير أو وزارة بالمعنى المقصود منها في الممالك الحديثة الحضارة وكل الأحكام يصدرها السلطان ولو في الشكل على الأقل وهو المسئول عن كل أعمال حكومته تقريباً ويستنوب عنه كبار الموظفين وأهل الوجاهة في الدولة ولكل إقليم مشايخه وأعيانه ومنهم يتألف مجلس يسمى في البلاد المستقلة مجلس الأربعين وهو يحكم عادة بما يراه مناسباً جاعلاً مع ذلك القرآن وجهته والسرع أمه وفي بعض الظروف يعين السلطان حاكماً يعرف عندم بالعماد أو عدة قواد لحكم وأدارة الإقليم ويشترط عليهم الاهتمام بتأمين الطرق وتقديم الجنود والخيل التي تطلب منهم للجيش عند الضرورة وأن يقبضوا الخراج ويبعثوا لدار الخزن أي الخزانة السلطانية في الأعياد الكبيرة من السنة كل ما يمكنهم الحصول عليه من النقود للسلطان وحاشيته

هذا وفي مراکش شخص غير سلطانها يبادل نفوذه نفوذه أن لم يفقه وهذا الشخص هو شريف ورّان وهو متصل بالنسب بالنبي عليه السلام لأنه من نسل مولاي أدريس فاتح المغرب وهو أيضاً الرئيس الأكبر للطريقة الصوفية المنسوبة لمولاي الطيب وهذه الطريقة أتباع حتى بمصر وبلاد الجزائر وتونس وطرابلس وهذه المنزلة الرفيعة التي للشريف الموما إليه ترتكز على اختصاصه بتقليد سلاطين المغرب منصبهم وعلى ما يلزم ذلك الاختصاص من الأمتياز في القضاء بين الناس مستقلاً في ذلك عن السلطان تماماً وترتكز أيضاً على كونه رئيساً لطريقة مولاي الطيب المتقدمة الذكر ويبلغ أتباعها أكثر من نصف الأمة المراكشية ومنها كل الشرفاء تقريباً حتى نفس السلطان وعلى ذلك كان نفوذ شريف وزان عظيماً جداً حتى أن السلطان كثيراً ما يستعين به في أخماد الثورات والمشهور أن هذا الشريف تحت حماية فرنسا

والأحكام هناك يصدرها القضاة طبقاً للشريعة الفراء ولكن لما كانت هذه الأحكام في المواد المدنية والتجارية لا تنطبق على عادات الأوربيين نالت دول أوروبا لقناصلها أمتياز إصدار الأحكام بين المتقاضين من غير استثناء سواء كانوا أوربيين أو كان بعضهم أوربيين والآخر مراكشياً ولاوربيين ومن كان في حكمه أن يرفع شكواه إذا أراد للقاضي الشرعي وفي هذه الحالة تخوله المعاهدات حق رفع الاستئناف إلى ذات السلطان أو لأحد نوابه وهم موظفو الإدارة

وعلى ذلك ليس للقاضي الشرعى الحق أصلاً فى إصدار حكمه ألا متى كان الخصمان من رعاياه وأكبر القضاة هناك هو قاضى الجماعة ومقامه بمدينة فاس ويمينه السلطان وهو يعين بقية قضاة الأقاليم والمقاطعات وهؤلاء يعينون من دونهم كما سبق وللناس الحق فى التقاضى أمام قاضى الجماعة مباشرة بدون أن يرفعوا ظلامتهم لمن هم أقل منه درجة ومتى حكم القاضى بالأعدام لا ينفذ حكمه ألا بتصديق السلطان وكثيراً ما يأمر السلطان بقتل العصاة والثوار من غير محاكمة وحكم التعزير ينفذ على أى شخص كان متى قال به القاضى قال فى صفوة الاعتبار « وأغلب الأحكام الشخصية يحكم فيها بالشرع والمباشر للحكم هو قاضى يُختار من أعلم الموجودين والمذهب العام هو المذهب المالكي ولهم مفتون يوليه القاضى وبعضهم يوليه السلطان وهؤلاء المولون من السلطان يستشيرهم القاضى عند طلب الخصم للشورى فى حكمه أو عند توقف القاضى فى وجه الحكم وهكذا فى كل مدينة أو قبيلة قاض وجميع ما يرجع إلى تلك المدينة من الأيالة يرجع إلى ذلك القاضى وله نواب فى القرى الصغيرة وفوق الكل قاضى فاس وهو قاضى القضاة وفى فاس قاضيان بهذه الصفة كل منهما مستبد بجهة من المدينة وما يتبعها لأنها تنقسم إلى فاس القديمة وفاس الجديدة إلى أن قال وهذا القاضى هو الذى يولى جميع القضاة ألا قضاة مراکش فلا دخل له فيهم اللهم ألا إذا أراد السلطان أن يولى أحد علماء فاس قاضياً بمراكش فيثبذ يستشير قاضى فاس فى تعيين القاضى وكل

مكان يشتمل على قاض له وال يسمى في عرفهم قائداً له فصل النوازل العادية والسياسية وبعض الشخصيات والدولة مركبة من السلطان والوزير والحاجب ووزير القضايا وكتبة ورؤساء للجند ولجهاز سياسية » اهـ

ويدير مالية الدولة موظف كبير يمرض على السلطان كل مسائله وجميع الأيرادات مهما كان نوعها سواء كانت إيرادات الدولة أو إيرادات الأملاك السلطانية تدخل كلها في خزانة واحدة والأيرادات هي إيرادات الأملاك السلطانية والهدايا والعشور والمصادرات والجمارك والمكوس وما يؤخذ على دواب الحمل وأموال الأتزام والجزية وغير ذلك أما المصروفات فهي ما يصرف على الجيش وقصر السلطان وحاشيته ومرتبات بعض الموظفين ومرتبات الموظفين السياسيين في طنبجه ومرتبات سفرائهم في الخارج ثم ما يرسل سنوياً إلى الحرمين الشريفين وغير ذلك وعلى كل فإن الأيراد أكثر من المنصرف بكثير في العادة بحيث يتوفر في الخزانة سنوياً مبلغ جسيم

أما سبب زيادة الأيراد عن المنصرف بهذه الكيفية فلأن مراکش لا تهتم بأصلاح الطرق والثغور البحرية والأعمال العمومية هناك قليلة جداً وجيشها المنظم قليل العدد وكثير من موظفيها لا مرتبات لهم وللجوامع والزوايا والأضرحة أموال من غير الحكومة سيما وخارج المقاسمة وهو دفع الضرائب من جنس المحصول يسهل على الحكومة القيام بأطعام القصور السلطانية ويوزع بعضه على الجيش وما بقي يباع لحساب الخزنة والحاصل

أن ما تصرفه الممالك الأخرى من الأموال لا وجود له في مراکش بالمرّة
أو هو بها قليل جداً وقد أنهكت الثورات الداخلية الآن خزانة مراکش
وزادت مصاريفها بتأليف البوليس في الثغور وأصلاح الجيش والقيام ببعض
الأعمال النافعة وغير ذلك بحيث أصبحت تمديدها للأستدانة من أوروبا ولا
تخفى ما يجره عليها ذلك من الويلات

الجيش - يتألف الجيش من فرقة تعرف بالبخارية كل جنودها سود
فرسان وهم حرس السلطان الخاص يرافقونه في كل حروبه وقد اشتهروا
بالصدق في طاعتهم للسلطين وهناك فرقة أخرى تعرف بالمخزنية كلهم فرسان
يرث الواحد منهم الجنديّة عن أبيه وهم من أقدم فرق الجيش المراكشي ولدى
كل حاكم من حكام الأقاليم والمقاطعات منهم عدد يناسب سعة أقليمه للمحافظة
على الأمن ونقل رسائله وأوامره ويقولون أنه يجتمع من هذه الفرقة وقت الحرب
أكثر من خمسة وعشرين ألف فارس وهناك فرقة أخرى تعرف بالسكرك
وكلهم رجاله منظّمون وكانوا قديماً يرافقون السلطان أثنى ذهب وهم في نظامهم
وسلاحهم يشبهون المساكر الجزائرية المعروفين بالزواوه والتركو ومن
فرق الجند أيضاً الطوبجية ولا نظام لهم وغالبهم يحترف حرفاً وهم بالثغور
البحرية لأطلاق مدافع السلام للسفن الحربية التي ترسو عليها ويتوارثون
هذا العمل وعددهم قليل

ومنهم أيضاً فرقة تعرف بالبحرية وكانهم بقايا بحرية العمارة المراكشية

القديمة وهم يتوارثون عملهم أيضاً ويخدمون في السفن الصغيرة التي للسلطان وفي زمن الحرب ينضمون إلى رجالة الجيش

هذا أما الرديف فيتألف من كل شخص يقوى على حمل السلاح وللسلطان أن يدعوهم كلهم أو بعضهم متى أراد وهم فرسان ورجالة وسلاح الواحد منهم بندقية طويلة وخنجر كذلك وعلى السلطان أطعماهم فقط فلا مرتبات لهم ويؤكد بعض من لهم اطلاع على أحوال مراکش أن السلطان يمكنه أن يجمع منهم عند اللزوم نحو خمسمائة ألف وربما كان في هذا القول مبالغة كما يقول آخرون

وليس لمراكش الآن سفن حربية ولا تجارية أما السفن التجارية التي يراها الإنسان أحياناً تسير رافعة علماً مراكشياً فكلها نواخذة من الأروبيين وعمالها كلهم تقريباً من الأروبيين أيضاً حتى أن قرصان بلاد الريف المشهور أمرم والذين كانت النصرانية ترتعد خوفاً منهم فيما سبق فالظاهر من أمرم أنهم تركوا تلك المهنة بعد الحرب التي وقعت بين مراكش وأسبانيا في سنتي ١٨٥٩ و ١٨٦٠ واقتصروا الآن على نقل الأخشاب وغيرها إلى طنجة وإلى بعض ثغور المحيط الأطلسي هذا وقد تولت الحكومة الفرنسية إصلاح الجيش المراكشي الآن بعد مؤتمر الجزيرة وتعين أيضاً ضابط أوربي كبير لأصلاح وتعليم بوليس الثغور البحرية وقد ظهرت آثار عمله ظهوراً يائناً

قال في تهويم غوثا^(١) عن سنة ١٩١١ الحالية ما يأتي «ليس بمراكش جيش

عامل بالمعنى الأوربي فالجيش هناك فِرَق مختلفة من الجنود (مِيلِيس) تحرك
 زمن الحرب ومع ذلك فإنه يمكن اعتبار الفِرَق الآتية جيوشاً منظّمة وهم
 الجنّد المعروفون بالسكّر وكلهم رجّالة وفرقة الحرس وجنودها سود وهم
 خيالة (٢٠٠٠ — ٣٠٠٠) والفرقة المروفة بالمخزنية (٨٠٠٠ — ١٠٠٠٠)
 وهم جنّدرمه راكبة وهناك نحو ثمانمائة جندي أيضاً لا يمكن إلحاقهم بحسب
 الفن العسكري بفرقة من الفِرَق المذكورة وقد وُجد الآن عمراً كش من
 سنة ١٩٠٨ فرقة من البوليس تتركب من ألقين وخمسمائة وهم في الثغور
 البحرية المفتحة للتجارة يعلمهم ضباط من الفرنسيين والأسبانيين أما المجموع
 السكلي للجيش المراكشي فلا يمكن تقديره بالضبط هذا أما في زمن الحرب
 فيدعى كل مراكشي لحمل السلاح «اه

حالتها الاقتصادية

﴿ الزراعة — الصناعة — التجارة ﴾

الزراعة — الزراعة يبلد مراكش باقية تقريباً على ما كانت عليه منذ
 عدة قرون لأن الأرض أو المناخ لا يوافقانها بل الحال بعكس ذلك فالسبب
 الأكبر في تأخرها كسل الأهالي وقلة الأمن لدرجة أن الإنسان لا يكون
 متأكداً من أن يحصد ما زرعه لهذا كان الواحد منهم لا يزرع ألا بقدر

أحتياجه مع أن كل نبات يوجد جداً بهذه البلاد التي في أمكانها أن تخرج أكثر مما تخرجه الآن بنحو عشرين مرة خصوصاً إذا أستعملوا الطرق الحديثة في استثمار الزرع ولكن يشترط لذلك أن يأمن الزارع السلب والنهب وأن يمكن من التصدير بطرق تسهل عليه نقل محصولاته إلى الخارج ومع قلة محصولات البلاد بهذه الكيفية ترى دولة مرا كش تمنع تصدير الحنطة والشعير أما آلات الحرثة فبسيطة التركيب وتنطبق على جهلهم بها فالمحراث قطعة خشب منحنية عادية وهم يكشطون وجه الأرض قليلا ويقلبونه مرة واحدة لا غير هذا كل ما يصنعونه في تجهيز الأرض التي تعطى نحو عشرين أو ثلاثين في المئة من التقاوى وقد تعطى أكثر من ذلك كثيراً في بعض الجهات وسماهم ما تتركه الحيوانات من فضلاتها فوق الأرض والذين يسكنون منهم قرب الغابات والنباتات الطويلة (الهيش) يسمدون أراضيهم بالكيفية الآتية وهي أنهم قبل فصل الأمطار بنحو شهر يضعون النار في تلك الحشائش بحيث تعلق بها جميعها ثم بعد زمن يحرقونها غير أن خصوبة تلك الأرض التي تكون عظيمة جداً في أول الأمر تأخذ في التناقص التدريجي إلى أن تزول ولهذا فأنهم يسبخونها وقت ضعفها وهي طريقة لا يمكن أن تحصل في بلاد أخرى ولكن لما كان عدد السكان بمراكش قليلا بالنسبة لمسطح الأرض الزراعية وكانت الأراضي والمروج الجميلة لا تزرع لقلة الأيدي كانت هذه الطريقة جائزة مقبولة

أما القبائل الرحل سكان الخيام فأنهم يوقدون النار في قطع صغيرة من الأرض الواحدة بعد الأخرى إلى أن تأكل النار كل ما أحاط بمساكنهم من الحشائش وبعد زرعها وأخذ غلاتها ينتقلون إلى مكان آخر ويقيمون فيه إلى أن تضطرم قلة خصوبة الأرض إلى الرحلة وهكذا ولا يزرع من أرض مراکش إلا نحو الثلث وربما كان في تربية الماشية ثروة كبيرة للبلاد لو اعتنوا بها أكثر من اعتنائهم الآن ولكنها وللأسف باقية على ما كانت عليه منذ دهور والماشية بمراكش كثيرة جداً تعد بالملايين ولكنهم لا يعملون شيئاً لتحسين أنواعها ولا لحفظها من الأمراض المعدية وكثيراً ما يهلك منها مقادير كبيرة بالجذب وتغير الهواء وأهل مراکش والحق يقال شديدو العناية جداً بشيئين اثنين هما الري وزراعة البساتين ولهم صبر غريب وتحايل عجيب في جلب أصغر السواقي إلى الأرض التي يريدون أرواثها والبساتين التي تحيط بالمدن جميلة جداً بديعة المناظر وافرة الثبات والزهر بكل أنواعه وقد وصل إليهم ذلك بلا شك من أهل الأندلس لأشتهار مسلمي أسبانيا بذلك

الصناعة — أعلم أن الصناعة بمراكش ذات شكل خاص بها وقد بقيت حيث هي لم تتقدم عما كانت عليه منذ قرون سواء في ذلك الآلات والأدوات وكذا الطرق المستعملة فيها والأشياء المصنوعة بالبلاد جميلة تدل على ذوق في الصناعة وتختلف عما هو من نوعها وقد نالت منسوجاتهم ومطرزاتهم وجلودهم المدبوغة وأوانيهم الفخارية وأثاثهم وملابسهم وأسلحتهم وسروجهم وما تعلق بها شهرة

جيدة وأشهر المدن الصناعية بها هي فاس ومراكش والرباط ويصنع في فاس أنسجة جميلة جداً من الصوف والحرير ولأهلها مهارة في تطريز القטיפه ودينج الجلود والصياغة الدقيقة وعمل أوان فخارية يطلونها من الخارج بطلاء بديع كثير الألوان ويصنع في مراكش وتطاوين أسلحة جميلة جداً وأدوات منزلية بديعة وتحتص الرباط وسلا بصناعة البسط والحصر وبكل المدن المذكورة مدابغ ومصانع مشهورة جداً بما يصنع فيها وفي فاس وتطاوين أكثر معامل القرميد والآجر ومنهما يأخذ كل أهالي بلاد مراكش ما يلزمهم منه ولكن لا يستعمله إلا الأغنياء والصياغة في كل المدن في يد اليهود تقريباً ويشتهر أهل الصويرة وتارودانت والسوس زيادة على ذلك بصياغة النحاس والفضة يصنعون منها أوان منزلية بديعة ويرصعون بهما الأسلحة وكل هذه الصناعات المنتشرة بين العرب خصوصاً توصف بقلة وسائلها وبساطة الآلات المستعملة في عملها في بلاد لا تعرف عن الأعمال الميكانيكية شيئاً تقريباً وحاصل الكلام أن الصنائع المراكشية وأن كانت منطبقة على احتياجات الأمة وباقية لم تتقدم إلا أنها كافية لحاجة البلاد

التجارة - ليست تجارة مراكش من حيث الاتساع في المنزلة التي يجب أن تكون عليها في بلاد اشتهرت بالثروة والخصوبة العظيمتين وسبب ذلك العوائق العديدة التي تعوق كل معاملة تجارية وتقف في طريق حريتها وأشهر الثغور التجارية البحرية بها هي تطاوين وطنجة والعرائش وسلا والرباط

والدار البيضاء والجديدة وآسفي والصويرة وهناك تجارة برية بين بعض جهاتها ومدينة تلمسان وتجارة القوافل في يد قبائل الحميان والطرافي وتكون بين تلمسان وواحة غوراره وتافيلت وغيرها

وهناك قوانين تمنع الاتجار ببعض الحاصلات لولاها لاتسع نطاق التجارة جداً وعاد عليها بالمكاسب الوفرة من ذلك أن الجبوب خصوصاً الحنطة منها لا يسمح بأخراجها من البلاد كذلك الخليل والبنال والحمير والضأن والمزكها ممنوع خروجها كذلك وذوات القرن من الحيوانات لا يمكن تصديرها إلا بتصريح خصوصي وبمقادير صغيرة جداً أما إصدار اللحوم وكذا حيوانات الجزارة إلى حامية جبل طارق فإنه حاصل بناء على معاهدة بين مراکش وبين إنجلترا وأهم صادراتها هي الجلود وقرون الحيوانات وعظامها والأصواف وهي أكبر صادراتها وجلود المزر والذرة والبقول والأحذية (البغ) والصمغ وريش النعام وشمع العسل وزيت الزيتون والمنسوجات الصوفية وغيرها أما وارداتها فاشهرها القطن والمنسوجات القطنية والسكر والمأكولات والشاي والحرير الخام والمنسوجات الحريرية والصوفية والكاغد والحديد والصلب والأشياء الصلبة والشمع والنقود الفضية وغيرها

ويقدرون تجارتها الخارجية بأزيد من مائة وأربعة وخمسين مليوناً من الفرنكات (١٩٠٩) ولا إنجلترا المقام الأول في التجارة هناك وتلونها فرنسا ثم ألمانيا ثم بلجيكا ثم أسبانيا والعلاقات التجارية بين هذه البلاد والبلاد الخارجية آخذة

في الازدياد ولكثير من تجار المناربة علاقات تجارية بينهم وبين معامل فرنسا وأنجلترا مباشرة ومع ذلك فإن القدر العظيم من التجارة عموماً في يد اليهود قال في صفوة الاعتبار ولهم اليد الطولى في التجارة بحيث أن تجارة داخل المملكة أغنى غير المراسى التي على البحر هي بيد الأهالي ويرسلون منهم إلى أقاصى الممالك للمعاطاة الأشغال التجارية ووصلها بملكهم حتى لا تكاد تجد مدينة شهيرة للتجارة في إحدى قارات أوروبا وآسيا وأفريقية إلا وفيها من تجارهم من له مزيد الرواج والثروة ولهم براعة في إدارة التجارة بنا كبون بها الأورباوين « اه

ويذهب من هم في سعة من العيش من أهل القبائل من وقت إلى آخر منفردين أو مع القوافل إلى المدن لمبادلة حاصلاتهم بمصنوعات أوروبية ثم يعودون إلى بلادهم يسمون في الحصول على حاصلات أخرى وبيع ما جلبوه معهم وبأغلب الأقاليم سبعة أسواق عمومية أو أكثر تقوم كل أسبوع تنعقد في الخلوات وعلى مسافة قريبة من المساكن لتمكن القبائل من التردد عليها وتقوم بالبلاد المستقلة خصوصاً بلاد السوس ووادي نون أسواق موسمية كبيرة تنعقد كل ستة شهور أو كل سنة وتبقى أياماً ويختلف الناس إليها من كل صوب

طرق المواصلات والنقل - يتردد على الثغور البحرية العظيمة بمراكش سفن البريد الأجنبي مما يوجد المواصلات بينها وبين فرنسا وأسبانيا وأنجلترا

وغيرها وليس بمراكش طرق حديدية ولا طرق لسير العربات ويكون النقل في الشمال بالنغال وفي الجهات الجنوبية بالجمال وأحسن الطرق هناك وأصلحها للسير هي الطريق بين فاس ومكناس ومع ذلك فالعناية بها قليلة وكثيراً ما تضطر القوافل والأفراد لعدم وجود القناطر للمكث عدة أيام على شواطئ نهر طفت مياحه بنزول الأمطار فتجعله غير صالح للمبور ولا يعرف الطرق هناك إلا الأدلاء من الأهالي والسير فيها بطيء متعب والسفار بها عُرْضة للعوارض التي تكون من طبيعة الأرض وفصول السنة زيادة على أن الأمن بها قليل نوعاً وتحصل المراسلات في الثغور البحرية الكبيرة بمكاتب البريد الأجنبي أما في الداخل فيحملها رجال أشتهروا بسرعة السير بحيث يقطع الواحد منهم من أربعين إلى خمسين كيلومتراً في اليوم الواحد قال في صفوة الاعتبار «وكذلك البريد له في كل بلدة شيخ وله أتباع يحملهم المكاتب ويأخذ عليها أجراً زهيداً ويسافر به الحامل ومعه رفيق لكي لا يقع التعطيل بمرض أو غيره ويمشون راجلين ويمكنون المكاتب في كل بلدة بيد شيخ يريدها وهو يوزعها ما لم يعرض أمر خاص فلصاحبه إرسال بريد خاص بأجر وافر على حسب بعد المكان ولأصحاب البريد سرعة في السير أما بريد الدولة فهو في عهدة القياد يرسلونه من واحد إلى آخر إلى أن يصل لمقره وأصحابه ركاب» اهـ وهناك خط تافرا في بين فاس وطنجة وتطاوين

النقود والموازين والمكاييل - لمراكش نقود خاصة بها ومع ذلك فإن

أكثر التقود بها تداولا هي القطعة الأسبانية المسماة دورو والقطعة المسماة يسييتا وكذا القطعة الفرنسية التي يساوى الواحد منها خمسة فرنكات والقطعة الذهبية التي يساوى واحد عشر فرنكا (بينتو) أما الريال النمساوى المنسوب الى مارياتريزه (أبوثيره) فإنه هناك أقل تداولا منه في بقية جهات أفريقيا والتقود المراكشية قطع فضية يسمى الواحد منها درهماً وهو يساوى نحو سبعة وعشرين سنتياً وقد ضرب سلاطين مراکش قديماً تقوداً ذهبية ولما كانت من عيار خالص جداً اشتراها التجار وأرسلوها الى الخارج وما يوجد منها هناك الآن يعتبر تحفة من التحف ومن تقودهم أيضاً الفلوس وهي قطع صغيرة من النحاس المخلوط بالزنك رديئة العيار يساوى الواحد منها سنتياً واحداً ومن بينها ما قيمته سنتيان وأربعة سنتيات وهناك تقود تستعمل في العد فقط ولا وجود لها في الخارج كالإتقال وهو يساوى أربع أوقيات من النحاس وتنقسم الأوقية الى أربع موزونات على اصطلاحهم

والقنطار عندم يساوى مائة رطل مراكشى وذلك يعادل أربعة وخمسين كيلو جراماً تقريباً ويساوى الرطل في الشمال بطنجة وتطاوين خمسمائة جرام ويساوى في الجنوب بالجديدة والصويرة وغيرهما خمسمائة وأربعين جراماً

ومقاييس الأطوال هي الذراع ويساوى ٥٧ سنتمتر أو القنّا وتقاس بها المنسوجات وتساوى ٥٤ سنتمتر أو تباع الخنطة في الجنوب بالمد وهو يساوى ١٤ لتراً تقريباً وفي الشمال بالصاع والكيله ويساوى الصاع سبعة وخمسون

لترًا تقريبًا والكيلو تسعة وثمانون لترًا تقريبًا أما السوائل فتباع بالوزن خلا
زيت الزيتون فإنه يباع بالقلّة وتساوى القلّة منه اثنان وعشرون لترًا أو أربعة
عشر كيلو جرام

مدن دوله مراکش

قال بعض السياحين يصف مراکش ومدنها « يحيط بكل المدائن
المراكشية أسوار ذات أبواب تغلق ليلاً وليس لأغلب دروبها وحاراتها أسماء
ولا لمنازلها أعداد ومع ذلك فإن أحيائها وأخطاطها متميزة عن بعضها تمام
التمييز وأهل الحى الواحد منهم وكلهم يعرفون بعضهم بعضاً متضامنون فى دوام
النظام والسكينة كل طائفة فيما يخصها وهذا النظام الذى لا يظهر للسائح فى
أول الأمر خصوصاً من كان أوريباً يفسره ندورة الجرائم فى المدن ندورة
عجيبة بحيث لا يزيد متوسط جرائم القتل عن واحدة أو اثنتين وثلاث
أو أربع سرقات بكسرى مدينة سكانها بين عشرة آلاف وأثنا عشر ألفاً
ومع ذلك فإن الطرق لا تضاهى ليلاً وليس بها عسس اللهم ألا عسس الكلاب
التي تكنتى بالنباح عادة ولا تهاجم ماراً معه فانوس وقد أقاموا فى الأسواق
فقط بعض الحراس سلاحهم المصى أو بنادق محشوة بالبارود لا غير يستعملونها
للأيقاظ عند الضرورة وكثيراً ما ينام الحراس فى أماكنهم تاركين أمر
الحراسة لتيقظ الكلاب الذين ينام منهم عدد أمام الدكاكين والمحازن لهذا
القصد » اهـ

فاس - هي من المدن الكبيرة بسلطنة مراكش والعاصمة الثانية بها واقعة على نحو ١٩٥ كيلومتراً إلى الجنوب والشرق من طنجة وعلى ٣٧٥ كيلومتراً إلى الشمال والشرق من مدينة مراكش وعلى ١٦٠ كيلومتراً إلى الشرق من رباط القنص في سهل كثير التضاريس تحيط به جبال ارتفاعها نحو ٥٥٢ متراً ويشقها وادي فاس وتبعد عن شاطئ وادي سبو الأيسر بنحو ستة كيلومترات ويزيد سكانها عن مائة وخمسين ألف نفس وترتفع عن سطح البحر بنحو ربعمائة متر وحولها سهل بديع المنظر وافر الخصوبة ولكنه لا يزرع منه إلا ما جاور فاس وجاور القرى القليلة الموجودة به وقد أصبح الأمن متوفراً في هذا السهل من وقت ما أنزل السلطان فوق نجد مكناسة قبائل من العرب عهد أليهم صد أغارات البربر النازلين بجبل مطير وقبل ذلك كانوا ينهبون القوافل والسابلة الذين يترددون على مكناسه ذهاباً وإياباً وأجل ما في المدينة نهرها وهو قليل الأمتداد ينبع ماؤه من أكثر من ستين ينبوعاً بحيث يكون غزير الماء على الدوام

قال السائح رنيه كاييه (René Caillie) «أن فاس واقعة في مكان يشبه القمع حادث من جبال عالية شجراً ينحدر منها هيرات كثيرة كبيرة تروى ذلك السهل وتجلب للمدينة ماءً فراتاً وفي مساجدها وجوامعها ومنازلها نافورات ماء وفي طرقها ومحلاتها أحواض يشرب منها المارة وعلى هذا الوادي طواحين كثيرة يدبرها الماء ويبلغ محيط المدينة نحو أربعة أميال وهي تمتد من الشرق إلى الغرب

ويحيط بها سور مزدوج من الآجر متين البناء تعلوه شرفات تزيد في حسنة ارتفاعه نحو ثلاثة عشر قدماً . وللمدينة باب كبير حسن البناء حسناً دهشت لرويته وفي حظيرة السور الأول بسايتين ودور واطئة هي أرباض تلك المدينة التي رأيت بها معامل للقاشاني والقرميد والآجر ويوتها كلها مبنية من آجر جيد الصنعة وتركب على العموم من طبقتين ولها أفنية جلب الهواء والنور وطافات صغيرة مربعة مطلة على الطريق محكمة الشبايك وليس لسكانها عناية جيدة بظواهر بيوتهم وهم يطلونها من الخارج بالجير وطرق المدينة مبلطة ولكنها ضيقة كثيرة التعاريج مظلمة قدرة وكلها مسقوفة تقريباً مما يمنع الهواء من الجولان فيها ويسبب روائح كريهة تجعل المدينة غير موافقة للصحة وبفاس جوامع كثيرة أهمها وأشهرها جامع مولاي أدريس وقد أعجبنى بناؤه جداً وألفت نظري بنوع خاص ولهذا الجامع شهرة في كل العالم الإسلامي ويعرف بجامع القرويين اه باختصار وتصرف

وقال سائح آخر «أن فاس مدينة ذات اعتبار في نظر أهالي مراكش وهي تنقسم إلى قسمين فاس القديمة وفاس الجديدة يفصلهما عن بعضهما بسايتين عديدة وميدان مربع تقيم به على الدوام وتحت الخيام فرقة من الجنود وقصر السلطان قريب من هذا الميدان وتحميّه هو وبستانه قلعة ذات أبراج وقد بنيت المدينة القديمة في أواخر القرن الثامن من الميلاد (١٩٢ هـ) بناها مولاي أدريس المتصل بالنسب بالنبي عليه السلام وبعلي بن أبي طالب رضيهما وهي

على منحدر جبال تحيط بها ويروى المدينة نهر صغير ينقسم عند دخوله إليها إلى فرعين ويجلب لها ماء غزيرا وهو سريع الجريان ويدير أرحا كثيرة وأشهر جوامع المدينة جامع القرويين الشهير ولكنه أقل من جامع قرطبه جمالا وأحسن ما يلفت النظر فيه كثرة عمدته ونافوراته وأرضه المنروشة بالقاشاني المختلف الألوان ويحيط به طرق ومحلات ضيقة تمنع العين من التأمل في هيئته الخارجية وللمدينة قيسارية كبيرة مقسمة إلى أقسام بكل قسم شيء واحد إلى أن قال ولو نظرنا إلى فاس نظراً عسكرياً لوجدناها في مكان لا يسمح لها بمقاومة هجوم شديد لا تكون فيه عرضة للتدمير بأجمعها وهذا هو السبب بلا شك في أنها تسلم بمجرد ما يظهر العدو على أبوابها اه

وقال آخره أن فاس تتركب من فاس القديمة وفاس الجديدة ومحلة اليهود بين هذه الثلاثة بساتين جميلة وخمائل بديعة تشغل قدراً كبيراً من الأرض قد أخذ سورها يهدم شيئاً فشيئاً ويعتبر المراكشيون هذه المدينة اعتباراً نظيماً ولجمال موقعها وغزارة مياهها واتساع واديها وجبالها الشاخنة المنقطعة للتلوج التي تغذى وادى سبو كل ذلك يجعلها أجمل مكان للسكنى على وجه الأرض ثم وصفها بما يصف به سياحو أوروبا مدن الشرق التي لم تدخلها الحضارة الحديثة من حيث قذارة الطرق وترجها وعدم انتظامها وغير ذلك مما هو معروف ثم قال أن جامع القرويين هو أكبر مدرسة ببلاد مراكش وقد نرج منها سابقاً كثير من علماء العرب الذين كانوا مجدالاندلس وغر بلاد

في دولة المرابطين والموحدين ألا أن الحال قد انعكس الآن فأصبح التعليم فيه ناقصاً جامداً وصارت المدارس العديدة المتصلة به عديمة الأهمية تقريباً وفي هذا الجامع مع ذلك دار كتب عظيمة جداً بها آلات فلكية وكرات جغرافية وفلكية كل ذلك غير ما بها من نفائس المؤلفات وبدائع المخطوطات ولا تزال فاس الآن أكبر مدن مراکش صناعة وتجارة وبها دار ضرب جميلة البناء متصلة بقصر السلطان وعمالها من اليهود ولفاس الشهرة في عمل البارود والخرداوات والقاشاني المزين بالاشكال الظرفية والسختيان المشهور والأغطية والبسط الصوفية والأنسجة الحريرية والسروج والمصوفات وأراضى ضواحيها خصبة جداً تعطى أشجارها أكلها مرتين في السنة وتخرج من بديع الأزهار ولذيذ التمار شيئاً كثيراً جداً ومن أهم صادرات أوربا إليها الحرير ومنسوجاته والأقشة القطنية والجوخ والحديد والكافد والأسلحة والبارود والشاي والسكر والتوابل والعقاقير وعليها عامل من طرف السلطان يساعده في حكمه قضاة وحكام آخرون وحاميتها يبلغون خمسة آلاف اهـ

قال في معجم البلدان «فاس هي بالسين المهمة بلقظ فاس النجار مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب من بلاد البربر وهي حاضرة البحر وأجل مدنه قبل أن تخطط مراکش وفاس مخططة بين ثنتين عظيمتين وقد تصاعدت العمارة في جنبهما على الجبل حتى بلغت مستواهما من رأسه وقد تهجرت كلها عيوناً

تسيل إلى قرارة واديها إلى نهر متوسط مستنبط على الأرض منبجس من
عيون في غربها على ثلثي فرسخ منها بحيرة دوى ثم ينساب يمينا وشمالا في
مروج خضر فإذا انتهى النهر إلى المدينة طلب قرارها فيفترق منه ثمانية
أنهار تشق المدينة عليها نحو ستمائة رجا في داخل المدينة كلها دائرة لا تبطل
ليلا ولا نهارا تدخل من تلك الأنهار في كل دار ساقية ماء كبار وصغار
وليس بالمغرب مدينة يتخللها الماء غيرها ألا غرناطة بالأندلس وبفاس يصنع
الأرجوان والأكسية القرمزية وقلعها في أرفع موضع فيها يشقها نهر
يسمى الماء المفروش إذا تجاوز القلعة أدار رجا هناك وفيها ثلاثة جوامع يحطب
يوم الجمعة في جميعها

قال أبو عبيدة البكري مدينة فاس مدينتان مفترقتان مسورتان وهي مدينتا
عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين وعلى باب دار الرجل رجا وبستانه
بأنواع الثمر وجداول الماء تحترق في داره وبالمدينتين أكثر من ثلثمائة رجا
وبها نحو عشرين حماما وهي أكثر بلاد المغرب يهودا يختلفون منها إلى جميع
الآفاق قال وكلتا عدوتي فاس في سفح جبل والنهر الذي بينهما مخرجه
من عين في وسط بلد من عُسرة على مسيرة نصف يوم من فاس وأسست
عدوة الأندلسيين في سنة ١٩٢ وعدوة القرويين في سنة ١٩٣ في ولاية
أدريس بن أدريس ومات أدريس بمدينة وليلا من أرض فاس على مسافة
يوم من جانب الغرب في سنة ٢١٨ وبعده الأندلسيين تفاح حلو يعرف

بالأطرابسى جليل حسن الطعم يصلح بها ولا يصلح بدوة القرويين وسميد
عدوة الأندلسيين أطيب من سميد القرويين لحدقهم بصنعتهم وكذلك رجال
عدوة الأندلسيين أشجع وأجند من القرويين ونساؤهم أجمل من نساء القرويين
ورجال القرويين أجمل من رجال الأندلسيين وفى كل واحدة من العدوتين
جامع مفرد ومنها إلى سبته عشرة أيام وسبته أقرب منها إلى المشرق « اهـ

مرّاكش - هى العاصمة الرسمية واقعة إلى الشمال من جبال إاطلس
فى سهل متسع كثير المياه قرية من الشاطئ الأيسر أى الجنوبى لنهر تنسفت
وترتفع عن البحر بنحو ٤٣٠ مترًا ومراكش تشغل من الأرض مكانًا واسعًا
جداً للبساتين والأرض الفضاء من ذلك قدر عظيم ويقدر أن سكانها بحسب
الأحصاء الأخير بنحو سبعين ألف نفس قال أحد السياحين يصف هذه
المدينة « متى قدم الإنسان على مدينة مراكش رأى منظرًا نفيسًا لضخامة
أسوارها التى يبلغ ارتفاعها عشرة أمتار يعلوها أبراج مربعة بين الواحد
والآخر نحو مائة متر ويحيط بها من ثلاث جهات بساتين كثيرة الزيتون والتين
والنخيل وربما اجتمع النخيل إلى بعضه فأحدث غابة حقيقية وهذه الأشجار
الكثيرة تخفى خلفها سلسلة أطلس الشاخنة ويحدث سورها وأبراجها وبساتينها
وغاباتها منظر بديع جدًا يأخذ بمجامع القلوب يظهر للقادم كلما قرب منها غير
أن هذا المنظر يتغير حينما يدخل الإنسان المدينة لأنه يرى طرقاً قذرة متعرجة
حتى يمكن أن يقال أنهم جمعوا أحقر ضواحي مدن أفريقية الشمالية وآسيا

الوسطى إلى مدينة واحدة أحاطوها كلها بسور مرتفع وسور المدينة من الطين والأحجار والجير وأغلب أبراجه متهدم وبه ثلثات وفرجات واسعة يمكن للشخص أن يمر منها بسهولة متى كانت الأبواب مقفلة ويبلغ محيط ذلك السور نحو سبعة أميال وبه سبعة أبواب والأشجار التي بداخل المدينة تنحى خلفها دورها ومبانيها الأخرى عن الأنظار ولا يتجاوز ارتفاع تلك المباني ارتفاع الأسوار فلا يرى منها من الخارج إلا برجاً يعلوه جوسق فوق ثنية عالية ارتفاعه ٨٢ متراً وثلاث أو أربع منارات ذلك كل ما يراه الإنسان وطرقها على العموم واسعة عند مدخل أبوابها ولكنها ضيقة قذرة وسط المدينة فيصعب جداً اجتيازها على الأقدام في زمن الأمطار وسكان هذه المدينة مختلطون فهم من كل جهات أفريقيه تقريباً بين مغاربه وجزائريين وتونسين واسكندرانيين وسودانيين وغيرهم واللغات الشائعة بها ثلاث العربية ولغة الشلوح والفيناوية والعربية هي اللغة العامة بالبلاد المذكورة من أول تطاوين حتى الصويرة وتنتشر كذلك على طول الساحل إلى مسافة عظيمة في الداخل وسكان جبال أطلس يتكلمون الشلوحية أما السودانيون فأنهم يتكلمون الفيناوية ودور أهل اليسار بها تتألف من ساحة على جوانبها مخادع في نهايتها المطبخ وبجانب باب الدار سلام صغيرة تؤدي إلى طبقة عليا تعرف عندهم بالدويرة فيها يقابل صاحب الدار زائريه ومدعويه فلا يدخلون الطبقة الأرضية لأنها خاصة بالحريم وبكل دار بئر لا تستعمل مياهه إلا

للتنظيف وغسل الملابس أما مياه الشرب والطبخ فتؤخذ من أحواض
عمومية بالمدينة وأبواب الدور تكون عادة في أزقة موصلة إلى طريق عمومي
وأبوابها تفتح ليلاً وشبايك الدور قليلة ولا تطل إلا على صحن الدار عادة

«وليس بمراكش منزهات عمومية لأن البساتين الخصوصية تقوم مقام
ذلك وبالمدينة ميدان كبير يعرف بميدان جامع الفناء تتردد عليه الناس وقت
العصر ويعتقد فيه اللاعبون والشعوزون والمغنون والمشخصون والخواة حلقاتهم
وبالمدينة عدة حانات عمومية ويقوم بها سوقان عموميان في يومى الخميس
والجمعة وبها قيساريتان بهما كل أصناف المتاجر لكل نوع سوق معلوم
وبينها أبواب تفتح ليلاً وليس بهما دور للسكن ولا يسمح لأحد أن يقيم
بهما غير الحراس ولكبار التجار فنادق تفتح ليلاً ولها حراس لليهود محلة
على اثاراد واليهود بمراكش كما هم في كل مكان آخر يشتغلون بالتجارة وغيرها
من الأعمال ويحتقرهم الأهالى جداً وللحبوب سوق يباع به الملح أيضاً
يعرف بالرحبة وبقره مكان يعرف بسوق الغزل يباع به الرقيق

«ولست بمراكش من المدن الصناعية مثل فاس والرباط ويفضل سكانها
الأشتغال بالزراعة وهم يجيدون الدباغة جداً بحيث لا يفوقهم فيها أحد ولهم
مهارة في عمل الأصباغ الحمراء والصفراء وليس بالمدينة من المبانى ما يستحق
الذكر غير ذلك البرج الذى سبق الكلام عليه وبها جوامع كبيرة جداً منها
جامع بنى يوسف والجامع المنصوري وكلها خالية من الصنائع الدقيقة ويقولون

أن باب بعض مساجدها مجلوب من غرناطة وغيرها من مدن الأندلس
وباب قصبتها بديع الصنعة جداً به نقوش في غاية الجمال والماء بمراكش غزير
نمير جلب أليها فوق حنايا من جبل يعرف بجبل مولاي أبراهيم ويتوزع
على أحواض عمومية بعضها متقن الصناعة والعربات لا تعرف بمراكش
فالأثقال في طرقها يكون بالحير والبغال والخيول والجمال وليس بها برید
فالمكاتب والرسائل يجلبها ويوزعها قوم اختصوا بذلك ومناخ مراكش
حار جداً صيفاً معتدل شتاءً ولا ينزل الجليد بها أبداً والليل في أيام الشتاء
بارد بسبب ريح تهب من الجنوب وتمر على ثلوج جبال أطلس والبساتين التي
بمخارج المدينة كثيرة المياه لذينة التمار يرى الناظر منها ثانياً جبال أطلس
فيكون لها مساءً في أيام الصيف منظر جميل للغاية» اهـ من قول بعض السياحين
بتصرف واختصار

وبساتين مراكش تمتد حولها على عدة فراسخ وينبت بها نباتات
الجهات المدارية والمعتدلة معاً قال صاحب القرطاس بنيت هذه المدينة
سنة ٤٥٤ من الهجرة (١٠٦٢ م) بناها يوسف بن تاشفين رابع سلاطين
المراطين على نحو أربعين كيلو متراً إلى الشمال من مدينة قديمة تسمى أنعمات
تركها سكانها ونزلوا المدينة الجديدة ولم تبين أسوارها إلا في سنة ١١٣٢ م
وقد شيد بها الأمير أبو يوسف يعقوب المنصور من أمراء الموحدين
(١١٨٤ - ١١٩٨ م) مباني جديدة وصهاريج للمياه ثم عظمت بسرعة وصارت

عاصمة الدولة مدة المرابطين والموحدين ولما جلس بنو مريم فقلوا العاصمة إلى فاس فبقيت فاس ومراكش ينزلهما السلطان ويقيم بهما آناً فهذا وقد نالت مراكش في القرنين الأولين من تأسيسها منزلة رفيعة ودرجة كبيرة ثم أخذت في الانحطاط وكان سبب انحطاطها وقلة سكانها الثورات التي حدثت بها بسبب ظلم سلاطينها وبسبب الطاعون الذي ظهر ببلاد مراكش سنة ١٦٧٨م ومات به من سكانها نحو ثلاثة ملايين ومات كذلك كل سكان مدينة مراكش تقريباً وغير ذلك من الرزايا

قال ياقوت في معجمه «مراكش أعظم مدينة في المغرب وأجلها وبها سرير ملك بني عبد المؤمن وهي في البر الأعظم بينها وبين البحر عشرة أيام في وسط بلاد البربر وكان أول من اختطها يوسف بن تاشفين من الملتهمين الملقب بأمير المسلمين في حدود سنة ٤٧٠، وبينها وبين جبل درن الذي ظهر منه ابن تومرت المسمى بالمهدي ثلاثة فراسخ وهو في جنوبيها وكان موضع مراكش قبل ذلك مخافة يقطع فيه اللصوص على القوافل كان إذا انتهت القوافل إليه قالوا مراكش معناه بالبربرية أسرع المشى وبقيت مدة يشرب أهلها من الآبار حتى جلب إليها ماء يسير من ناحية أغمات يسقى بساتين لها وكان أول من اتخذها البساتين عبد المؤمن بن علي يقولون أن بستاناً منها طوله ثلاثة فراسخ» اهـ

القصر الكبير - مدينة بمراكش شمالاً على نحو ٥٠ كيلومتراً إلى

الجنوب والشرق من العرائش واقعة في مكان منخفض بالقرب من الشاطئ الأيمن لنهر يسمى لوكوس (Loukkous) وربما غمرت مياهه أرض ذلك المنخفض وبينها وبين طنجة نحو مائة كيلومتر ويقدر أن سكانها بنحو (١٥٠٠٠) نفس قال سياح أوربي في وصفها ما يأتي « أنها مدينة جميلة المنظر ومما يجعل لها ذلك الجمال الخاص بمدن الشرق مناراتها اللطيفة وبالمدينة قلعة متداعية للسقوط وجامع له بابان جيلان ودورها مبنية بالآجر ويخرج من بساينها زيتون وبرقال له شهرة ببلاد مراکش » اهـ وقد وقعت بجوار هذه المدينة حرب دموية سنة ١٥٧٨ م هزم فيها ملك البرقال المسمى سباستيان وقتل بينما كان يريد الأغارة على هذه البلاد وهناك قلعة أخرى أسسها كالسابقة يعقوب المنصور واقعة على مضيق جبل طارق وهي إلى رأس سبتة أقرب منها إلى رأس أسبرتل وتعرف هذه القلعة بالقصر الصغير كما تعرف الأولى أي القصر الكبير أيضاً بقصر مصموده

مكناسه أو مكناس - مدينة بمراكش على نحو ستين كيلومتراً إلى الجنوب والغرب من فاس في سهل واد يسمى بوققران وهي على نحو ٥٠٠ متر من سطح البحر ويقدر أن سكانها بنحو ٤٠٠٠٠ نفس وهي في مكان نزه فوق منحدر من الجبل تحيط بها أشجار الزيتون الكثيرة ولهذا يقال لها مكناسة الزيتون وحولها سور شامخ متخرب وتنقسم إلى كل مدن مراکش إلى ثلاثة أقسام القصبة وبها مساكن كبار العمال والمدينة الأصلية وبها الجوامع

والمساجد والأسواق ومحلة اليهود وحوّلها سور والمكان الذي تشغله مكناسه كبير جداً بالنسبة لسكانها وطرقها واسعة وكثيراً ما يفصلها عن بعضها بساتين وميادينها كبيرة ومحلة اليهود بها متسعة الطرق جيدة التهوية بخلافها في بقية مدن مراكش ومبانيها أجمل طرازاً وهنداماً عنها بمدينة فاس والباب الكبير في قصر السلطان بها مبنى من المرمر والحديد وعليه طبقة من القاشاني الملون وفوقه كتابة بحروف جميلة بحيث يتكون من كل ذلك منظر بديع ومع ذلك فأنهم لا يقتنون به الاعتناء اللازم وإلى الأسفل من هذا القصر جملة مبان ورجبات وبساتين عليها سور حتى كأنها مدينة وتحت الأرض مخازن كثيرة هي أهرآء لحفظ القلال وبالمدينة بستان محيطه كيلومتران يقولون أن به قصوراً ودوراً ومكاناً لتربية الخيل وتوليدها به أكثر من ألف من الخيل المطهمة وبه غير ذلك وكثيراً ما كان سلاطين مراكش يقيمون بمكناس طول حكمهم أو بعضه وقد اعتنى الكثيرون منهم بتوسيمها وتحسينها وبينها وبين فاس طريق هو أحسن الطرق بدولة مراكش وبها جامع متداع للسقوط يعظمه الناس جداً من بناء السلطان إسماعيل وقد أصبحت مكناس الآن عديمة الأهمية والحركة التجارية ويقولون أن لسلاطين مراكش أموالاً مدخرة كثيرة جداً بهذه المدينة وقد استفاض حديث ذلك على الألسنة ويظن قوم أن السلاطين قد نقلوا تلك الأموال أو بعضها إلى فاس أو أنهم نقلوها إلى تافيلت خلف جبال أطلس خوفاً عليها هذا وضواحي

مكناس في غاية الخصب فهي المكان الزراعى الحقيقى بدولة مرا كش وقد بنت هذه المدينة قبيلة بربرية في القرن العاشر من الميلاد تسمى مكناس فانسبت أليها قال ياقوت في معجمه « ومكناسه مدينة بالمغرب في بلاد البربر على البر الأعظم بينها وبين مرا كش أربع عشرة مرحلة نحو المشرق وهي مدينتان صغيرتان على ثنية يضاء بينهما حصن جواد اختط أحدهما يوسف ابن تاشفين ملك المغرب من المثلثين والأخرى قديمة وأكثر شجرها الزيتون ومنها ألى فاس مرحلة واحدة » اهـ

وَزَّان مدينة بمرا كش شمالاً على نحو ٨٥ كيلومتراً ألى الشمال والغرب من فاس وعلى نحو مائة وعشرين كيلومتراً ألى الجنوب من طنجة ويقدرّون سكانها بنحو عشرة آلاف نفس ولهذه المدينة اعتبار لدى عموم أهالى مرا كش وهي على المنحدر الشمالى من وادى سَبُو في منتصف المسافة تقريباً بين هذا النهر والقصر الكبير وواقعة في مكان خصب بديع جداً وبجانبا جبل يصد عنها رياح الجنوب الحارة ويساعد على جذب الأمطار التى تأتى بها الأهوية البحرية وتغطى منحدر هذا الجبل من الأسفل بأشجار الزيتون ومن الأعلى بأشجار القلين وبالمدينة جوامع ثلاثة شهيرة أشهرها وأكثرها احتراماً جامع مولاي عبد الله وطرقها كطرق اندن العرية ضيقة متحدرة وبشرقيها بخارجها بساتين جميلة كبيرة تنبت بها كل النمار والقواكه ويجود بها الموز جداً وهناك ماجل أو حوض كبير تجتمع فيه مياه ينبوع جلبوها أليه من جبالها ويخرج

من هذا الحوض قنوات صغيرة توزع الماء في تلك البساتين وبالبساتين المذكورة مقابر الأشراف منها قبر مولاي الطيب مؤسس الطريقة الصوفية المنسوبة إليه والمدينة آخذة في الاتساع وسكانها آخذون في الزيادة بسهولة لأنه ليس بها استحكامات ولا أسوار تقف في طريق توسيعها لكنها كانت بذلك عرضة لهجمات القبائل وكل سكانها تهريباً لأشراف وأولاد أشراف ولهم اعتبار بكل العالم الإسلامي وشريف وزان الكبير يفوق في الاعتبار سلطان مراکش وكان بعض أولاد أشرافها يسكنون بلاد السودان وكانت لهم هناك أملاك واسعة هذا وكثيراً ما يستعين السلطان بأشرافها على تهدئة الخواطر وتسكين الفتن ومن امتيازات شريف وزان تقليد سلاطين مراکش السلطنة ولا يستقل سلطان مراکش في ملكه تماماً ألا بعد أن يبايعه شريف وزان ومدينته حرّم لكل من احتسب بها وله أتباع بكل بلاد المغرب تقريباً حتى بمصر لأنه رئيس طريقة سيدي الطيب ويقدرون أتباعها بنحو ثلاثة ملايين وللشريف حرس نحو ألف ومائتي جندي يصرفهم في حاجاته وفي حراسة المدينة تازة - مدينة بالشمال الشرقي من مراکش على نحو ١١٣ كيلومتراً إلى الشرق والشمال من فاس وعلى وادٍ منسوب إليها يعرف أيضاً بالوادي الأصغر وبجوارها قبيلة رياطة البربرية القوية وسكانها أزيد من خمسة آلاف نفس وهي فوق صخرة سوداء اللون من صخور جبل رياطة وشمالها سهل واسع وجنوبها جبال شاذغة ومحيط بها أغوار ووهاد لبعضها منحدر سريع جداً بحيث

لا يمكن الوصول إليها أبداً إلا من الجنوب الشرقى وفى ضواحيها بساتين
 بديعة ربما كانت أجمل بساتين دولة مرا كش ولكنها تفتقر المدينة خلقها
 ولا تشاهد من بعد إلا بمنارة شاحنة قائمة بها ويحيط بها سوران منخفضان ودورها
 فى وسطهما وهي مبنية من الحجارة والآجر وبها صهرىج كبير لحفظ الماء وأربع
 جوامع وأربع قيساريات ويظهر من الخرائب القرية منها أنها كانت قديماً
 أكبر وأزهى مما هي عليه الآن ومن سكنها نحو مائتين من اليهود يسكنون محلة
 خاصة بهم ولقائدها الحكم على قبائل عديدة وتقود قبائل رياطه غالب على
 تقود ذلك القائد خارج المدينة وتقودهم أيضاً كبير داخلها فسكنها بذلك كما
 يقول بعض السياحين بين تقودين جائرين تقود عمال السلطان وتقود رياطه
 ميليله - مدينة براكش على ساحل بحر الروم تابعة لأسبانيا فى شبه
 جزيرة تصل مع القارة ببرزخ عرضه ٣١ متراً وطوله أربعون متراً ويصب
 بجوارها نهر صغير يسمى ريو أورو (R. Orn) ويحيطها من الشمال صخرة
 صعبة المرتقى يعلوها حصن أسباني ويحيطها من الشرق أيضاً متاريس عليها حصن
 ضخم وإلى الجنوب منها قلعة أخرى وعلى بابها برج ضخم وبين تلك الاستحكامات
 والاستحكامات الخارجية طرق وسرايب تحت الأرض للمواصلات بينها
 وبالمدينة والقلاع مواجل كبيرة تسع قدرأ عظيماً من مياه الشرب وتلك
 المواجل فى مكان بحيث لا يؤذيها مقذوفات الأعداء وبالقرب من المدينة
 وعلى رمية مدفع مرسى صغير لا تدخله إلا السفن الصغيرة وقذازدات

حركتها التجارية الآن من يوم أن أصبحت السفن البخارية تتردد عليها بانتظام ويظن أن هذه المدينة هي التي كانت تسمى قديماً لدى الرومان روزادير (Rusadir) ويقول بعضهم أن أسماها تصغير عربي من كلمة بربرية هي ملؤل أي الأبيض أو المائل للبياض ويسمى بهذا الأسم عدة أماكن أخرى في شمال أفريقيا وقد استولى الأسبانيون على هذه المدينة سنة ١٤٩٦ وسعى المراكشيون مراراً في استردادها فلم ينجحوا وهي عرضة لهجمات قبائل الريف وقد جعلها الأسبانيون منفى لأرباب الجرائم منهم وهو أوثق رديئاً لهذا كان الأسبانيون يغيرون حاميتها على الدوام

تطاوين أو تيطاون - مدينة بمراكش شمالاً على نحو خمسة وثلاثين كيلومتراً إلى الجنوب من سبتة وعلى نحو ١٧٠ كيلومتراً إلى الشمال من فاس وبينها وبين بحر الروم أربعة كيلومترات وتعلو على البحر بنحو ٧٧ متراً ويقدر أن سكانها بنحو ٢٥٠٠٠ نفس منهم نحو سبعة آلاف من اليهود وتطاوين بالبربرية معناه الينابيع أو العيون لنزارة المياه التي تنبجس فوق نجدتها وبحوارها نهر يعرف بوادي الرأس ووادي مارتيل أيضاً ويشرف عليها من الشمال والجنوب جبال شامخة تعرف بجبال بني حسن وحولها بساتين كثيرة أنيقة جداً تمتد حتى نهاية البصر ومزارع للحنطة وأراض زراعية وافرة الخصوبة والمياه الجارية والنباتات الوافرة وللمدينة سور من الآجر مرتفع سميك ولها قلعة حصينة بالجهة الشمالية الغربية وتشغل المدينة من الأرض مكاناً

فسيحاً جداً وبين محلاتها ميادين كثيرة ليس بها بناء ومبانيها على العموم جيدة وطرقها ضيقة مقيمة وبها مبان قديمة جميلة الطرز وعدة مساجد لواحد منها منارة عالية ترى من بعدو لتطاوين مرسى على نحو كيلومترين اثنين منها ويمكن للسفن الصغيرة أن تجرى في نهرها أما في المد فتجى فيه السفن الكبيرة وعلى المرسى قلعة ودار للجمر ويصدر من هذه المدينة التمار والجوب إلى كل الجهات الشمالية من دولة مراکش حتى إلى فاس ومكناس وقدر عظيم من هذه الصادرات يرسل إلى مدينة جبل طارق ويتردد عليها قبائل الريف لبيع حاصلاتهم الصناعية والزراعية ويصنع بها أشياء من الجلد وأحزمة من الصوف تصدر إلى أسبانيا وحصر مرغوب فيها جداً وأدوات منزلية وأوان فخارية وغيرها ويأتى إليها من جبل طارق على الخصوص المنسوجات القطنية والصوفية والحريية والشاى والبن والمعادن والمقاير ويحكم هذه المدينة قائد تابع للسلطان مباشرة وهو ذه يمشى على جهات واسعة واقعة بين أراضى قبائل الريف المستقلة شرقاً وبين أيا لى طنجه والعرائش غرباً ويسكنها كثير من أهل الجزائر رحلوا إليها فوراً من الدخول في حماية فرنسا ونحو ستة آلاف من اليهود يدم كل الأعمال التجارية تقريباً والكثير منهم في ثروة واسعة هذا ويظهر أن تطاوين قائمة من الأزمنة النابرة لخصوبة أراضيها وغزارة مياهها وقد هدمت مراراً ثم أعاد بناءها السلطان أبو طالب عامر من سلاطين بنى مرين سنة ١٣١٠ م وقد نهبا أهل قشتاله مراراً ونزل بها

كثيرون من مغاربة أسبانيا حين هجرتهم منها وكان لأهلها سفن قوية كثيراً ما أغاروا بها على سواحل الأندلس وقد استولى عليها الأسبانيون سنة ١٨٥٩ بعد أن تصارم في الحرب التي وقعت بينهم وبين مراكش واحتلوها زمناً طويلاً ثم أخلوها لما عقد الصلح وكان من شروطه أيضاً أن يكون للأسبانيين كنيسة وبعثة دينية تصرف عليها أسبانيا

سبته - مدينة بمر اكش قرية من النهاية الجنوبية للمدخل للشرق من مضيق جبل طارق وهي على نحو ٢١٠ كيلومترات إلى الشمال من فاس وبها من السكان نحو اثني عشر ألف نفس واقعة في مكان أحد عمودي هرقل المسمى أبيللا (Abylla) ومكان العمود الثاني يسمى كلب (Culpe) محله الآن مدينة جبل طارق المقابلة لسبته والبعد بينهما خمسون كيلومتراً ولفظ سبته محرف عن كلمة رومانية هي سبتيم ومعناه سبعة وهي سبعة تلال تشاهد الآن في شبه الجزيرة المشيدة فيها سبته وسبته هي عاصمة المستعمرات الأسبانية بتلك الأطراف وهي قسمان قديمة وجديدة فالقديمة واقعة في المضيق المنخفض الضيق بشبه الجزيرة المذكورة وترتفع أرض ذلك المضيق بالتدريج بحيث تكون ستة تلال متميزة عن بعضها متى نظر إليها من الشمال أما سبته الجديدة المعروفة بلينا فتمتد على المنحدر الشمالي من هذه التلال التي تأخذ في الانحدار بالتدريج كذلك إلى أن تصل إلى الاستحكامات التي تحيط بكل شبه الجزيرة المذكورة وبالمدينة بساين كثيرة تتخلل بيوتها وتمتد أيضاً على شاطئ الميناء بأجمعه ويحصى

المدينة أسوار منيعة قائمة حيث لا تكون الصخور ومرساها صغير وهو بين
 المدينة القديمة والجديدة ومحصور بين رصيفين يمتدان في البحر
 وكان لسبته أهمية عظيمة في القرون الثمانية التي حكم العرب فيها أسبانيا
 ولما قدم عليها العرب وقت الفتح كان يحكمها حاكم من القوط يسمى جوليانوس^(١)
 وقد تصالح مع موسى بن نصير عامل الوليد بن عبد الملك كما هو معلوم ومن
 سبته وطنبه خرج العرب لفتح الأندلس وأراد المنصور حاجب الخليفة
 هشام الثاني في الأندلس حينما وقع الخلاف بينه وبين الأدارسة أن ينقل
 المدينة المذكورة إلى جبل بجوارها ولكنه لم يتم له ما أراد وبقيت سبته من
 نصيب الأدارسة بنو حمود الذين استولوا أيضاً على الجزيرة الخضراء ومالقه
 أثناء الاضطرابات التي مزقت خلافة قرطبة ثم انتقلت منهم إلى يوسف بن
 تاشفين من سلاطين المرابطين وانتقلت من بعدهم إلى الموحيدين ثم إلى غيرهم
 من سلاطين المسلمين الذين ملكوا المغرب ولما كانت سنة ١٤١٥ من الميلاد
 أستولى عليها البرتغاليون ثم دخلت في يد أسبانيا أثناء ثورة سنة ١٦٤٠ وهي
 السنة التي انفصلت فيها البرتغال عن مملكة قشتالة وقد حاول سلاطين
 مراکش استردادها مراراً من ذلك أنهم هاجموا سنة ١٦٩٧ بجنود كثيرة إلا أنهم
 لم يوفقوا لأخذها وهذا وقد فقدت سبته الآن أهميتها القديمة وكانت مركز تجارة
 واسعة مع بلاد المشرق وأفريقية وإيطاليا كما كانت مركزاً للعلوم والصنائع

(١) ويعرف في كتب العرب باسم يليان

وقد أدخل العرب إليها صناعة الكاغد وزراعة القطن وقد اشتهرت بما كان يصنع فيها من المنسوجات الحريرية وأسلالك الحديد والأدوات النحاسية وبما كان يصطاد في بحرها من المرجان وقد بقيت لها شهرتها مدة البرتقال ولكنها انحطت عن تلك المنزلة من وقت أن دخلت في حكم أسبانيا سنة ١٦٤٠ كما تقدم أما أهميتها الآن فهي في أنها واقعة في مدخل المضيق ليس ألا قال في معجم البلدان «سبته المشهور بفتح أوله وضبطه الحازمي بكسر أوله وهي بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها أجود مرسى على البحر وهي على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق الذي هو أقرب ما بين البر والجزيرة وهي مدينة حصينة تشبه المهديّة التي بأفريقيّة على ما قيل لأنها ضاربة في البحر داخلة كدخول كف على زندوهي ذات أخفاف وخمس ثنايا مستقبلة الشمال وبحر الزقاق ومن جنوبها بحر منعطف إليها من بحر الزقاق وبينها وبين فاس عشرة أيام قال وقد نسب إليها جماعة من أعيان أهل العلم» اهـ

طنجه - مدينة بحرية بمراكش شمالا على الساحل الجنوبي الغربي من مضيق جبل طارق وعلى نحو ١٨٨ كيلومتر إلى الشمال والغرب من فاس و ٥٣٠ كيلومتر إلى الشمال والشرق من مراكش وبها من السكان نحو (٤٧٠٠٠ نفس) ومرساها صغير مستدير تعلوه جبال ومياه البحر لا ترتفع فيها في الصيف ألا نادرا أما في الشتاء فتكون غير آمنة وتهب عليها رياح الشمال والشمال الشرقي بشدة ولا يمكن للسفن الكبيرة دخول مينائها

لقلة عمقها وكثرة رمالها بل ترسو أخرجها وتنقل التجار والمسافرون منها وأليها في زوارق خفيفة وقد شيدوا بها الآن مرسى ورصيفا فحسنت حالتها نوعا وطنجه واقعة على المنحدرات الشرقية من رأس أسبرتل ويحيط بها أسوار تلوها أبراج مربعة ومستديرة وكل ذلك من بناء البرتقال وقصبتها مشرفة عليها من الجهة الغربية وبها قصر الحاكم وبنائوه بديع الشكل على الطرز العربي وهو عنوان فن العمارة المراكشية ويحيط المدينة والمرسى خمسة حصون بها مدافع كثيرة وشكل المدينة جميل يشبه شكل مدينة الجزائر قديما ودورها صغيرة مربعة بيضاء الظاهر قليلة الشبايك وبها ستة جوامع ذات منارات شاحخة يشاهد القادم عليها أحداها قبل أن يصل إليها بمسافة بعيدة ويتخلل كل ذلك نخيل وأشجار وحولها تلال عليها فادق أوربية وبيوت صغيرة للأوربيين يتخللها كذلك أشجار ومتى دخل الإنسان من أحد أبوابها الثلاثة رأى طرقا ضيقة متعرجة شديدة الميل غير مبلطة على جانبيها دكاكين ومخازن كثيرة وقد اهتمت حكومة مراكش بأصلاحها الآن وتصرف في ذلك عناية أكثر مما تصرف في مدينة أخرى من مدنها لهذا يمكن السير في كثير من طرقها بسهولة وقد فرشوا الممر منها بالبلاط وفي وسط المدينة عند مفترق طرقها ميدان واسع جداً يعرف بالسوق حوله دكاكين ومخازن ويقوم خارج المدينة سوق أمام بابها المعروف بباب السوق يتردد عليه الناس بكثرة ومن مباني طنجه الجديدة بالذكر قصبتها وجامعها الأعظم وله منارة شاهقة منطاة بالقاشاني

الأخضر يكون له بريق بديع متى أشرقت عليه الشمس ومنها بيت المال وبه تحفظ أموال الجمارك والضرائب داخل صناديق ضخمة من الحديد أما القصة فبعض جهاتها بديع الصنعة والنقش والتزيين والبعض الآخر متخرب وسفارات انجلترا وفرنسا وألمانيا وأسبانيا وإيطاليا في بناء واحد واسع من طرز شرقي أوربي وبالمدينة أيضاً عدة أوتيلات للمسافرين وقد أناروا بعض جهات هذه المدينة الآن بالنور الكهربائي منذ سنة ١٨٩٢ وسكان طنجة مختلفوا الاجناس جداً بينهم أكثر من سبعة آلاف من اليهود وهم متسلسلون من الذين هاجروا منهم من أسبانيا ولهم محلة منفصلة ويحتقرهم الأهالي كثيراً ويلزمونهم بلبس ملابس مخصوصة ولكنهم قد قبضوا على كل تجارة البلاد وهم الوسطاء في العاديين الأوربيين والأهالي وبتنجه أكثر من أربعة آلاف من الأوربيين أغلبهم من الأسبانيين وينزل طنجة زمن الشتاء كثير من أهالي أوروبا لجمال مناخها وبها دار بريد فرنسوى وآخر أسباني وثالث انجليزي وبمارستان فرنسوى أقامته فرنسا من أموال الغرامة الحربية التي دفعها لها مراکش سنة ١٨٤٤ وبها أيضاً عدة مدارس فرنسوية أكثر ما يتردد عليها اليهود ولو كانت طنجة في يد دولة أوروبية لوصلت إلى درجة عالية وصارت مركزاً تجارياً مهماً لوقوعها في مدخل المضيق وإلى طنجة ترد أكثر متاجر أوروبا التي ترسل لمرآكش الوسطى حتى إلى مابعد فاس كما أنهم مركز لكل حاصلات تلك المنطقة التي ترسل لأوروبا ويرد إليها من إنجلترا بواسطة جبل طارق على

الخصوص المنسوجات القطنية والشاي والسكر الأحمر وبن البرازيل
والسكاكين والعقاقير والكاغد وغيرها ومن فرنسا المنسوجات الحريرية
والقطنية والصوفية والشمع والسكر المكرر وغيرها ومن ألمانيا المنسوجات
المختلفة وصادراتها لا تُنجزه وأسبانيا وفرنسا الثيران وجلودها والمواد الغذائية
وشمع السبل وغيرها وتصدر إلى مصر وسورية بواسطة جبل طارق المراكيب
المعروفة بالبلغ ألا أن هذه الصادرات قد قلت الآن جداً وتحولت إلى
ثغور أخرى هي العرائش ورباط الفتح لأنهما أقرب منها إلى فاس ومكناس
وبين طنجة وجبل طارق مواصلات يومية بالسفن البخارية وبينها وبين
قادس مواصلات بحرية أيضاً تحصل ثلاث مرات في الأسبوع وتجر بها سفن
الشركة الفرنسية بالمحيط الأطلسي وتتردد عليها أيضاً سفن تجارية إنجليزية
وفرنسية وأسبانية ولكن بغير انتظام وبين طنجة والصويرة مواصلات
بريدية في البر لكل من الأسبانيين والفرنسيين وبينها وبين جبل طارق
خط تلفرافي تحت الماء

وأهمية طنجة السياسية أكثر من أهميتها التجارية وبها دون غيرها تقريباً
من مدن مراكش يتلاقى الأوربي بالبربري ويخالطه وبها ثلاث وكلاء
كبار سياسيون واحد لا يُنجزه وآخر لفرنسا والثالث لأسبانيا ولبقية
الدول بها أيضاً قناصل ولا يعتبر سلطان مراكش هؤلاء السفراء والقناصل
ألا كسفراء غير عاديين في فاس ومكناس ومراكش هذا من جهة ومن

جبهة أخرى لما كان السلطان لا يضع رجله أبداً بمدينة طنجه بسبب سياسة العزلة التي اتخذتها حكومته قاعدة لها منذ زمن طويل نشأ من ذلك صعوبات في المخبرات السياسية وطول زمنها وعدم انتظامها وليس للسلطان في طنجه غير حاكمها ألا مندوباً بسيطاً ينوب عن وزير الخارجية المراكشية وليس لهذا المندوب سلطة للمكاملة في شيء أصلاً بل يجب عليه أن يعرض الأمر أولاً على رئيسه الذي يقيم على مسافة عشرة أيام أو عشرين يوماً من طنجه وقد نالت طنجه أهمية منذ العصور الفاربة لجودة مركزها ويظهر مما روى عنها أنها كانت مسكونة قبل هجرة المشارقة إليها زمن طويل ثم صارت فيما بعد محطة تجارية فينيقية يؤيد ذلك ما ورد من أقوال الكتاب القدماء من وجود مقابر فوق نجدتها الصخرى وكانت تسمى في عصر الرومان طنجيس وكانت أذ ذاك زاهية زاهرة وقاعدة لبلاد موريتانيا الغربية المعروفة باسم طنجيتانه ثم صارت مستعمرة من عصر الإمبراطور كلوديوس وكانت تسمى ترادكتا جوليا (Traclucta Julia) وأشهر ما بقي من هذه المدينة هناك للآن بعض أعمدة من الجرانيت وتيجان أعمدة كورتية وبقايا حائلا للماء يظن الناس أنها من بناء البرتقال وليس الحال كذلك وكتابات ونقوش ومتى حفر الناس الأرض لعمل الآبار أو للبناء وجدوا آثار رومانوية وكانت المدينة القديمة المذكورة في نفس المكان الذي تشغله المدينة الحالية تقريباً ولقد أخطأ من يقول بأن طنجيس القديمة هي أطلال طنجه البالية أو القديمة الواقعة على نحو ثلاثة كيلومترات

شرق طنجة الحالية لأن تلك الأطلال هي أطلال بوزنطيه وربما كانت بربرية أيضاً ولقد بقيت لطنجة أهميتها ونجاحها مدة قياسية بوزنطيه ومدة ملوك القوط بأسبانيا وبقيت في حوزتهم زمناً ثم صارت كعاصمة للعرب بأفريقية الغربية وكانت إحدى الأسواق التي يتردد عليها البنادقة في العصور الوسطى وسعى البرتغال سنة ١٤٣٧ م مرتين للاستيلاء عليها لكنهم هزموا هزيمة منكرة حتى اضطروا للعقد صلح مهيّن بشرفهم ثم أعادوا الكرة عليها ثانية سنة ١٤٦٤ فلم يفلحوا أيضاً ولكن الحظ ساعدهم فيما بعد فاستولوا عليها سنة ١٤٧٠ واحتلوها وبقوا بها حتى سنة ١٦٦٤ م ثم لما تزوج شارل الثاني ملك إنجلترا بكتريته وريثة تاج البرتغال أخذ من مهره هذه المدينة التي أصبحت مركزاً مفيداً جداً على المضيق عند تلاقى البحرين ثم جعلت ثغراً حراً وثق في إصلاح مرساها وتحصينها مبالغ كبيرة ألا أنه في سنة ١٦٨٤ لما رفض البرلمان الأنجليزي الاقتراع على الأموال اللازمة لصيانتها وكان الأهالي أذالك يحاصرونها حصاراً شديداً تركتها حاميتها بعد أن هدمت استحكاماتها ورصيف مرساها وبعد ذلك بقليل استعاضت عنها إنجلترا بالاستيلاء على جبل طارق ومن هذا الوقت بقيت طنجة في حوزة مراكش ولم يحدث بها بعد من الحوادث التاريخية ما يستحق الذكر إلا حادثة إطلاق البرنس جواثيل الفرنسي مدافعه عليها سنة ١٨٤٤ وذلك قبل واقعة أيسلي بأيام قليلة قال ياقوت في معجمه « طنجة بلد على ساحل بحر المغرب مقابل للجزيرة

الخضراء وهو من البر الأ عظم وبلاد البربر قال ابن حوقل طنجه مدينة أزلية
آبارها ظاهرة بناؤها بالحجارة قائمة على البحر والمدينة العامرة الآن على
ميل من البحر وليس لها سور وهي على ظهر جبل ومآؤها في قناة يجرى
إليهم من موضع لا يعرفون منبعه على الحقيقة وهي خصبة وبين طنجه وسبته
مسيرة يوم واحد وقيل أن عمل طنجه مسيرة شهر في مثله وهي آخر حدود
أفريقية عن البكري عن أبي عبيد وبينها وبين القيروان القاميل « اه

العرائش - هي من مدن مراکش كذلك وثغر تجرى بمالة فاس
على نحو سبعين كيلومتراً إلى الجنوب والغرب من طنجه مبنية على مرتفع من
الأرض وبها من السكان نحو (١٠٠٠٠ نس) وبجوارها أطلال مدينة قديمة
وقد ذكر جغرافيو العرب العرائش باسم تَشْمُس ولم يذكروا اسمها الحالي
وربما كان ذلك لأنها كانت قديماً لا أهمية لها مطلقاً قال ياقوت في معجمه
«تَشْمُس مدينة قديمة بالمغرب عليها سور من البناء القديم تركب وادي شفد
وبينها وبين البحر الغربي نحو ميل ويمد وادي شفد شعبتين تقع أليه أحدهما
من بلد دنهاجه من جبلي البصرة والثانية من بلد كتامه وكلاهما ماء كثير
وفيه يحمل أهل البصرة تجارتهم في المراكب ثم يخرجون إلى البحر المحيط
ويعودون إلى البحر الغربي فيسيرون حيث شاءوا منه وبين مدينة تَشْمُس
هذه وبين البصرة دون مرحلة على الظهر وهي دون طنجه بأيام كثيرة» اه
أما لفظ العرائش فهو جمع عريش يريدون عريش الغنم وتسمى أيضاً

برائش بنى عروس وكانت البلاد التي بها العرائش وهي من بلاد موريتانيا قديما
تشتهر بكثرة غنيتها يؤيد ذلك أن لفظ أسبرتل وهو الرأس القريب من
هذه المدينة معناه الكريم

الرَّباط - ويقال أيضا رباط القنح مدينة بحرية بمراكش على ساحل
البحر وعلى الضفة الجنوبية من الوادي المعروف بأبي الرقراق وهي على نحو
١٨٥ كيلومترا إلى الغرب من فاس ويقدر سكانها بنحو (٤٧٠٠٠) منهم
خمسة آلاف من اليهود بينهم بعض الأوربيين أغلبهم من الأسبانيين
والبرتغاليين وكلهم يتجرون في الأشياء الصغيرة ومنظر المدينة من البحر جميل
جداً وقصبتها فوق ثنية جبلية تسقط منحدراتها رأسية نحو الاوقيانوس
ويحيط بها سوران ووجهاً منازلها تشبه وجهاً منازل المدن البحرية
بأوروبا وبها منارة تشبه في شكلها وارتفاعها ونقوشها منارة غرناطة ويقول
كتاب العرب أن المنارتين المذكورتين وكذا منارة مدينة مراكش بنيت
كلها في وقت واحد وبملاحظة معمارى واحد ويظهر أن مدينة سلا الواقعة
على الشاطئ الآخر من أبي الرقراق هي والرباط مدينة واحدة ومع ذلك
فالفرق بينهما كبير لأن سلا ذات اعتبار كبير ويشتهر أهلها بالتشدد في دينهم وهي
قليلة السكان أما الرباط فإنها مدينة تجارية وسكانها كثيرون منهم يهود
وأورباويون والصناعة في الرباط متقدمة فمن مصنوعات البسط وتشتهر
بمئاتها وجمال نقوشها وزهائها ألوانها والمواد الأولية المستعملة في ذلك أي

الصوف والأصباغ تؤخذ كلها من نفس البلاد ويشغل نساؤهم بالنسج والنزل في البيوت ولكنهم من منذ أن استعملوا الأصباغ الأورباوية في صناعتهم هذه صارت ألوانها تذهب بسرعة ومن مصنوعاتهم أيضاً الحصر الجميلة والمنسوجات الصوفية أخصها البرانس وأدوات مختلفة من الجلد والأواني الفخارية ولكن الفخار الذي يصنع في فارس يفوق ما يصنع منه في الرباط وكل هذه المصنوعات تستهلك في البلاد ولا يصدر منها شيء تقريباً إلى الخارج ويعيق التجارة البحرية بهذا التفرقة عمق المياه عند مصب واديه وكثيراً ما تضطر السفن حتى البخارية منها لأن ترسو بعيداً عنها ولا يمكنها أنزال الركاب والبضائع إلا بمشقة كبيرة وأشهر واردات هذه المدينة الشاي والسكر والشمع والمنسوجات والخردوات وغيرها أما صادراتها فقليلة وتنحصر في الجلود والصوف والعظام وبعض الخضراوات ويقوم بالرباط سوق أسبوعي في مكان فسيح هناك خارج أبوابها وبين سورها سوق يجدف فيه الإنسان كل ما يريده والبيع فيه بالمزاد العلني وبالمساقاة تحت مراقبة مندوب من الحكومة ليأخذ نصيبها مما يباع وقد بنى هذه المدينة السلطان يعقوب المنصور سنة ١٣٠٦ م

أما سلا فمدينة قديمة أعارت عليها قبائل العرب كثيراً وهم الذين هدموا القناة التي كانت تجلب إليها الماء سابقاً فأصبح الماء بها نادراً الآن يجلبه العرب ويديمونه في قرب في أزقتها وأقرب القبائل إليها بنو حسن وقد دخلوا

في طاعة السلطان وقسمت أراضيهم فيما بينهم إلى ستة عشر قسماً لكل قسم شيخ مسؤول عما يحدث به وبضواحي الرباط خصوصاً ما كان منها على ساحل البحر كهوف ومناور واسعة أوجدتها مياه الاوقيانوس ويسمى للماء دوى وقرقة عند دخوله فيها وخروجه منها وعلى نحو كيلو متر واحد من المدينة أطلال قديمة هي أطلال مستعمرة رومانية كانت تسمى شلاً (Chella) بها مقابر عليها كتابات وآثار أخرى لم تبحث إلى الآن بحثاً علمياً

الدار البيضاء - مدينة بحرية بمالة فاس على ساحل المحيط بين الرباط وآزمور وهي أهم سوق لهذه العمالة لمبادلة التجارة بين الأهالي والاورباوين أسسها البرتغال في أول القرن السادس عشر وكان في مكانها قديماً مدينة تسمى آثا (Anfa) ويقدر أن سكانها نحو (٣١٧٠٠ نفس) وقد احتلتها الجنود الفرنسية هي وضواحيها الآن منذ سنة ١٩٠٧ وكثر بها عدد الأوربيين وللمدينة سور قديم ومن أهم وارداتها المنسوجات القطنية والجوخ والبهارات والمقايير والسكر والشمع وغيرها ومن صادراتها الأصواف والذرة والجلود والمز وتعرف الدار البيضاء لدى الفرنج باسم كازابلانكا (Casa Blanca)

آزمور - أو آزمور - كما ضبطها ياقوت مدينة بحرية بمراكش مبنية على مرتفع من الأرض فوق الشاطئ الجنوبي لوادي أم الربيع عند مصبه في المحيط وبها من السكان نحو (٦٠٠٠) ويصعب على السفن أن ترسو على هذه المدينة بسبب تراكم الرمال في مدخل واديها

الجديدة - مدينة بحرية بمراكش على الساحل الغربي بينه وبين آزمو
 المتقدمة سبعة عشر كيلومتراً إلى الغرب والجنوب منها ويقدر سكانها بنحو
 (٢٥٤٠٠ نفس) بينهم بعض اليهود والاوربيين وكلهم في حرية تامة أكثر مما هم
 عليه في بقية مدن دولة مراكش الأخرى بسبب لين عريكة سكانها وتسامحهم
 وتسمى هذه المدينة أيضاً بالبرنجة ويسمونها أهل أوربا مزّاغان وقد أسسها
 قوم من البرتغاليين سنة ١٥١٠ كانوا غرقوا بجوارها ومن هذا التاريخ صار
 البرتغاليون يترددون على وادي أم الربيع بلامانع حتى أنهم بنوا عند مصبه
 حصناً صغيراً بقي في قبضتهم نحو ٢٥٠ سنة ثم أخذه المراكشيون منهم سنة
 ١٧٦٩ وأهمية الجديدة التجارية آتية من خصوبة ما جاورها من الأراضي
 ذات القابلية الكبيرة لزراعة الحنطة والبقول وقد نقصت تلك الأهمية الآن
 بسبب مرافقة السواحل لمنع التهريب ومن صادراتها الحنطة والشعير والبقول
 واللوبياء وغيرها من المحاصيل الزراعية وأكثر صادراتها تكون إلى
 جزائر قناريا ولكل أمم أوربا قنصل وتجارتها وبها ما جل كبير لحفظ الماء
 وهي جيدة الهواء وأن كانت طرقها رديئة التبليط ويكثر الرمدين أهلها
 ومن وارداتها السكر والشاي والاقشة الصوفية والشع وغيرها

آسفى - مدينة بحرية بمراكش على ساحل المحيط على نحو ١٥٢ كيلومتر
 إلى الشمال والغرب من مدينة مراكش ويقدر سكانها بنحو (٢٤٣٠٠ نفس)
 بينهم أزيد من ١٥٠٠ من اليهود ويقول بعض الجغرافيين أنها من بناء أهل

قرطاجته وهي جميلة الوضع جداً يحيط بها أسوار عالية سميكة ولها خندق وقلة بمض جهاتها متخرب والمدينة مبنية في نهاية غور يصل إلى البحر وبذلك كانت السكنى فيها غير مقبولة لأن الحر يشتد فيها جداً في الصيف لأن انعكاس أشعة الشمس على جوانب الصخور القائمة حولها وهذه الصخور تمنع أيضاً هبوب نسيم البحر أما شتاء فلا ن مياه الأمطار التي تنحدر من فوق تلك الصخور تحول طرقها إلى مجارى مائية وحول المدينة المذكورة بسايتين في غاية الخصوبة ومع ذلك فإن ضواحيها صحراء تنقبض لها النفس ومرساها يفتح إلى الجنوب الغربي وهو خطر جداً على السفن به صخور أكثر من غيره من مدن الساحل لذلك يقل تردد السفن عليها مع أنها أقرب الثغور البحرية إلى مراکش ومن صادراتها الخبل الجيدة والقول والذرة والصوف ومن وارداتها السكر والأقمشة القطنية والجوخ وتشتهر بعمل الأواني الفخارية مثل فاس والرباط

وبجوار هذه المدينة مكان يعرف بالسبعة الأخوة وهو محل مبارك لدى المسلمين واليهود على السواء يستشفى مرضاهم بزيارته والتبرك به وشجرة أخرى جزعها جسيم جداً وأغصانها غريبة يقول من رآها من السائحين أنه لا مثيل لها من حيث العظم في كل دولة مراکش

الصويرة - مدينة بحرية في مراکش أيضاً على ساحل المحيط وعلى نحو سبعين كيلومتراً إلى الجنوب والغرب من مصب تنسفت وتعرف لدى الأورباوين

باسم منادور (Mogador) وهي في نهاية لسان رملي يمتد نحو الجنوب يفصله مضيق صغير عن جزيرة صغيرة هناك بها حصون لحماية مرساها القليل العمق ومنظر هذه المدينة متشابه من حيث شكله ومما تمتاز به نظافتها وجودة هوائها وخلوها من التغيرات القجائية ولا يقع بها المطر إلا قليلا ولطافة مناخها الذي يشبه مناخ جزيرة ماديره آتية من كونها على المحيط ولأن الرياح التجارية تهب عليها دوماً مدة فصل الصيف أما الرياح الجنوبية الحارة المعروفة باسم سير و كولدو القرنج فأتها لاتهب عليها إلا نحو يومين في السنة فقط ومع ذلك فإن جبال أطلس تحفف من تأثيرها جداً ويقدر أن سكانها بنحو (٢٢.٠٠٠ نفس) ولكل دول أوروبا بها قنصل قال بعضهم أن لفظ منادورات من اسم قبة على نحو كيلو مترين من جنوب المدينة الحالية تسمى قبة مجذول وأما أهمية الصويرة التجارية فلا أنها الثغر البحري لمدينة مراکش وهي كذلك لكل البلاد الواقعة إلى الجنوب من جبال أطلس وجميع حاصلات بلاد السوس ووادي درعة ترسل إليها مباشرة بأمر من السلطان وأهم صادراتها إلى أوروبا الجيوب والاصواف والزوت والثمار والجلود والصمغ والخلفاء وقد نقصت أهميتها التجارية الآن كثيراً منذ أن قامت الدار البيضاء تناظرها في ذلك ولا يتردد على مرساها إلا السفن التجارية أما السفن الشراعية التي ترسو عليها فهي لا هالي قناريا ولا شك أن أهميتها تزداد كثيراً إذا صارت السفن التي ترسو عليها في أمن أكثر مما هي الآن من الهوآء الشديد الذي يهب عليها

من الجنوب والغرب وهو ريح يثور في تلك الارحاء شتاء هذا وقد طرأت
على ساحل الصويرة حديثاً تغيرات نجمت عن فعل البحر وانخساف الأرض .
ترودانت مدينة من مدن مراکش أيضاً واقعة في عمالة السوس بينها وبين
مدينة مراکش نحو ١٨٥ كيلومتر إلى الجنوب والغرب وتبعد عن سلسلة
أطلس الكبيرة بنحو ٣٥ كيلومتراً إلى الجنوب وهذا الجبل يتغطي في تلك
الجهة بالثلج في أكثر الأوقات والمدينة في سهل كبير خصب الأراضي جداً
وافر الحاصلات وأشجار الزيتون ويحيط بها أسوار تعلوها أبراج ضخمة
مربعة الشكل ولها خمسة أبواب وقصبتها في الزاوية الشمالية الشرقية منها وبينها
وبين المدينة باب واحد وبالمدينة المذكورة عدة فنادق لسكنى القوافل التي
تمر بها وثلاثة جوامع بأحدها منارة شاهقة تشاهد من بعد ويقدر أن سكانها بنحو
سنة آلاف نفس بينهم بعض اليهود ويشتهر سكانها بالأقبال على الصناعة
وعلى زراعة الزيتون والنخيل خصوصاً وعلى صباغة ودباغة الجلود وعمل
الأحذية وغير ذلك وأهميتها آتية لها على الخصوص من تردد كثير من تجار
الاهالي عليها لأنها أبعد المدن الجنوبية الخاضعة للسلطان ولأنها نقطة النهاية
للقوافل الآتية من تمبكتو وتأتي تلك القوافل بالعاج والتبروريش النعام
والرقيق وغيرها وكان يصدر من هذه المدينة قديماً نحاس معتبر جداً كان
يستخرج من جبالها وقد منعت الحكومة الآن تصديره بالمرّة ومدينة ترودانت
أزلية ولكن أهميتها ظهرت فقط من القرن السادس عشر الميلادي وكان

بضواحيها من زراع واسعة لقصب السكر وكان بالمدينة معامل لاستخراج السكر
وكان السكر يصدر منها إلى كل بلاد مراکش تقريباً فيعود على أهلها
بالمكاسب الوفيرة

تامنيت - مدينة بمراكش يبلد توات الأصلية واقعة على نحو ١٤٠
كيلومتراً إلى الغرب من مدينة أنصالة حاضرة البلاد المذكورة ويقدر
سكانها بنحو أربعة آلاف نفس أغلبهم من زناته وتتألف المدينة من أربعة عشر
قسماً أو محلة منفصلة عن بعضها ولكنها متقاربة جداً يحيط بها كلها سور واحد
الأرياض الثلاثة التي بخارجها وللسور أبراج وله ثلاثة أبواب وهي فوق منحدر
في نهايته مزارع يكثر بها النخيل والقطن والحناء والتبغ والقمح والذرة وغيرها
مما يوجد في تلك الواحة ويقال أن اليهود هم الذين أسسوها كما أسسوا أغلب مدن
توات ولكن الحقيقة أن المدينة قديمة المهد جداً وبها خمسة جوامع وسوقان وهي
مركز تجاري كبير وأهم مكان تجتمع فيه القوافل الآتية من الشمال والجنوب
وأكثر ما يصدر إليها السكر والشاي ويستعمله الأهالي هناك بكثرة ويفضّلونه
على القهوة ويصدر إليها أيضاً بعض مصنوعات أوروبا وأشهر مصنوعات المدينة
المذكورة المنسوجات الصوفية والقطنية وبجانب أحد مساجدها حجر كبير
جداً كان سقط من السماء من زمان بعيد وعلى ١٥٠ كيلومتر من المدينة
أطلال قصر قديم يقول الناس أن الجان يسكنه هذا ويحكم هذه المدينة وملحقاتها
مجلس مؤلف من الأعيان

بلاد الجزائر

أقسامها الإدارية - تنقسم بلاد الجزائر إلى ثلاث ولايات أو عمالات وتنقسم الولايات إلى مقاطعات والمقاطعات إلى أقسام صغيرة يعرف الواحد منها باسم كُثُون كما في فرنسا وينقسم الكُمُون إلى فرنسوى أو تام السلطة ومحتلط يصير تام السلطة متى وصل العنصر الفرنسوى فيه إلى درجة مهمة والولايات المذكورة هي ولاية الجزائر وولاية قسطنطينة وولاية وهران ويدير الحكومة في البلاد حاكم عام ملكي يساعده مجلس عال وكل ولاية من الولايات الثلاث المذكورة تنقسم إلى قسم ملكي وهو عبارة عن مقاطعة إدارتها تشبه إدارة المقاطعات بفرنسا تقريباً وإلى قسم عسكري يدير الحكومة فيه ضابط عسكري هذا وبلاد التل بأجمعها إدارتها ملكية

السكان - يتركب السكان ببلاد الجزائر من ثلاث طبقات شديدة هي القبائل أو البربر وهم أقدم السكان بالبلاد والعرب وهم من نسل الفاتحين ثم جالية الفرنسيين وغيرهم من أهل أوروبا ويضاف إلى هذه الطبقات الثلاث السائدة ثلاث أو أربع طبقات أخرى قليلة الأهمية بالنسبة للأولى ولا بد من أن نضع المستعمرين في المقام الأول لأنهم وأن كانوا أقل الطبقات عدداً إلا أنهم أصبحوا الآن الطبقة الحاكمة بالبلاد فهم أصحاب الحركة الفكرية والقوى التمديدية كما أنهم أصحاب السلطة السياسي والعسكرية وعدم أخذ في الزيادة نسبياً بينما عدد الأهالي الوطنيين أخذ في النقصان

كذلك والطبقات المذكورة هي الآتية

أولا المستعمرون أو جالية أوروبا - يبلغ عدد جالية أوروبا بإيلاد الجزائر الآن نحو ستمائة وثمانين ألف نفس أربعة أسباعهم من الفرنسيين وما بقى أسبانيون وطياليون ومالطيون وأغلب الفرنسيين من الأقاليم الفرنسية التي على ساحل بحر الروم ومن جزيرة قُرشقُ أما الأسبانيون فمعظمهم من بلاد بلنسية وجزائر بليار وبلاد الأندلس وأغلب الطليانيين من نابل وصقلية

ثانياً القبائل - كان هؤلاء السكان ينزلون كل بلاد الجزائر الحالية قديماً من سيف البحر حتى واحات الصحراء الكبرى وكان الرومان يسمونهم نوميديين وهم في الحقيقة شعبة من ذلك الجنس الكبير الذي سكن البلاد فيما غبر من الأدهار ثم أطلق عليه بعد ذلك أسم بربر (راجع الكلام على البربر) وكان البربر يسكنون قديماً كل المنطقة القابلة للسكنى بشمال أفريقيا بين الصحراء الكبرى والبحر ومن وادى النيل حتى المحيط الأطلسي وقد أخضعهم العرب في القرن السابع الميلادي ومع خضوعهم للمسلمين من ذلك الوقت بقوا في أراضيهم يملكونها ودام الحال على هذا المنوال حتى منتصف القرن الحادى عشر من الميلاد وقت قدوم القبائل العربية من مصر ومما جاورها من البلاد فأخضعت كل أقاليم البربر وقتلت منهم من قتلت وطردت أصحاب الأراضي من أراضيهم ونزلت حيث كانوا يقيمون أى فى قسم عظيم من البلاد كما تقدم الكلام على ذلك مفصلاً والمغيرون المذكورون هم أجداد عرب الجزائر

الحاليين كما أنهم أجداد عرب مراکش وتونس وطرابلس وفزان وبرقة وقد هاجر قسم من البربر والتجأ إلى الصحراء فأقام في واحاتها (أنظر الكلام على التوارك) وأعتصم من بقي منهم بالجبال والهضاب

واعلم أن المراد بالقبائل في العرف هناك القبائل التي ليست عربية وهي النازلة بالجبال القريبة من الساحل غربي مدينة الجزائر وشرقيها وقد أطلق العرب على القبائل النازلين بالجهات العالية جنوبي قسطنطينة اسم شاونية ومعناه الرعاة خصوص بهذه التسمية دون غيرهم كما أطلقوا لفظ مزابي على بربر واحات غرداية وورقلة ولفظ توارك على القبائل النازلين بالصحراء وأغلب القبائل ببلاد الجزائر ينزلون ولاية قسطنطينة لأنهم يميلون كما قلنا لسكنى الجهات الوعرة وهم يشغلون من الولاية المذكورة نحو نصفها على الأقل وينزلون أماكن أخرى غير هذه ولكن عددهم بها أقل بكثير كجهات التل أي المنطقة الساحلية من ولايتي الجزائر ووهران ومثل جهات الواحات جنوباً هذا ويمكن أرجاع كل القبائل المذكورة إلى أربعة مجاميع أصلية هي (١) قبائل ولاية قسطنطينة ويمتدون حتى حدود تونس وتشمل بلادهم على هضبة جبل أوراس بأجمه بما في ذلك منحدراته الجنوبية حتى مدخل سهول الرمل

(٢) القبائل المعروفة لدى الأوروبيين بالقبائل الكبرى والصغرى وهم إلى الشمال والغرب من السابقين بالمنطقة البحرية وقسم منهم بولاية

قسنطينة وآخر بولاية الجزائر

(٣) قبائل الساحل وهم غربي مدينة الجزائر

(٤) قبائل واحات الجنوب المشتملة على واحتي مزاب وأورقلة العظيمتين

هذا وبولاية وهران عدد قليل من القبائل

ثالثاً — العرب يبلغ عدد العرب والبربر من سكان الجزائر الآن نحو أربعة ملايين وأربعمائة وسبعة وسبعين ألف تقس والعنصر العربي أكثر من البربري سيما إذا لاحظنا أن الكثير من القبائل أو أنفازها الذين هم من الأصل البربري قد استعملوا العربية لغة لهم بخلاف القبائل العربية فإن القليل منها قد استعمل البربرية لغة له وعلى ذلك قد اعتبر كثير من الجغرافيين تلك القبائل عربية بينما هم في الحقيقة من أصل بربري ويطلق العرب هناك على جملة الخيام المتجاورة المجتمعة لفظ دوار كما نسمى نحن هنا في مصر جملة البيوت المجتمعة أو المتجاورة عزبة أو كفرة أو قرية والدوار عندهم مبدأ النظام الاجتماعي وجملة الدواوير تسمى فرقة وهي تخضع لشيخ وكل عدة فرق تكون قبيلة يعرف شيخها بالقائد أو الأغا والقبائل المجتمعة الكثيرة تكون ما يعرف بالأغالق وكل جملة من هذه تكون ما يعرف بالباش أغالق أو بالخلافة هذا هو النظام المتبع هناك وربما قد اندثر الآن بعض هذه الاصطلاحات وقد بقي العرب من سكان الجزائر سواء من سكن منهم التل أو الواحات الجنوبية رعاية ماشية وبذلك يمتازون عن القبائل البربرية الذين يشغل معظمهم

بالزراعة أما سكان الصحراء منهم فمعيشتهم بدوية لأن الأحوال تضطرم
أليها وليس الأمر كذلك بين قبائل التل لهذا استعنت الإدارة الاستعمارية
منذ زمن طويل كل تفوذها وما يمكنها من الوسائل لكي تدخل بين قبائل
المنطقة الساحلية عوائد الأمم المستقرة في مكان معلوم من الأرض فنجحت
في ذلك نجاحاً عظيماً حتى أصبحوا أكثر التصاقاً بالأرض الآن منهم فيما
مضى وأعلم أن اللغة العربية ليست خالصة ولو نسبياً إلا بين قبائل الصحراء
أما قبائل التل فقد دخل على عربيتهم منذ الأعصر الأولى من استيطانها
انقلاب وتحريف كبيرين بحيث أصبحت لهجة حقيقية

رابعا - الطبقات الأخرى من سكان الجزائر - هم المغاربة والقول
أوغليه واليهود والسود ويكثر المغاربة بين سكان المدن خصوصاً مدن الساحل
(أنظر الكلام على المغاربة) أما القول أوغليه فهم متناسلون من الأتراك
والمغريات وقد انعدموا الآن تقريباً أما اليهود فكثير عددهم بالجزائر وبكل
الممالك البربرية وهم منذ الأعصر الغابرة أكبر العوامل في المبادلات التجارية
يشتغل أغلبهم بالحرف الصغيرة وكثيرون منهم كالصيافة (البنسكريه)
والتجار أصبحوا من أصحاب الأموال والوفرة والنعم الكثيرة وقد صلت
أحوالهم منذ الاستعمار الفرنسي وتجنسوا بالجنسية الفرنسية ويزيد عددهم
عن ستين ألفاً أما السود وهم الذين أستجلبهم الناس فيما سبق عبيداً فعدهم قليل
مع ذلك فإن بين القبائل عدداً كبيراً من دم سوداني

الحالة الاجتماعية والسياسية بالجزائر - يزداد سنوياً عدد سكان بلاد الجزائر الذين يبلغون هم وسكان الصحراء الجنوبية ١٦٠.٠٠٠ ره نسمة وفي زيادة عددهم سوءاً في ذلك الأهالي والأوربيين ما ثبت موافقة الأحوال الصحية هناك وكان يموت من المستعمرين والمساكر في أول الفتح الفرنسي عدد كبير أما الآن فأن المواليد تفوق الوفيات والفضل في ذلك راجع إلى التدابير الصحية التي فهم الأهالي قيمتها أكثر من قبل ويلاذ الجزائري مبانى قديمة عديدة مختلفة ما بين جلمودية ودزويدية وأخصها ما كان بولاية قسطنطينة مما يثبت أن أمماً متشابهة في الحضارة كانت تسكن شمالى بحر الروم وجنوبه في أزمنة ما قبل التاريخ ومن بعدها تعاقبت أغارات بعضها سلمى وبعضها حربى أدخلت بالبلاد أمماً مختلفة الصورة ولا يمكن تعيين البربر بالضبط من صورتهم الأصلية ولكنهم يظهرون جداً من لغتهم وقد طراً على بلاد الجزائر في أدوار تاريخها عدة تقلبات سياسية فكانت أولاً خاضعة للملوك من أهاليها ثم انتقلت إلى حكم الرومان ثم إلى الوندال ثم إلى البوزنطيين وفي أواخر القرن السابع الميلادى دخلت تحت حكم العرب وفي القرن الخامس عشر منه انتقلت إلى حكم الأتراك وكانت مدينة الجزائر مدة زمن طويل أهم مركز للقرصان الذين كانوا يعيشون الفساد في بحر الروم وكثيراً ما أطلقت عليها أساطيل ممالك أوروبا مدافعها لذلك ثم استولى عليها الفرنسيون سنة ١٨٣٠ م ومن هذا الوقت أخذ الفتح الفرنسي يمتد تدريجياً في بقية البلاد وقد عانى الفرنسيون في ذلك

أكبر المشاق لاتصاف السكان بالصفات الحربية وبسبب وعودة البلاد واهتمت فرنسا بعد أن تم لها الاستيلاء بتحسين الأحوال هناك وتكدي موارد الثروة فهازت من ذلك بقسط وافر

الدين واللغة والمعارف - أما من حيث الدين فالعرب والبربر كلاهما يتدين بالأسلامية على مذهب الامام مالك وبينهم كثير من الاباضية ينزلون جهاد الزاب على الخصوص وقد حافظ العرب أكثر من البربر على قوميتهم وأقاموا مجتمعين مشكلين أمة حقيقية أما من جهة اللغة فالعربية هي لغة الحبشة على ما بها من التحريف والدخيل وفرنسة العناصر الأوربية ببلاد الجزائر حاصلة بالتدريج في إداراتها ومدارسها بينما هذا الأمر بطيء جداً بين الأهالي الوطنيين ولم تتمكن المدارس الفرنسية من إدخال التعليم ونشره إلا بين نحو العشر من أولاد الأهالي وأقبال القبائل البربرية على العلم أكثر منه بين العرب عموماً ولهجات البربر كلها ترجع إلى فصيلة اللغة الحامية أما العربية فأنها سامية كما هو معلوم ومع ذلك فإن بمض القبائل البربرية تكلم الآن بالعربية لا غير فهي لغتها المدنية والعلمية كما سبقت الإشارة لذلك

قال في صفوة الاعتبار « المعارف فيها (أى بلاد الجزائر) على قسمين الأول علوم الديانات والثاني علوم الرياضيات فالأول قسمان أيضاً الأول ما هو مختص بالديانة الأسلامية وله مدرسون في الجوامع بقروطن النحوي والفقهاء وفي خصوص الجزائر من هؤلاء عشرة مدرسين والفقهاء المالكي وقليل من

الدروس في الحديث أو غيره وأكثر الأجهاد في هاته العلوم في بلد قسطنطينه
ثم تلمسان وفي الجهات الجنوبية يقرؤون العلوم في زوايا الطرق ولأهالي هاته
الجهات اعتناء بأخذ العلم فيرحلون إليه إلى فاس وتونس وقليل منهم يرحل
إلى مصر فلذلك لم يتقطع في تلك الجهات من له اطلاع حسن ومشاركة جيدة
وقليل من يتصلح حقيقة التصلع لأنه ليس في أوطانهم علماء فحول وأنما يقرؤون
صغار الكتب وأكثر الأنكباب في الفقه المالكي على حفظ مختصر خليل
وتفهمه ومن تمهر في العلوم في إحدى البلاد الخارجية قلما يرجع إلى وطنه وفي
كل تلك العلوم مدرسون في الجوامع لهم مرتبات من قبل الدولة الفرنسية
وهي القاعة بمصاريف أقامة الجوامع وما فيها من قراءة الأحزاب أو كتب
الحديث لأنها استولت على جميع الأوقاف والمساجد واقتصرت في كل بلد
على عدد مخصوص من المساجد تقوم به وغيره تصرف فيه بما تناسبها وحرمت
المستحقين من مالهم كأوقاف الحرمين والقسم الثاني ما يختص بالديانة النصرانية
ولا دخل للدولة فيه وأنما القسيسون لهم مدارس لتعليم دياتهم إلى أن قال

«وأما القسم الثاني من أصل المعارف فهو سائر المعارف الرياضية وهاته لها
مكاتب من الدولة في البلدان المتمدة وهي على نحو المكاتب الفرنسية غير أنها
قاصرة عن العلوم العالية فيعلم أتمام التلميذ فيها معارفه ينتقل إلى باريس التي
هي مركز سائر العلوم العالية والمكاتب بالجزائر فيها ماهو للولدان
وفيه ماهو للبنات» اهـ

الصناعة - تنحصر الصناعة في بلاد الجزائر في الزراعة ومن أهم مواردها الجبوب والكرم والزيت والقطن والصوف والحرير والمستعمرين كثير من الطواحين البخارية ومعامل للدباغة وصناعة الطوب وأخرى لعمل صمامات القلين واستخراج الروائح العطرية وتجهيز السردين والطنونه وغيرها من أنواع السمك كل ذلك على الخصوص في ثغورها البحرية الشرقية وهناك أيضاً معامل لحليج القطن وعمل السيجارات وغيرها أما الأهالي فأشهر الصنائع لديهم صناعة البسط وتجهيز وصباغة الأصواف وعمل السروج ودباغة الجلود وصناعة المراكب وتطريز الأقمشة وعمل الأسلحة ولا يشتغل بالأخيرة منها إلا القبائل البربرية تقريباً ولهذا القبائل على العموم مهارة في الصناعة هذا وأكثر ما تكون الصنائع الأهلية في تلمسان وقسطنطينة

التجارة - أهم صادرات الجزائر لفرنسا ولغيرها من البلاد الخارجية الثيران والضأن والقطن والأصواف والجلود والحلفاء والحديد والنحاس والرصاص والديقيق ثم التمار وأخصها البرتقال ثم المرجان والقلين أما الواردات فأشهرها المنسوجات والأنبذة والبن والسكر والأواني الفخارية والآلات والأدوات المصنوعة وأخصها الآلات البخارية ثم الفحم الحجري وغيره ويخص فرنسا من التجارة الداخلية والخارجية نحو أربعة أخماسها ومما يساعد على تسهيل المواصلات التجارية السكك الحديدية وأهمها خط يربط بلاد التل نوهرا ن وتونس ويخرج منه فروع تذهب شمالاً إلى المدن الساحلية وأخرى

تذهب جنوباً نحو جهات النجود وهناك طرق برية بين المدن صالحة لسير العربات وبين ثغورها البحرية وفرنسا على الخصوص مواصلات بحرية منتظمة والتعليم الابتدائي منتشر جداً بين جالية أوروبا في ولايتي الجزائر وقسطنطينة أما ولاية وهران حيث يكثر عدد الألبانيين فالتعليم فيها أقل منه في الولايتين المذكورتين وغاية ما ترجوه فرنسا من مساعدتها هناك مزج الأهالي بمزج منافعهم ومصالحهم وتعيين أملاكهم لتوجد منهم أمة واحدة

مدن بلاد الجزائر

أعلم أن المدن والقرى ببلاد الجزائر ذات شكل خاص يختلف عن بعضه بحسب وضع الأراضي وبالمناخ ونوع معيشة السكان فأن الإنسان لا يرى القرى المرية التي تتألف من خيام أو من أكواخ صغيرة بسهولة كما يرى دساكر القبائل البربرية للمدينة في العادة فوق النجود وقد حافظت على شكلها الخاص بها وهي تمتاز عن القرى التي شيدها المستعمرون من أهل أوروبا لأن دور هذه أحسن بناءً ونظافة واتساع طرق وجودة بساتين ولا تزال المحلات الوطنية دون غيرها في المدن محافظة على شكلها القديم أما المحلات الجديدة التي تسكنها جالية أوروبا فأنها تشبه مدن أوروبا وهذا وأشهر مدن بلاد الجزائر هي الآتية

بونه - ويقال لها أيضاً غنابه ويقدر أن سكانها بنحو (٤٣٠٠٠ نفس)

أقل من نصفهم من الأهالى وهي بمالة قسطنطينه فى النهاية الغربية من خليج عريض مضاف إليها وعلى نحو ١٥٦ كيلومتر إلى الشمال والشرق من قسطنطينه وعلى نحو ٤٤٠ كيلومتر إلى الشرق من مدينة الجزائر وموقعها جميل جداً وهى فى لحف جبل وفى أول سهل يمد لجماله من جنان بلاد الجزائر وقدامتلاً سريماً بمجالية الفرنسيين ويشقه نهير يسمى سيئوس وللمدينة سور له شرفات وستة أبواب وقصبة وحصون للدفاع عنها وقد أصبحت عنايه الآن ككن أوروبا من حيث النظام والمباني رغماً عن عدم استواء أراضيها وأصلح الفرنسيون الآن مينائها وأوجدوا بها من الأعمال والمباني ما يجب أن يكون لمدينة مثلها تجارتها آخذة فى الزيادة وخلفها بلاد عظيمة الخصوبة جداً ومناجم للحديد مشهورة ذات غلة وافرة وأخرى للنحاس وغابات للبلوط والفلين والزيتون تعطى سنوياً مقادير كبيرة من الزيوت ومما زاد فى أهميتها أيضاً ارتباطها مع المدن الأخرى الشيرة بالطرق الحديدية وبينها وبين مرسيليا وتونس ومدينة الجزائر مواصلات بحرية منتظمة وعنايه مركز قسم إدارى بمالة قسطنطينه وبها محكمة تجارية وأخرى ابتدائية ومدرسة تعرف بأ كاذيميهون ودار آثار ودار كتب وغير ذلك وعلى نحو كيلومترين إلى الجنوب منها خرائب مدينة قديمة تسمى هيثون وكلها أنقاض بالية إلا صهاريجها وما حولها والفناء التى كانت تجلب لها الماء وكانت هيثون فيما سبق واسعة التجارة جداً بحيث لم يكن ينظرها فى ذلك بهذه البلاد إلا مدينة قرطاجنة

قال في معجم البلدان « بونة بالضم ثم السكون مدينة بأفريقية بين مرسى الخزر وجزيرة بني مزغناى وهى مدينة حصينة مقتدرة كثيرة الرخص والقواكه والبساتين وأكثرها كهنا من باديتها وبها معدن حديد وهى على البحر الى أن قال ويطل على بونة جبل زغوغ » اهـ

فليسيل - مدينة بحرية حصينة بمالة قسطنطينه أيضاً الى الشمال والشرق من قسطنطينه وهى مركز قسم أدارى وعلى خليج مضاف إليها وألى الغرب من مصب نهر صغير يسمى صفص وفي سفح جبل متصل بجبال كثيرة الغابات يسكنها قوم من البربر استعربوا ويقدرون سكانها بنحو (٢٦٠٠٠ نفس) أقل من نصفهم من الأهالى وبجوارها كروم كثيرة وبساتين أنيقة قامت مقام قنائع وبطائح مضرّة بالصحة كانت هناك فيما سبق وبها معامل لديغ الجلود وأخرى لعمل صامات الفلين وغيرها وبالقرب منها مناجم للحديد ومقالع للأحجار وحركتها التجارية واسعة في جهات الساحل حتى أنها تناظر في ذلك وهران والجزائر وكان في مكانها قديماً نزلة بحرية رومانية تعرف لدى الأهالى بأسم تاسكندا ولا يزالون يطلقون الى الآن على قطعة من الأرض داخله في خليجها بالقرب من المدينة لفظ أسككدا والفرنسيون هم الذين بنوا هذه المدينة سنة ١٨٣٨ لتكون ثغراً بحرياً لقسطنطينه وهى تشبه على نوع ما مدينة لاڤالت عاصمة مالطة وقد وجدوا أثناء البناء تحت الأرض آثاراً رومانية كثيرة وحمامات بها صور نساء وخيل وحيوانات مفترسة وغير ذلك

قسنطينة - مدينة مهمة وقاعدة المالة المضافة إليها ينهاوين مدينة الجزائر الواقعة إلى الشرق منها نحو ٤٤٠ كيلومتر ومدينة فليبيل أقرب الثغور البحرية إليها لأن بينهما نحو ٧٧ كيلومتراً فقط ويقدر أن سكانها بنحو (٥٨٤٠٠ نفس) أكثر من نصفهم من الأهالي وهي مركز قائد الجنود التي بتلك المالة وترتفع عن سطح البحر بنحو ٦٤٤ متراً وهي قائمة فوق صخرة جوانبها رأسية تشبه من الأشكال شبه المنحرف وزواياه الأربعة تواجه النقط الأربع الأصلية ويحيط بقاعدة تلك الصخرة شرقاً وادى الرمل الذى يصب فى وادى أبى مرزوق وهو يقترب من المدينة عند زاوية الجنوبية فى مكان يعرف بسيدى راشد وهناك يحدث شلالا ويمر تحت قنطرة وينصب فى وهدة عميقة ممتدة على طول جوانب الصخرة من الجنوب إلى الشرق ثم متى وصل إلى نهايتها الشمالية المبينة فوقها قصبة المدينة أحدث شلالا آخر يعرف بشلال السلاحف وبعد ذلك يسير نحو الشمال والوهدة المذكورة تختلف فى العرض فهى من سيدى راشد المذكور حتى الزاوية الشرقية المسماة بالقنطرة لاتزيد عن ستين متراً وعمقها عن ثلاثين متراً ومن هذه الزاوية إلى القصبة يكبر عرضها وعمقها عما كانت عليه فهى كخندق يمنع الأتراك من أسوار المدينة من هاتين الجهتين أما نهر الرمل الذى يجري فى هذه الوهدة فأمره غريب وحاله عجيب لأنه عندما يصل إلى المكان المعروف بالقنطرة يغور فى الأرض زمناً ثم يظهر ثانية ثم يعود فيختفى ويكرر ذلك أربع مرات فيكون فوقه أربع قناطر طبيعية يختلف عرضها بين خمسين متراً

ومائة متر أما الأرض في الجانب الثالث من جوانب المدينة أى بين الزاوية الشمالية من القصة والزاوية الغربية منها فانها كثيرة التضاريس جدا وهناك ثلثة عريضة يلقى منها أهل المدينة قاماتهم والأرض المذكورة يمكن مع ذلك تسلسها وأن كانت شديدة الانحدار أما الجهة الرابعة من جهات المدينة وهى التى متصل بها تلك الصخرة التى تكون كسبه جزيرة متفرعة عن الهضبة الصخرية فى عبارة عن برزخ يختلف عرضه بين ثلاثمائة متر وأربعمائة متر وهى الجهة الوحيدة التى يمكن الوصول منها إلى المدينة بسهولة وهى أيضاً الجهة الوحيدة التى أقاموا فيها حصوناً للدفاع عنها ولا تزال الحصون التى بناها البوزنطيون قائمة هناك للآن وهناك أيضاً أسوار بنيت قبل زمنهم وليست قسطنطينه من المدن الحصينة فى الأصطلاح الحديث لأن كل حصونها فيما أحاط بها من الوهاد والأغوار وفى هذه الأسوار القديعة التى أصلحها الفرنسويون سنة ١٨٣٧ وبها ثلاثة أبواب ومن أغرب هذه الحصون برج يعرف ببرج السوس وهو مربع الشكل ومن بناء البوزنطيين أما قصبتها التى بناها الرومان فلم يبق منها إلا صهاريج كبيرة وقد أصلح الفرنسويون هذه القصة وموقعها فوق قمة ذلك المنحدر الذى يحيط بقسطنطينه وترتفع عن سطح البحر بنحو ٦٤٠ متر وبها الآن ثلاث ثكنات عسكرية ومستشفى كبير ومخبز للجند ومخازن للسلاح وغير ذلك

وقد تعافى على صخرة قسطنطينه أعم كثيرة واستفاد العرب من غير

شك من مبانيها الرومانية القديمة واسكنها كلما كانت تهدم كانوا لا يقيمونها
ثاقية على ما كانت عليه من متانتها الأولى وأغلب دورها منطى بانقرميدوهى أقل
فضامة بكثير عن دور مدينة الجزائر وغالبها مبنى بالطوب وللقليل منها طبقة
علوية وليس لها فتحات أو شبايك تطل على الخارج غير أبوابها وأسواق هذه
المدينة تشبه أسواق المدن الشرقية وأعظم الصنائع بها رواج الدباغة وعمل
سروج الخيل والأحبال ونسج الأقمشة الصوفية وعمل البسط وغير ذلك
أما الصناعة الأروية فأنها أكثر رواجاً وحرارة وأهمها طحن الدقيق وعمل
المعجنات النذائية وتدير مياه نهر الرمل عدة طواحين وقسططينه من أكبر
الأسواق بأفريقية الفرنسية في تجارة النلال ولها تجارة كبيرة أيضاً في الزيوت
والأصواف والجلود والبنال وبها عدة جوامع ومساجد وزوايا ورباطات
وقصور كانت لحكامها المروفين بالبكوات منها قصر فخيم بناء آخرهم المسمى
الحاج أحمد بك وهو بناء واسع اشتمل على كثير من نفيس الحجر ودقيق الصنعة
بحيث لا يضارعه بناء آخر ظهر فيه بهاء الصنعة الشرقية ودقتها وجلالها أكثر من
ظهورها في هذا القصر ويسكنه الآن القائد العام للجند الفرنسيون التي تلك العمالة
وبعد ان أخضع الفرنسيون هذه المدينة جعلوا قسمها المنخفض أى
الجنوبى خاصاً بسكنى الأهالى أما القسم الأوربى الذى أخذ يشمل تلك
لمدينة تدريجياً فإنه واقع فى قسمها المرتفع على الخصوص بين قصبتها وسراى
البك المذكورة وقد فتحوا هناك شوارع جديدة وأصلوها إلى ميادين حديثة

بنوها وبينما كانوا يشتغلون في ذلك عثروا على آثار قديمة نفيسة دلت على ما كان لهذه المدينة من الأهمية وقد شيد الفرنسيون بها مباني لأداراتهم وأعمالهم ودينهم كالحمام والبنوك ودور البريد والتبليغات والكنائس وما يجب ذكره من هذه المباني جمعية الآثار التاريخية ودار المتحف والمدارس والمستشفيات وبالمدينة ثلاثة عشر جامعاً ومسجداً من أشهرها الجامع الكبير وجامع سيدى الأخضر وله صومعة مشمسة الزوايا ارتفاعها خمسة وعشرون متراً إذا صعد الإنسان فوقها شاهد منظرًا من أبدع المناظر وليست المدينة الأهلية والمدينة الفرنسية هما كل قسطنطينية بل لها خارج أسوارها أرباض وضاحيات منها سن جان وسن أنطوان وغيرهما ومقابر المدينة خارجها فوق مرتفع هناك كان مقبرة لها في كل أدوارها التاريخية

ولما كانت قسطنطينية واقعة هكذا أى على قمة صخرة قاحلة كان الماء في كل زمن أول ما يهتم به سكانها لهذا شيد الرومان بها مواجل وصهاريج لازال بعضها إلى الآن وكان الماء يصل إليها من حوض بجبل يسمى أراش على نحو اثني عشر كيلومتراً منها ويأتى إليها الماء أيضاً من منبع يسمى بأبى مرقوق بقناة لا تزال آثارها تشاهد للآن وأعجب مباني هذه المدينة قنطرة فوق النورالذى يجرى في قاعه نهر الرمل والقنطرة المذكورة قناة للماء أيضاً وقد بناها الرومان وتألف من صفين من الحنايا فوق بعضهما ترتكز الأولى منهما على إحدى القبوات الطبيعية التى يمر من تحتها نهر الرمل ويبلغ ارتفاع هذه القبوة عن ماء

النهر نحو ٥٧ متراً وقد جدد العرب بناء هذه القنطرة سنة ١٧٩٣ م وفي سنة ١٨٥٧ تهدمت قنطرتان من القناطر العليا وسمع لسقوطها دوى هائل مفزع حتى نشأ من ذلك انهدام القنطرة بأجمها ثم جدد الفرنسيون بناءها ولكنهم جعلوها من الحديد وارتقاعها عن مجرى النهر ١٢٠ متراً أما الآن فأن الماء يصل إلى المدينة غزيراً من مواجل أربعة قرية منها تعرف بالفساق تبعدها نحو خمسين كيلومتراً إلى الجنوب في عين مليله ولا يزال بعض تلك القناطر القديمة يشاهد للآن وهو من أجل ما تركته الأعصر الفائرة من الآثار ويقول العلماء أن الإمبراطور جُستيناوس هو الذي بناها بالقرب من قسطنطينة يابيع حارة غزيرة المياه بعضها كبريتي وبعضها حديدي والبعض الآخر قلوي وكلها تخرج من مناوور هناك وتجرى منحدره فوق جنادل لطيفة وكثيراً ما يقصدها الآوريون وغيرهم للاستشفاء وتتصل قسطنطينة الآن بمدينة الجزائر وتونس بطريق حديدي وكانت هذه المدينة تسمى قديماً سرتاً (Cirta) وكان بها جالية من الأغريق قتلهم إليها بعض ملوكها قال استرابون كانت سرتاً أذ ذلك كثيرة السكان زاهية حتى أنها كانت تهدر أن تخرج عشرة آلاف فارس وعشرين ألف راجل ثم لما تخربت أقامها الإمبراطور قسطنطين لهذا سماها أهلها قسطنطينة اعترافاً بفضلهم عليهم ثم أنه في سنة ١٥٣٥ م أخضعها أتراك الجزائر وأصبحت يحكمها من ذلك الوقت حاكم يلقب بالبك كان ينصبه داي الجزائر بفرمان منه وآخره هو الحاج أحمد النقسيم الذكر وقد استمر على استقلاله بعد أن استولى

الفرنسيون على مدينة الجزائر بسبع سنوات وقد كابدوا في الاستيلاء عليها مشاق عظيمة وفقدوا من جنودهم عددا كبيرا ويقال أن هذه المدينة حوصرت قبل ذلك ثلاث وعشرين مرة

قال في معجم البلدان « قُسْطَنِيْنِيَّة مدينة وقلعة يقال لها قسطنطينية الهواء وهي قلعة كبيرة جداً حصينة عالية لا يصلها الطير إلا بجهد وهي من حدود أفريقيا مما يلي المغرب لها طريق وأتصال بأكام متناسقة جنوبها تمتد منخفضة حتى تساوى الأرض وحوّلها مزارع كثيرة وألها ينتهي رحيل عرب أفريقيا مغربين في طلب الكلاء وتزاور عنها قلعة بني حماد ذات الجنوب في جبال وأراض وعرة قال أبو عبيد البكري من القيروان إلى مَجَانَّة ثم إلى مدينة يُنْجُس ومن مدينة ينجس إلى قسطنطينية وهي مدينة أزيلية كبيرة آهلة ذات حصانة ومنعة ليس يعرف أحصن منها وهي على ثلاثة أنهار عظام تجري فيها السفن قد أحاطت بها تخرج من عيون تعرف ببيون أشقار تفسيره سود تقع هذه الأنهار في خندق بميد القمر متناهي البعد قد عقد في أسفله قنطرة على أربع حنايا ثم بنى عليها قنطرة ثانية ثم بنى على الثانية قنطرة ثالثة من ثلاث حنايا ثم بنى فوق ذلك بيت ساوى حافتي الخندق يمر عليه إلى المدينة ويظهر الماء في قمر هذا الوادي من هذا الموضع كالكوكب الصغير لعمقه وبعمده » اهـ

بجايه- مدينة بحرية على نحو ٢٢٦ كيلومتراً إلى الشمال الغربي من قسطنطينة وفي النهاية الغربية من الخليج المضاف إليها وهي على ساحل البحر تماماً ومحيط

بها جبالاً وكما ترتفع بالتدريج وقد أكسبها موقعها على جانب الجبل وكذا ما يحيط بها من مزارع البرقال والمان والتين منظر أعجيباً لطيفاً وليس لها مرفأ في الحقيقة ولا يمكن للسفن أن ترسو عليها إلا وقت سكون البحر وأحسن مكان تحتمى به السفن من أهوية الشتاء هناك خليج صغير بجوارها يعرف بخليج سيدى يحيى وقد ازداد عدد سكانها وتحسنت حالتها جداً من وقت أن صارت مركز قسم أدارى ومن وقت أن نزلها للمستعمرون من الأوروبيين وكان في موضع هذه المدينة قديماً مدينة رومانية آثارها باقية للآن وقد استولى عليها الوندال في القرن الخامس من الميلاد ثم استولى عليها العرب سنة ٧٠٨ م وبعد ذلك ضعف شأنها جداً حتى تنوسى اسمها القديم ثم تسمت باسم قبيلة بربرية يقال لها بجاية قال ابن خلدون في سنة ٤٦٠ من الهجرة استولى الناصر من بنى زيرى على الجبل وشيد به مدينة سماها الناصرية ألا أن الناس كانوا يسمونها بجاية باسم القبيلة وذكر البكرى أيضاً في كتابة هذه الحادثة وقال أن مرسى بجاية مدينة أزلية فاسماه ابن خلدون تأسيساً لم يكن إلا أصلاً وتحسيناً فقط قام به الناصر المذكور وذكرها الأدريسى أيضاً فقال أنها بلدة غنية مترقية في التجارة وأنها محط للتاجر بين شمال أفريقيا وبلاد النصارى وذكرها ليون الأفريقى بما يشبه ذلك أيضاً وقال عن سكانها أنهم قد غرقوا في بحار الشهوات والملاذ حتى أنه لم يمكنهم أن يدفعوا عنهم تسلط أمير بلاد ناغار وقد بقيت هذه المدينة في قبضة الأسبانيين حتى انتزعها منهم داي الجزائر

سنة ١٥٥٥ م ثم انحط أمرها بعد ذلك جداً وشيد الفرنسيون الآن بجوارها مدينة جديدة ترقى بسرعة ويقدر أن سكان هذه المدينة بنحو (١٦٥٠٠ نفس) منهم نحو خمسة آلاف من الأوربيين ويصب بجوارها وادى الساحل ونزل تجار الأفرنج هذه المدينة من قديم الزمان لجودة موقعها التجارى ولما يرد عليها من الحاصلات المختلفة من الجهات الداخلية لهذا كان للفرنسيين بها قبل استيلائهم على بلاد الجزائر شحنة (قنصل) ينظر في شؤونهم وربما كانت هذه المدينة الآن أكثر الثغور البحرية يبلد الجزائر متاجر مختلفة قال في معجم البلدان « بجايه بالكسر وتخفيف الجيم مدينة على ساحل البحر بين أفريقيا والمغرب كان أول من اختطها الناصر بن علناس بن حماد بن زيرى بن مناد ابن بُلْكَيْن في حدود سنة ٤٥٧ يبنها وبين جزيرة بنى مرغانى أربعة أيام كانت قديماً ميناء فقط ثم بنيت المدينة وهى فى لحف جبل شاهق وفى قبليها جبال كانت قاعدة ملك بنى حماد وتسمى الناصرية أيضاً باسم بانها وهى مفترقة إلى جميع البلاد لا يخصها من المنافع شيء إنما هى دار مملكة تركب منها السفن وتسافر إلى جميع الجهات وبنها وبين حيلة ثلاثة أيام » اهـ ثم ذكر بذلك السبب فى بنائها مما لم نر فائدة من ذكره

ستيف - هى مدينة واقعة إلى الجنوب والغرب من قسطنطينة لاتزال إلى الآن راقية كما كانت فى عهد الرومان وبها من السكان نحو (٢١٧٠٠ نفس) أكثر من نصفهم من الأهالى وهى مركز فرقة من الجنود الفرنسية ويقوم

بها كل أسبوع سوق يتردد عليه الآف من الأهالي وهي جميلة منتظمة نظيفة الطرق والمباني وتجارها واسعة في الجبوب والثيران والخيول والضأن والأصواف والجلود والأفشة والبسط العربية ويسقط الثلج فيها شتاء في غالب السنين وكان يخرج منها في زمن الرومان عدة طرق كبيرة تذهب نحو للدن الشهيرة بيلاد نوميديا ولما قسم الرومان هذه البلاد إلى أقليمين كانت سيتيفيس أى ستيف هذه عاصمة الأقليم الشرقى وذكر البكرى هذه المدينة وقال أنها كبيرة ذات أهمية كثيرة السكان راقية

الجزائر - هي عاصمة بلاد الجزائر وقد أصبحت الآن بين مدن أفريقية الشمالية بعد القاهرة والأسكندرية في الأهمية وهي في منتصف ساحل بلاد الجزائر على بعد متساوٍ تقريباً بين مراكش وتونس ومشيدة على الجهة الغربية من خليج عريض مضاف إليها وبين مدينة مرسيليا نحو ثمانمائة كيلومتر وهي تشغل لحف وجوانب أكمة مائلة جداً وعرة تتصل بالجبل فكأنها قلعة في وضعها وقد كانت لقرصان البحر أمان مينا بحيث لم يكونوا يخافون ألا من إطلاق المدافع عليهم من جهة البحر وكانت في زمن الرومان تدعى إيكوسيوم (Icosium) وسوقاً تجارياً في الدرجة الثانية وتابعة في الإدارة لمدينة سيزاريا (شرشيل) التي كانت اذ ذاك مركزاً تجارياً لقبائل البربر النازلين بالداخل وفي القرن العاشر من الميلاد أقامها وحصنها بلسكين بن مناد بن زيري الصنهاجى وكان عاملاً للقواطم على المغرب الأوسط وسماها بالجزائر من أسم جزائر صخرية

كانت تمتد أمامها على طول الساحل تعرف بجزائر بني مزغنة أو مزغناي ثم أن قرصان الأتراك اتخذوا الجزائر للذكورة وصيفاً للميناء الذي شيدوه اذ ذلك وليست مدينة الجزائر الحالية هي تلك المدينة القديمة ذات الطرق الضيقة المتعرجة المائلة غير الممهدة وتلك الأسواق المسقوفة القليلة الهواء والنور وبالأختصار ليست هي تلك المدينة الشرقية التي ذكرها سياحو الأفرنج بل أنها الآن مدينة تغير فيها كل شيء تقريباً بنظام وترتيب حسن وقامت بحوار المدينة القديمة مدينة جديدة كبيرة أوربية ذات شوارع واسعة ومبان جميلة ضخمة يقوم على جوانبها عقود وحنايا جلب الظل والهواء وقد تنازع مدينة الجزائر أمراء العرب وقواد أسبانيا إلى أن استولى عليها الأتراك العثمانيون سنة ١٥٤٥م (١٥٤٨م) على يد خير الدين بارباروس مدة السلطان سليم الأول ومن ذلك الوقت صار يحكمها عمال من الأتراك حتى سنة ١٨٣٠ واشتهر كثيرون منهم بالقسوة والشدة لافي حق رعيهم فقط بل في حق من كان يقع في أيديهم من أهل أوربا وكانت همة هؤلاء الولاة منصرفة على الخصوص إلى تحصينها وأقامة المباني الأميرية بها ولهذا لم يكن بها إلا القليل من المباني الأهلية المهمة لأنها قبل الفتح العثماني لم تكن تدمن المدن أصلاً ولما قدم عليها الفرنسيون كانت تتألف من قسم مرتفع هو القصبية ومن قلعة لم يمكنها المقاومة بعد أن استولى الفرنسيون على مرتفعات الساحل فدخلها الفرنسيون بسهولة وكان أول عمل عملوه بعد الاستيلاء تهديد المنحدرات التي بين تلك القلعة والقصبية وفتح

الطرق والشوارع وأقامة المباني المختلفة بعد أن هدموا عدة مبان تركية من أهمها سجن كبير ثم أنشأوا بجوار هذه المدينة مدينة أخرى جميلة تدعى مصطفى على طرف الساحل وأوصلوا المدينتين ببعضهما بعد أن أزالوا ما بينهما من الاستحكامات القديمة بحيث أصبحت مصطفى المذكورة كأنها من أخطاط الجزائر وأخذوا بعد ذلك في إصلاح الميناء أصلا كما كبروا لتكوين من أهم المدن البحرية التجارية ومنظر المدينة من البحر جميل جدا فهي تبسط من رأس الجبل على شكل مدرج حتى تصل إلى الساحل ويجرى في أهم شوارعها ترام كهربائي ويقدر أن سكانها نحو (١٥٤٠٠٠ نفس) منهم نحو ١١٢٠٠٠ من الأورباويين ومن هؤلاء نحو ٥٠٠٠٠ من الفرنسيون و١٢٠٠٠ من اليهود وبها عدة بيوت تجارية فرنسية مهمة ولجودة هوأنها يقصدها شتاء كثير من الناس وهي في التجارة أوسع منها في الصناعة وبها عدة مدارس مختلفة وجمعيات علمية وبستان للنباتات وترسو عليها سفن كثيرة لأخذ الفحم والماء المذنب والمأكولات وبكل ذلك أصبحت تعد من كبريات المدن الفرنسية وضواحيها كثيرة الغابات والمياه الجارية والادوية الخصبية الكثيرة السكان والقرى والمناظر اللطيفة وقد نجح فيها الاستثمار الزراعي الفرنسي نجاحا عظيما قال في صفوة الاعتبار «وفي هاته السنة (١٢٩٥) أيضا مررت في الأياب على مدينة الجزائر قاعدة هذا القطر وهي لها مرسى على نحو ما تقدم في غنايه والبلد أكبر من السابقة ومنظرها من جهة المرسى

أبهج وأضخم وقد أنشئ بها طريق للترامواي يخترق البلد من جهة المرسى ويذهب إلى قرية تسمى مصطفي جهة الشرق من الجزائر وأبنية البلاد على نحو ما ذكر في عابه وهي أيضاً متصاعدة في جبل وليس بها عيون غزيرة بل الماء له خزانة في الجبل تجتمع فيها مياه الأمطار من جهات الجبل ولذلك كانت الطرق الواسعة في الصيف محتاجة إلى الرش لقلة ما ترش به وبها أربعة جوامع للخطب أثنان مالكيان وأثنان حنفيان والجوامع نظيفة مستقيمة وبقيّة ما كان بها من الجوامع هدمت وبدلت وبها حصون متينة وهاته البلدة هي مقر الحاكم العام لقطر الجزائر ومنظر البلد من جهة البحر جميل لكثرة الديار والبساتين والجبل منحوت به درج يصعد فيها من أسفل البلد إلى أعلى الجبل كما أنه به طرق صناعية قليلة الانحدار يصعد بها في العجلات إلى قته وأمام دار الحاكم بطحّاء صغيرة منظمة والدار من نوع أبنية الأهالي قديماً وأمامها محل لطائفة من الجند حرساً وفي خارج البلد وداخلها مقامات للأولياء والعلماء محترمة منها مقام سيدي عبد الرحمن الشعابي رضي الله عنه خارج البلد في الجبل في مكان منشرح نزه ولضريح الشيخ مهابة ووقار قلبي وحوانيت البلاد على نحو ما ذكرنا في تونس وبساتينها تسقى بأبار عليها دوايب وأغلب القصد منها الانتفاع بالغلل وأكثر ذوى اليسار يسكنون في بساتينهم في الصيف وتنور البلد ليلاً فوانيس الغاز وبخارجها بستان أنتره عمومي قليل الجدوى وبقره سبيل قديم لا زال قائماً وحنوه قهوة على النحو العربي أسكنها

قفرة ينتابها بعض الناس ومنازل المسافرين بالبلد جيدة على النحو الأورباوى اه
قال في معجم البلدان «الجزائر جمع جزيرة أسم علم لمدينة على ضفة البحر بين
أفريقيه والمغرب بينها وبين بجايه أربعة أيام كانت من حواضر بنى حماد بن
زيرى بن مناد الصنهاجى وتعرف بجزائر بنى مزغناى وربما قيل لها جزيرة
بنى مزغناى قال أبو عبيد البكرى جزائر بنى مزغناى مدينة جليلة قديمة البنيان
فيها آثار للأول عجيبه وآزاج محكمة تدل على أنها كانت دار ملك لسالف
الأئم وصحن الملعب الذى فيها قد فرش بحجارة ملونة صغار مثل التيسيفساء
فيها صور حيوانات بأحكم عمل وأبدع صناعة لم يغيرها تقادم الزمان ولها
أسواق ومسجد جامع مرساها مأمون له عين عذبة يقصد إليها أصحاب السفن
من أفريقيه والاندلس وغيرهما اه

البليده - مدينة على نحو ٥٨ كيلومتراً إلى الجنوب والغرب من مدينة
الجزائر وعلى ١٨٥ متر من سطح البحر وهى فى لحف المراق الأولى من سلسلة
جبال أطلس وأراضيها مشهورة بجمالها وكثرة حاصلاتها وجودة هوائها وغزارة
مياها وحولها بساتين ومزارع كثيرة يزرع بها البرتقال والليمون والتوت والتين
والعنب وغيرها ويروىها نهر يسمى وادى سيدى الكبير أو الوادى الكبير
ينبع على نحو فرسخ منها ومياهاه لذيذة الطعم صافية جداً ولسرعة انحداره يدير
عدة مطاحن كبيرة وللمدينة سور يقيمها هجمات العرب به عدة أبواب وقد
خربت الزلازل هذه المدينة بحيث جملت عاليها سافلها سنة ١٨٤٥ وكان استيلاء

الفرنسيين عليها سنة ١٨٣٨ ثم شيد الفرنسيون في ضواحيها قريتين جيلتين وقد نجح الاستعمار الفرنسي هناك بسرعة ويقدر سكانها بنحو (٣٣.٠٠٠ نفس) منهم نحو ١.٠٠٠ من الأوروبيين وبين سكانها قوم تناسلو من مسلمي أسبانيا الذين أخرجوا منها فيما سبق وأهم تجارتها البرتقال

مُستغانم - مدينة على نحو ٧٢ كيلومتراً إلى الشمال والشرق من وهران وعلى نحو عشرة كيلومترات إلى الجنوب والغرب من مصب شلف وعلى نحو كيلومتر واحد من ساحل البحر ولها تجارة في الجيوب والأصواف والجلود والتين والزبيب المشهور وبها معامل للأواني الفخارية ودبغ الجلود ومطاحن كثيرة وبالقرب منها معدن للرصاص ويقطع النجد الواقعة عليه مستغانم جدول يعرف بالعين الصفراء يدير عدة أرحا وفي غور العين الصفراء المذكورة بساتين كثيرة ومعامل عديدة وهذا الجدول يفصل مستغانم الحقيقية عن ضاحيتها المسماة بالمطمورة حيث تقيم الحامية الفرنسية وحول مستغانم سور يقيها هجمات الأعراب به خمسة أبواب والمدينة كلها مشيدة على الطرز الأوربي وقد زالت الآن كل مبانيها القديمة وميناؤها لا يصلح لرسو السفن في قسم من السنة وجهات مستغانم معتدلة المناخ جداً قليلة الأمطار ووفرة الخصوبة والبساتين والكروم وهي من أصح بلاد الجزائر هواءاً وقد نجح فيها الاستعمار الفرنسي نجاحاً لا يعادله نجاح بكل أرجاء بلاد الجزائر الأخرى ويقولون أن اسمها أت من لغة البربر وأصله ميثشاك أغانم ومعناه كوخ القصب وكانت

هذه المدينة مدة العرب والبربر والأتراك كبيرة الأهمية وزل بها كثير من مغاربة الأندلس ثم أتابتها الولايات خفت من شأنها كثيراً وكان أستيلاء الفرنسيين عليها في سنة ١٨٣٣ ويقدر أن سكانها بنحو (٢٢ و ١٠٠٠ نفس) نصفهم من الأورباوين تقريباً

وهران - مدينة بحرية من بلاد الجزائر غرباً وقاعدة العمالة المضافة إليها وإلى الجنوب والغرب من مدينة الجزائر بينهما نحو ٣٥٥ كيلومتر وبينها وبين قسطنطينة ٦٦٦ كيلومتر وهي على خليج مضاف إليها وأليها ينتهى الطريق الحديدى الآتى من مدينة الجزائر ويقدر أن سكانها بأكثر من (١٠٠ و ١٠٠٠ نفس) نحو ربعهم من الأهالى الوطنيين أما الأوربيون منهم فغالبيتهم من الأسبانيين وهم يسكنون المدينة القديمة على الخصوص وقد احتكروا بمجدهم ونشاطهم عدة صنائع وأعمال ويسمون أنفسهم جزائريين ويهاجر من أسبانيا سنوياً عدد كبير ينزل جهات وهران وبعضهم يقيم بها نهائياً لازدياد الصنائع في وهران هذا وقد أصبح المسلمون من سكانها قلائل جداً ولا تصلح هذه المدينة لأن تكون الثغر البحرى المتوسط الغربى فى شمال أفريقيا لأن البلدة المعروفة بالمرسى الكبير الواقعة على نحو تسعة كيلومترات إلى الشمال والغرب منها أصلح من وهران للتجارة البحرية وقد جرت بين الأهالى والأجانب عدة حروب للأستيلاء على المدينتين المذكورتين وفى سنة ١٥٠٩ م أستولى الأسبانيون على وهران وبقيت فى

يديم حتى سنة ١٧٠٨ وبعد ذلك احتلوا مرتين آخرين بحجة منع التلصص من بحر الروم وبقيت في يديم حتى سنة ١٧٩٢ ولم يعملوا شيئاً لرقبها التجارى بل كانت مدة حكمهم عبارة عن ثكنة عسكرية ومنفى لمن يفضب عليهم ملك اسبانيا من حاشيته ثم حاصرتها القبائل حصاراً شديداً الى أن حدثت بهازلة سنة ١٧٩٠ وبعد ذلك أخلاها الأسبانيون لأنها كانت تكلفهم أموالاً وافرة فتركوها مرغنين لأن والى مدينة مسكره انتهز فرصة حدوث تلك الزلزال وكانت من أشهر ما وقع منها في أفريقيه الفرنسية وحاصرها ذلك الحصار الشديد حتى أخلاها الأسبانيون وكانت وهران القديمة عبارة عن قلعة ومدينة متعرجة الطرق متصاعدة فى الجبل ثم جمع الفرنسيون بين قسى المدينة الآن وكان يفصلهما من قبل واداً المرسى الكبير فأصبح الآن قرية للصيادين ومرفأ لرسو سفن البترول على الخصوص وعطاسفن التوريد وبوهران مدارس ومعاهد علمية وصناعية وبالقرب منها مكان يعرف بأبى صفر أو سهل الأندلسيين كانت نزل به أول من هاجر من مسلمى أسبانيا وقد صارت هذه المدينة الآن أكبر مما كانت عليه قبلاً بخمس مرات وزاد عدد سكانها أيضاً نحو عشرين مرة كل ذلك بعد أستيلاء الفرنسيين عليها وشيدت حولها عدة ضاحيات بسبب حركتها التجارية لأنه يرد إليها قسم كبير من حاصلات عمالتها ولأنها ستكون فيما يأتى من الأيام مورد قسم عظيم من تجارة مراکش وبلاد السودان أيضاً لأنها أقرب بكثير إلى

تبعكرو ونهر النيجر من مدينة الجزائر وقليل وعنايه وتونس ولهذا
شيد الفرنسيون بها ميناء صالحه حتى لم يعد يبق للمرسى الكبير
أهمية وهو ذلك المرسى الذى كانت تلجأ إليه السفن وقت هياج البحر ومن
صادرات هذه المدينة الحلفاء والمعادن والحجوب ويمكن للسفن مهما كانت
كبيرة أن ترسو عليها وأكبر مزية لميناء وهران قربها من أسبانيا فالمسافة
بينهما نحو ثمان ساعات فقط وفى القرن العاشر من الميلاد كان الأسبانيون
وأهل جنوه يترددون عليها كثيراً وقد اشتغل سكانها بالتلصص فى البحر مثل
سكان سواحل بلاد البربر ثم ازدادوا فى التلصص جداً عقب أخراج المسلمين
من أسبانيا أى فى نهاية القرن الخامس عشر من الميلاد ويعلم من التاريخ
ما بذلته أسبانيا من المساعى للقضاء على هذا التلصص الذى لاشى التجارة
وخرب سواحل بحر الروم الغربية قال فى معجم البلدان «وهران مدينة على
البر الأعظم من المغرب بينها وبين تلمسان سرى ليله وهى مدينة صغيرة
على ضفة البحر وأكثر أهلها تجار لا يعدوهم أنفسهم ومنها إلى تنس ثمان
مراحل قال أبو عبيد البكرى وهران مدينة حصينة ذات مياه سائحة وأرحاء
ولها مسجد جامع وبني مدينة وهران محمد بن أبى عون ومحمد بن عبدون
وجاعة من الأندلسيين الذين ينتجعون مرسى وهران بأثاق منهم مع قزوه
وبنى مسقن وهم من أزداجه سنة ٢٩٠ فاستوطنوها سبعة أعوام وفى سنة
٢٩٨ زحف إليها قبائل كثيرة يطالبون أهلها بأسلام بنى مسقن فخرجوا ليلاً

هاريين وأستجاروا بأزداجه وتقلبوا على مدينة وهران وخربت مدينة وهران وأحترقت ناراً ثم عاد أهل وهران إليها بعد سنة ٢٩٨ وابتدؤا في بنائها وعادت أحسن مما كانت ولم تزل في عمارة وكمال وزيادة إلى أن احترقت ثانية وخربت وبعد سنين تراجع الناس إليها وبنت « اه

مسكّره - مدينة على نحو ٩٦ كيلومتراً إلى الجنوب والشرق من وهران بها من السكان نحو (٢٢٥٥٠٠ نسمة) منهم نحو عشرة آلاف من الأوربيين وهي في سفح جبال بلاد التل وعلى ارتفاع نحو ستمائة متر من سطح البحر وقد اتخذها المرحوم السيد عبد القادر الجزائري المشهور عاصمة لأمارته ولا تزال داره بها للآن وكان استيلاء الفرنسيين عليها نهائياً سنة ١٨٤١ ثم جددوا بناءها وجعلوه على الطرز الأوربي حتى لم يبق من هيئتها القديمة شيء وهي واسعة التجارة وأراضيها واسعة منبسطة أصلحها الفرنسيون ومن مزروعاتها الحبوب والكرم والمدينة مبنية على ثنتين يفصلهما وادومقسومة إلى خمس محلات يحيط بها كلها سور له خمسة أبواب وبها ثلاثة جوامع أصبح أحدها كنيسة وثانيها هرباً ومبانيها العمومية الأخرى لا أهمية لها وليست لدينا روايات عن أصل هذه المدينة وذكرها كل من ابن حوقل والأدرسي وقالا عنها أنها بلدة كبيرة فقط وفي نهاية القرن الخامس عشر من الميلاد أي في حياة ليون الأفريقي صارت مسكّره من المدن المهمة لأن قبيلة تعرف ببني راشد اتخذتها حاضرة لها ولا تزال أعقاب بني راشد بها للآن وفي أواخر القرن الثامن عشر من

الميلاد أيضاً جعلها الأتراك قاعدة قسم إدارى وبقيت على ذلك حتى سنة ١٧٩٢ وهى السنة التى انتقل فيها عاملها إلى مدينة وهران حينما خرج منها الأسبانيون ولا يزال عرب الجزائر الآن يعتبرونها العاصمة الطبيعية لبلاد الجزائر ويقول بعضهم أن أسمها محرف من كلمة أم العسكر

تلمسان - مدينة بعمالة وهران على نحو ١٠٦ كيلومترات إلى الجنوب والغرب من وهران وبينها وبين حدود الجزائر نحو ٤٢ كيلومتراً وتبعد عن بحر الروم بنحو ٤٦ كيلومتراً ويبلغ ارتفاعها عن سطح البحر ٨٤٠ متراً وهى فوق نجد يطل على وادى صفصف وهو نهير يصب فى نهر يسمى تفسا ويقدر أن سكانها بنحو (٣٩٧٠٠ نسمة) منهم نحو ٢٥٠٠٠ من الأهالى الوطنيين وموقعها من أحسن المواقع وبسبب ارتفاعها كان مناخها كمناخ أوروبا ويكثر يسايتها التين والعناب والعنب والخوخ والكريز واللوز ونمار أخرى وينبت فى سهلها جوب كثيرة وهى وأن كانت إحدى المدن الراقية الزاهرة الكثيرة السكان بكل بلاد المغرب إلا أنها كانت وقت أستيلاء الفرنسويين عليها ككل مدن المشرق من ضيق طرقها وتعرجها وقلة تهويتها وغير ذلك مما لا يصح أن يوجد الآن فى المدن الحديثة وكانت وقت الفتح الفرنسيون تنقسم إلى ثلاثة أقسام أصلية هى حى القول أوغليه وكان به المشور وحى الوسط وبه يسكن اليهود وحى الحضرة وقد أقام بها الفرنسيون الآن شوارع واسعة

منتظمة ومباني جميلة مختلفة وكان لها قديماً ثلاثة أبواب كبيرة تفتح على أغوار عميقة مثل كثير من مدن المغرب مما يجعل الهجوم عليها صعب جداً ولم يكن يمكن الوصول إليها إلا من الجنوب الغربي حيث يتصل سهلها بالجبال المجاورة لها ويظهر من استحكاماتها وحصونها العريية للمتأمل طريقة التحصين التي كان يعرفها الناس قبل استعمال المدافع وللمدينة الآن سبعة أبواب بناها كلها الفرنسيون وهي لا تعد من الآثار في شيء وليس بهذه المدينة من المباني ما يستحق الذكر إلا بعض ما بقى من زمن المرابطين والموحدين وبني مرين وكان بها في سنة ١٨٤٦ م واحد وستون جامعاً تهدم أغلبها الآن ولجامعها الكبير منارة ارتفاعها خمسة وثلاثون متراً وأعمدته من الرخام وقد بنى هذا الجامع في سنة ١١٣٦ م وبها جامع آخر يسمى بجامع أبي الحسن وهو من الآثار النفيسة جداً لما اشتمل عليه من الداخل من النقوش البديعة والأشكال العريية مما يجعله يعد من تقيس الصناعة العريية ألا أن منظره من الخارج لا قيمة له وكان تمام بنائه في سنة ١٣٠٠ م واتخذ الفرنسيون الآن مدرسة وهناك جامع آخر منارته مغطاة بالقاشاني الملون يعرف بجامع ولد الأمام وبه مدرسة إسلامية وكان بناؤه في سنة ١٣١٠ م ومنها جامع آخر خارج السور بنى سنة ١٣٣٣ يعرف بجامع سيدي الحلوى وهو مغطى بالقاشاني اللامع الأخضر وله ثمانية عمد بديعة من الرخام الشفاف الذي يشبه العقيق ذات تيجان جميلة أفرغت فيها الصناعة العريية كل قوتها من الظرف والحسن مما يجعلها مثالا للزخرفة

الغريقة ومنارته مربعة الشكل في جوانبها الأربع بيوت لها قبوات بديعة منقطة كلها بالقاشاني مما يزيد في حسنها أما المشور الذي سبق الكلام عليه فهو قصر واسع جسيم بناء الموحدون وأمه من بعدهم بنو مرين وكان له جامع بني في أوائل القرن الرابع عشر من الميلاد لم يبق منه غير منارته وقد بنى الفرنسيون الآن في المشور المذكور مباني عسكرية وثكنات وجبانات ومستشفى وهو بناء مستقيم الزوايا طوله ٤٦٠ متراً وعرضه ٢٨٠ متراً هذا وينحصر جمال هذه المدينة على الخصوص في غزارة مائها واعتدال هوائها وضواحيها وفي كل أرجائها ومحلاتها جداول ونافورات وسواق يمدحها أودية وترعة تأتي إليها من نهر الماء المقروش وبجانب سورها إلى الغرب مسناة تعرف بالصهريج طوله ٢٢٠ متراً وعرضه ١٥٠ متراً وعمقه ثلاثة أمتار تم بناؤه سنة ١٣٣٧ م في مدة يوسف بن تاشفين ولا يعلم قصده من بناء هذا الماجل وهو مطلى من الداخل بملاطاً وغافقي يزيد سمكه عن متر واحد ومع ذلك فالماء يسيل منه من ثقب غير مشاهد وقد وجد الفرنسيون في أرض تلمسان كثيراً من الماديات مما يدل على عظمتها القديمة حفظوها كلها في متحف هناك وهي عبارة عن تماثيل وقطع من المباني ونقود وكتابات وأحجار مقابر من عصر الرومان وغيرهم وبضواحي تلمسان أراضي زراعية واسعة يزرع بها زيتون وخضراوات كثيرة وتبع مرغوب فيه جداً وبساتين مختلفة يتولى أمر كل ذلك الأوريون والأهالي على السواء وتقوم بالمدينة يومياً أسواق

تباع بها الماشية والأصواف والجوب والثمار وتنحصر الصناعة الأهلية في تلمسان في عمل المنسوجات الصوفية والدباغة وطحن الجوب واستخراج الزيوت وعمل المراكيب وسروج الخيل وخشب البنادق وأهم ما يشتغل به الأرويون من الصناعة طحن الحنطة واستخراج الزيت وغرس الكروم ومع ذلك فالفرق جسيم بين حالتها التجارية الحالية وبينها حينما كانت قاعدة المغرب الأوسط لأنها كانت أذاك أكبر المراكز التجارية وأعظم الوصول المتاجر الاجنبية إليها وكان القسم الشمالى منها خاصاً بالتجارة وكان مقسوماً إلى أقسام بكل قسم صناعة ومصنوعات ولم يبق من قيساريها القديمة الشهيرة إلا ثكنة يقيم بها جنود السباهى وكان التجار من أهل جنوه وييشه وكتلان وپروقتسه يأتون إليها بمصنوعاتهم للتأجار مع أهاليها وكان لأهل أوربا أذاك بها قناصل ومبان وأعمال مما تسمح به المعاهدات التي عقدت بينها وبينهم وقد أخذت أهميتها التجارية تزداد الآن لارتباطها مع المدن الكبيرة الأخرى ببلاد الجزائر بالطرق الحديدية وغيرها من طرق المواصلات ولجمال مواقع هذه المدينة واختلاف مناظرها وغزارها ومياها ووفرة نباتاتها وبما لها أيضاً من الأهمية التاريخية كانت ضواحيها جذيرة بالذكر قال أحد الرهبان من الأوربيين وكان زارها قديماً أن تلمسان تتركب من مدينتين منفصلتين بينهما رمية حجر حول كل منهما سور وتسمى أقدمهما أقادير وهي المعروفة لدى الرومان باسم بوماريا وتسمى الأخرى أى تلمسان الجديدة تأغرت اهو وبضواحي

تلمسان كثير من مقابر الصلحاء والعلماء والأولياء يتبرك الناس بزيارتها وكلها من الأماكن الجديرة بالزيارة لما اشتملت عليه من بديع الصنائع العريقة وجميل النقوش الشرقية ومن هذه المباني مدرسة كان من مدرسيها عبد الرحمن بن خلدون مؤلف تاريخ البربر المشهور قال في معجم البلدان « تلمسان بكسرتين وسكون الميم وسين مهمله وبعضهم يقول تنمسان بالنون عوض اللام بالمغرب وهما مدينتان متجاورتان مسورتان بينهما رمية حجر أحدهما قديمة والأخرى حديثة والحديثة اختطها المثلثون ملوك المغرب وأسماها تافزرت يسكن فيها الجند وأصحاب السلطان وأصناف من الناس وأسم القديمة أقادير يسكنها الرعية فهما كالفسطاط والقاهرة من أرض مصر ويكون بتلمسان الخليل الراشدية لها فضل على سائر الخليل وتتخذ النساء بها من الصوف أنواعا من الكنايش لا توجد في غيرها ومنها ألي وهران مرحلة ويزعم بعضهم أنه البلد الذي أقام به الخضر عليه السلام الجدار المذكور في القرآن سمته بمن رأى هذه المدينة » اهـ

بِسْكَرِه - مدينة من عمالة قسنطينة واقعة ألي الجنوب والغرب من قسنطينة بينهما نحو ٢٣٣ كيلومتر على السند الجنوبي من جبل أراس وعلى نهر مضاف أليها بها من السكان نحو (٩٠٠٠ نفس) بعضهم من الأوربيين والوصول أليها أسهل منه لكل الواحات الأخرى التي يبلاد الجزائر لهذا اتخذها الفرنسيون مشق لهم وبها فنادق عظيمة ومنتزهات جميلة ويوت أهلها

من الطين يبيضونها بالجير ويزرع بضواحيها النخيل والزيتون والخططة والشعير
وأقبال أهلها على كل ما يرقى الزراعة أمره مشهور ويذهب كثيرون منهم
لمدن الساحل للأستزاق والقرب منها قرية مشهورة للغاية لاشتمالها على قبر
عقبه بن نافع فاتح أفريقيه ومؤسس القيروان رضى الله عنه ومن أصحاب
رسول الله صلى عليه وسلم يعظمه الأهالي جداً ويتركون به وقتل هناك سنة
٦٢ من الهجرة قتله البربر عند عودته من المغرب الأقصى وكان في ترقيل
من أصحابه كما هو معلوم وقد صارت بسكره الآن من المدن الجميلة واتسمت
تجارتها بكل واحات بني زيان وكانت حاضرة لهم وألها ينتهى الطريق
الحديدى الآتى من جهات التل وتمتد منها طرق للقوافل تذهب جنوباً نحو
ورقله وصحراء التوارك وبضواحيها منابع حارة المياه ينفع بها من يقصدها
وكانت هذه المدينة فيما سبق عظيمة جداً حتى يقولون أن الطاعون الذى ظهر بها
سنة ١٦٦٣ م أ مات من أهلها أكثر من سبعين ألف نفس وبذلك وصفها
البكرى وقال أنها تسمى أيضاً بسكره النخيل قال فى معجم البلدان «بسكره
بكسر الكاف وراء بلدة بالمغرب من نواحي الزاب بينها وبين قلعة بنى حماد
مرحلتان فيها نخل وشجر وقسبٌ جيد بينها وبين طنبنة مرحلة كذا ضبطها
الحازمى وغيره يقول بسكره بفتح أوله وكافه قال وهى مدينة مسورة ذات
أسواق وحمامات وأهلها علماء على مذهب أهل المدينة وبها جبل ملح يقطع
منه كالصخر الجليل وتعرف بسكره النخيل » اهـ

توغرت - مدينة بمقالة قسنطينة بينها وبين قسنطينة نحو ٣٦٠ كيلومتر وهي ألى الجنوب والشرق من بسكرة فى وادى ربر وهي حاضرتها بها من السكان نحو (٦٠٠٠ نفس) بين سود وبربر وعرب ومن تناسل منهم ويهود أسلموا يعرفون بالمهاجرين بيض الألوان وتقاطيع وجوههم تشبه اليهود وهم لا يتزوجون من غيرهم وكان سبب إسلامهم التخلص من ظلم سلاطين توغرت وتوغرت مدينة صناعية زراعية من مصنوعات المنسوجات الصوفية والجلود والأسلحة والحلى ويستدل على عظمتها القديمة بكثرة مساجدها وجيل دورها ومئاتها وهي عند تفرع خطين من الماء من أم ما يوجد منها بالصحراء للزراعة والتجارة والاستيلاء على الصحراء الكبرى وللمواصلات بين بلاد التل والسودان وكل ذلك مما يصيرها ذات أهمية تجارية ومستقبل زاهر محقق ويلقبها الأهالى بطن الصحراء وحولها سور تملوه أبراج ولها ثلاثة أبواب وهوؤها جيد رغمًا عن حرارته التى تبلغ خمسين درجة بالمقياس المثينى فى الظل صيفًا والبرد يشتد بها شتاء وألى الغرب منها أراض عالية تحميها من زحف الرمال المتحركة عليها وأغلب دورها مبنى من الطوب المجفف فى الشمس ألا بعض دور الأغنياء والأعيان منهم وبها نحو عشرين مسجدًا ليس بها كلها من صناعة البناء ما يستحق الذكر والتجارة بها متروية بخلاف الصناعة ويكثر النخيل بواحتها ويشرب أهلها من ابار بعيدة القاع جدًا يبلغ متوسط عمقها نحو خمسين مترًا وفى النية توصيلها بطريق حديدى مع

بسيكره ويخرج من هذه المدينة طريق للقوافل يمر بواحة ورقلة أو ورقلة وهي
واحة تكثر بها أشجار النخيل جداً وتعرف كورتها أيضاً بكورة ورجلان قال
في معجم البلدان « وَرَجْلَانُ كُورَة بين أفريقيا وبلاد الجريد ضاربة في البر
كثيرة النخل والخيرات يسكنها قوم من البربر ومجانه وأسم مدينة هذه
الكورة فَجُوهَة، اهـ ثم يمتد ذلك الطريق إلى واحة تعرف بالجوليا حيث يأتي
طريق آخر يخرج من النقطة العسكرية المسماة أغواط ثم يذهب إلى جردايه
وجردايه من أهم مدن بلاد الزاب ومن الجوليا المذكورة تخرج طرق إلى
الواحات الكبرى التي بالصحراء وهي غوراره وتوات وتديكلت وقداستولت
فرنسا عليها كلها حديثاً

تونس

سكانها - يلاذ تونس من السكان نحو ١٩٢٦ و ١٠٠٠ نسمة يشغلون من الأرض
ما يبلغ مسطحه ٤٠٠ و ٦٧ من الكيلومترات المربعة ولو قارنا بين عدد السكان
والمسطح لوجدنا عدد السكان قليلاً وذلك لأن المسكون حقيقة من جهاتها
هي الساحل الشمالى والشرقى حتى سفاس ثم بعض الجبال والأودية الداخلية
وما عدا ذلك صحراء (غير الواحات) لهذا يتساءل الناس عن سبب قلة
سكان تونس قال الذين أجابوا على ذلك أن سببها الحروب والاغارات
وولايات الأزمنة الغابرة ثم معيشة السكان وعدم احتياطهم الصحى فأن أقل
وباء أو ما يكون في غير هذه البلاد وباء صغيرا كالجدري والخناق والتيفوئيد

يموت به من أهاليها عدد عظيم خصوصاً المسلمين منهم بينما لا يموت به إلا القليل من الأوروبيين واليهود كما ثبت من الأحصاء التي عملها من غنى بهذا الأمر ولو أخرجنا الأوروبيين واليهود من بين السكان لما كان بين الأهالي التونسيين الحقيقيين وحدة إلا في الظاهر لاستعمالهم جميعاً اللغة العربية التي يعرفها كذلك كل الذين يتكلمون البربرية وبسبب تدينهم أيضاً كلهم بالدين الإسلامي وقد امتزج الجنس الأصلي القديم الذي كان يسكن هذه البلاد بنيره امتزاجاً عظيماً وهناك دماء مختلطة اختلاطاً تاماً يستدل على أهلها بما تركوه من المباني ومن هؤلاء الأمم اللويون والنوميديون والجيول والجرامنت والتينيقيون والقرطاجنيون ثم المحمكون من الجند الذين كانت تستخدمهم قرطاجنه وكالرومانين والتليانيين بين مستعمرين وجنود وهم من كل أقسام الدولة الرومانية وكالوندا والبولزنطيين والعرب الذين بقيت لغتهم لغة السيادة والحكم حتى الاستيلاء الفرنسي وكالقرصان والأسرى الذين هم من كل سواحل بحر الروم من أسبانيا وآسيا الصغرى والشام والترك والأنكشارية والأسبانيين الذين فتحوا هذه البلاد وقتاً وكالتليانيين قرب بلادهم من تونس والسود الذين كان يجلبهم النخاسون في جميع الأزمنة هذا ومن المحقق أن العنصر السائد بين كل هذه العناصر المذكورة ليس هو العنصر العربي رغمًا عما يظهر من سيادة لغته ودينه وأخلاقه وعوائده وملابسه وأفكاره الاجتماعية وغيرها بل السيادة للأمة القديمة

التي وجدها هناك التينينيون وأهل قرطاجنه والرومان من بعدهم ألا وهي
الأمّة التي اصطلح الناس على تسميتها بالبربر أى تلك الأمّة العظيمة التي لا تزال
لها الكلمة في بلاد تونس ولا يزال يتكلم بلقنتها ولو على قلة في جزيرة جربة
وبجبال القصور بين قبائل مطماطه وغيرهم وهم وأن كانوا جميعاً تقريباً يعرفون
العربية ألا أن أغلبهم لا يستعمل عادة ألا البربرية وكلهم في جنوب هذه
البلاد أما في الشمال والوسط فلم يبق أثر تقريباً لتلك اللغة القديمة فلهذا الدين
والسياسة والتجارة والعلوم ألا وهي لغة المدن أى العربية قد أمّات لغة
سكان القرى والقلوات والصحارى الكبيرة والصغيرة وكذا لغة سكان السهول
وبلاد التل وليس ذلك بالأمر الغريب لأنه ليس ببلاد تونس كما بالجزائر
ومراكش جبال شامخة ولا هضاب مرتفعة يمكن للمقهورين ألا لجاء إليها من
وجه القامحين فالبحر وأمامه سهول واسعة ثم سهل مجردة العظيم بالشمال وفوق
هذه السهول والأودية جبال لا يزيد ارتفاع أعلاها عن ١٥٠٠ متر ثم أن
البلاد ليست كثيرة الجبال لدرجة أن يقاوم من يتجىء إليها الأغارات الكبيرة
الآتية من الخارج مقاومة دائمة فلم يكن في أمكان العرب فيما مضى من
القرون كما أنه لا يمكن للفرنسيين الآن مقاومة من يأتى من البحر شرقاً
أو ينزل غرباً من نجد بلاد نوميديا المالية ولذلك فإن العنصرين الكبيرين
الذين بقيا متعادين زمناً طويلاً وهما البربر والعرب قد اختلطتا ببعضهما
بسهولة في المدن أولاً ثم في الأسواق وحتى في أكواخ الأودية السحيقة

وفوق الجبال وقد أستعرب البربر وهم أكثر العنصرين عدداً من حيث اللغة كما تبربر العرب من حيث الدم ولكل ذلك صار التونسي مستعرباً مسلماً ولم يبق محل للبحث في الفصل بين الأهالي وقسمتهم إلى صورتين أصليتين مختلفتين كل الاختلاف تعارض أحدهما الأخرى كما هو الحال في الجزائر حيث القبائل البربرية هناك يوصفون بالنشاط وحب الفلاحة والشهامة مثل سكان بلاد التل الجزائرية بينما يوصف العرب من سكان الأودية المنخفضة والسهول الواسعة بالكسل كثيراً أو قليلاً وأذا تأملنا في البربري حيث بقي بربرياً خالصاً كما في جربه والجبال الجنوبية وقارناه بالعربي لوجدنا وجهه أعرض وأقصر وجعته ووجهه البيضى الشكل أقل تناسباً وشعره أقل سواداً وأنفه أكثر ارتفاعاً وهو أكثر من العربي سروراً ونشاطاً في حركاته وأعماله قال في صفوة الاعتبار « أن أصل أهالي هذا القطر هم من البربر كانوا قبل الفتح أما نصارى أو وثنيين ثم أسلموا كلهم ولا زال في بعض القبائل شيء من عادات النصارى يفعلونه عن غير قصد وهو الوشم بين أعينهم على جباههم بصورة صليب صغير وكذلك استوطن به كثير من العرب واختلطت أنسابهم بالأصليين ثم استوطن به أيضاً من هاجر من الأندلس بعد المائة الثامنة وقد بنوا بلداناً بالقطر خاصة بهم وكذلك في ربض باب سويقة من الحاضرة بنوا حارة خاصة تسمى إلى الآن حومة الأندلس ومن بلدانهم التي أسسوها سليمان وزغوان وطبريه ومجاز الباب وتستور وكلها مؤسسة

بأما كن جيدة على شكل حسن متقابلة الطرق واسعتها مستقيمتها واختلط
نسلهم بالقاطنين ثم وفد عليهم الترك واختلط نسلهم أيضاً بالقاطنين ولكن
الأكثرهم النوعان الأولان ، اهوالاً حسن تقسيم أهالي تونس المسلمين إلى
رحل وغير رحل أو متوطنين وبعد أن كان الرحل أكثر من المتوطنين انعكس
الحال الآن لزيادة الأمن وانقطاع الأغارات والحروب الداخلية ✓

وقد اختلطت العناصر الأصلية المختلفة التي تكون منها العرب سكان
المدن وهم المعروفون غالباً باسم مغاربة كأخوانهم من سكان المدن بالجزائر
ومراكش يعضهم اختلاطاً تاماً يستحيل معه تمييزهم وتعيينهم حتى أن المغاربة
الذين طردوا من أسبانيا يعضهم في القرن الخامس عشر وبعضهم في أول القرن
السابع عشر الميلادي وكانوا أنزلوا في جهات خاصة بهم وعينت لهم أراض
زراعية بجوار المدن لم يتركوا نسلهم إلا يعض المدن والجهات المذكورة يمكن
تمييزهم من العرب الآخرين سكان المدن اللهم إلا بعض عائلات من الأعيان
والأشراف قد حافظوا عفاضة دقيقة على أنسابهم وأحفظوا مفاتيح بيوتهم
التي كانت لهم في أشبيلية وغرناطة وفي بعض المدن والقرى زيادة على ذلك
صناع أصلهم من أسبانيا يشتغلون ببعض الصنائع الخصوصية يمكن الاستدلال
من صنعتهم على معرفة أصولهم ويدخل ضمن المغاربة أيضاً على نسبة ما القوم
الذين اعتنقوا الإسلام وأصلهم عبيد هذا وسكان المدن خصوصاً المعروفين منهم
بالتوانسة لونهم أقل سماراً من أهل القبائل الرحل وهم يشبهون بلون بشرتهم

الأسبانيين والتليانيين من سكان الجنوب ولم يترك الأتراك في تونس كالم
 يتركوا بالجزائر مع حكمهم الطويل لها ما يقال له تركي حقيقي لا من لغتهم ألا
 بعض كلمات أخصها ما يستعمل في الإدارة وجنودهم التي كانت لهم بها كانوا
 يأتلفون عموماً من چراكسه وارانأود وصقالبة وغيرهم ممن أسلم ولا يزال
 لهؤلاء بعض الأفكار ولما تزوج أولئك الجنود والأُنكشارية والموظفين
 بتونسيات نشأ منهم جنس مختلط يسمى قول أوغلي وقد انحل هذا الجنس
 الآن تقريباً في مجموع العرب والمغاربة المسلمين

أما من حيث الدين فإن المذكورين بأجمعهم مسلمون وأغلبهم على مذهب
 مالك وأقاربهم على مذهب أبي حنيفة قال في صفوة الأُتُبار «ثم أن الأهالي الأصليين
 كانوا في صدر الملة على مذهب أبي حنيفة ثم وجميع سكان الجزائر والمغرب إلى
 ولاية المزمين باديس فحملهم على اتباع مذهب مالك وذلك في حدود سنة ٤٠٦
 وبقوا على ذلك إلى أن جاء الترك فكانوا هم ونسلهم على مذهب أبي حنيفة وبذلك
 كان أكثر الأهالي مالكية» اهـ ومن بين السكان عدد ليس بالقليل يعرفون
 بالزايين كانوا هاجروا من بلاد الجزائر ونزلوا المدن خصوصاً تونس وهم وأهالي
 جربة بقوا كلهم يمتدحون بمذهب يخالف مذاهب أهل السنة ويسميهم الأهالي
 هناك بالخوامس أو الخوارج أما اليهود وعددهم يزيد على خمس وستين ألف نفس
 فإنهم عنصر مهم جداً من عناصر الأمة ويسكنون المدن على الخصوص وعلى الأخص
 مدينة تونس ويتكلمون العبرية ولا يستعملون العبرية إلا في أمور الدين ومع ذلك

فقد كادت اللغة العربية أن تزول من بينهم لأقبالهم الآن أقبالا جيدا على
 التكلم بالفرنسية وكثيرون منهم يكلمون التليانية والأسبانية وهم البسطاء
 الطبيعيون بين كل التوانسة ولو أضفنا ذلك إلى استعدادهم الفطري للتجارة
 وكل ما يختص بالنقود وأقراضها بالربح وللمبادلات بكل أنواعها كانوا أغنى
 الطبقات في البلاد وهي صفة لاصقة بهم في كل جهات الأرض بلا جدال
 وهم من أصول مختلفة فمنهم قوم سكنوا البلاد من القديم قبل أغارة العرب
 بزمن طويل (وربما كان بينهم بقايا السكان القدماء من الفينيقيين وأهل
 قرطاجنة) ثم اليهود الذين طردوا من أسبانيا وبلاد البرغال وقد حافظوا على
 اللغة الأسبانية ومنهم اليهود التليانيون ومعظمهم من مدينة ليغورنو ويهود أتوا من
 كل جهات أوروبا وفدوا على تونس بعد إعلان الحماية الفرنسية خصوصا
 وعددهم جميعا أخذ في الزيادة السريعة بازدياد مواليدهم وهم يعرفون من صورهم
 وأزيائهم بمجرد النظر إليهم هذا وخلاف يهود مدينة تونس الذين يزيد عددهم
 عن الأربعين ألف نفس وكثيرون منهم عملة وفعلة يوجد منهم أيضا بمدن
 سوسة وسفاقس وقابس وغيرها عدد كبير ومنهم أيضا من يقيم بجزيرة جربة
 وقليلون منهم يسكنون بلاد الجريد وجهات قزاوه ويلاذون تونس أكثر من
 مائة وثمانية وخمسين ألف من أهل أوروبا مابين تليانيين ومالطيين وفرنسيين
 وأغريق وأسبانيين وألمان ونمساويين وإنجليز وبلجيين وهولنديين وبولونيين
 وروسيين وغيرهم وغير خاف أن أهم هذه الجالية هم الفرنسيون لأنهم أكثرهم

أعمالاً وثروة وعدداً وعند ما أعلن الفرنسيون الحماية على تونس لم يكن بها من المائلات الأوروبية إلا القليل كانوا استوطنوها منذ زمن طويل وكانوا كلهم تقريباً في نفس مدينة تونس يشتغلون بالتجارة وكانت اللغة التليانية اللنة الثانية بالبلاد قبل إعلان الحماية الفرنسية ويضاف إلى هذه الجاليات بتونس أيضاً المراكشيون والفرانيون أما المراكشيون فكلهم تقريباً بمدينة تونس وحرقتهم على الخصوص حراسة بيوت الأوربيين لأنهم وصداقتهم وقوتهم ويشغلون أيضاً بزراعة الكروم لمهارتهم في ذلك أما الفرانيون فهم قوم اختلطت دماؤهم قليلاً أو كثيراً بالعرب والبربر ويشغلون في تونس بالأشغال التي تحتاج إلى قوة وجلد كقفل الأتربة وحمل الأحجار وبناء المنازل وغيرها والفرنسيون هناك يشنون عليهم جداً ويجردون في هجرتهم إلى تونس فائدة لهم ألا أن المذكورين يتضررون من دفع تلك الضريبة التي يدفعها كل مسلم هناك من الرعايا وهذا بلا شك مما يبعق هجرتهم

الزراعة - الاستعمار الفرنسي - أعلم أن أكبر حادث يندربالاً انقلاب في أحوال الزراعة بتونس هو الطرق المستحدثة في إصلاح الزراعة التي يجلبها معهم أهل أوروبا ويدخلونها بين أمة شرقية محافظة على أحوالها وعاداتها لتقديم هذا من جهة ومن الأخرى استيلاء أصحاب الأموال من الفرنسيين على أجمل الأراضي وأخصبها استيلاء يمكن القول معه بأن الأراضي حول لمعاصمة وحول مدن أخرى بالآيالة المذكورة قد انتقلت تماماً من أيدي

الطبقة العالية والمتوسطة من العرب إلى أيدي أصحاب الأموال من الفرنسيين ويؤخذ من أحصاء عمل منذ بضع سنوات أن الأرض التي تمتلكها الجمعيات الفرنسية وأفراد الفرنسيين تزيد بكثير عن ٤٥٠.٠٠٠ هكتار وقد سهل الفرنسيون على جالياتهم هناك أسباب النقل والأثقال في السكك الحديدية وسفن الملاحه (وأن كانوا اجعلوا ذلك تحت قيد وشرط معلومة) كما سهلوا عليهم أيضاً امتلاك الأراضي وأستغلها ثم أن الأراضي التي تعطىها حكومة تونس للجالية الفرنسية بالبيع أو الايجار أصلها من أملاك الحكومة التونسية القديمة أو من أملاك الأوقاف وبذلك أصبح الفرنسيون يملكون الآن قسماً عظيماً من بلاد التل وفي أجود جهاته وكثيرون منهم يشتغلون بزراعة الحبوب أو بترية الماشية ومع ذلك فإن أهم مجهوداتهم منصرفة إلى زراعة الكرم كما هو معلوم وإذا كان الكرم وهو تلك الشجرة الأصلية التي تنبت حول بحر الروم ندى تونس الواحدة فإن الزيتون هو ثديها الثاني وسكان البلاد هم الذين يشتغلون بزراعته وأستغلاله أكثر من الفرنسيين وقد كان الزيتون في كل زمن من أكبر أسباب الثروة في تونس وزراعته وأن كانت نقصت الآن بما طرأ على تلك البلاد من التدمير والأغارات والأهمال لعدم وجود الأمن فإنه لا يزال يوجد بها منه مع ذلك أزيد من عشرة ملايين شجرة ويمكن أن يضاعف هذا العدد إلى ثلاثة أمثاله والزيتون كما لا يخفى لا يتأثر كثيراً من التقلبات الجوية والمكسب منه وافر للغاية

ولكنه نادر تقريباً بالجحات الجنوبية حيث يقل سقوط الأمطار جداً مما يساعد على زراعة الحبوب واستغلالها في أوقاتها ويهدد الزراعة بالجنوب شيثان مضران للغاية هما الجفاف والجراد وقد تمكنت الحكومة من معالجة الأول منها بأيجاد الآبار والأحواض والترع وغير ذلك من وسائل الري أما الثاني فلم يتمكنوا لأن من معالجته ألا بأبادته وقت ظهوره

الصناعة - لم يوجد الفرنسيون بهذه البلاد لأن ما يمكن أن يطلق عليه اسم صناعة حقيقة وكذا الصناعة الأهلية ضعيفة جداً وتتحصر في نسج الأقمشة الحريرية ولا يزال لها بعض الأهمية وهي قاصرة على مدينة تونس تقريباً وكانت صناعة الطرايش أكثر الصناعات رواجاً فيما سبق وكانت في يد مغاربة الأندلس وكان يصدر من حاصلاتها قدر عظيم إلى كل بلاد المشرق أما الآن فلا وجود لها تقريباً لأن صناعة أوربا قضت عليها ومن الصنائع أيضاً نسج الأحزمة والمناديل المطرزة والبراقع والبرانس والبطانيات وهم يجيدون صنع هذه الأخيرة جداً بجزيرة جربة على الخصوص ومنها عمل الصابون بمدينة نتي تونس وسوسة ومنها الصباغة ودباغة الجلود وعمل سروج الخيل والفخار والشمع واستخراج الروائح العطرية والصبغة وهي هناك بيد اليهود على الخصوص وعمل الأسلحة وهي بيد اليهود والعرب ومنها عمل الحصر والجمال ومما يدخل في باب الصناعة أيضاً طحن الحنطة وعصر الزيتون وكل ذلك على درجة محدودة أما الصناعة الأوربية فقاصرة الآن على عمل

البراميل وتقطير المشروبات الروحية واستخراج الزيت وغير ذلك التجارة - أذا كانت الصناعة بتونس لا زالت في عهد طفولتها فإن التجارة آخذة في الأنتشار السريع بعد إعلان الحماية وأكثر ما تكون التجارة مع فرنسا وأهم الصادرات إلى فرنسا الحنطة وزيت الزيتون والشعير والنبيد والخضراوات الجافة والأسفنج وغيرها ويتلو فرنسا في الدرجة أيتاليانم تجلثره هذا والطرق الحديدية الموجودة في تونس لا زالت على تعدد فروعها وارتباطها ببلاد الجزائر غير كافية لتسهيل التجارة الداخلية التعليم العام - أذا كانت الحكومة الفرنسية قد أهملت كثيرا في مد الطرق الحديدية فأنها فعلت كثيرا فيما يعود على التعليم العام بالانتشار والرقى وقد أسست هناك عدة مدارس من كل الدرجات ولكنها مع ذلك لا تزال غير كافية سيما ولغة الدراسة فيها ليست العربية ومن المدارس المشهورة هناك غير ما أسسه الفرنسيون المدرسة الصادقية تأسست سنة ١٨٧٦ والمدرسة العالوية وهي معدة لتخريج المعلمين وتأسست سنة ١٨٨٤ وعدد التلاميذ المسلمين الذين يترددون على المدارس الفرنسية آخذ في الزيادة كل سنة هذا والكتائب الإسلامية كثير عددها بهذه البلاد والتعليم فيها قاصر على حفظ القرآن وتجويده وعلى الأملاء ويضاف إلى ذلك في بعضها مبادئ النحو والفقه ومما يجب التنبيه إليه أن الجامع المشهور هناك وهو جامع الزيتونة بمدينة تونس له الفضل الكبير في حفظ اللغة العربية وآدابها وعلوم الدين

مما يشبه به أزهرنا الممور وقنزيد على علومه الآن بمض العلوم الحديثة ويشبهه في ذلك أيضاً جامع مدينة القيروان

الحكومة والأدارة - يدير الحكومة في هذه البلاد في الظاهر قوتان معاً هما أميرها المعروف بباي تونس وفرنسا أما الحقيقة فإن فرنسا هي صاحبة الأمر والنهي هناك ولها حاكم عام يتبعه كل موظفي الإدارة الكبار كما يتبعه قائد الجنود العام أي الجنود التي تحتل تونس واعلم أن الظروف المختلفة التي حملت فرنسا على أذخال البلاد التونسية في دائرة حمايتها لا تزال في ذاكرة الكثير من الناس كما يتذكرون أيضاً الحالة التي كانت عليها تلك البلاد فمن جهة المالية كان نقص الإيراد عن المنصرف مستمراً وكانت القروض كلها بربا فاحش والقسم الأكبر من الإيرادات كان مرهوناً لمدائنين من الأغراب وكانت الضرائب تجمي بالقوة والثروة العمومية عرضة للسلب والنهب أما من جهة الإدارة فكانت كل دوائر الحكومة ضعيفة أو أكثر من الضعيفة وكل المعاملات بين تجارية وغيرها واقفة ولم يكن بالبلاد طرق ولا ميناآت ولا أعمال نافعة وكان الأهالي في احتياج إلى الماء في بلاد الماء فيها هو كل شيء وكانت عرضة للتوازل الطبيعية والأوبئة وليس من يدافع عنها هذا زيادة عن أن حدود بلاد الجزائر كانت عرضة لأعتداء القبائل على الدوام ولذلك لم يكن من الممكن لفرنسا أن تبقى غير متشغلة من حالة كهذه ذات أخطار عليها ولهذا اضطرت للمداخلة وأخذت على نفسها مسؤولية

العمل في إصلاح بلاد كانت فيما سبق زاهية زاهرة ولما كانت بلاد تونس خصبة الأراضى وكان أهلها يميلون إلى العمل كانت ميدان تجارب موافق جداً لأهل أوروبا وقد شرعت فرنسا في العمل وهي عالمة بدقته وقدمت موظفيها الإداريين وجنودها لحفظ النظام العام وقضاها لحفظ الحقوق ومهندسيها للقيام بالأعمال النافعة وزراعتها لتعليم الناس الاستفادة من ثروة الأرض هذا من جهة ومن الأخرى لما كانت تونس مجاورة لبلاد الجزائر وكانت ثغورها البحرية قريبة من التي لفرنسا على بحر الروم وكانت العلاقات التجارية موجودة بينهما من القديم وكان الناس يثقون بالنظام السياسى الجديد كل ذلك حجب إلى الأمم التي تدين لفرنسا بالطاعة أستيطان تلك البلاد وهذا ما حصل بالفعل لأن خصوبة الأراضى التونسية وخصوصاً صلاحية بعض جهاتها لزراعة السكر نشأ عنهما انتقال كثير من الفرنسيين إليها بعد إعلان الحماية بقليل وهذه المهاجرة لم تجلب إلى تونس رجالاً فقط بل جلبت إليها أيضاً أموالاً لهذا كان من الضروري إيجاد نظام قضائى لحفظ تلك الأعمال والمشاريع التي سيأخذ الناس في القيام بها وإلى ذلك يرجع مجموع وتفصيل الأحتياطات التي اتخذتها فرنسا بتحويل تونس القديمة إلى تونس الحالية المستوفزة للوثوب إلى الامام لما فيها من وسائل الحياة هذا ملخص ما يقوله الفرنسيون في أسباب أستيلاتهم على تونس وأدارة أحكامها أوردناه هنا بهذا التفصيل لهذه البلاد من الأهمية ولما يينا وبينها من الروابط

ولما احتل الفرنسيون البلاد التونسية كان النظام السياسي والأداری بهایی قبضة البای لا غیره كما كان فی یده أيضاً القوة التشريعية والقوة التنفيذية معاً وأوامره وقراراته كان لها قوة القانون لكن ذلك كان یلطف نوعاً بما جرت به العادة من استشارة مجلس نظاره أو استشارة رئیسهم على الأقل قبل الأقرار على أمر عمومی المنفعة وكان أهم نظارات المملكة النظارة المكلفة بالأدارة العامة ورأسها الوزير الأول أو وزیر القلم وكانت البلاد مقسمة بین القبائل وأنفاذها وكان لبعض هذه القبائل مكان معلوم من الأرض والبعض الآخر رحل ولكل قبيلة قائد هو المسئول عن الأمن ودفع الضرائب وسلطته واسعة ولم یكن بالمدن نظام للمجالس البدية ما عدا مدينة تونس وقد احترمت فرنسا بعض هذا النظام الأداری لأنظباطه وموافقته الأحوال الأهلية وعلى منواله سنت نظامها الجديد هناك وقد ترك البای بمعااهدة سنة ١٨٨١ لفرنسا حق النظر فی علاقات البلاد التونسية بالممالك الأجنبية ومنعته من أن یعقد من غیر رضاها أى عقد له صفة دولية وبذلك أصبحت فرنسا ضامنة لعلاقات تونس مع الدول الأجنبية ومراقبة كل ما يتعلق بهذه العلاقات ومعارضة كل نظام یمثل لها أنه یرقل هذا النظام الحالی وقد ضمنت فرنسا الدین التونسي وعلى ذلك تمهد البای بأن یتبع الإصلاحات الإدارية والقضائية والمالية التي ترى الحكومة الفرنسية ضرورة وجودها وصادق البای على اتفاقية بهذا المعنی سنة ١٨٨٤ وهي سجل الحماية الفرنسية على تلك البلاد الآن

وقد أبقت فرنسا للباي سيادة أسمية فقط فالحاكم الحقيقي هو الوكيل العام الفرنسي وفي يده كل ما لفرنسا من القوى بهذه البلاد وصرحت له بالتصديق نيابة عنها على القوانين وإنفاذها في تونس وهو الذي يرأس مجلس النظار المكلف بتحصير الميزانية ولما كان الباي قد ترك لفرنسا إدارة علاقته الخارجية كان الوزير المقيم الفرنسي هو وزير خارجيته وله حق رئاسة مجلس النظار وهو الوسيط بين البلاد التونسية والحكومة الفرنسية ويتبعه قواد الجنود البرية والبحرية ألا أن بعض الإدارات الأخرى لما كانت تحتاج إلى معارف خصوصية كان لها رؤساء آخرون ترسلهم فرنسا إلى تونس واعلم أن الحكومة الفرنسية قد أبقت بعض النظام الذي كان معمولاً به في البلاد قبل إعلان حمايتها عليها كما قلناه كما أبقت أيضاً بعض الإدارات في يد الأهالي .

مدن بلاد تونس

تونس - هي عاصمة هذه البلاد وأكبر مدن أفريقية الشمالية الساحلية وأشهرها بعد الاسكندرية بها من السكان (نحو ٢٠٠.٠٠٠ نفس) منهم أكثر من ثلاثين ألفاً من اليهود ونحو ستين ألفاً من الأوربيين وأهميتها آتية لها من وقوعها في مكان في غاية المواقفة بالزاوية الشمالية الشرقية من بلاد البربر وعلى مصب وادي مجرّدة وعلى بحيرة تنصل بالبحر من مضيق على جانبيه مباني مينائها الأممية المسماة حلق الوادي (غوليطه) وطرق هذه المدينة ليست منتظمة

وهي ذات أهمية في النال ب دورها من الداخل كثيرة العمود الأساطين وبأسواقها مختلف الصنائع والتاجر لكل طائفة وصناعة سوق مخصوص وذلك مما يجعل لهذه المدينة جمالا وبهجة وبجوارها مدينة يسكنها الأوربيون تعرف باسم لا مارين (La Marine) وقد شيد بها الفرنسيون بعد احتلالهم هذه البلاد مباني كثيرة فخمة فأضحت مدينة حقيقية حتى أن بعضهم يلقبها بإريس الصغرى وقد حفر الفرنسيون في وسط تلك البحيرة خليجا يسمح للسفن بأن ترسو أعلى مدينة تونس فساعد ذلك على ترقى تجارتها وفي تونس يقيم الباي حاكم البلاد الشرعى وكل الإدارات العليا بين ملكية وعسكرية ومالية وقضائية وبينها وبين مدينة الجزائر نحو ٦٢٥ كيلومتر وبينها وبين مدينة طرابلس ٥٢٠ كيلومتر وبينها وبين مرسيليا ٨١٥ كيلومتر وتخرج منها طرق حديدية تذهب إلى بلاد الجزائر وبزرت وحلق الوادى وسوسة والقيروان وبينها وبين مرسيليا وإيطاليا والجزائر وطرابلس مواصلات بحرية وقد فتح الفرنسيون بمدينة تونس الآن عدة طرق وشوارع واسعة وبنوا بها مباني مختلفة وحولها سور تملوه أبراج هدم الفرنسيون الآن بعضه لأقامة مباني جديدة وقصبة تونس من بناء العرب وقد وسعها الأسبانيون بإضافة مباني جديدة إليها وهي مربعة الشكل وكانوا يسجنون فيها النصارى الذين تأسروهم القرصان ويقولون أن سجونها كانت تسع منهم نحو عشرين ألف أسير وبها تقيم الآن الحامية الفرنسية ومتى وقف الإنسان في أعلاها امتد الأفق أمامه فشاهد منظرًا بديعاً أما قصر

البابى أو دار البابى كما يقولون فليست على شيء من صناعة البناء وتشبه من الخارج نكتة عسكرية وهى من بناء حموده بابى الذى امتد حكمه بهذه البلاد طويلا (١٧٨٢ - ١٨١٤) ومع ذلك فأن صحنها مقروش بالرخام الأبيض والأسود ويحيط به من جهاته الثلاث حنايا وعمد من الرخام جميلة جدا وبها بهو كبير جميل وبعض غرف ذات نقوش عربية تشبه الموجود منها بقصر الحمراء دقة وجمالاً وبها أيضاً فى الطابق العلوى قاعة للطعام ذات سقف مذهب ونقوش عربية وأخشاب حمراء وخضراء ورخام أبيض ناصع وعمد رفيعة رخامية جميلة كل ذلك مما يستوقف البصر ويستحق الذكر ويقع البابى فى هذه الدار مدة شهر رمضان ويجلس فى صحنها أذ ذاك لينظر فيما يرفع إليه من القصص وللقضاء بين الناس ومن مباني تونس أيضاً سراى العديلة الفرنسية وكانت قصرًا للمرحوم خير الدين باشا وزير البابى محمد الصادق الذى استولى الفرنسيون على تونس فى زمنه ومنها البيمارستان وقد بناه العزيز عثمان من بنى حفص ومنها الديوان وهو بناء ضخم بين محلة الأوربيين والبحيرة وغيرها من المباني الأخرى الكثيرة بين قديمة وحديثة وتونس كثيرة الجوامع والمساجد والزوايا والرباطات والجامع قصبتها منارتان وهو قريب من دار البابى وكانت كنيسة شيدها الأسبانيون مدة شارل كان وهذا يخالف ما أصاب جوامع بلاد الجزائر من صيرورة الكثير منها الآن كنائس وباقصبة مسجد آخر من بناء الحفصيين أما جامع الزيتونة فهو جامع كبير من أعظم وأشهر جوامع الإسلام به من العمد

مائة وخمسون جلبت كلها من خرائب قرطاجنه وبه دار كتب نفيسة والجامان
الأخيران هما وجامع باب الجزيرة الواقع خارج الباب المذكور أقدم جوامع
تونس ومن جوامعها الكبيرة أيضاً جامع سيدى عرز وتملوه قبة جميلة حولها
قباب أصغر منها وقد بقي هذا الجامع زمناً طويلاً لمجاىحتمى به كل من عليه دين
ولا يمكنه وفاؤه ومنها جامع صاحب الطابع وهو من أجل وأهس جوامع
تونس ولكنه لم يتم بناء وزخرفة هناك غير ذلك من المساجد والزوايا والمدارس
والرباطات وكلها عامرة قديماً فائتة بما جمعت له ويظهر من المباني التي ذكرناها
أن تونس ليست من المدن الأثرية القديمة بل من المدن العربية التي نفيد
السائح الأوربي لما اشتملت عليه من المباني العربية والطرق والأزقة والأسواق
والدور الجميلة الداخل ولأرباطها بمدينة أوربانية واطئة واقعة في منبسط
من الأرض ستصير يوماً ما جسيمة تشبه مدن أوربا وأمريكا بمضاً أو كلا مع
ذلك فإن تونس قليلة الحركة التجارية والمصانع الكبيرة ومستقبلها في ذلك
متوقف على ما يكون لبلاد تونس من الشأن في التجارة والصناعة بما يعمله
فيها الفرنسيون مما يرق الصناعة والتجارة

ويظهر أن بحيرة تونس التي يفصلها عن البحر برزخ رملي ضيق جداً
كانت تتصل في كل الأزمنة مع بحر الروم فكانت مرسى للسفن الرومانية
ويبلغ طولها أحد عشر كيلومتراً ويختلف عرضها بين أربعة كيلومترات وسبعة
كيلومترات ومحيطها أربعة وثلاثون كيلومتراً كل ذلك بالتقريب وشواطئها

منخفضة جداً منبسطة بعضها رملي وبعضها مستنقعات ويقدر أن مسطحها نحو
ستين كيلومتراً ويصب فيها جداول لا أهمية لها تجري المياه فيها في بعض أيام
السنة وهذه البحيرة صارت بما يلقي فيها من الأوساخ والأوحال والأتربة
والقمامات التي تخرج من تونس منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة مستنقعا
لا يزيد عمقه عن مترين اثنين على الأكثر مع أن السفن الرومانية والقرطاجنية
كانت تمخر فيها ذهاباً وجيئة وفي وسطها جزيرة صغيرة تسمى شكلية فوقها
حصن صغير كان فيما سبق محجراً صحياً وهو الآن مهمل ويكثر السمك بهذه
البحيرة ويقول أهل تونس القدماء أن جودة هواء مدينتهم سببه البحيرة
المذكورة ولكن يظهر أن ذلك غير صحيح وأن كانت شهرة تونس في جودة
الهواء قديمة جداً قال مصترشاو (Shaw) وهو طبيب وسائح مشهور وكان قنصلاً
للإنجليز بمدينة الجزائر في هذا الخصوص ما يأتي «يحتمل أن يكون هواء
تونس مضرًا جداً لما حولها من البحيرات والمستنقعات ألا أن ما يحرقه
أهلها من المصطكي والمر وأكليل الجبل وغيرها في حماماتها وأتانيها وما
يخرون به أيضاً من الصمغ والنباتات العطرية الأخرى بكمية كبيرة بحيث
تكون الروائح المنبعثة عنها شديدة جداً كل ذلك يمتلئ به الهواء فينصلح
ويجود حقيقة» اهـ وروى سائح آخر فرانسوي طبيب كذلك قولاً مثل هذا
وكان زار تلك المدينة في سنة ١٧٨٣ قاله أن بالبحيرة والخليج من السمك
شيء كثير جداً وألى المدينة تصل كل احتياجات المعيشة وأن القدر الكبير

من النباتات العطرية التي يجرعها الأهالي تساعد من غير شك على تنقية الهواء الذى يفسد بما يتصاعد من الروائح الكريهة من شواطئ البحيرة ومن البالوعات التي تنصب فيها أوساخ مدينة عظيمة وبما ينتشر من نتن جثث الحيوانات الملقاة على طول الطريق وفي الحقول المجاورة لها، ومع ذلك فيظهر أن أحسن تلميل لذلك هو فعل الرياح فأنها تطرد على الدوام تقريباً ما يتصاعد من الروائح الكريهة هناك وحقيقة الحال أن مدينة تونس ليست صحيحة الهواء كما يقولون لأن الدوستاريا مرض موضعى بها وأن كانت لا تصل إلى الدرجة الحادة غالباً كذا أمراض القلب ليست بها قليلة وتقتل تقريباً عدداً من أهاليها وتكثر بها الأمراض الديدانية يظهر كل ذلك من الأحصاء الطبي الذى عمل بين الجنود الفرنسية ولما ظهر الطاعون بها بين سنتي ١٨١٩ و ١٨٢١ قتل من أهاليها قدراً كبيراً وفى سنة ١٨٤٩ انتشرت الكوليرا بين اليهود من سكانها انتشاراً مريعاً حتى أودت بهم جميعاً تقريباً ثم عادت فانتشرت فى السنة التالية بين العرب والأوربيين وأمات منهم قدراً كبيراً وفى سنة ١٨٨٨ انتشر بها الجدري انتشاراً ضاعف عدد موتاهم ولكن هذه الضحايا لا يمكن تقديرها بالأرقام لأنه لم يكن عمل أذاك أخصاء طبي أما الحالة الصحية فى تونس الآن فأنها ليست كما قال ذلك السائح أو غيره لأن الفرنسيين قد أصلحوا كثيراً من تلك الأحوال السيئة بما أجروه من الأعمال وسنوه من النظامات

أما من جهة الصناعة فتونس لا تمد شيئاً تقريباً فقد فقدت شهرتها القديمة وليس من المحتمل أن تعود إليها تلك الشهرة ثانية ويظهر أن سيكون لها مكان بين المدن التجارية ومدن الشتاء وأما كن اللهب والقصف وليس بها الآن من الصنائع إلا صنائع أهلية صغيرة وبعض المعامل الوطنية والمدافع والمطاحن ومعامل الطوب والتبغ والروائح العطرية والأنسجة الصوفية والحربية وغير ذلك ومن أشهر صادراتها الحبوب والزيوت والأنبذة والأصواف والجلود والأعطار ومن وارداتها السكر والبن والنيذ والحديد والسلاح والمصوغات والفحم الحجري والخرداوات والأشياء الزجاجية والأواني الصينية وأخشاب العمارة وغير ذلك

أما من جهة الحركة العلمية فإن مدينة تونس لما بها من المعاهد العلمية كانت من أشهر مدن أفريقيا في ذلك ومن أكبر هذه المعاهد وأشهرها جامع الزيتونة وتدرس به كل علوم الدين الاسلامي واللغة العربية وآدابها وقد زادوا عليها الآن بعض العلوم الحديثة كما سبق وبه من الطلبة نحو ألف طالب كثير ومنهم من أهل الجزائر قال في صفوة الاعتبار «هو أول جامع بني بالحاضرة وكان تمامه سنة ١٤١٩ وقال أيضاً وهذا الجامع هو أعظم جامع بالحاضرة وهو بركة أهلها ولا يخلو من رجل صالح وهو مناخ العلوم ونجت فيه فحول عظام قديماً وحديثاً وإن كان أقدم منه في البناء جامع القصر لأنه كان كنيسة قبل الفتح فصار جامعاً وتشتمل الحاضرة على سبعة جوامع خطب للحنفية وأعظمها جامع محمد باي

وبقية الجوامع والمساجد البالغة نحو ثلاثمائة كلها مالكية وأعظمها جامع الزيتونة وبالحاضرة زوايا كثيرة تبلغ أزيد من مائتي زاوية «اه ومن المدارس للدرسة الصادقية والدرسة العلوية وهي لتخريج المعلمين وغيرهما وهناك مدارس أخرى أهلية وأجنبية وقد شيد الفرنسيون بعد احتلالهم عدة مدارس أخرى من درجات مختلفة وأقبل الناس عليها أقبالا كبيرا يبشر بحسن المستقبل أو يجعل هذه المدينة القديمة مدينة اللوبيين والقرطاجيين والرومان والأغريق والترك مركزاً لنشر التريسة العلمية الفرنسية كما يقول الفرنسيون ومياه الشرب تصل إلى تونس وضواحيها من جبل زغوان تجرى فوق حنايا طولها هي وفروعها نحو ١٣١ كيلومتر وهي من عمل الرومان وقد أصلحها الفرنسيون ويصب ماؤها في أحواض كبيرة بالقرب من القصبة ومن هناك يتوزع على المدينة وضواحيها ويصل إلى باردو والرسى وقرطاجنة وحلق الوادي وبالمدينة وضواحيها عيون وأبار وصهاريج أخرى يستقى منها الناس وكلها جيدة الماء ومن ضواحي تونس بلدة باردو وهي إلى الغرب منها وعلى الطريق الحديدي الذاهب إلى الجزائر وباردو قصر كبير جداً حتى أنه لاتساعه وما يلتحق به من المباني يكون كالمدينة وحول سوريه أبراج في زواياه وقد شيده أحد البايات المتأخرين ولهذا كان خالياً من فن المعمار وبه متحف يعرف بالمتحف العلوي يشتمل على أشياء تونسية قديمة نفيسة كثيرة وهو متحف بأفريقية الفرنسية وبالقرب من هذا القصر قصر آخر يعرف بالقصر السعيد وبهذا القصر وقع

محمد الصادق باي على صك الحماية الفرنسية مضطراً وذلك في يوم ١٢ من شهر مايو سنة ١٨٨١ وألى الشمال الشرقى من تونس بلدنا المرسى وسيدى أبى العباس وخرائب قرطاجنه وكلها فى أما كن بديعة وألى الشرق بلدة حلق الوادى (غوليطه) وهى الميناء الامامية لتونس وألى الجنوب الشرقى بلدة تسمى سيدى مفتاح الله ودورها مشيدة على الطراز المغربى الجميل وألى الجنوب منها قصر كبير يسمى المحمدية من بناء المرحوم أحمد باي بناء فى زمن لويس فليب ملك فرنسا وألى الجنوب والشرق حمام الليف ومياهه معدنية حارة قال بعض العلماء يصف أهمية تونس بما يأتى «لما كانت تونس واقعة فى مكان حصين جداً فوق أكمة يحيط بها من الشمال والشرق بحيرة كبيرة متصلة مع البحر ومن الجنوب والشرق مستعمر أو سبخة بها الماء على الدوام كان من اللازم أن تكون منذ العصر الفارسية إحدى المراكز الأصلية التى سكنها الجنس القديم بتلك البلاد ولذلك نالت شهرتها التى لازمت أسماها على الدوام حتى أن تونس فى عصر قرطاجنه القوية صاحبة النفوذ والسلطان كانت المدينة اللوية الأصلية القائمة أمام تلك المستعمرة الفينيقية والتى كان يمكن مشاهدتها من أعلى أسوارها لهذا يخطأ من يقول بأن هناك ارتباطاً فى الاشتقاق بين اسمها وبين لفظ تانيت (Tunit) معبودة الفينيقين ولا بد أن يكون فى هذه التسمية أصلاً ضاع عنا معناه الحقيقى أى أن هذا اللفظ لولبى قديم وأعلم أن تونس قد لعبت فى الحروب التى كانت ضد قرطاجنه الدور الذى يسمح لها به موقعها الحربى وعداوتها لتلك المستعمرة الفينيقية وقد استولى

عليها اللوبيون سنة ٣٩٥ ق م ثم أخضعها أغاثوكل (Agathocle) سنة ٣١٠ ق م وأخضعها أيضاً ريجولوس (Regulus Attilius) في الحرب القرطاجنية الاولى ثم شبيون (Scipion) في الثانية وشبيون الافريقى في الثالثة وكانت موثلاً للمجتمكين من الجنود أثناء الثورة الدموية التي كابدت قرطاجنه المشاق في التغلب عليها ولم تكن تونس القديمة حتى زمن الرومان تشغل كل المكان الذى هى فيه الآن وهى وأن كان العرب قد بنوها كلها من مواد قديمة ألا أنه ليس بها بناء عتيق معروف اللهم ألا بعض أما كن فى قصبتها وسورها «اه» بصرف وقد استولى المسلمون على تونس فى أواخر القرن السابع الميلادى ومن ذلك الوقت أخذت فى أن تكون مدينة عربية وقد ذكرها البكرى قبل استيلاء بنى حفص عليها بنحو ١٥٠ سنة وقال أنها أشهر مدينة بين مدن أفريقية ولها ذكر كبير فى كل العالم الاسلامى لما بها من المعاهد العلمية ثم بعد ذلك أخذ تاريخها يختلط مع تاريخ البلاد التونسية أو أن تاريخ البلاد التونسية هو حكاية ما وقع بمدينة تونس وقبل بنى حفص كانت فى قبضة بنى الأغلب مدة شرمان وحكمها أيضا بنو زيرى وفى القرن الحادى عشر من الميلاد أخضعها عبد المؤمن سلطان الموحدين ومنه انتقلت إلى المرابطين ومنهم إلى بنى حفص وأحد سلاطينهم هو الذى قام فى وجه من لويس ملك فرنسا فى الحملة الصليبية السادسة وقد تغلب عليها بنو مرين وقتا ثم عادت للحفصيين وبقيت فى يدم حتى أخضعها الدولة العثمانية تماما وضمها إلى أملاكها سنة ١٥٧٤ م ومن

هذه السنة المذكورة كان يتولاها إلى المدة الأخيرة حكم بينهم الباب العالي يلقب الواحد منهم بلقب باى أوبك وكان الواحد منهم يمين أولا لثلاث سنوات ثم صار مجلس الانكشارية في تونس ينتخب الحاكم من أعضائه أى من الانكشارية ومن سنة ١٦٥٠ صار البايات يحكمون البلاد بالوراثة وفي سنة ١٦٨٩ استولى الجزائريون على تونس وفي سنة ١٧٠٦ تأسست هذه الأسرة الحسينية وبقيت في حكمهم حتى أدخلها الفرنسيون تحت حمايتهم سنة ١٨٨١ كما هو معلوم ومن هذا الوقت أخذت تنحون نحو المدن الأوربية وتونس هي وطن المؤرخ الكبير العلامة ابن خلدون قال في معجم البلدان « تونس والنون تضم وتفتح وتكسر مدينة كبيرة محدثة بأفريقيه على ساحل بحر الروم عمرت من أنقاض مدينة كبيرة قديمة بالقرب منها يقال لها قرطاجنه وكان أسم تونس في القديم ترشيش وهي على ميلين من قرطاجنه ومحيط سورها واحد وعشرون ألف ذراع وهي الآن قصبة بلاد أفريقيه بينها وبين سفاقس ثلاثة أيام ومائة ميل بينها وبين القيروان ونحو منه بينها وبين المهدية وليس بها ماء جار إنما شربهم من أبار ومصانع يجتمع فيها ماء المطر في كل دار مصنع وأبارها خارج الديار في أطراف البلد وماؤها ملح وعليها محترت كثير ولها غلة فائضة وهي من أصح بلاد أفريقيه هواء وقال البكري مدينة تونس في سفح جبل يعرف بجبل أم عمرو ويدور بمدينة خندق حصين ولها خمسة أبواب إلى أن قال وفي شرقي مدينة تونس الميناء والبحيرة وباب قرطاجنه ودونه داخل الخندق

بساتين كثيرة وسواق تعرف بسواق المرج ويتصل بها جبل أجرد يقال له جبل أبي خفاجة في أعلاه أثار بنيان ثم قال وجامع تونس مطل على البحر ينظر الجالس فيه إلى جميع جواريه ويرقى إلى الجامع من جهة الشرق على اثنتا عشرة درجة وبها أسواق كثيرة ومتاجر عجيبة وفنادق وحمامات ودور المدينة كلها رخام بديع وهي دار علم وفقه وقد ولي قضاء أفريقيه من أهلها جماعة ومع ذلك فهي مخصوصة بالتشغب والقيام على الأمراء والخلاف للولاية ويصنع بتونس للماء من الخزف كيزان تعرف بالريحية شديدة الياض في نهاية الرقة تكاد تشف ليس يعلم لها نظير في جميع الأقطار وتونس من أشرف بلاد أفريقيه واطبيها ثمرة وأفسها فاكهة فمن ذلك اللوز الفريك يفرك بعضها بعضاً من رقة قشره ويحت باليد وأكثره حبتان في كل لوزة مع طيب المضغة وعظم الحبة والمان الذي لا عجم له البتة مع صدق الخلوة وكثرة المائبة والتين الأسود الكبير وهو رقيق القشر كثير العسل لا يكاد يوجد له بذر وبها من أجناس السمك ما لا يوجد في غيرها يرى في كل شهر جنس من السمك لا يرى في الذي قبله يملح فيبقى سنين صحيح الجرم طيب الطعم وافتتحها حسان بن نعمان بن عدى بن بكر بن مغيث الأسدي في أيام عبد الملك سنة ٧٠ وأحكم بناءها ومد عليه سلسلة وجعلها رباطاً للمسلمين تمنع الداخل إليها والخارج منها ألا بأمر الوالى وذكر آخرون من أهل السير أن التى افتتحها حسان بن النعمان قرطاجنه ولم تكن تونس يومئذ مذكورة أنما عمرت بحجارة

قرطاجنه وبأقاضيها وبينهما نحو أربعة أميال وفي سنة ١١٤ بنى عبيدالله بن الحبحاب مولى بنى سلول والى أفريقيه من قبل هشام بن عبد الملك جامع مدينة تونس ودار الصناعة بها « اه بتصرف

هذا أما أطلال قرطاجنه الشهيرة الواقعة إلى الشمال من تونس فأنها لا تزال قائمة يقصدها السياحون لمشاهدتها فال في صفوة الاعتبار عند وصفه مدينة تونس « وهناك عدة قرى في مكان مدينة قرطاجنه العتيقة التي هي الآن خراب ولم يبق منها قائما الا مواجل الماء وقد كانت مسدودة بالتراب ثم في هاته المدة الاخيرة فرغتمنه ووجدت حيطانها وطلبيها أحسن مما يبنى جديدا وهي نحو إحدى عشرة ماجلا متصلة ببعضها بمنافذ ولا تحتاج ألا لشيء يسير من الإصلاح وهي من الباني العجيبة التي تقصدها السواح لرؤيتها كما أن خرائب قرطاجنه لازال يستخرج منها الصخور الضخمة والأسطوانات المرمر وكثير من الأفرنج يبحث فيها على الأشياء العتيقة ويستخرج منها تصاوير وأصنام وصناديق من رخام عليها كتابات عتيقة وهي قبور لقدماتهم وتارة يستخرج بعض فصوص منقوش عليها تصاوير في غاية الأتقان فمنها فص قدر الظفر منقوش به عجلة وأربعة من الخيل ومن أتقان النقش أن صفائح الخيل تظهر مساميرها ولا يستبين عجبها ألا بالمرآة المكبرة كما يستخرج أحيانا قطع من السكة ذهباً أو غيره والحاصل أن هاتيك الجهات وما حولها إلى الجبل الخاوى لازالت تشتمل على عجائب من آثار الأقدمين « اه

القيروان - مدينة بالجهات الوسطى من تونس على نحو ٥٨ كيلومتراً إلى الجنوب والغرب من مدينة سوسة بينهما طريق حديدي وسوسة أقرب المراسى للقيروان وللقيروان شأن خطير في كتب المسلمين لها من الاعتبار عديم وقد بنيت سنة ٦٧٠ م بناها عقبة بن نافع في سهل واسع كان بمضه سبخات ملحة وقد بقيت مدة قرنين قاعدة أكبر عمالة في دولة بني أمية وبني العباس وعند تجزئة هذه الدولة صارت قاعدة بني الأغلب ثم القواطم وبني زيري الصنهاجي قبل بناء المهدي ثم لما دخلها الفرنسيون أخيراً سنة ١٨٨١ لم يجد أهلها أقل مقاومة أو ممانعة ويقدر أن سكانها الآن بنحو (٣٧٠.٠٠٠ نفس) وقد انحطت عن منزلتها القديمة الرفيعة ويحيط بها سور من الآجر ارتفاعه عشرة أمتار له شرفات وأبراج وخمسة أبواب وللمدينة سبعة أرباع وهي كثيرة الجوامع والمساجد والمدارس والزوايا والرباطات وأشهر جوامعها الجامع الكبير وهو رفيع البناء جميل الطرز بني عند اختطاطها وشهرته كبيرة جداً في العالم الإسلامي ولم يكن يسمح لغير مسلم بدخول هذه المدينة أصلاً فلم يدخلها من الأوروبيين قبل سنة ١٨٨١ إلا ثلاثة أو أربعة فقط وقد وصف سائح أوروبي هذا الجامع بما يأتي قال « بني جامع القيروان بأحجار حملت من خرائب سيطله وهو بناء مربع الشكل طول كل جانب من جوانبه الأربع ١٤٠ متراً وارتفاع سورته ثمانية أمتار وعرضه ستة أمتار تحفظه عضادات ودعامات وله عدة أبواب ومتارته ضخمة مربعة الشكل عريضة جداً عند قاعدتها ولها ثلاث طبقات

الواحدة فوق الأخرى وترى هذه المنارة للقادم من بعيد ودخل الجامع يشبه غابة حقيقية لكثرة ما به من العمد البديعة التي بعضها من مرمر الأبيض المرقق بالأحمر وبعضها من السماق وبعضها من المرمر الأحمر وكلها ذات نقوش من أجل وأبداع ماعمله الرومان وتعلوه قبة مسطحة مزينة بنقوش عربية ومدھونة بالمصيص والجص ومن هذه العمد مائة وثمانون حملت من معابد رومانية لا تزال أطلالها وخرائبها في تلك الجهات ولنارته ١٢٩ درجة وإذا صعد الإنسان فوقها شاهد منظراً من أبداع المناظر «أما عمدة الجامع فأنها أربعمائة وخمسين منها عمودان يزعم الناس أنهما باقيان من أقدم عصر المدينة المذكورة وقد حملا من كنيسة مسيحية ويزعمون أيضاً أن من ارتكب أثماً لا يمكنه المرور من بينهما وبالمدينة غير هذا الجامع عشرون جامعاً أخرى وثلاثون زاوية ومدينة القيروان جيدة البناء على العموم وأسواقها جميلة بها كل ما يحتاج إليه وأزقتها وطرقها نظيفة وميدانها أجمل وأحسن من كل ميادين المدن الأخرى بتونس ومنظرها من جهة الغرب جميل مختلف الشكل يتخلله نخيل ألا أن خارجها قحل خال من النباتات تقريباً اللهم ألا ما نبئت هناك من النبات المعروف بـ «الكلبة» (Salicornia) وهو ينبت في الأرض الكثيرة الأملاح وأهم الصنائع بالقيروان صناعة البسط وسروج الخيل والبالغ والأواني النحاسية وبسببها برك ومستفدرات ملحقة تكثر مياهها في زمن الأمطار وقد جلب الفرنسيون إليها الماء من ثلاثين فرسخاً وكان أهلها وأراضيها قبل ذلك عرضة للعطش

والجفاف من ذلك أنه في سنتي ١٨٨٧ و ١٨٨٨ انحبس المطر عنها ثمانية عشر شهراً فلم يسقط فيها ألا ما لا يروى غليلاً وبحالة متقطعة حتى فرغ ثلاثة أرباع الماء الذي بمصانمها ومواجهها وهو الماء الذي يدخر للحاجة حتى تم السكان بترك المدينة قال في صفوة الاعتبار « والقيروان هي المدينة الثانية في انقطر وقد أخطها الصحابة رضوان الله عليهم عند الفتح في مكان صالح لميشة حيواناتهم وقريب من طبيعة أرض الحجار لتأنسهم بها وبعبدة عن البحر حذراً من هجمات المحاربين قبل التمكن وهي في الجنوب الغربي من الحاضرة وبها الجامع الكبير الذي بنته الصحابة ثم جده بنو الأغلب عند ما كانت تلك البلدة هي قاعدة القطر ولا زال بعض سقوف الجامع مما صنعه الأغلبة إلى الآن كما أنه فيها ضريح السيد الصحابي سيدنا أبي زمة الأنصاري رضى الله عنه وعليها بناءات ضخمة ومدارس للعلوم وأوقاف كثيرة وامتلك البلدة سور وضريح السيد خارج السور وفي السور أفنديقة ممرجة للخروج منه راجلاً عند غلق الأبواب وعلى السور عدة حصون وهي الآن ليست على ما كانت عليه من العمران وسكانها كلهم مسلمون تقريباً وهم قائلون بجميع ما يحتاجون إليه من صناعة وتجارة ولا زال العلم في أهلها وبالجامع الأعظم ومدارس السيد عدة دروس في علوم شتى » اهـ وقال في معجم البلدان « القَبْرَوَانُ قال الأزهري القيروان معرب وهو بالفارسية كاروان وقد تكلمت به العرب قديماً وهذه مدينة عظيمة بأفريقيه غربت دهرأ وليس بالمغرب مدينة أجل منها إلى أن قدمت العرب أفريقيه وأخربت

البلاد فانتقل أهلها عنها فليس بها اليوم ألا صعلوك لا يطمع فيه وهي مدينة مصرت في الأسلام في أيام معاوية رضى الله عنه «اهتم ذكر كيفية تمصيرها ولما كان العرب يسمون مدينة قورينه حاضرة بلاد برقة القيروان القديعة كان يظن أنهم أطلقوا هذه التسمية أيضاً على هذه المدينة التي مصروها

قابس - مدينة وقاعدة أفليم هناك ذكرها ابن حوقل والبكري من بعده وقالوا عنها أنها مدينة أهلة بالسكان واسعة التجارة جداً يحيط بها أسوار متينة وخنق عريض ومزارع كبيرة للزيتون واللوز والتوت وقصب السكر أما الآن فإن هذا اللفظ يطلق على واحة بها عدة قرى ويبلغ سكانها نحو (١٥٠٠٠ نفس) بينهم بعض اليهود والأوربيين وبساتين قابس مشهورة جداً ببجالتها ورونها وادى قابس وهو نهر جبل دائم الجريان يخرج على نحو سبعة كيلومترات منها وبلدة قابس الحالية ثغر بحرى صغير لا ترسوا عليه إلا سفن الأهالى لقلة عمق المياه أمامه ولها تجارة راقية ومن صادراتها التمر الجيد وزيت الزيتون والثمار والأصوف والجلود وتتردد عليها قوافل تأتي من بلاد الصحراء والسودان وغدامس ولكن الآن قل تردد هذه القوافل عليها وقد شيد الفرنسيون بقربها مدينة حديثة تقدمت بسرعة هي نهاية خط حديدى يخرج من بلاد الجزائر وهي المعروفة الآن بأسم قابس أو قابس الجديدة ✓

جربة - وأمام خليج قابس أى سرت الصغير جزيرة جربة وهي جزيرة مربعة الشكل فى ساحلها الجنوبي خليج عريض ويبلغ أكبر طول لها من

الغرب إلى الشرق ٣٣ كيلومتراً ونحو ذلك عرضها أما محيطها فإنه يبلغ ١٥٥ كيلومتراً بما في ذلك أنطافاته وأنحنا أنه الصغيرة ويفصل نهايتها الجنوبية الغربية عن القارة مضيق عرضه نحو نصف كيلومتر وكان في أضيق مكان من هذا المضيق فيما سبق رصيف من الجانبين وأراضيها خصبة جداً وتروى من الأمطار التي يكثر سقوطها بها ومن حاصلاتها الوفرة العنب الجيد والخوخ والتين والزمان واللوز وكان لتفاحها قديماً شهرة كبيرة ومن أهم موارد الثروة بها غير ما ذكر أشجار الزيتون وبعض أشجاره جسيمة الحجم جداً وزيت جربه مرغوب فيه للغاية أكثر من زيت السوس وسفاسقس أما تمرها فتوسط الدرجة وتشتهر أصوافها بجملها ونموها وليس بجربه مدينة في الحقيقة وأكبر قراها قرية تسمى السوق قرية من ساحلها الشمالي بها من السكان نحو (٣٠٠٠ نفس) دورها نظيفة جيدة البناء وبكل جهات الجزيرة معامل للنسيج ومع ذلك فإن بلدة السوق المذكورة يمكن عدها مدينة لما اشتملت عليه من الفنادق والأسواق وغيرها من المباني العمومية ويقم اليهود من سكانها في محلة خاصة بهم تعرف بالحارة وبها غير بلدة السوق المذكورة أربع بلاد أو قرى تعرف عندهم بالحوّات فيقال حومة كذا وحومة كذا ولتفرق مساكن جربه ودورها وسط مزارع وأشجار كثيرة كثيفة كان منظر هذه الجزيرة من بُعد المناظر وأجملها خصوصاً في جهاتها الجنوبية التي هي أخصب الجهات بها ويزيد سكان هذه الجزيرة عن أربعين ألف نفس وبذلك كانت بالنسبة

لمسطحها أكثر بلاد تونس سكاناً وهم ليسو من العرب بل هم وبني مزاب
 يلاذ الجزائر من أصل واحد بربري يتكلمون لغة واحدة وينقسم أهل جربه
 إلى عشرة أقسام لكل قسم شيخ يعرف بالمقدم يستشير القائد في كل
 الأعمال وهو شيء درجوا عليه من القديم أو بقية ما كان لسكانها من الحرية
 قديماً وقد قسم بعضهم السكان إلى زراع وهم الأكثر وألى حاكمه وقد اشتهروا
 بعمل المنسوجات الصوفية وألى مراكية وألى صيادي سمك وعلى شواطئ
 جربه ستة حصون أشهرها وأهمها البرج الكبير وهو إلى الشمال بالقرب من
 بلدة السوق المذكورة وترى والسفن على نحو خمسة كيلومترات منه لأن الأعماق
 المنيرة في البحر أمامه لا تسمح للسفن بزيادة القرب وبين جربه وسفاقس ومدينة
 طرابلس ومالطه مواصلات كثيرة وتتردد عليها سفن تأتي من مرسيليا وتعرف
 هذه الجزيرة قديماً باسم مينيـكس (Mininx) أو بجزيرة لوتوفاج ومعناه آكلو
 ثمر اللوتس واللوتس يشبه النبق ويقولون أن ثمره كان لذيذاً جداً حتى أن الأغراب
 متى طعموه ينسون أوطانهم قال بعض العلماء في ذلك ما يأتي «ظن الناس
 عموماً أن هذه الثمرة العجيبة هي نوع من العناب أو النبق أي السدر ولكنه زيادة
 عن أن العناب والنبق ليس لهما من المزايا ما يستحقان به هذه الشهرة الكبيرة
 فإن هذا النبات غير منتشر كثيراً في جربه أي في بلاد آكل اللوتس القدماء
 بل هناك شجرة منتشرة جداً كثيرة الشوك تسمى دأموش تخرج حبوا
 مائلة للحمرة ذات طعم لذيذ مختلط من طعم التوت الأرضي أو الشوكي (الفراوله)

ومن غيب الثعلب ويحدث تأثير هذه الثمرة في الجسم أوفى جسسى أنا على الأقل لذة منعشة تجعل في النفس استعداداً إلى السرور والفرح وتترك في الذائكة وفي المعدة قابلية شديدة وتشبهاً كبيراً لهذا الثمر اللذيذ ولذلك أظن أن هذا هو اللوتس الحقيقي « أهو قد حفر الفرنسيون الآن بحربه آباراً توازية فالتست مزارعها وحول بلدة السوق جالية من المالطين يشتغلون بزراع الخضراوات وقد أشهر أهل جربه بالصبر في الأعمال والليل للصناعة وقد أدخلوا في معاصر زيوتهم الآلات الحديثة ويمجد الآنسان منهم في كل بلاد تونس تقريباً يشتغلون ببيع المطارات وقد أشهر أهل جربه بالترتيب والتنظيم في أعمالهم هذا وكان لكبار الموظفين بأفريقية الرومانية وكذا أغنياء التجار بها في جربه دور ومساكن يعضون فيها أوقات لهوم وقصفهم لأن هذه الجزيرة كانت أليهم كما هي الآن جزيرة جرسى للإنجليز ولما كانت هذه الجزيرة عظيمة الحصوبة وكانت حاصلاتها تنمو وتنضج قبل أوانها كان يظن أنها ستصير يوماً مزرعة للباكر من الثمار كما اشتهرت قديماً بأنها جنة تونس وتجارها واسعة في الأسفنج والأصواف وزيت الزيتون والمنسوجات والأعطية الصوفية المعتبرة والأواني الفخارية ويسميا أهل تونس جنة العرب ولكنها جنة قاربت أن تقع في يد اليهود لأن الثروة هناك في يدم كما هي في كل مكان آخر يلاذ تونس زيادة عن كثرة عديم بها قال في معجم البلدان «جربه هي جزيرة بالمغرب من ناحية أفريقية قرب قابس يسكنها البربر وقال

أبو عبيد البكري وعلى مقربة من قابس جزيرة جربة وفيها بساتين كثيرة وأهلها مفسدون في البر والبحر وهم خولارج وبينها وبين البر الكبير مجاز « اه سفاقس - مدينة بأمارة تونس جنوباً بينها وبين مدينة تونس ٢٢٥ كيلومتر إلى الجنوب والشرق منها وهي قاعدة وطن سفاقس وقرقنه واقعة في أرض سهلة بينها وبين أقرب جزر قرقنه إليها نحو عشرين كيلومتراً وعلى خليج سرت الصغير أو خليج قابس بها من السكان نحو (٥٠.٠٠٠ نفس) فهي المدينة الثانية بامارة تونس وتنقسم سفاقس إلى مدينة عالية وأخرى واطئة تعرف بالرباط وحول المدينة العالية أو الإسلامية سور عليه أبراج يظن أنه من بناء الأسبانيين وبه بابان وقصبتها جيدة البناء وبالمدينة خمسة جوامع وثلاث مدارس وزوايا أخرى وببارستان واحد أبراجها يسمى بالناطور شيده أسرى النصراني في القرون الوسطى ومتى صعد الإنسان فوقه اتسع الأفق أمامه فشاهد البر والبحر وجزائر قرقنه والمدينة وبساتينها أما المدينة الواطئة فحولها أيضاً سور وأكثر سكانها من اليهود وتجار الزيت وبين سور المدينة العالية والبحرقامت الآن مدينة أوربية قال سائح أوربي «أن سفاقس مثل سوسه والمهديّة ذات منظر عجيب يشاهده القادم عليها وأسوارها ذات شرفات يختلف ارتفاعها بين عشرة أمتار وأثنى عشر متراً وهي تمتد بحالة غير منتظمة لا تمكن الإنسان أن يرى من المدينة التي تكتنفها إلا مجموعة متكاثفة مختلطة من أسطحها ودورها لا يملوها إلا قباب المساجد والأبراج المربعة

والشمعة الشكل مما يزيد في تكاثف واختلاط أستهكاماتها الكثيرة التعاريج وكلها مبيضة بالجلس بحيث أن ذلك يخالف منظره منظر شاطئها القاتم وبساتينها الداكنة اللون ولما كانت مدن ساحل بلاد تونس تختلف عن بعضها اختلافاً يئنا كان لا يمكن تشبيه سفاقس إلا بمدن مصر وسورية أى أنها تشبه عكا ودمياط في زمن الحروب الصليبية ومرسى سفاقس أمين ولكنه قليل العمق لهذا تضطر السفن الكبيرة لأن تقف منها على أكثر من ثلاثة كيلومترات تقريباً لسفاقس تجارة مع فرنسا وإيطاليا وأنجارتها ومع بقية الشغور البحرية بتونس وبلاد اليونان ونبت في بساتينها التي تسقى بماء الأبارالزيتون واللوز والفسق والتين والبلح والخيار وهو يسمى هناك بالفقوس وبطن بعضهم أن أسم هذه المدينة محرف عنه ولكنه تخريج بعيد ويقولون أن نحو عشرة آلاف من هذه البساتين كانت منفصلة عن بعضها بسيارات من التين الشوكي وكان لكل بستان برج لحايته ويقولون أيضاً أن زيتونها هو أحسن أنواعه في كل بلاد تونس ويشرب سكانها من ثلاثة مواجل كبيرة أكبرها يسمى بالنصرية وهو عبارة عن ثلاثمائة صهريج وألى خلف منطقة البساتين التي يختلف عرضها بين سبعة كيلومترات وعشرين كيلومتراً تكون الرمال والصحراء وبالمدينة أسواق جميلة فخيمة هي أجل من أسواق مدينة تونس وتجارها واسعة في الزيت والتين والزبيب واللوز والفسق والكهون والأسفنج والسمك والأصواف والجلود وانمر ز الحلفاء والجمال وحملها مشهورة جداً بقوتها ويأتى إليها

منسوجات صوفية جميلة من بلاد الجريد قال بعضهم أن سفاقس هي إحدى المراسى المهمة في أمارة تونس وقد ذكرها مؤلفوا العرب كالبيروني والأندلسي وأعجبوا بها كثيرًا وذكروا آثارها ومبانيها وأسواقها وتجارها ومنسوجاتها الصوفية وأطنبوا في ثروة أهلها وصناعاتهم ألا أن سفاقس قد فقدت تلك الشهرة من بعد المؤلفين المذكورين وأصبح لا يتردد على مرساها من السفن ما كان يتردد عليها أذاك ومع ذلك فإنها لم تهمل تمامًا سيما وأن موقعها لجودته وخصوبة بساتينها ووفرة سمكها وأسفنجها وعلاقاتها المستمرة مع مدينة قفصة التي تجملها في مواصلة مع بلاد الجريد كل هذه الأسباب وغيرها تبمسفاقس عن الانحطاط والسقوط كما حصل لأغلب مدائن تونس وأنها ستبقى إحدى مدنها الكثيرة السكان ولا تزال بها بعض الصنائع منها عمل المنسوجات القطنية والصوفية والحربية والراكيب (البغ) وديب الجلود وسروج الخيل ويشتهل بهذه الصنائع كثير من أهلها وأهل سفاقس من أشد أهالي تونس ذكاء وغيره على الدين وعجة للشغل وعلى نحو اثني عشر كيلومترًا إلى الجنوب والغرب منها أطلال مدينة قديمة تسمى تينا (Thina) كانت مرسى لمدينة يقال لها تيشست (Thereste) وقد احتل الفرنسيون سفاقس سنة ١٨٨١ بعد مقاومة من أهلها ولهذا أطلقوا عليها المدافع وحاصروها اه

قال في معجم البلدان «سفاقس» بفتح أوله مدينة من نواحي أفريقيا جُلُّ غلاتها الزيتون وهي على ضفة الساحل بينها وبين المهدية ثلاثة أيام وبين سوسة

يومان وبين قابس ثلاثة أيام وهى على البحر ذات سور وبها أسواق كثيرة ومساجد وجامع وسورها صخر وأجر وفيها حمامات وفنادق وقرى كثيرة وقصور حجة ورباطات على البحر ومنابر يرقى إليها فى مائة وستين درجة فى محرس يقال له بطريه وهى فى وسط غابة الزيتون ومن زيتها يمتار أهل المغرب وكان يحمل إلى مصر وصقلية ويكون فيها رخيصاً جداً يقصدها التجار من الافاق بالأموال لابتياح الزيت وعمل أهلها القسارة والسكادة مثل أهل الأسكندرية وأجود والطريق من سفاقس إلى القيروان ثلاثة أيام اهقل فى صفوة الاعتبار «ولأهل سفاقس شهرة بالتجارة فى دواخل القطر وفى الممالك الإسلامية ولهم مزيد محافظة على الصلوات فى المساجد ولهم بقايا من العلوم الدينية والأدبية وتأوى إليها سفن الحكومة فى الشتاء لأنها مأمن طيعى للسفن ولشاطئها مد وجزر ويتبعها جزيرة قرقنه التى بها قرى ولأهلها صناعة الحلقة والجلال» اهوقد تغير شكل سفاقس الآن تغيراً كلياً بمينائها الجديد وبما قام فيها من المصانع والمعامل الحديثة وأصبحت سفن البريد الكبيرة ترسو على رصيفها وتحمل منها بالآلات الميكانيكية القُفُفات الذى يجلب إليها فى سكة حديد قفصه

قرقنه - أما قرقنه المتقدمة المذكور فهما جزيرتان أمام هذه المدينة بينهما وبين الساحل مجاز قليل العمق جداً وأصغرهما الجزيرة الغربية وتبعد عن سفاقس بنحو خمسة وعشرين كيلومتراً وأكبرهما الشرقية وهى على نحو أربعين كيلومتراً

وفى وسطها مستنقع ملح يحف معظم السنة تقريباً يعرف بسبخة الملح أو سبخة الرملة بأسم قرية بجوارها هناك هى إحدى القرى التسع التى بتلك الجزيرة وتسمى هذه الجزائر قديماً سِرْسِنًا وبها بعض آثار رومانية كالصهاريج والمياكل والحصون وغيرها وكان بين الجزيرة الشرقية والجزيرة الغربية قنطرة يزيد طولها عن ألف متر لم يبق منها الآن إلا قواعد عمدتها ويظن أنها من بناء الرومان أو من بناء أمة قبل الرومان وبالجزيرة الغربية أيضاً مستنقع ملح وبها قرية واحدة فقط تسمى مليطة ويكثر النخيل بالجزيرتين المذكورتين ألا أن ثمره قليل الحجم والحلاوة وبها كذلك بعض أشجار الزيتون والسكرم ومن نباتاتها أيضاً الشعير والخنطة والعدس وليس بها شيء من المياه الجارية ويشرب سكانها من مياه الأبار ويبلغ سكان الجزيرتين معاً نحو ثمانية آلاف نفس كلهم من البربر أو من أصل بربرى ويميلون للعمل والرعى ويسكنون عشر قرى ويشغلون بالزراعة ورعاية الماشية وخصوصاً بصيد السمك وغيره وبناء السفن وعمل الأحبال والحصر يصنعونها من الخلفاء التى تكثر بها بين الجزيرتين ومن النخيل أيضاً وكانت حكومة تونس فيما سبق تنفى إليهما الزانيات والبغيات من النساء عقاباً لهن قال فى معجم البلدان « قال أبو عبيد البكرى ويقابل سفاقس فى البحر جزيرة تسمى قرقة هذا يكتب أهل الدراية وتلفظ بها أهل تلك البلاد بالتخفيف فيقولون قرقة وهى فى وسط البحر بينها وبين سفاقس فى ذلك البحر الميت القصير القعر عشرة أميال وليس

للبحر هناك حركة في وقت وبجذاء هذا الموضع في البحر على رأس هذا القصر
بيت مشرف مبنى بينه وبين البحر الكبير نحو أربعين ميلاً فأذا رأى
ذلك البيت أصحاب السفن الواردة في الأسكندرية وغيرها أداروها إلى
مواضع معلومة وفي هذه الجزيرة آثار بنيان وصهاريج للماء كثيرة ويدخل
أهل سفانس إليها دوابهم لأنها خصبة اهـ

قفصة - مدينة بها من السكان نحو (٣٥٠٠ نس) يلاذ الجريد وبينها
وبين قابس الواقعة إلى الشمال والقرب منها نحو ١٢٣ كيلومتر وهي على واد
يعرف بوادي يَنْش أو وادي طرفاوى وللأوربيين أقبال على سكناها وهي
أزلية والسبب في ذلك جودة موقعها الحربي والتجاري وكثرة بنايها وهي
في إحدى نقط العبور النادرة بمجال النجد العالي الوعرة الجرداء وكان لهذه النقطة
في كل الأزمنة أهمية حرية كبرى وينبع في هذا المعب على الشاطئ الأيمن
من واديه عينان غزيرتان مشهورتان مياههما حارة واحدة منهما في القفصة
وثانيتها في أسفل قفصة وقد اكتشفوا بالأراضي الرسوية التي حول
قفصة كثيراً من الأدوات والأدوات الحفرية كالبلط والسكاكين والمكاشط
والسهم وغير ذلك مما كان يستعمله أهل القرون الأولى من العصر الحجري وقد
كانت واحة قفصة أوسع مما هي الآن لأن الرمال أغارت على قسم عظيم
منها وسكان واحاتها صابون كلهم تقريباً بالكساح وبالداء الخنازيري وبأمراض
العيون وتنتشر بها الحيات في فصل الصيف لما ينبعث من بساتينها من الابخرة

والصيف هناك شديد الحرارة وكثيراً ما تبلغ خمسة وأربعين درجة في الظل بمقياس سنترادويشتغل أهلها بصل البرانس وحياسة الأغذية الصوفية وتسمى قديماً كبسه (Кабан) وكان جو غرنا ملك البربر يحفظ بها خزائن أمواله وبضوائها بساتين جميلة أنيقة ينبت بها النخيل والبرتقال والليمون والرمان والفسق وقد ذكر البكري عمل قفصه وقال أن به أكثر من مائتي قرية كلها راقية زاهرة وتعرف هذه القرى بمصور قفصه وبالقرب من قفصه أطلال رومانية وقد بنيت قصبته من تلك الأطلال وعلى نحو كيلومترين اثنين منها كهف يعرف بنار الجلالة وهو عبارة عن مقطع أحجار قديم أخذوا منه قديماً كل الأحجار التي بنيت بها كبسة القديمة قال في معجم البلدان «قفصه بالفتح ثم السكون وصاد مهملة هي بلدة صغيرة في طرف أفريقيه من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد بينها وبين القيروان ثلاثة أيام محطّة في أرض سبخة لا تنبت إلا الأشنان والشج يشتمل سورها على ينبوعين للماء أحدهما يسمى الطرميد والآخر الماء الكبير وخارجها عينان أخريان أحدهما تسمى المطوية والأخرى يّش وعلى هذه العين عدة بساتين ذوات نخل وزيتون وتين وعنب وتهاج وهي أكثر بلاد أفريقيه فستقا ومنها يحمل إلى جميع نواحي أفريقيه والإندلس وسجلماسة وبها تمر مثل يعض الحمام وتغير القيروان بأنواع الفواكه قال وقد قسم ذلك الماء على البساتين بمكيال توزن به مقادير شربها معمولة بحكمة لا يدركها الناظر لا يفضل الماء عنها ولا يموزها تشرب في كل خمسة

عشر يوما شربا وحوّلها أكثر من مائتي قصر عامرة أهلة تضطردحواليها
المياه تعرف بقصور قصصه ، اه

سوسة - مدينة في تونس شرقا واقعة على نحو ١١٠ كيلومترات إلى
الجنوب والشرق من مدينة تونس وهي ببلاد الساحل مبنية على مدرج من
الأرض على ساحل خليج يعرف بخليج الحمامات يقدر أن سكانها بنحو
(٢٠٠٠٠٠ نس) منهم نحو خمسة آلاف من الأوربيين أغلبهم من الطليانين
وقد أتم الفرنسيون الآن بناء مينائها ويشرب أهلها من صهريج كبير
ومن آبار ولها قناة من بناء الرومان تجلب لها الماء من وادي الخروب وكان
قد تهدم بعضها فأصلحه الآن الفرنسيون وبينها وبين القيروان وتونس
طريق حديدي وحوّلها سور محيطه نحو ثلاثة كيلومترات به شرفات وأبراج
مربعة وثلاثة أبواب وقصبتها جيدة البناء في مكان مرتفع منها وقد قامت
بجوارها مدينة جديدة بالقرب من شاطئ البحر سكانها من الأوربيين بها
مخازن كبيرة للتجار وصهاريج للزيت وزيتها يرسل إلى مرسيليا لعمل الصابون
وبها أيضا معمل كبير لصناعة الصابون وبساحل سوسة زيتون كثير هو من أهم
ثروتها وتجر أيضا في الجبوب والأصواف والحلفاء والصابون ومن وارداتها
الحديد وأدواته والخرداوات والمنسوجات القطنية ومواد الغذاء وأكثر
ما تكون تجارتها مع مرسيليا أولا ثم مع صقلية وإيطاليا ومالطة ويتردد عليها
سفن بخارية في أوقات معينة وقد حسنت أحوال هذه المدينة منذ الحماية

الفرنسية وأخذت المزارع تمتد حولها وتغير على الأراضى الرملية وليس سكانها من أصل عربى بدليل لونهم وزرقة عيونهم وهم يقولون عن أنفسهم أنهم سوسيون لا غير وقد تأكد الآن أن سوسة فى مكان مدينة قديمة تعرف بأسم أدروميتوم أو هدروميوم (Hadrumetum) كانت أولا مستعمرة فينيقية ثم مدينة قرطاجنية ثم رومانية من عهد الامبراطور تراجان فكانت تسمى بأسمه ومع ذلك فان بعض الجغرافيين يقولون أن بين هدروميوم المذكورة وهرجلة مشابهة ومناسبة وهرجلة المذكورة مدينة تونسية أيضا الى الشمال والغرب من سوسة قريبة من خليج الحمامات وبقرها للآن بقايا قلعة بوزنطية وعمدهى أطلال مستعمرة رومانية وتشغل البلدة المذكورة الآن مكان هدروميوم القديمة كما يقول أولئك العلماء وكانت هرجلة القديمة أكبر من مدينة سوسة الحالية بثلاث مرات وكان لها مثل قرطاجنه ثلاثة أسوار وقد زال درج سوسة الذى ذكره البكرى تماما كما زال هيكلها الذى كان يسميه البحارة بالقطاس

قال فى معجم البلدان سوسة بضم أوله بلفظ واحدة السوس الذى فى الصوف قال أبو سعد سوسة بلد بالمغرب وهى مدينة عظيمة بها قوم لونهم لون الحنطة يضرب الى الصفرة وبعد أن أنكر روايته عنها وقال أن فى هذا القول تخليط قال والصحيح أن سوسة مدينة صغيرة ينواحى أفريقية بينها وبين سفاقس يومان أكثر أهلها حاكّة ينسجون الثياب السوسية الرفيعة وما صنع فى غيرهما فمشبه بها يكون ثمن الثوب منها فى بلدها عشرة دنانير وبين

سوسة والمهدية ثلاثة أيام إلى أن قال وهي مدينة قد أحاط بها البحر من ثلاث نواح من الشمال والجنوب والشرق سورها صخر حصين منيع يضرب فيه البحر وبها منار يعرف بمنار تخلف الفتى ولها ثمانية أبواب وبها الملعب وهو بنيان عظيم بناه الأول له أقباء مرتفعة واسعة معقودة بمحجر النشفة الخفيف الذي يطفو على رأس الماء المجلوب من ناحية صقلية وحوله أقباء كثيرة يفضى بعضها إلى بعض وهي مدينة رخيصة كثيرة الخير إلى أن قال وكان زيادة الله بن الأغلب قد بنى سورها وكان يقول لأبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صهيفتي أربع حسنات بنيان المسجد الجامع بالقيروان وبنيان قنطرة الربيع وبنيان حصن مدينة سوسة وتولية أحمد بن أبي محرز قضاء أفريقية وخارج سوسة محارس ومرابط ومجامع للصالحين وداخلها محرس عظيم كالمدينة مسور بسور متين يعرف بحرس الرباط يأوى إليه الصالحون والعباد وقيل داخلها محرس آخر عظيم يسمى محرس القصب وهو متصل بدار الصناعة وسوسة في سند عال ترى دورها من البحر ووراءها سور هيكل عظيم سمته البحريون القنطاس وهو أول ما يرى من البحر ولهذا الهيكل أربع درج يصعد من كل واحدة منها إلى أعلاه والحياكة بسوسة كثيرة ثم قال ومن محارس سوسة المذكورة المناسير اهـ

بنزرت - مدينة بحرية في تونس على الساحل الشمال وعلى المدخل الغربي من خليج يخرج من البحر يثصل ببحيرة تعرف ببحيرة بنزرت وبنزرت إلى

الشمال والغرب من تونس بينهما نحو خمسة عشر كيلومتراً قريبة جداً من رأس أوار المعروف برأس بون وهي أبعد مدن تونس إلى الشمال وبها من السكان نحو (١١.٠٠٠ نس) أما البحيرة المذكورة فهي مستنقع قليل العمق جداً في وسطها قبة مخروطية شجراً يظن أنها كانت قبة بركان ويسكن منحدراتها للآن قطعان من الجواميس الوحشية كما سبق لا يصرح لأحد بالصيد فيها إلا لمن كان من أسرة الباي والبحيرة المذكورة في الحقيقة بحيرتان داخلة وخارجة بينهما خليج وقبل أن يشرع الفرنسيون في تحصين البحيرة الخارجة وجعلها ثغراً حربياً كانت تتصل بالبحر من قناة ضيقة لا يسير فيها إلا سفن الصيادين فقط ويبلغ مسطح هذه البحيرة ١٣٠ كيلومتراً مربعاً وعليها من جهة البحر أكمات تنفصل من جبال مجردة وطُرسق تحفظها من فعل الأمواج ويبلغ متوسط عمقها ١٣ متراً فيمكن لأضخم السفن الحرية أن ترسو فيها وقد حفروا الآن قناة واسعة عرضه ٢٤٠ متراً بين البحيرة المذكورة والبحر أما القناة القديمة فقد هدمت وتحولت إلى منزه عمومي وتسمى هذه المدينة عند الرومان هبوزاريتوس أقيمت على أطلال مستعمرة صغيرة فينيقية وقد حرف العرب أسماء جملوه بنزرت وعنه أخذ أهل أوربا وجملوه بنزرت وكانت بنزرت وقت أن دخل الفرنسيون البلاد يسكنها صيادون من التليانيين حبهم في الإقامة هناك وفرة السمك بالبحيرة المذكورة وفرة فائقة وقوم من أهالي البلاد كانوا يشتغلون بتربية

الضأن وزراعة الزيتون أصلهم من أهالى الأندلس وقد بقيت هذه البلدة القديمة على ما كانت عليه وقام بجوارها مدينة جديدة على الخليج الذى حفره الفرنسيون كما تقدم وموقع المدينة الجديدة موافق جداً لجلطها من أهم مدن بحر الروم وأكبرها تجارة ولكها مع ذلك لا زالت إلى الآن بلدة حرة وأخذت حركتها تناقص بعد أن تمت المباني الحرة التى أقيمت بها واستمر العمل بها نحو خمسة عشرة سنة وأخذ سكانها من الأوربيين بهجرونها خصوصاً التليانيين منهم وهم الذين كانوا يشتغلون فى تلك المباني والدخول فى البحيرة المذكورة ممكن فى كل وقت وفى الليل والنهار على السواء وقد شيد الفرنسيون على تلك الأكمات المطلة على البحر حصونا وقلاعاً من أحدث طرز حربى يمكن أن تجعل نيرانها تقاطع فى كل الاتجاهات وقد أقاموا بها أيضاً ككنات جميلة ضخمة تسع أكثر من خمسة آلاف جندي ودار صناعاتها فى نهاية البحيرة فى مكان يعرف بسيدى عبد الله بها كل ما يلزم من الآلات والأدوات والعدد التى تكون بدور الصناعات الكبيرة ولعمل كل ما يطلب منها من الإصلاح والترميم وبناء الأساطيل مهما كان نوعها وقدرها ويقولون أن لهذه المدينة مستقبلاً جيداً فى التجارة والصناعة قال فى معجم البلدان « بنزت مدينة بأفريقية بينها وبين تونس يومان وهى من نواحي شططوره مشرفة على البحر وتفرد بنزت ببحيرة تخرج من البحر الكبير إلى مستقر تجاهاها يخرج منها فى كل شهر صنف من السمك لا يشبه السمك الذى خرج فى الشهر الذى قبله

ألى انقضاء الشهر ثم صنف آخر ويضمنه السلطان بمال وافر بلغنى أن ضمانته
اثنا عشر ألف دينار قال أبو عبيد البكرى وبشرقي طبرقة على مسيرة يوم
وبعض آخر قلاع تسمى قلاع بنزرت وهي حصون يأوى إليها أهل تلك
الناحية إذا خرج الروم غزاة ألى بلاد المسلمين فهي مفرع لهم وغوث وفيها
رباطات للصالحين قال وقال محمد بن يوسف في ذكر الساحل من طبرقة
ألى مرسى تونس مرسى القبة عليه مدينة بنزرت وهي مدينة على البحر يشقها
نهر كبير كثير الحوت ويقع في البحر وعليها سور صخر وبها جامع وأسواق
وحمامات افتتحها معاوية بن خديج سنة ٤١ وكان معه عبد الملك بن مروان «اه
المهدية - مدينة ألى الجنوب من تونس بينها وبين مدينة تونس نحو
١٧٦ كيلومتر وهي ألى الجنوب والشرق منها واقعة فوق شبه جزيرة مستطيلة
تمتد في بحر الروم وتتصل مع القارة ببرزخ عرضه نحو سبعمائة متر ويقال
أنه كان في هذا البرزخ قديما خليج تسير فيه السفن ألا أنه لم يبق الآن أثر
لهذا الخليج ويقدر أن سكانها بنحو (١٠٠.٠٠٠ نس) ويقر بها مقاطع كبيرة
لأحجار البناء ومن مصنوعات الصابون واستخراج الزيت وتخليج السردين
وصيده واستخراج المرجان والأسفنج وتصدير الحلفاء والحبوب والأصواف
وقد اكتشفوا في ضواحيها مقبرة لأهل قرطاجنة وقد فقدت هذه المدينة
الآن درجتها القديمة وهي من بناء عبيد الله المهدي فنسبت أليه (٩١٢ م)
وكان بموضعها نرلة تجارية فينيقية ثم صارت نرلة قرطاجنية وقد بلغت المهدية

درجة عظيمة وأهمية كبيرة حتى أن نصارى أوروبا كانوا يسمونها مدة زمن طويل أفريقيا لاشتغالها على كل ما اشتمل عليه إقليم أفريقيا القديم ولهذا أغار عليها الفاتحون مراراً من ذلك أن روجير (رجار) النورمندی ملك صقلية استولى عليها سنة ١١٤٧ من الميلاد وبقيت في قبضته ثلاث عشرة سنة ثم أن شرلكان أحتلها سنة ١١٥١ م بعد أن هاجمها هجمات سفكت فيها دماء كثيرة وبقيت أسوارها من ذلك العهد لم يصلح من شأنها ولم يجد من بنائها قال سائح أوربي «للمهدية أسوار جميلة ضخمة بهاعدة ثلمات وأبراج متهدمة من أعلاها وفي بعضها شقوق تمتد من أعلاه إلى قاعدته وكثير من دورها متخرب أو آيل للسقوط وكذلك الحال في كثير من جوامعها لعدم العناية بها أو لتقدم عهدها والحاصل أن علامات التخريب والدمار تمتد على كل جهات المدينة ومن يوم ما أمر شرلكان بتخريب أسوارها وقلاعها لم تقم لها قائمة ولم يرد لها ذكر في التاريخ» أهو بالمهدية جامع يشبه جامع القيروان كانت له قديماً شهرة كبيرة وقصبة المهديّة مبنية فوق أعلى مكان بالبرزخ المذكور وهي متخرّبة تقيم بها الآن الجنود الفرنسيّة وكانت من أضخم القصبات ومرساها الداخلى صغير جداً وهو من عمل الفينيقيين وهو الآن قليل العمق كثيراً ولكن يسهل تعميقه وأصلاحه وهو يتصل بالبحر من خليج عرضه نحو عشرين متراً وكان على مدخله قديماً برجاً لحمايته قد تخربا الآن وفي نهاية هذه الشبه الجزيرة مقبرة ربما كانت للفينيقيين وهي عبارة عن عدة مغاور ضيقة محفورة

في الصخر لم يبق فيها الآن لا نواويس ولا غيرها ويكثر السمك جداً في مياه المهديّة في شهور مايو ويونيه ويوليه قال في معجم البلدان « المهديّة مدينة بأفريقيه منسوبة إلى المهدي وبينها وبين القيروان مرحلتان القيروان في جنوبها والثياب السوسية المهديّة ألها تنسب وقد أخطأ المهدي وهي على ساحل بحر الروم داخلة فيه كالصف على زند عليها سور عال محكم كأعظم ما يكون يمشى عليه فارسان عليها باب من حديد مصمت مصراع واحد تأتق المهدي في عمله وقال بعض أهل المعرفة بأخبارهم في سنة ٣٠٠ خرج المهدي بنفسه إلى تونس يرتاد لنفسه موضعاً يبنى فيه مدينة خوفاً من خارج يخرج عليه وأراد موضعاً حصيناً حتى ظفر بموضع المهديّة وهي جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصلة بزند فتأملها فوجد فيها راهباً في مغارة فقال له بم يعرف هذا الموضع فقال هذا يسمى جزيرة الخلقاء فأعجبه هذا الأسم فبناها وجعلها دار مملكته وحصنها بالسور المحكم والأبواب الحديد المصمت إلى أن قال وقال أبو عبيد البكري كان شروعه فيها سنة ٣٠٠ وكل سورها في سنة خمس واثقل أليها سنة ثمان وقال أبو عبيد البكري جعل لمدينتها باباً حديد لا خشب فيها كل باب وزنه ألف قنطار وطوله ثلاثون شبراً كل مسار من مساميره ستة أرتال وجعل فيها من الصهاريج العظام وأهل تلك النواحي يسمونها مواجل ثلاثمائة وستين ماجلاً غير ما يجري إليها من القناة التي فيها والماء الجاري الذي بالمهديّة جلبه عبيد الله من قرية ميانس وهي على مقربة من المهديّة

ويصب في المهديّة في صهريج داخل المدينة عند جامعها ويرفع من الصهريج إلى القصر بالدواليب إلى أن قال ومرسى المهديّة منقور في حجر صلد يسم ثلاثين مركبا على طرفي المرسى برجان بينهما سلسلة حديد فإذا أريد إدخال سفينة أرسل حراس البرجين أحد طرفي السلسلة حتى تدخل السفينة ثم يمدونها كما كانت تحبسها ولما فرغ من أحكام ذلك ارتحل إليها وأقام بها ثم عمر بها الدكاكين ورتب فيها أرباب المهن كل طائفة في سوق ففتلوا إليها أموالهم فلما استقام ذلك أمر بعمارة مدينة أخرى إلى جانب المهديّة وجعل بين المدينتين قدر طول ميدان وأفردها بسور وأبواب وحفظة وسماها زويله وأسكن أرباب الدكاكين من البزازين وغيرهم فيها بحرهم وأهاليهم وقال إنما فعلت ذلك لآمن غائلتهم وذلك أن أموالهم عندي وأهاليهم هناك فأن أرادوني بكيد وهم بالمهديّة خافوا على حرمهم هناك وبنيت بيني وبينهم سوراً وأبواباً فأن آمن منهم ليلاً ونهاراً لأنني أفرق بينهم وبين أموالهم ليلاً وبينهم وبين حرمهم نهاراً - وشرب أهلها من الآبار والصهاريج ومهما ذكرنا من حصاتها فأن أحوال ملوكها تناقضت حتى أفضى الأمر إلى أن أنقذ رجار صاحب صقلية جورجي إليها في سنة ٥٤٣ هـ فأخلاها الحسن بن علي ابن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس وخرج هارباً حتى لحق بعبد المؤمن وبقيت في يد الأفرنج اثنتا عشرة سنة حتى قدم عبد المؤمن في سنة ٥٥٥ هـ إلى أفريقيه تأخذ المهديّة في أسرع وقت فهي في يد أصحابه إلى يومنا هذا

ولم تكن حصانها في جنب قضاء الله شيئاً « اه بتصرف

بلاد طرابلس

سكانها - يتركب السكان بهذه البلاد كما هم في كل بلاد أفريقية الشمالية من عنصرين أصليين هما العرب والبربر يضاف إليهما طوائف من السود يزداد عددهما كلما تقدم الألسان نحو الجنوب ويظهر أن بعض هذه الطوائف من السكان القدماء وربما كانوا من نسل أمة كانت تسكن هذه البلاد قديماً تسمى جرامنت^(١) والبعض الآخر رقيق جلبوا من بلاد السودان وعلى الخصوص من برنو وهناك قوم من اليهود والأوربيين والتوارك قد اختلطت طوائفهم بغيرها اختلاطاً كثيراً جداً بحيث يكون من النادر أن يرى الألسان أشخاصاً من أصل تسهل معرفته ومن جنس خالص أما العرب فقد انتشروا في بلاد برقة وبلاد طرابلس وفي قسم من فزان من أول القرن السابع الميلادي وأغار بنو هلال التي سبق الكلام عليها التي وقعت في القرن الحادي عشر منه هي التي جلبت معها القسم الأعظم منهم فانتشروا بمجموعهم في

(١) الجرمنت (Garamantes) - أمة قديمة من أمم أفريقية كانت تسكن بلاد لويه الداخلية بالجنوب الشرقي من نويميا وكان الفاصل بينهما سلسلة أطلس ومن أمهات مدنها جاراما وتسمى الآن رجزما من واحات بلاد فزان وقد امتدحهم بطليموس الجغرافي وذكر كثيراً من فضائلهم وأرسل عليهم كورنيلوس بالبوس حملة عسكرية سنة ٢١ قبل الميلاد وقد توصلت هذه الحملة للتغلب عليهم ومدت حدود دولة الرومان إلى جهات بالوس نوبيا (Palus Nubia) أي مستنقذ بلاد النوبة

السهول وتقبلوا على النصر البربري الأصلي ثم امتزجوا بهم امتزاجا تاما حتى امتصوهم امتصاصا وسادوا عليهم بدينهم ولغتهم حتى لا شوم تماما وهناك قبائل كثيرة يدعون أنهم من البربر ولكنهم لا يتكلمون غير العربية لغةً وصارت أخلاقهم وعوائدهم وصفاتهم الطبيعية والادبية لا تختلف في شيء عن أولئك القاطنين مع أن الفرق في ذلك واضح بين النصرين المذكورين في بلاد البربر الواقعة إلى الغرب من ذلك واختلاط النصرين المذكورين ببلاد طرابلس الأصلية أتم وأحكم ألا أن النصر العربي تقل سيادته كلما أوغل الإنسان نحو الغرب ويكثر عدده كثيرا فيما جاور بلاد مصر ثم يأخذ في التناقص كلما تقدم الإنسان نحو الغرب فالدم العربي في بلاد برقه أكثر منه لدى سكان بلاد طرابلس الحقيقية وتظهر هذه القاعدة واضحة أيضا ببلاد تونس والجزائر ومراكش وهناك ملاحظة أخرى عمومية هي أن معظم المغيرين من العرب الذين انتشروا في السهول وقف انتشارهم عند حضيض الجبال ونزل البربر على منحدراتها محافظين على لغتهم وعوائدهم الأصلية والعرب الذين اختلطوا بالبربر قليلا أو كثيرا كلهم رحل على العموم يشتغلون بتربية الماشية وأرشاد القوافل في سيرها وقد خربوا الغابات في الجهات التي كثر بها عديد ومن أم قبائلهم أولاد علي ولهم أيضا مراعى بقسم لويه المصري وقبائل زؤيا وهم ينزلون بلاد برقه بالقرب من درنه ويمتدون حتى واحات أوجله وكفره ومنهم المييدات والبراعصه والدّرّسا وغيرهم وكلهم بالجل

الأخضر ثم الحرابي والمغاربة والمجاربة وغيرهم وبعضهم يسكن واحة أوجله
ثم أولاد سليمان وهم قبيلة كبيرة حرية يغيرون على كل بلاد الصحراء حتى
وداي وهم الذين نشر وطريقة السنوسية في تلك الارحاء وأولاد حريس وليسوا
برحل وينزلون جهات واحة زلا وأولاد أرفلا ويشتهرون بالسلب والنهب
وشن الغارات وأولاد أبو سيف ولهم شهرة في تربية الجمال الجميلة ثم أولاد
يوسف وترهونه وغيرهم ومن قبائل العرب هناك قبائل يدعون نسبتهم إلى
النبي عليه السلام لهذا كان الأهالي يعظمونهم ويحترمونهم مع أنه يجري في
عروق الكثيرين منهم الدم البربري وحتى الدم السوداني أكثر من الدم
العربي كما أن الكثيرين منهم كانوا هاجروا من الجزائر وتونس بعد استيلاء
الفرنسيين عليهما أما البربر الذين هم نسل سكان البلاد القدماء فقد أصبحوا
لا يعرفون بعد إلا في جهات قليلة كالجهات الجبلية أو واحات الصحراء حيث
أمكنهم الأفراد بسكنها ببيدين عن العرب وبين أهالي أوجله وجالو قوم
من أصل بربري يتكلمون العربية ويقولون أنهم من نسل سكان البلاد
الأصليين ويظهر أنهم متناسلون من الأمة التي سماها هيرودوت ناسامون^(١)
وهم يشتغلون بالزراعة وغرس البساتين واستخراج الملح ويؤجرون جالهم

(١) (Nasamon) أمة قديمة من أئم أفريقية كانت تنزل سواحل لويه على طول خليج

سدره بين أملاك قراطجنه غربا وأملاك قورينه شرقا وهم من الامم الرحالة يشتغلون برعاية الماشية
ويتركون قطعانهم ترعى فوق الساحل وكانوا منكبين أيضاً على الصيد في البر والتجارة

للقوافل ويتكلمون فيما بينهم لهجة بربرية تقرب من لهجة أهل سيوه ولهجة التوارك وتوجد أيضاً بقايا هذه اللغة القديمة بين سكان بلدة مسندة الواقعة إلى الجنوب من مدينة طرابلس وأن كان أهلها قد استعربوا تماماً وقد بقيت الأرض يملكها البربر في واحة جفّره الواقعة ببلاد فزان حيث اختلط العرب والبربر مع بعضهم منذ أزمنة طويلة فصار من الصعب تمييز البعض عن البعض في هيتهم وأخلاقهم ولا يباح للعربي ألا شراء الأشجار فقط وبقيت أيضاً البربرية اللغة الأكثر استعمالاً وأن خالطها ألفاظ عربية كثيرة أما البلاد التي بقي فيها البربر أكثر عدداً وأقل اختلاطاً بالعرب من غيرهم يبلاد طرابلس الحقيقية فهي جهات الجبال وهناك تمكنوا من المحافظة على استقلالهم من العرب أولاً ومن الترك ثانياً وأن حدثت ثورة في بلاد طرابلس فلا بد وأن يكون منشأؤها تلك الجهات وأهلها أصحاب نشاط وصناعة ولهم عدة قرى تحيط بها البساتين وبعض قراهم محفورة في الصخر مثل بلدة زنتان (Zenthun) التي يبلغ سكانها نحو ستة آلاف قال أليزيه ريكلاه في كتابه المشهور ما ملخصه أن النجد في تلك القرى يقطعه بكل جهاته أخاديد وأودية قليلة العمق هي طرق تلك القرى وقد حفرت للمساكن في جانبيها في الكتل الصخرية بأن ترفع منها الصخور الأقل صلابة فيتكون من مجموع تلك الكهوف دار مغرية الشكل ذات ساحة ومخادع جانبية والوصول إلى الحجرات العليا منها يكون أما بطنف مصنوع في الصخر أو

بدرج حفرت فيه» اهوقد حافظ هؤلاء البربر من سكان جبل غوريان (جبل المنارات) وجبل يقرن وجبل نقوسه على لغتهم القديمة وكثيرون منهم يتنهبون بمذهب الأباضية مثل أهالى بلاد الزاب ويسود العنصر البربرى أيضاً بالواحات الغربية من بلاد طرابلس الحقيقية مثل غدامس وغات ويتكلم أهلها عموماً بلهجة تمازغت

ويلى البربر والعرب فى الأهمية بين سكان طرابلس العنصر السودانى ومما يجب التنبيه إليه أن الدم الأسود منتشر بين كثير من العائلات التى تمد نفسها عربية أو بربرية حتى بين الأشراف منهم فالاختلاط تام بين العنصر البربرى والعربى والسودانى ويظهر هذا الاختلاط على أتم وضوح كلما تقدم الانسان نحو الجنوب بحيث أن أهالى فزان نصفهم سود تقريباً أما كثرة العنصر الأسود بهذه البلاد فتفسرها الملاقات التى بين بحر الروم وبلاد السودان بواسطة بلاد طرابلس كما تفسرها أيضاً تجارة الرقيق وكان عدد الأسرى من السود الذين يجلبون إلى هذه البلاد قديماً يمد بمئات الألوف وأن النخاسة وأن كانت أصبحت الآن ضيقة النطاق أو ممنوعة بمدينة طرابلس ألا أنها لا تزال جارية فى داخلية البلاد ولو على قلة رغما عن ممانعة الحكومة العثمانية التى أعلنت بأبطالها ومعاينة مرتكبيها وزيادة على ذلك أى على اختلاط الدم الأسود بين العرب والبربر هناك بهذه الكيفية فأن العنصر السودانى الأصلى يشخصه طوائف من السود الخالص منتشرون فى القرى وعم من كل

أجناس بلاد السودان من أول وادى النيل حتى بلاد سنغال ألا أن ثلثهم على الأقل أصلهم من بلاد حَوْصَا بدليل أن لغة حوصا هى للمستعملة فيما بينهم ولا يسكن هؤلاء السود لا البيوت ولا الخيام بل أكواخاً يبنونها من القش أو القصب وعدم أخذ فى القلة لأنهم لم يتطعموا بطبائع البلاد ولم يعيشوا معيشة أهلها ألا قايلا سيما والنخاسة أصبحت لا تأتى كما فى السابق بما يملأ الفراغ العظيم الذى يحدث بينهم بالموت ويضاف إلى العناصر الثلاثة المذكورة التى منها تتألف الأمة الطرابلسية طوائف مختلفة منتشرة فى أرجائها وم

أولا - اليهود وم فى طرابلس وزتان وعدد م يزيد عن خمسة عشر ألفا وم متاسلون من اليهود الذين نزلوا هذه البلاد فى عصر البطالسة والذين يسكنون منهم بلدة زتان الواقعة إلى الغرب من طرابلس يحفرون بيوتهم فى الأرض كما سبق ويوتهم أحسن نظاما من بيوت البربر وتنع عنهم كل اعتداء بخلاف الذين يسكنون منهم مدينة طرابلس فأنتهم هم ومن يسكن منهم البلاد الواقعة على ساحل البحر مرذولون محفرون من الأهالى ولهم مهارة عظيمة فى التجارة وثروتهم واسعة جداً ويسكنون هناك محلة خاصة بهم

ثانيا - التوارك والتبو وكلهم رحل ويقيمون ببلاد فزان ولكن فى بعض اشهر السنة فقط

ثالثا - الجريون وغالبهم تجار بالمدن ولكثير منهم تجارة واسعة مع بلاد السودان

رابعاً - المالطيون وينزلون جهات الساحل ومن صفاتهم الاكتفاء بالقليل من العيش والمهارة في الصنائع

خامساً - القوم المعروفون بالفجر وهم ينزلون الأقاليم الشرقية

سادساً - الأوريون وأكثرهم من الإيطاليين

هذا أما الأتراك الذين يوجدون بكل إدارات البلاد تقريباً ومنهم أيضاً

جنود الحامية ولقنتهم هي اللغة الرسمية في البلاد فلا يشتغل بالصناعة والتجارة منهم إلا القليل ويلتحق بالأتراك القول أوغليه وهم متناسلون من أتراك وطرابلسيات ومنهم أغلب جنود الجندرمه هناك وفرقة أخرى من الجنود ومتى ترك القول أوغليه الخدمة ذهبوا للإقامة في القرى والفلوات حيث يتلاشون في بقية طوائف السكان

ولكى يكون لدى المطالع فكرة من الاختلاط الخارق للعادة الموجود بين الأجناس ييلاد طرابلس وفي فزان خصوصاً نورد هنا ما قاله السائح نختيجال قال «أن كل ألوان البشر من أول ياض الأتراسكان الشمال حتى اللون الأسود الأبنوسى الذى ييلاد اتكرووركلها توجد ييلاد مرزوق فهو تدرج كبير من العربى أو البربرى الضارب إلى الحمرة الذى يسكن الساحل الشمالى إلى البربرى البرزى اللون النازل بالصحراء ثم أن هناك تدرجاً في الألوان أكثر من هذا وضوحاً بين الذين من التبو والسودانيين الحقيقيين في كل ألوانهم واختلافاتهم أما من جهة أمم السودان فلم أتمكن من عمل ترتيب لمجموع طوائفهم الأصلية

دفعة واحدة كما لم يمكن من اكتشاف الاختلافات التعريفية بين أهالي برنو وأهالي بقرى وبين أهالي مندارا وأهالي حوصا ألا أن من رأيهم هناك من أفراد هذه الأمة الأخيرة العجيبة التي تسكن داخل أفريقية وتعرف بالفُلانة وهي التي أوجدت بين كثير من علماء الأنثولوجيا جدالا ومناقشة بخصوص أصلها فانها بسبب شكلها الظاهر السامي تخرج من ذلك المجموع من الأجناس التي ذكرناها والبعض من هؤلاء الناس يتكلمون العربية والآخر لغة التبو وفي مكان آخر تسمع لغة الحوصا وعلى الخصوص لغة أهالي برنو المعروفة بلسان ماكانوري ويعرف سكان الصحراء الأصليين بين توارك وتبو من بعيد بمشيتهم المشاقة وبعلا بسهم التي تميل إلى السواد فالرجل التاركي مشيته تكون من غير هرولة وعلى شفثيه ابتسامة أما الذي من التبو فإنه قبل أن يعرض عليك موضوعا يصق على الأرض بعيداً..... إلى أن قال أما العربي الخالص والبربري فإنه يظهر عليهما خيلاء وكبرياء آتية من الشعور بما كان لهما من الحضارة القديمة بخلاف السوداني فإنه مضحك مكثار لا يبالي بمن حوله وكلهم يختلقون في الأزياء والملابس» اه بتصرف

عدد السكان - أن من الصعب في بلاد مثل بلاد طرابلس لا يزال بعض جهاتها غير خاضع خضوعاً فعلياً للحكومة وضع أرقام مضبوطة لمجموع السكان لذلك كانت كل الأقوال الواردة في هذا الخصوص مبهمة قال بعض الجغرافيين أن سكانها يبلغون ١٥٠٠٠٠٠٠ نفس وقال غيره أنهم لا يزيدون عن ١٣٠٠٠٠٠

وقد رم آخرون بأقل وأكثر من ذلك وقالوا أن من هذا المدد نحو ٣٠٠.٠٠٠ في برقة واوحات وأوجله وجالو وسكان بلاد فزان لا يزيدون عن خمسين ألفاً وأوصلهم بعضهم الى مائتي ألف

حكومتها وأقسامها - هذه البلاد تابعة للدولة العثمانية رأساً تخكومتها وأدارتها كأدارة الولايات التي من نوعها فلها وال ودفتر دار وقاض ومعاون للوالى وقائد للجيش برتبة لواء وغير ذلك وتنقسم الى خمس متصرفيات وثلاثة وعشرين قائمقامية وثمانية عشر مديرية وبجانب هذه الأدارة العثمانية أدارة أخرى وطنية وهي أن كل قبيلة وكل جهة وحتى كل دوار لهم مشايخ وهم الذين يقومون بمجباية الضرائب على أنواعها ويكلفون بتوصيل أوامر الحكومة الى الأهالى وقد أدخل على أدارتها من الإصلاحات الآن ما تقتضيه الحالة بعد إعلان الحكومة النياية بالدولة العثمانية ويزيد الجيش العثمانى الذى بهذه البلاد عن خمسة عشر ألف جندى من كل الأسلحة يضاف إليه قوة من الجندرمة يؤخذون من القول أوغليه السابق الذكر وهناك قوة أخرى من الأهالى لكنها لم تنظم للآن تنظيمًا عسكرياً تاماً ويقدم كثير من الأهالى في فزان على التنظيم في الجيش من لقاء أنفسهم وأمم الأبرادات هناك هي العشر الذى يؤخذ على الماشية والخنطة والشعير وما يؤخذ على النخيل وأشجار الزيتون ثم إيرادات الجمارك وما يؤخذ على استغلال الملح وغيره مما تسمح الحكومة باستخراجه قال في قاموس الأعلام تأليف المرحوم شمس الدين سامى بك «أن الأدارة في بلاد طرابلس

الغرب كما هي في سائر الولايات العثمانية غير أن نظام التجنيد العسكري وما
 يترتب عليه لم يسلم به للآن في بعض السناجق والقضائات وكانت بلاد برقه
 فيما سبق متصرفية ملحقة بولاية طرابلس ثم انفصلت عنها أخيراً فكانت
 أولاً ولاية بذاتها ثم صارت متصرفية مستقلة الإدارة وتقسم ولاية طرابلس
 الآن إلى أربع سناجق وواحد وعشرين قضاء وثلاثة وعشرين ناحية اه
 الزراعة - تقدم القول على ما في هذه البلاد من الحاصلات المهمة عند
 الكلام على نباتاتها واعلم أن أهمال البدو للزراعة أهمالاً درجوا عليه من القديم
 ورداءة الإدارة القديمة وعدم وجود المواصلات الكافية كل ذلك مما يؤثر
 الزراعة هناك ويجعل الأرض لا تخرج إلا جزءاً صغيراً مما يجب أن تخرجه
 ويكتفي الأهالي في حراثة الأرض بنباشها نباشاً خفيفاً بمحاريثهم الخشبية
 لزراعة الحنطة والشعير ثم يلقون فيها قدرأ صغيراً من البذور وليس للأهالي
 عناية بتلقيح أشجار الزيتون إلا في النادر وهم يتركون ثماره تنضج وبذلك
 كانوا لا يحصلون منه إلا على قدر صغير من الزيت ومن نوع رديء عموماً
 وهم في سنى الخصب يصدرون قدرأ عظيماً من الحبوب وأن كان نسبياً أما في
 سنى الأحمال فأنهم يستجلبون من أوروبا ما يلزمهم منها وقد حسبوا سنة
 الأحمال يبلاد برقه فكانت كل خمس سنوات مرة بحسب المتوسط أما أهم
 حاصلات بلاد طرابلس فهي التمر بأنواعه وهم بعد أن يأخذون منه حاجتهم
 يصدرون منه إلى الخارج قدرأ وافرأ والنخيل يبلاد طرابلس الأصلية بعد

بالملايين وكذا هو ببلاد فزان أما في برقه وواحات أوجله فإنه يمد بمئات الألوف قال في قاموس الأعلام المذكور وأن محصولهم الزراعى يكون وافراً جداً في الموسم وقت سقوط الأمطار ألا أنهم يرون من العار أن يبيع الإنسان ذخيره لهذا كانوا لا يزرعون من الأرض ألا بقدر ما يحتاجونه وما يبق يحفظونه في أبار لوقت الحاجة اهـ

وتربية الماشية هناك مهمة كالأزراعة فلا يصدرون منها إلا القليل وأهم صادراتهم إلى الخارج الجلود مدبوغة وغير مدبوغة ويصدر من برقه عسل يجمع من النابتات وقد أخذوا يصدرون الآن الحلفاء بكميات وافرة وتنت الحلفاء هناك بكثرة في الأراضى الواقعة بين الجبال والساحل

الصناعة - ليست الصناعة بهذه البلاد مما يصح التنويه بذكره لقلتها وتأخرها فهي قاصرة على استغلال بعض المعادن وعمل الحاجيات ويستخرج الملح من جهات أشهرها بنغازى والكبريت من خليج سرت والنطرون من البحيرات التى بالشمال والغرب من مدينة مرزوق ويجمعون قليلا من الذهب من بعض الأدوية وهو يكون بها مختلطاً مع الرمال أما المعادن الأخرى التى بهذه البلاد فأنهم لا يستغلونها فقط بل لا يعرفون إمكانها بالضبط وتنحصر صناعة الأقمشة فى عمل الأنسجة الصوفية فقط بمدينة صرابلس وبين القبائل الرحالة وينسجون ببلاد فزان أنسجة غليظة من الصوف والقطن لا تستعمل ألا فى نفس البلاد ويصنع بعض الأهالى إسطاً متبرة جداً جميلة الألوان وقلائد

من الخرز بديعة الشكل وعلى الخصوص في مصر اطه ومن مصنوعاتهم أيضاً الحمر وبعض أدوات جلدية في غدامس ويستخرج بمدينة طرابلس عطر الورد والياسمين وغيرها ومع ذلك فإن هذه الصنائع على ما هي عليه من التأخر والوقوف يظهر أنها ستزول لمباراة حاصلات الصناعة الأوربية لها

التجارة - اذا كانت الزراعة ببلاد طرابلس قليلة الحاصلات والصناعة قليلة الحركة والأنتشار فإن تجارتها عظيمة جداً في المبادلات العنومية لجودة موقعها الطبيعي لأن بلاد برقه لما كانت داخلية في البحر الأبيض المتوسط أى أنها في عتبة الممر بين حوضيه الشرق والغربى كانت متقدمة كثيراً نحو أوروبا ولهذا كانت في القديم مركز تجارة عظيمة وحضارة راقية ولكن لما كانت أراضيها المنبتة ضيقة تحيط بها الصحارى من كل جهة كانت صادراتها قليلة وكانت السفن لا تتردد عليها كثيراً هذا فيما عدا مدينة بنغازى بخلاف بلاد طرابلس الحقيقية التى وأن كانت حاصلاتها ليست بأكثر من حاصلات برقه ألا أنها تعلق عليها في الحركة التجارية لوجودها على إحدى الطرق التجارية الكبيرة لأن الأنبياج الذى أوجده بها خليج سرت جعل بحر الروم في ذلك المكان أقرب إلى داخل أفريقيا منه أى في مكان غيره فقلب أفريقيا أقرب إليه عن بلاد الجزائر بنحو أربع مائة أو خمسمائة كيلو متر قال السائح الألماني رولفس (H. R. R. R.) أن الذى يملك طرابلس يكون بيده مفتاح السودان اه وهذا ما حدى ببعض دول أوروبا للحصول على هذا المفتاح وهو يرى

أن الخط الحديدي الحقيقي الذي يمتد في الصحراء الكبرى يجب أن يكون أوله مدينة طرابلس أو مدينة أخرى على خليج سرت الكبير ثم تمتد حتى يصل إلى بحيرة شادوقال أنيزه ريكاه ليس هذا الخط أقصر فقط مما يمكن أن يرسم للطريق الذي سيمر بقلب أفريقيا ويربط ذات يوم حوض البحر الأبيض المتوسط بحوض البحيرات العظمى بل لأنه أيضاً هو الخط الذي سيعين للطريق الحديدي الذي سيخترق القارة ويربط خليج غانا بنهرى النيجر والكنغو ومن رأيه أيضاً أن هذا الخط وأن كانت أهميته لا تفوق الخط الذي سينشأ إلى الغرب منه ماراً ببلاد الجزائر فإنه سيكون عاجلاً أو آجلاً إحدى الطرق الكبيرة في تجارة العالم وتجارة بلاد طرابلس الأصلية في الترنسيت عظيمة وتكون بين أوروبا وبلاد السودان الوسطى ومن منذ ما أغلقت بلاد وداى أبوابها في وجه تجارة مصر حينما أثار السودان المصرى تحت زعامة المهدي صارت امتاجر الأوربية تصل إلى السودان الشرق من هذا الطريق ولم تعد تصدر من الإسكندرية وأهمية واحدة فزان الواقعة في منتصف الطريق تقريباً بين البحر الأبيض المتوسط وبلاد السودان وهى التى يسهل وجودها على السفار اجتياز الصحراء يرجع قسم عظيم منها إلى تجارة الترنسيت التى تمر بها وبلاد طرابلس غير هذه الطرق التى يمكن أن تسمى طريقاً أصلياً والمارة بمرزوق طريق آخر إلى الغرب ليست أقل من الأولى فى تردد القوافل عليها وهى الطريق المارة بفات وغدامس وهذه التجارة تكون بقوافل كبيرة

تخرج من مدينة طرابلس (وكانت تلك القوافل تخرج سابقا من غدامس
بمجهزها أغنياء التجار بتلك الواحة) وتشتمل القافلة الواحدة على ألف رجل
إلى ثلاثة آلاف رجل ولا تعود من سفرها إلا بعد سنة أو سنتين ويكون
في خفارتها وهدايتها في الطريق آلاف من العرب المسلحين ويقولون أنه
يسافر من تلك القوافل من مدينة طرابلس نحو عشر كل سنة وأشهر ما تحمله معها
المنسوجات القطنية الأنجليزية (البقعة السراء أو الخلم) والمنسوجات الحريرية
الفرنسوية والتليانية والجوخ والأشياء الزجاجية وأهمها الخز بأنواعه ثم
السكاكين والكهرباء والخردوات والأسلحة والريالات ضرب مارياتريزه
(أبو طيره) وغيرها أما أهم ما تجلبه معها في عودتها فالرقيق وريش النعام
والعاج والصمغ وجلود الحيوانات الوحشية والمسك واللبان وقرون الحيوانات
وشمع العسل وغيرها وتجارة الرقيق ممنوعة في طرابلس وهي وأن كانت
حاصلة في فزان لكنها على كل حال أقل بكثير مما كانت عليه في السابق وقد
أصبح المجلوب من ريش النعام والعاج أقل الآن منه منذ بضع سنوات يعلم
ذلك من أحصاء تجارى عمله أحد القناصل بمدينة طرابلس وتحصل التجارة
مع أوروبا وتونس ومصر من ثغور طرابلس وبنغازى ودرنه وطبرقة وتبلغ
قيمتها تقريبا ثلاثون مليوناً من الفرنكات وأشهرها الحنطة والشعير والحقاء
وزيت الزيتون وريش النعام والعاج وشمع العسل والسمن والماشية والصوف
والجلود المدبوغة وغير المدبوغة والتمر والبرقال والليمون وغيرها من الصادرات

أما الواردات فأشهرها المنسوجات القطنية والصوفية والحديد والصلب
والخرداوات والبن والسكر والصابون والشمع والجلود المدبوغه
والشاي وغيرها

بلاد برقه

حدودها وموقعها وامتدادها - كانت بلاد برقه فيما سبق تابعة من
جهة الإدارة لولاية طرابلس أما الآن فهي متصرفية مستقلة بالأدارة كما
سبق ومبدأها نهاية خليج سرت الكبير وتمتد شرقا على ساحل بحر الروم
حتى نهاية خليج صغير يعرف بخليج الملح وهناك حد الأراضي المصرية
(الدرجة ٢٢ والدقيقة ٤٩ والثانية ٥٠ من الطول الشرقى - والدرجة ٣١
والدقيقة ٢٩ من العرض الشمالى) ويكون الساحل بين بلدتى المختار وطلميتا
(ابطوليمائس القديمة) اتجاهه العموى من الجنوب الى الشمال (عبارة عن
الجهة الشرقية من خليج سرت) بينما يرسم في سيره منحنيًا مزدوجًا داخلا
وخارجا يكون اتجاهه العموى نحو الشرق بين طلميتا وخليج الملح المذكور
ويبلغ طول هذا الساحل بين النقطتين المذكورتين ٨٨٠ كيلومتر ولا تكون
المسافة بينهما اذا قطعت مباشرة وسط الصحراء ألا ٥٨٠ كيلومترا فقط
والبعد بين ساحل برقه المذكور ورأس متابان ٤١٠ كيلومترات على خط
مستقيم وأبعد مسافة بين البلاد المسكونة أو القابلة للسكنى من الساحل المذكور

وبين الصحراء لا تزيد عن ١٥٠ كيلومتر ولا يكون قابلا للزراعة من طول كل هذا الشاطئ الذى يبلغ ٩٠٠ كيلومتر ألا نحو ٥٠٠ كيلومتر لا غير تمتد على بضعة أميال فقط نحو الداخل

منظرها العمومى وطبيعة أراضها - أن ذلك البروز العريض الذى تتجه واجهته المستديرة نحو بحر الروم بين خليجى سرت وبمبا والبالغ عرضه ٣٥٠ كيلومترا هو ما كان يعرف لدى القدماء باسم سيرينايك أى بلاد برقة الحقيقية ويتركب من نجد جبرى تقطعه وهاد وأغوار وأودية وتسقط حافات الشمالية نحو البحر على شكل منحدرات سرية الميل قائمة فى الغالب وعرة صعبة المرتقى أما جهاته الجنوبية فأنها منخفضة نحو الصحراء على هيئة منحدرات أيضا لكنها أعرض من الأولى وكانت مدينة قورين (Cyrene) القديمة فوق هذا النجد بالقرب من قته الشمالية وعلى نحو ثلاث ساعات فقط من البحر ولا ارتفاع هذه السهول عن سطح البحر بنحو ٤٠٠ و ٥٠٠ متر ولما فيها من الينابيع العديدة التى تجري سواقيها وجداولها فى أوديتها كانت ذات مناخ مخالف تماما لما عداها من البقاع هناك وفيها كان القدماء يقولون بوجود تلك الجنة الغربية البديعة السماء هسبريد^(١) ولا بد من الرجوع إلى ما ذكره هيرودوتس عن بلاد قورين هذه من منذ نحو ألفين وثلاثمائة سنة تقريبا خاصا بأهل قورين أنفسهم قال

(١) (Hespéride) - وهو بستان كان الشعراء المتقدمون يتغنون بذكره ويقولون أنه واقع الى الغرب من سيرينايك فى سفح جبال أطلس وتارة يقولون أنه بلاد موريتانيا وحتى جملة بعضهم فى جزائر السعادات أى قاريا ومعنى هسبريد الغربى

«أن بلاد قورين وهى أعلى قسم من لوبية والتي كان يسكنها قوم من الرحل لها ثلاثة فصول ترتيبها عجيب فإن التمار التى يكثر وجودها فوق الساحل هى أول ما ينضج من ثمارها وأذ ذاك يحصد الناس أيضا النباتات ويقطفون الأعناب وبمجرد ما يتمون تخزين ذلك تكون النباتات المنطقة المتوسطة الواقعة على ساحل البحر المسماة ببلاد التلال مستعدة هى أيضا لأن تحصد نباتاتها وبمجرد ما يخزن الناس محصول هذه المنطقة الثانية تكون ثمار الجهات الواقعة إلى الأعلى منها ناضجة وقابلة للحصيد بحيث لا يأتى المحصول الأخير إلا والناس قد انتهوا من شرب وأكل المحصول الأول وبشتغل أهالى قورين بهذه المحاصيل الثلاثة المتتالية ثمانية شهور متعاقبة» اه هذه كانت حالة البلاد حينما كان النجد وساحل البحر يسكنهما سكان كثيرون وكانت بهما مدن زاهية زاهرة تلو الواحدة الأخرى على مسافة صغيرة ألا أن الخراب قد أناخ هناك فى كل مكان فلم يبق من كثير من تلك المدن القديمة إلا ركام وأطلال وينزل بتلك البلاد الآن قبائل يشتغلون برعاية الماشية يقيمون فوق ما خرب بعضه أجدادهم وقد تركت الأرض وقسمها فى كل مكان تقريبا فلم تعد تعطى إلا ما لا تزال تسمح لها به خصوبتها الطبيعية وأن السائح الذى يأتى من مصر أو طرابلس ماراً وسط طرق قاحلة وأقاليم رملية يجدها هناك مناخاً ومناظر مما يظن معه أنه وسط أجل بلاد إيطاليا وكل ذلك مما يوجب بلا شك اندهاشه واستغرابه ويكفى للدلالة على ذلك أن نذكر هنا عبارة أوعبارتين من

الأقوال الكثيرة التي ذكرها السياحون فمن ذلك قول الكابتن بتشى (Capt. Beechy) الأنجليزى فى كتاب له على سواحل أفريقيا الشمالية قال عند كلامه على إحدى المقبات التي بين أطلال أبطوليميس والنجد الذى كانت فوقه مدينة قورين «أن جوانب الوادى منطاة كلها بأشجار متكاثفة من الصنوبر والزيتون وأنواع كثيرة من الغار يتخللها خثائل من النبات المعروف بزهر المسل تطر الهواء بما ينبعث عنها من الروائح الزكية وهناك أشجار نضرة من الآس والريحان والقطب والدفلا وأشجار أخرى مزهرة وأنواع كثيرة من الورد البرى الأحمر والأبيض وغيرها من أشجار السندروس والعرعر حتى أن هذه المناظر لو وجدت فى نفس أوروبا لأعجب بها الناس جداً فما قولك فيها لو كانت بأفريقية وكنا كلما ظهر لنا منظر جديد فرحنا به جداً ودهشنا لرؤيته» اه ثم لما وصل بعد ذلك بقليل إلى جهات النجد ظهر له ولن كان يرافقه منظر ليس أقل جمالا من الأول حيث قال «أن المنظر الذى كان يترأى لنا من فوق قمة الجبل وهو منظر نضر ليس يقحل كما هو منظر النور كان كافيا لأن يضيف إلى ما استفدناه من هيئة الأفق العريض الذى كان يتوسط أمامنا مشتملا على أدوية وتلال مختلفة متعاقبة تحتلط ببعضها من بعد ثم تنافى فى زوقة السماء وهناك مراعى واسعة وأراض مزروعة متفرقة هنا وهناك تقطعها أشجار متكاثفة وشجيرات مجتمعة وأزهار متنوعة على هيئات جميلة أكثر اختلافا فى أشكالها وكثرتها واتسارها عن الموجود منها بالوهدة وكلها كانت غضة خضراء

باسمة» اه وقال سائح آخر انجليزي أحدث من الأول يسمى جيمس هاملتون (M. James Hamelton) في كتاب له على أفريقيا الشمالية قولاً يقرب من ذلك وقال أيضاً السائح التلياني الدكتور دِلَّا سِلَّا (Dr. Della Cella) وهو أول من كشف لا ورياني أيامنا هذه جمال هذه البلاد وكانت تجهله من قبل قال «أنها بلاد كثيرة النباتات والأشجار العظيمة بين تين وخرنوب وزيتون وفستق وكثري برية وغيرها وقال أن منظر بلاد كهذه متروكة كلها للطبيعة يوجد في الإنسان فكرة عن خصوبتها أكثر مما توجد له أرض أحسن منها زراعة وعناية وقد اندهش هذا السائح لشدة خصوبة هذه الأراضي ونقاوة هوائها واعتداله وقال أن بهائيء كثير من المباني الباقية مما يدل على عظمة قورين وريقها القديم وقد تساءل لماذا لم يخطر ببال دولة من دول أوروبا أن تستوطن هذه الأرض وتؤسس بها المستعمرات الدائمة» هذا ولا رجاء هذه البلاد لريقها القديم لا يلزم لها في الحقيقة ألا الأذكاء وأرباب الحضارة من الناس وقد أطلق العرب على نجد برقه عموماً وعلى ما يحيط به من القياقي الرملية وخصوصاً على ما فوق قته جنوباً من المرتفعات أسم الجبل الأخضر وهي تسمية في غير محلها ومن الصفات التي استغربها الناس في كل وقت وقد نبه عليها مؤلفوا العرب وألقوا عليها الأ نظار الرمال المحمرة اللون التي تغطي ساحل البحر في سفح النجد المذكور كما تغطي أيضاً قسماً من قس ذلك النجد قال الدكتور دلا سلا بعد أن امتحن تلك الرمال بالمنظار أن نحو الثلث منها يتألف

من بقايا مرجانية ويظهر من النظر إلى وضع بلاد برقة أنها تتألف من جبهتين مختلفتين عن بعضهما اختلافاً تاماً هما جهات الساحل وجهات النجد وسند كرفيما يلي أولاهما جهات الساحل فقلا عن كل من دلاسلابوتشي وهنري برت (H. Barth) كما نذكر أيضاً المواقع والاماكن القديمة التي فوق ذلك الساحل من أول بلدة المختار حتى خليج الملح وبعد ذلك تلقى نظرة وصفية على السهول العالية حيث خرائب وأطلال العاصمتين قورين وبرقة فنقول -

المنطقة الساحلية - أن المكان المسمى بالمختار الموجود به قواعد أعمدة من الحجر مترا كمة على بعضها والذي هو الحد العادي بين أقليمي سرت وبرقة هو مكان لا أهمية له في بلاد كثيرة الرمال والمستنقعات ونهاية الحد الجنوبي من خليج سرت الكبير واقع إلى الشرق من ذلك بقليل بالقرب من مستنقع يسمى سكرين (Sakhrin) وكان هناك قديماً حد أراضى قورين من جهة قرطاجنه وقد عينوا ذلك الحد بناء يسمى بما معناه هيا كل فيلين^(١) وبمدسكرين المذكور

(١) (Les Auteles des Philènes) ورد في الاقاصيص القرطاجنية أن فيلين علم على أخين من قرطاجنه أظهر الاخلاص والغيرة في توسيع طاق وطهمائم جلوهما رمز القتال الحاصل بين قرطاجنه ومستعمرات الاغريق ببلاد برقة بخصوص تعيين الحدود بين البلدين ويقولون أن قرطاجنه وقورين اتفقا منماً للشقاق الحاصل بينهما على أن يرسل كل منهما رجلين ويحرق السكل في ساعة معينة ومتى التقوا يرسون هناك علامة فاصلة وحصل أن التقوا قرب قورين فلهذا أنهم القوريون القرطاجنيين بأنهم ساروا قبل الساعة الميمنة أما القرطاجنيان فقد فضلا أن بدقا على قيد الحياة خير من الرجوع الى الوراء فكان

ينحرف الساحل إلى الشمال والشرق ثم يصل الإنسان بعد نحو ثلاثين كيلومتراً إلى مرسى صغير يسمى بُورَاقَه وكان حصيناً فيما سبق ويظن السائح بتشي أنه مكان بلدة أوتومالا (Automala) التي ذكرها استرابون ويظنه هنري برت أنه مكان بلدة كوستنيوم (Cocynthum) التي ورد ذكرها في راهنامج الرومان وعلى نحو عشرة كيلومترات إلى ما بعد ذلك مرسى آخر صغير يسمى تابلبا (Tabiba) به بقايا قصر فوق لسان ممتد في البحر وخرائب أخرى تدل على وجود بناء بحري ظنه السائح بتشي أنه المحطة البحرية التي سماها بطليموس هيفالوا هُورْمُوا (Hyphaloi Hormoi) (و معناه المراسي المحتبة أو الميناءات المحتبة) وعلى بضع أميال من الساحل وعلى نحو خمسة وخمسين كيلومتراً إلى الشمال والشرق من تابلبا المذكورة أطلال مدينة أجداية ذات الأهمية والشهرة في القرون الأولى من حكم العرب بأفريقيه وبها صهاريج وأطلال رومانية وكانت أقرب محطة بحرية إليها تسمى المادور أو الماهور قال في معجم البلدان « أجداية هو بلدة بين برقة وطرابلس المغرب بينه وبين زويلة نحو شهر سيراً على ما قاله ابن حوقل وقال أبو عبيد البكري أجداية مدينة كبيرة في صحراء أرضها صفا وآبارها منقورة في الصفا طيبة الماء بها عين ماء عذب وبها بساتين لطاف ونخل يسير وليس بها من الأشجار إلا الأراك وبها جامع قبرها الحد لارض قرطاجنه كما يقولون واعترافاً لها بالحمية أقامت الامه لها بذلك المسكان مذبحين تخليداً لذكورها

حسن البناء بناه أبو القاسم المسمى بالقائم بن عبيد الله المسمى بالمهدى له صومعة
 مشننة بديعة العمل وحمامات وفنادق كثيرة وأسواق حافلة مقصودة وأهلها
 ذوو يساروا أكثرهم أنباط وبها بُدمن صُرْحاء لواته ولها مرسى على البحر يعرف
 بالمادور له ثلاثة قصور بينه وبينها ثمانية عشر ميلا وليس بأجداية لدورهم
 سقوف خشب أعما هي أقباء طوب لكثرة رياحها ودوام هبوبها وهي راحية
 الأسعار كثيرة التمر يأتيها من مدينة أوجله أصناف التمور وقال غيره أجداية
 مدينة كثيرة النخل والتمور وبين غريبها وجنوبها مدينة أوجله وهي من
 أعمالها وهي أكثر بلاد المغرب نخلا وأجوده تمرا « اه ولا يصادف الإنسان
 من أجداية إلى المرسى الصغير المسمى كركوره أو قرقوره وهي مسافة تبلغ
 خمسين كيلومترا على الساحل إلا موضعين أو ثلاثة كلها لا أهمية لها وقد
 وجدوا في كركوره أو قرقوره المذكورة بعض كتابات يونانية والمحطة
 الرومانية القديمة المسماة كاروتوس (Carothus) قرية من هذا المكان أن لم
 تكن هي كركوره ومن البلاد القديمة هناك أيضاً جيمينيس (Ghéminès)
 وأطلالها أحجار غير مثبتة بالملاط تشبه الموجود منها ببلاد اليونان المنسوبة
 إلى تلك الأمة القديمة المعروفة بأسم سيكلوب وبالقرب منها مغاور منقورة
 في الصخر تسمى إلى الآن كامينوس (Caminos) وكانت محطة رومانية

ومنها أيضاً برنيق (برنيس) وهي أول المدن الخمس المهمة التي تسمت
 هذه البلاد بسببها أنطابلس (بنطابوليس) ومعناه المدن الخمس وهذه

المدن هي برنيق وطوشيرا (Tanchira) (وكانت تسمى أيضا أرسينوئي (Arsinoë) وبارس (Barce) (التي سميت فيما بعد أبطوليا ئيس) (Ptolimaïs) وأبولونيا (Apollonia) وسيرين (Tyrene) أو قورين ويشغل قسم من مدينة بنغازي قاعدة برقه الحالية مكان برنيس القديمة التي كانت تسمى أولا هسبريس أو هسبريد (ذلك بلا شك لأنها كانت أبعد مكان إلى الغرب من بلاد بنطابول (Pentapole) ونقول أن بنغازي تشغل قسما من برنيس لا كل برنيس القديمة لأن بقايا برنيس لا تزال مطمورة تحت الرمال خارج المدينة الحالية قال السكبتن بتشي المتقدم الذكر «أن برنيس قد زالت آثارها من السهل الجليل التي كانت قائمة فيه فيما سبق وقام على أطلالها مدينة حقيرة بقيرة عربية أو بالأحرى على الأرض التي تغطيها لأن المهم من تلك المدينة أصبح الآن تحت الأرض» اهـ

ومدينة بنغازي الحديثة واقعة على لسان من الأرض بين البحر ومستنقعات ملحية تجف صيفاً وإلى الجنوب منها مرسى ملأت الرمال نحو نصفه كان فيما سبق يحمل السفن العظيمة أما الآن فلا يقبل إلا الصغير منها وهناك قلعة يقيم بها الحاكم وأعوانه وطائفة من الجند واقعة على نقطة متسلطة من جهة الشمال على مدخل المرسى المذكور وهي إلى خارج المدينة بقليل وسكان المدينة بين عرب ويهود وسودانيين وقد اختلف الرواة في تقدير عددهم والظاهر أنهم أكثر من ثلاثين ألف نسمة /

هذا وأشهر ما تصدره بنغازى إلى مالطه الصوف والماشية والخنطة
وعلى نحو خمسة وخمسين كيلومتراً إلى الشمال والشرق أطلال مدينة طوشيرا
القديمة وتعرف تلك الأطلال الآن لدى العرب هناك بأسم طوكره ومما
يهم الباحث عن الآثار من أطلالها سور محفوظ بمضه وكتابات عديدة
ومقبرة كبيرة (كما رواء كل من دلاسللا (١٨٢٣) وبششى وبرت
ووندر (Wander) وبين طوكره وبنغازى عدة أمكنة لمناوع من الأهمية
لما يرتبط بها من الحوادث منها زيانا (Zeiana) وأزيانا (Azianna) وفريانا
(Feriana) أو دريانا (Ou Deriana) وكلها ألقاظ تجرى على ألسنة رعاة العرب
هناك) وهى تذكر الألسان بمدينة أدريناو پوليس التى كانت فى عصر الرومان
وكل هذه المنطقة الساحلية مغطاة بخرائب قديمة وعلى نحو أربعة وثلاثين
كيلومتراً من طوكره مكان مهجور يسمى الآن أبطوليماتس وذلك متى سار
الانسان على ساحل البحر متجها نحو الشمال والشرق وكانت أبطوليماتس
أحدى البلاد المهمة فى بلاد بنطابول القورنية وقد وصف دلاً سلاً خرائبها
وضواحيها وصفاً جيداً فقال ما ملخصه أن أبطوليماتس كانت تشغل قسماً
من الجبل وقسماً من السهل وخرائبها ماثورة على أرض يبلغ محيطها أربعة أميال
ومن خرائبها برج مربع مائل نحو الشرق يظن أنه كان مدفناً لبعض
الملوك وهناك من المقابر الخصوصية ما يزيد على أربعة آلاف ومرساها القديم
بعضه صناعى وقد طمرت الرمال أكثر من نصفه ويظن أنه كان مرسى

لمدينة برّس أو برقة التي كانت بالداخل فوق النجد وقد قال بئشى أن من
أطلالها ملهيان (تيارو) وسرك أى ملعب خيل

وأول مكان مهم يصادفه السائح فوق الساحل بعد طلبيته وبعد أن يجاوز بروزاً
كبيراً امتدّ في البحر يسميه العرب رأس الراسات مرسى سوسه وليس به سكان
الآن وهو واقع مباشرة في سفح القبة التي تؤدى إلى حيث كانت قورين قديماً
وكانت سوسه المذكورة قديماً ميناء لقورين وكانت تسمى أبولونياس (Apollonias)
وكانت من المدن الكبيرة ببلاد بنطابول وفي القرن الأول من النصرانية تغير
هذا الاسم الوثني إلى سوزوسا (Sozoussa) وهو آت من لفظ يوناني معناه
رسو السفن آمنة واسمها الحالى محرف قليلاً عن هذا الاسم القديم وكانوا
يجلبون إليها الماء من الجبال القريبة منها على حناياها لا تزال ماثلة للآن وكان
بينها وبين قورين طريق محفور بمضه في الصخر لا يزال يشاهد كذلك
(روى ذلك كل من بئشى وبرت) /

وعلى نحو خمسة وستين كيلومتراً من سوسه بلدة درنه وهي آخر
مكان في ساحل برقة يمكن أن يطلق عليه اسم مدينة وبينها وبين الحدود
المصرية مسافة تبلغ ٢٧٠ كيلومتراً ولا زالت درنه حافظة للآن اسم ومكان
درنيس القديمة ولكن ليس فيها شيء من مباني الأغرقيق أو الرومان أصلاً
فهي مدينة عربية صرفة واقعة عند طرف سهل ضيق وافر الخصوبة تكثر
به الأشجار المثمرة ويصب بحوارها واد تجرى مياهه صيفاً ولكنها تعظم

بل وتفيض أحيانا مدة الشتاء وتتألف درنه من خمسة أقسام كأنها قرى يفصلها عن بعضها الوادى المذكور والأقسام الغربية منها وهى التى فوق الضفة اليسرى هى المدينة والجبل والمغارة والشرقية منها هما بو منصور الفوقانية وبو منصور الواطية والقسم المسمى بالمدينة المتقدم هو المدينة الحقيقية ويحيط به سور وبه أسواق وقدرت سكان درنه بنحو ستة آلاف نفس وليس لدرنه ميناء بل لها مرسى صغير غير أمين ولا يوجد على الساحل بين درنه والحدود المصرية أى على مسافة تبلغ ٢٧٠ كيلومترا كما تقدم مكان مسكون له أهمية أصلا وبهذه المسافة عدة رؤوس أشهرها رأس التين وهو منها على نحو خمسة وأربعين كيلومترا نحو الشرق والجنوب ومن درنه يتبدى خليج عريض يسمى خليج بمبابة جزيرة تسمى بهذا الاسم يمكن أن تكون محطة بحرية جيدة وينصب أمام هذه الجزيرة واد عريض يأتى من مسافة بعيدة من الداخل يسمى تميم هو النهر الوحيد تقريبا فى برقه وأن كان يجف هو أيضا فى أشهر القيظ وهو نهاية نجد قورين وبنطابول شرقا وقسم برقه الذى بين هذا الوادى والحدود المصرية واقع فيما يعرف قديما ببلاد مرمريك^(١)

(١) (Marmarique) - مرمريك أو مرميك بلاد واقعة بأفريقية الشمالية بين بحر الروم شمالا ومصر السفلى شرقا وصحراء لويه جنوبا وبلاد برقه غربا وكانت تابعة لمصر قديما وكل البلاد الواقعة بين مدينة الاسكندرية وخليج دمبسا يبلغ امتدادها نحو ١٥٦ فرسخا من الشرق إلى الغرب وهناك سريط من الأرض الزراعية واقع على ساحل البحر يمتأ على نحو ١٥ فرسخا على الأكثر إلى الجنوب وبعد ذلك صحراء قاحلة لا يرى فيها المسافر

وهي بلاد لا يمكن أن تشبه ببلاد بنطابول لا من جهة المناخ لأنها ليست واقعة فوق نجد عظيم ولا من حيث جمال المواقع ولا من حيث خصوبة الأرض كما هو الحال في بلاد برقه فهي نجد تصل جهاته الوعرة إلى الساحل تقريباً ألا أنه أقل ارتفاعاً من نجد برقه بنحو النصف ولذلك كان أشد منه

أجزاء من الأرض الملحة موزعة بها ويقوم فوق الشريط المذكور تلال وكثبان كلما ابتعد الإنسان عن ساحل البحر ويدل منظر الأرض في ممرريكا على حصول انقلابات طبيعية كبيرة كما تدل خرائطها على اضطرابات ونورات أساسية «ن القواقع البحرية الموجودة في الصخور وعرق اللؤلؤ المنتورة فوق التلال وأحجار البازلت والجرانيت التي فوق الأراضي الثانية الجيولوجية ثم مجموع المعادن المختلفة وعدم انتظام وضعها وحالتها مما يؤيد ذلك قال السائح باشوان المسافر يستولى عليه في اجتيازها تأثيرات تحدث له ملالا وأن خلوها من الحياة يجعله أكثر ترواً لعدم وجود المدن وتفرق السكان فلا يرى أمامه إلا سهولاً سنجاية اللون وتدل قاحلة ومبها تهدم فلا يرى دائماً إلا منظرًا واحداً وسط هذا الفضاء المديم الحياة واللون ولا يكاد يستدل على وجود الإنسان هناك إلا ببساع صوت بعض القطعان وخيام البدو التي ترى على مدكأنها قط سوداء» اه وقال ماشو أيضاً يظهر أن سكان كل البلاد الواقعة بين الاسكندرية وجبال برقه لا يريدون عن ثمانية وثلاثين ألف نفس ولم يقد أحد عن أنى بعده من السياحين أنهم أكثر من ذلك وكل رجالهم متسلحون ولكنهم لا يملكون جميعاً خيلاً فالفرسان منهم لا يزيدون عن أربعة آلاف اه واعلم أن ممرريكا أو قسمها الشرقي على الأخص كان ينقسم فيما غبر من الزمان إلى كورتين مصريتين هما مريوتيد وليبيك ويظهر أن هذه البلاد الآن تابعة لمصر

حرارة بكثير وليس به شيء من تلك النباتات النفضة التي ساعدت على وجود تلك الروضة العجيبة المارة الذكر أي هسبريدى بلاد قورين ومن الصفات المميزة لنجد مريك أن أغواره التي لا يصح أن تسمى أودية اتجاهها المسمى من الغرب إلى الشرق على موازاة الساحل وبالقرب من رأس التين المتقدم أى على النهاية القصوى من النجد المذكور عين تسمى عين أَرَسِن أو الراسم أو أرسم يخرج منها جدول سريع الماء ينساب وسط واد جميل يظن أنها عين أَرَسَا (Irasa) التي ذكرها الأقدمون في تاريخ وخرافات بلاد قورين وعلى نحو خمسة وستين كيلومتراً من الشرق والجنوب من جزيرة بما مرسى يقال لها طُبرُقه وطبروق وهى مرسى صغير حولها بقايا مبان عرية وعلى نحو تسعين كيلومتراً إلى الشرق من طبروق المذكورة رأس الملح وهو فى أول خليج آخر يشبه خليج بمبا ولكنه أكبر منه يصب فيه واد يسمى وادى دِفنه وهو واد جانبي تنبت به بعض النباتات فهو أقل فحولة عن بقية البلاد ومصبه قريب من مرسى صغير يسمى مرسى سلوم واقع فى سفح جبل يختلف ارتفاعه بين ٢٥٠ متراً و ٣٠٠ متر ويعرف لدى العرب بالمقبة الكبيرة وكان الأغريق يطلقون عليه قديماً اسم كاتاباثموس ميفاس (Katabathmos Mega) ومعناه المنحدر الكبير وقد سماه الأدرسى فى كتابه عقبة السلوم وكان هذا المنحدر فى كل الأزمنة حداً طبيعياً بين البلدين ويعتبره القدماء نهاية بلاد مريد وابتداء بلاد قورين وهو الآن الحد العادى بين البلاد المصرية وبلاد برقه

النجد - قد وصفنا فيما تقدم ساحل نجد قورين وزيد الآن وصف
نفس النجد المذكور فنقول مربيك الكلام على أوصافه الطبيعية العمومية
ورأيت ما هي الصفات الخصوصية لمناخه المعتدل ونباتاته الجميلة مما يوجد
فيه ارتفاعه عن سطح البحر ارتفاعاً يختلف بين أربع مائة متر وخمسمائة متر يضاف
ذلك إلى ما به من الينابيع التي تمتد بعض أوديته بماء دائم وإلى الأمطار المقيدة
التي تنزل فوقه وهذه الأمطار تسقط باستمرار مدة أشهر الصيف على قسم
منه خصوصاً جهاته الشمالية وقد شاهد بعض السياح أن الترمومتر في
الشتاء ببلدة قورين ينخفض عادة إلى ١٥ درجة وأحياناً إلى أثنى عشرة درجة
ونصف ويبقى وقت الظهيرة بين ١٩ و ٢١ درجة بمقياس ستيفراد وقد أبدش
كل من السائح باشو (E. Pasho) والدكتور دلاسلا والسكيتين
بتشي من اختلاف المناظر هناك ومن الطراوة المحسوسة التي يصادفها الإنسان
متى انتقل من المنطقة الساحلية إلى سهوله العالية والسهول العالية الشجراء
بهذا النجد تمتد من الجنوب إلى أن تصل إلى منحدرات الجبل الأخضر
الخضراء كما سبق القول وبعد ذلك تأخذ المنحدرات المذكورة في الانخفاض
متجهة نحو الصحراء ولا يكون بها من النباتات أذذاك إلا النباتات الحشيشية
التي تأخذ في القلة والتدورة شيئاً فشيئاً إلى أن تقوم مقامها أراض رملية
جرداء وقد ذكر السائح باشو مناطق النباتات بهذا النجد وعينها من الشمال
إلى الجنوب وشاهد على ساحل البحر جذور عنب عتيقة عالقة حول شقوق

الصخور وهي مما كان يزرعه الأغريق وقال أنه رأى فوق المنحدر الأول من النجد المذكور أشجار الصنوبر الأبيض والزيتون والآس والغار وزهر العسل واللدن والمريمية والفسطوس أو الغبرة أو لحية التيس وغيرها وشاهد فوق درجاته العليا غابات من القطن والعرو مروجا جميلة ومزارع جوب وبأعلى جهات السلسلة الساحلية غابات كثيفة من المصطكي وهذا الشجر الأخير هو أكثر ما يكون بهذه البلاد وقد رأى السائح المذكور أيضاً فوق النجد الداخلي أشجاراً متكاثرة من الخرنوب مختلطة مع أشجار المصطكي ومتى تقدم الإنسان نحو الجنوب ظهرت له أشجار لوز البر وأشجاره هناك مجتمعة إلى بعضها غالباً موزعة في أرجائه ثم أن الأشجار العالية تأخذ في أن تقوم مقام النباتات الحشيشية بالتدرج وأخص تلك الأشجار نوع من الأرتعز يا يصدره التجار إلى بلاد السودان لأنه عندهم من الأعطار هذا وقد اشتهرت بلاد قورين قديماً بنبات يسمى الاتجدان أو السلقيون كانوا يستخرجون منه مادة صيفية كانت تباع بوزنها ذهباً لما لها من الخواص الطيبة ولحرص الرومان عليها أذ كانوا يتعطرون بها كما يقول المؤرخ بلين وقد قل الآن هذا النبات جداً ولقد قامت المناظرات بين علماء النبات بخصوصه طويلاً واحتدم الجدل بسببه كما مر الكلام (صحيفة ١٥٦) على ذلك والنبات المذكور من القصيلة الخيمية واعلم أن نجد برقه صار منذ اثني عشر قرناً ملكاً خاصاً للقبائل البدوية لا غير وكلهم به رحل ينتجعون الكلاء ويطلبون مواقع الغيث فليست لهم هناك

لامدن ولاقرى والأطلال الاغريقية وخصوصاً الرومانية به كثيرة كما هي
 بجبات الساحل ومن أهمها قورين وبرقه وقد وصف الأولى منهما فنصل
 فرنسوى يسمى لومير (Lemaire) كان بمدينة طرابلس سنة ١٧٠٦م ثم شاهدها
 أيضاً بعد ذلك بقليل كثير من مشاهير السياحين ووصفوها أخصصهم سرفللى
 (Cervelli) سنة ١٨١١ ودلاسللا سنة ١٨١٧ والكبتين بتشى سنة ١٨٢٢
 والسائح باشو سنة ١٨٢٥ ثم هنرى برت سنة ١٨٤٦ وغيرهم وقد ذكرنا ذلك
 فيما سبق ثم قام ضابط فى البحرية الانجليزية يسمى الكبتين اسميث (١٨٦٠)
 وأجرى الحفر على حساب دار الآثار الانجليزية وألف فى ذلك كتاباً سماه
 تاريخ الأكتشافات الحديثة فى قورين طبع فى لندن سنة ١٨٦٥^(١)

وانا لا نرى لزوماً لأن نقل شيئاً من هذا الكتاب لأن مشتملاته
 أرخىولوجية صرفة بل نقل قول السائح الدكتور دلاسللا أذيقول «قد شاهدت
 الأرض على نحو ساعة من قورين» وكان آت من بنغازى أى من الجنوب الغربى
 مغطاة على مسافة يبلغ محيطها نحو ميل يبقاها جسيمة من المباني ورأيت القبور
 والنواويس محفورة فى جوانب الجبل ومن هذه الأطلال التى بسمها العرب
 صفصف حوض واسع أوحنايا للماء تتجه فى قسمها الشرقى نحو قورين
 وبقاياها تشاهد من مسافة ألى أخرى كلما قرب الإنسان ألى المدينة وقد

(١) Captain R. M. Smith, History of the recent discoveries of
 Cyrene. Lond. 1865

تمكنتُ من مشاهدتها بأجمعها من فوق الجبل المشرف عليها ولازلت أشعر بما
أعتراني من الدهشة من رؤية منظر كهذا يمتد أمام عيناى وكانت الأرض
مغطاة بالخرائب إلى ما يصل إليه البصر وهذه الخرائب هى أطلال أبراج
وأسوار متراكمة على بعضها وشاهدت طرقا طويلة يحفها من اليمين واليسار
قبور ونواويس والحاصل أن الإنسان يرى فى كل جهة أطلالا وخرائب من
كل أنواع المباني مما يوجد فى الذهن والخيال صورة مدينة جسيمة ووسط هذه
الأطلال العتيقة الفخيمة خيام للبدو نصبوها هنا وهناك مما يستنتج منه الإنسان
مرور عصر طويل ودهر مديد بين عصر تخريب يفصل الأزمنة القديمة عن
الزمن الحالى وقد حرف الأعراب أسم هذه المدينة القديمة ولا كوه فى أفواههم
حتى جملوه كِرْنَه أو قرنه أو جِرْنَه واعلم أن قسماً كبيراً من المباني وكل ما اختص
بفن العمارة التى وجدت إلى الآن فى قورين هو من العصر الرومانى والقليل منها
من عصر البطالسة أى من عصر استقلالها الداخلى وهناك ملهيان (تاترو)
وانفتياتر وهىكل وميدان للمب وبازان^(١) شهير ينسب لابلون معبود الأوغريق
كل ذلك غير المساكن والقبور اه

(١) البازان معرب آبزَن بالفارسية حوض من نحاس يتخذ للمرضى يجلسون
فيه للتريق ثم توسعوا فيه فأطلقوه على كل حوض وأهل مكة يقولون بازانا للحوض
الذى يأتى إليه ماء العين عند الصفا لانه شبه حوض وأقول لعل لفظ (Bassin) الفرنسى
مأخوذ منه

واعلم أن المدينة العربية المسماة برقة لا يوجد منها الآن كما لا يوجد من قورين إلا أطلالها وهي على نحو ١١٠ كيلومترًا إلى الجنوب والغرب من قورين وعلى نحو ٢٤ كيلومترًا إلى الجنوب والشرق من طلميته (كما ورد في خريطة بتشي) وقد بنيت بعد قورين بثمانين سنة بناها جالية أصلهم من قورين وسموها برقة أو برنس (٥٥١ قبل التاريخ الميلادي) وقد أخذت أهمية برقة في الدنى مدة البطالسة لأنها صارت داخلة ضمن المدن الخمس الكبيرة التي يلاذ أنطابلس وسميت أبطوليمائيس وبما هو ثابت في التاريخ أن العرب في أغارتهم الأولى (٦٤٢ م) نهبوا قورين وتركوها واختاروا مدينة برقة وجعلوها عاصمة البلاد أطلقوا على تلك البلاد أى بلاد قورين القديمة أسم بلاد برقة ومع ذلك فإن العرب لم يشيدوا لها سوراً إلا بعد أغارتهم بنحو قرنين وفي عصر ابن حوقل (النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى) كانت برقة بسبب أهميتها التجارية إحدى المدن الشهيرة بأفريقية وكانت مبنية في سهل كبير أوفى واد عريض تحيط به الجبال على مسافة قصيرة من البحر وكانت طلميته (بطوليمائيس) مرسى لها وقال أحد جغرافى العرب انه كان لها مرسى آخر يسمى أجيه كان منها على نحو ستة أميال فقط وهذا الأسم الأخير لا يعرفه أحد الآن وكانت برقة في زمن البكرى (النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى) لا تزال زاوية زاهرة وبعد ذلك بثلاثة قرون عم الخراب برقة وبلادها كما قاله ابن خلدون ثم بعد ذلك كان يتناوب عليها الشقاء والسعد كما ذكره عبداللطيف البغدادى

وكان الدكتور دلاسللا المذكور أول من عثر من الاوربيين على موقعها الذي لا يزال يعرف الآن بالمرجحة وقال أنها عبارة عن أطلال وقبور وأسوار متشورة فوق أرض مستوية وأبار بيضة القاع جداً لا يزال ماء بعضها لذيذ الطعم للناية ويطلق الأعراب النازلين بالقرب منها على هذه الأطلال أسم المدينة وهناك أما كن أخرى قديمة واقعة فوق النجد نكتفي بذكر أسمائها وهي بلنج بين المرجح للذكورة وقورين وكأنها هي المحطة الرومانية التي كانت تسمى بلا كرائي ومنها أيضاً الملوده بين قورين ودرنه وهي من غير شك لِمَنِيَّاس القديمة وبالقرب من الشاطي عوفوق النجد المذكور مكان يسميه العرب الساخيط به أطلال متشورة ونواويس كثيرة وهو أقرب إلى درنه منه إلى مرسى سوسة

سكان نجد برقة - أعلم أن سكان هذا النجد صاروا منذ عصر طويل كلهم من العرب لا غير ويتألفون من قبائل ثروتهم في تربية الماشية أشهرهم أربع م الحرابي والأواغير والمغاربة والمرابطين ولكل قبيلة أفضاخ عديدة قال باشو أن كل بدو برقة يعرفون بأسم الحرابي وقدرهم تقديراً تقريباً جداً بأربعين ألف نفس وقال أنهم كلهم في عدااء مستمر مع بعضهم بعضاً وأسلحتهم في العادة البنادق والطبنجات والخناجر أما السيوف فلا يحملها منهم إلا المشائخ وغداؤهم لبن المزر ولحم الضأن والتمر والعسل ودقيق الشعير والحنطة يجهزونها على طرق مختلفة أما ثروتهم فهي في ماشيتهم كما قلناه وهي عبارة عن الخيل اوحمير والجمال والثيران والضأن والمز وقد اشتهرت بلاد قورين قديماً بخيلها

المطهمة ألا أن الخيل الموجودة بها الآن لا توصف بذلك وأصواف برقة أقل في الجودة عن أصواف ضأن مصر ويكثر بها حيوان الصيد ولا يدخل الأسد في بلاد النجد ورجالهم ونساؤهم كلهم على السواء يستعملون الوشم في أذرعهم وسيقانهم وفوق ذقونهم ويشتل النساء عادة بغزل الملابس ونسجها قال في معجم البلدان «برقة بفتح أوله والقاف أسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الأسكندرية وأفريقية وأسم مدينتها أنطابلس وتفسيره الخمس مدن وأرض برقة أرض خلّوقية بحيث ثياب أهلها أبداً حمرة لذلك ويحيط بها البرابر من كل جانب وفي برقة فواكه كثيرة وخيرات واسعة مثل جوز ولوز وأرج وسفرجل وفي مدينة برقة قبر رؤفّع صاحب النبي صلى الله عليه وسلم وأهلها يشربون من ماء السماء يجري في أودية ويفيض إلى برك بناها لهم الملوك ولها أبار يرتفق بها الناس ولها ساحل يقال له أجيّه وهي مدينة بها سور ومنبر وعدة محارس على ستة أميال من برقة وساحل آخر يقال له طلموّة وبين الأسكندرية وبرقة مسيرة شهر إلى أن ذل وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يقول ما أعلم منزلاً لرجل له عيال أسلم ولا أعزل من برقة ولولا أمواله بالحجاز لنزلت برقة» اهـ

بلاد فزان

فزان إحدى بلاد أفريقية الشمالية تابعة لبلاد طرابلس فهي قاعقامية منها

موقعها وحدودها - أعلم أن الجغرافيا السياسية من موضوعها تعيين حدود الممالك وتحديدتها بالضبط ألا أن فزان ليست من البلاد التي تحتل هذه الدقة في التحديد لصفات الجغرافية الطبيعية ولما لسكانها من العوائد والحالات التي لا تبقى على نمط واحد لهذا كانت تخومها ترسم مبهمه بغير تحديد على مسافة كبيرة في أمتدادها في صحارى غير مأهولة ليس بها ما يقبل السكنى إلا بعض أودية تنزلها بعض القبائل وحد فزان الشمالى يمر جنوبى سُوْنَةِ المَعْلَوَى وبئر الجَدَّافِيَّة يوضع كيلو مترات وهما بئران واقمان على طريق القوافل بين مدينة طرابلس وبلدة سُكْبَنه وبين بئر بوجيله وأم الخليل على الطريق بين غريا الغربية وسُكْبَنه ويمتد شرقاً حتى الدرجة ١٥ والدقيقة ٣٠ من الطول الشرقى بحيث يدخل فى ذلك مدينة زلّا وقرية تسمى أَوَاء أما فى الجنوب فأن حدودها تمتد حتى جبل تَجْرَنْدَمَّا (الدرجة ٢٠ والدقيقة ٥٥ من العرض الشمالى) الواقع على طريق بلما وحدودها من الغرب واقعة على نحو خمسة كيلومترات الى الغرب من ينابيع تسمى عيون سَرْدِيس وعلى ذلك يكون طول فزان ١١٨٠ كيلومتر تقريباً من الشمال الى الجنوب وأكبر عرض لها يبلغ خمسمائة كيلومتر من الشرق الى الغرب وهى فى الشمال متاخمة لقائمقامية الجبل وتمتد فى الشرق حتى سهول ساحل خليج سرت الكبير ونجد صحراء لوية وألى الجنوب منها صحراء كبيرة تفصلها عن واحة كَوَّار التى يسكنها التبو وتمتد غرباً حتى بلاد توارك أزجراً وأزقر وقاعدتها بلدة تسمى مرزوق الى الجنوب

من مدينة طرابلس بينهما نحو ٧٧٠ كيلومتراً وبينها وبين أوكله ١٠٥٠ كيلومتر
ألى الجنوب والغرب وبينها وبين غدامس ٦٥٠ كيلومتراً الى الجنوب والشرق
وبينها وبين كوكا ١٤٠٠ كيلومتر

أوصافها العمومية وطبيعة أراضيها - لو نظرنا الى بلاد فزان بوجه عام
لوجدناها مشتملة على واحات كثيرة يسميها هنرى دو فريه بما معناه أرض
النخلة وهي قفار وأودية ينزلها قبائل رحل هم وقطانهم والادوية الجافة التي
بهذه البلاد تقطعها في اتجاهات مختلفة منها ولكن أغلبها يسير من الغرب
الى الشرق وبعضها عظيم الاتساع جداً ولا تخفى ما تكون عليه هذه الاودية
التي لا ماء فيها كما لا تخفى أهميتها لدى قبائل الصحراء (وسنشبع الكلام
على ذلك عند ذكر الصحراء الكبرى) ومن أشهر هذه الأودية وادى عتبة
وهو أسفل مرزوق بقليل ووادى أيرجوش وينحدر من جبال أمساك ويتجه
الى الشرق والوادى الغربى والوادى الشرق وهما عبارة عن الجهة الشرقية
والغربية من واد كبير يقطع كل البلاد عرضاً وهو على يومين الى الشمال
والغرب من مرزوق وبالجهة الغربية من هذا الوادى كانت فيما سبق مدينة
جرّامه العاصمة فى زمن الرومان ثم وادى الشاطى على أربعة أيام الى الشمال
من الوادى الغربى ووادى حيران على ثلاثة أيام من وادى الشاطى وهو
واقع فى السفح الجنوبى للنجد الكبير أى الحمادة الحمراء التى تغطى بلاد فزان
الأصلية شمالاً ومتى اتجه الإنسان الى الشمال نحو مدينة طرابلس وجاوز

الحماة المذكورة التي لا يتقص عرضها عن ٢١٥ كيلومتراً أو ٢٢٠ كيلومتراً قابل في غير بلاد فزان أودية كبيرة كثيرة كلها تمتد من الغرب إلى الشرق ومياها تنصب في بحر الروم أشهرها وادي بني وادي زمزم ووادي صفجين وهو من أشهر الأودية في هذه البلاد لاتساعه وخصوبته ويمكن أن تكون بلاد فزان في مجموعها نجد يختلف ارتفاعه عن سطح البحر اختلافاً ينفصل عنه بين مائتي متر ٧٥٠ متر وينفصل عنه هنا وهناك مرتفعات منعزلة بل وجبال منفردة قائمة بذاتها وإذا أراد الإنسان أن يكون له فكرة صحيحة وتخيل مضبوط لهذا الوصف وجب عليه أن يتصور سياحة يقتني فيها أثر المكشفين من طرابلس إلى مرزوق ومتى تم له ذلك فإنه يجد على نحو ثلاثة أيام من الساحل بعد أن يجتاز طريقاً متحدة المناظر مملة وسط سهول كثيرة التضاريس حجازاً حقيقياً من الجبال الوعرة المرتقى قهتاً مرتفعة عن الوادي الجنوبي بنحو ٥٠٠ متر تسمى جبال غريان أي جبال المغارات ومتى تسلق منحدراتها كانت النزول منها أسهل من الصعود بكثير مما اقتضاه صعودها ومتى اجتاز ذلك أصبح عند مدخل سهول تختلف في السعة بعضها يكثر به الزيتون والنخيل وغالبها قاحل عار من النبات بها أغوار عميقة ينساب في باطنها أودية مما يساعد على تربية الماشية وليس لهذه الأراضي الواقعة على عشرة أيام أو اثني عشر يوماً من الساحل أسم يشملها بأجمعها وهي داخلة مع ذلك ضمن أيلة طرابلس وهناك يكون وادي صفجين ووادي

زمزم المذكورين ثم يصادف عقبة أخرى تعرف بمدار الحماد وهي أول النجد
 الحقيقي أي الحمادة الحمراء وهي ليست الجبل الأسود الواقعة عليه بلدة سكنه
 والحماد المذكور عبارة عن سهول عالية كبيرة وصحارى حجرية وجيرية
 خالية من السكان والماء والنبات قليلة الحيوان جداً فلا يشبهها هناك قفر ما
 ويختلف متوسط ارتفاع هذه السهول بين ٢٥٠ متراً و٤٥٠ متراً عن سطح
 البحر وفي الطريق مكان يتلاقى فيه المنحدران المتقابلان يظهر أنه أعلى نقطة
 لهذا النجد ويعرف برجم الارحاء وارتفاعه عن سطح البحر ٤٧٨ متراً كما
 يقول السائح برت ولكن بعضهم يظن أن هذا الارتفاع أقل من الحقيقة
 بكثير وبالجنوب من الوادى الغربى المتقدم الذكر أحدور وعرو هو نهاية الحمادة
 المذكورة وبعد ذلك تأخذ الأرض في الارتفاع بالتدريج حتى تصير بلاد
 فزان الوسطى في ارتفاع الحمادة المذكورة تقريباً وبلدة مرزوق مرتفعة عن
 سطح البحر بنحو ٥٥٩ متراً وبلدة زويله على نحو ٥٣٩ متراً أما من جهة
 مجموع النجد الذى يكون قسمه الأعلى المنبسط عبارة عن الحماد المذكور
 فإن وعورته تكون ظاهرة جداً خصوصاً في جهته الغربية من ناحية بلدة غات
 التى يكون الوصول إليها من أحدور بجافى وقد رأينا فيما سبق أن ميل هذا
 النجد فى الشمال يمتد على مسافة أطول مما هو بالجنوب وبه أحدورات جائية
 ذات تضاريس واضحة فى عدة نقط منه أما فى الجنوب فإن أحدوراته أقل
 ظهوراً وليس لدينا عن جهاته الشرقية معلومات مضبوطة كالمعلومات المتقدمة

والمعروف عنها فقط أن الحمادة الحمراء تقوم فيها مقام تلك الكتلة الصخرية المعروفة بالجبل الأسود الذي يمتد شرقا ويعرف بأسم جبل الحُرُوج وهو كتلة بركانية في الزاوية الشمالية الشرقية من فزان وهناك غير ما ذكر جبال لم تعرض لذكرها ويعلم من الأوصاف والصفات التي مرت أنه لولا جريان بعض الأودية بعد سقوط الأمطار على ندورها ولولا وجود الينابيع المنفجرة هناك كانت بلاد فزان خالية من المياه الجارية وبجهاتها الغربية بحيرات ألا أنها كلها صغيرة جداً ومياهها ملحة وكل النباتات تسقى هناك بمياه الآبار

مناخها وحاصلاتها وحيواناتها - أعلم أن مناخ فزان شديد الحرارة جداً بل محرق في الصيف ومتى هبت رياح الجنوب أصبح الحر مما لا يحتمل حتى بالنسبة للأهالي وقد شاهد السائح دوقرييه المتقدم درجة الحرارة في مرزوق زادت مرتين في الظل عن ٤٤ درجة (٥ يولييه ٢٦ منه ١٨٦١ م) ويحصد الزراع الزرع في شهر مايو والأمطار في فزان قليلة الكمية ونادرة وتثور بهازوايع يرتج لها الجو ترفع الرمال وتملأ بها الفضاء هذا في الصيف أما في الشتاء فأنريج الشمال يجلب معه برداً قارساً ولجفاف الهواء لا يسقط الثلج بها وكثير من أراضيها تغطيها رمال دقيقة مائلة للحمرة وتتركب أراضيها من طبقة جيرية أو صلصالية خالية من المياه على العموم ولكن هناك أماكن كثيرة أخصها الأغوار ومجرى الأودية بها ينابيع غزيرة تخرج على عمق بضع أقدام وتكني لأرواء الأراضي التي متى جرى عليها الماء اهتزت وربت

وأخرجت من النبات شيئا كثيرا ومما يزرعه الأهالى هناك الذرة الصغيرة (العريجة) والذرة البيضاء والسوداء والشعير والحنطة ولكنها قليلة وأهم حاصلاتهم بل أولها فى الأهمية التمر وعليه اعتمادهم تمريا فى الغذاء وهو أيضا من أهم المتاجر لديهم وهم لا يربون الماشية الكبيرة ألا فى وادى الشاطئ أما فى غيره فلا يكون لدى الأهالى عادة ألا المنز والجل هو حيوان الحمل لديهم عموما والخنزير والحمير والجمال قليلة وغالية الثمن بالنسبة لما عداها من الحيوانات وخرافهم سمراء وأذنابها كثيرة المدهن ولحومها هى المستعملة فى فزان ولدى العرب عموما وبالجهاز الجنوبية نوع من النعم طويل الشعر أصله من السودان أما حيواناتهم البرية فأكثرها وجودا النعام والغزلان والنعم البرية والضباع وبنات آوى والثعالب .

سكانها - أن تقدير عدد سكان هذه البلاد تقدير أمضبوط أمر غير ممكن ولكن لما كان المسكون منها قسما صغيرا فقط وكان لا يوجد فى أى جهة من جهاتها مركز مهم مسكون كان عددهم لذلك قليلا جدا ، لأن بلدة مرزوق وهى أهم مدنها لا يزيد سكانها عن خمسة آلاف تمريا ، وينقسم السكان وإحات فزان بطبيعة الحال إلى طبقتين هم الرحل والتموضون ويقسم التموضون داخل مدن وقرى أما الرحل فأنهم ينتقمون وقصاعهم من مكان إلى آخر بين تلك المدن والقرى وهم عرب فى الغالب وقبائلهم ببلاد فزان الأصلية أى فزان الوسطى ثلاث كبيرة فى الرباح بين سكنه والخروج غربا والحصمان وينزلون إلى الغرب

من القبيلة الأولى ثم المجارحة ومنازلهم حول وادى الشاطى المتقدم وفوق
الحمد وألى الغرب من بلدة مرزوق قبائل من التوارك أى البربر وفى الجنوب
الغربي قبائل من التوارك كذلك وبالشمال قبائل كثيرة أخصهم الجُنْتَراد
ويزلون وادى صَفَجِين وأولاد بوسيف والأورِفَلا وغيرهم وكلهم برابرو
استعربوا قليلا أو كثيرا وسكان الجبال الشمالية التى على سهل الساحل مباشرة
أى جبال غريان وكذا جبل قُوسه وغيرها لا يزالون لأن كلهم بربر تقريبا
ويساكنهم كثير من العرب الخالص بين الحمد الكبير وجبل غريان ومما هو
ثابت أن أصل السكان الأقدمين عنصر سودانى وبين الفزانين الحقيقيين
وقبائل كانورى والتبو قرابة قريبة يدل على ذلك ألوانهم وصورتهم الأصلية
وتقائدهم وقد وصفهم بعض السياحين بما تقيح معه صورتهم حيث قال أن
بشرتهم معتمة اللون ووجوههم مفرطحة وخدودهم بارزة وعيونهم صغيرة
وأفهامهم عريضة ومناخيرهم ناثئة غير عريضة وكذلك أنوفهم مفرطحة كماهى
الحال عند السود الخالص أما شعورهم فأنها تشبه الصوف تقريبا وليست
متكاثفة على بعضها وليس فى مجموع جنسهم ما يدل على الشدة والقوة والعزم
واللغة السائدة بينهم الآن هى العربية يتكلمها الكل على السواء أما البربرية
وتنقسم إلى عدة لهجات فيتكلم بها أهالى سكنه وغيرهم كما يتكلم بها التوارك
والجميع من الجنس الأبيض ومن البربر وقد اختلف السائحون فى تقدير
عدد سكان فزان قال بعضهم أنهم ستة وعشرين ألفا وقال آخرون أنهم مائتى

ألف ويتكون من عناصر وأجناس كثيرة مختلفة لأنه يوجد غير الفزانين
 الاصليين أقوام من التبو ومن أهل تينستى بالجنوب وتوارك بالجنوب الغربى
 وبربر بالشمال والشرق ثم عرب متوطنون وعرب وبربر رحل وعبيد
 من برنو وغيرها من بلاد السودان حيث تنتشر لغة حوصا وعبيد آخرون
 من بقية جهات أفريقيا الوسطى ثم محرون وعبيد متاسلون من السود
 المذكورين وأكثر اللغات انتشاراً هناك لغة كانورى أدخلها سودان برنو
 ثم لغة حوصا وقد أدخلها سودان حوصا ويتكلم التوارك بلغتهم وللتبو لغة
 تسمى تيدا وأهالى سكنه ويمساو وادان وكلهم بربر يتكلمون لهجة بربرية
 تشبه كثيراً لهجة غدامس واللغة العربية منتشرة بين الجميع مع ذلك أماسبب
 انتشار لغة كانورى ولغة حوصا بهذه الكيفية فيفسره جيداً كثرة البنات
 والنساء المجلوبات من السودان وقد استمر جليلهن قروناً كما لا يخفى كما تفسره
 أيضاً العلاقات التجارية التى كانت أكثر بكثير فيما سبق منها الآن بين فزان
 والبلاد الواقعة جنوبى الصحراء وقل أن تخلو دار فى فزان من أولاد مختلفى
 الألوان بين الأبيض إلى الأسود وكل هؤلاء الأولاد مهما كانت أمهاتهم
 يعضون كل طفوليتهم تحت نظر أماء سودانيات فيتعلمون منهن لغات السودان
 ومتى كبروا تعلموا العربية التى لما كانت تدرس هى بمفردها فى المكاتب
 كانت اللغة العمومية فى البلاد ولما لها أيضاً من المزايا والفوائد التى
 لا تكون لنيرها

الحالة الاجتماعية والسياسية - أعلم أن الصناعة في فزان معدومة تقريباً فهي قاصرة على عمل منسوجات غليظة من الصوف والقطن ويصنعون حصراً من خوص النخيل ويستورد أغنياؤهم الأقمشة من مدينتي طرابلس والقاهرة ودورهم منخفضة جداً وأغلبها كالأكراخ يبنونها من الطين أو الطوب المجفف في الشمس وفي فزان نحو مائة مكان بين قرية ومدينة منها نحو سبعة يمكن اعتبارها مدناً هي مرزوق وزويله وسكنه وتراجن وزلاً ونسلوه وتكرتبيه وسنجه وأغلبها واقع في الجهات الشرقية والجنوبية منها ويعر الطريق بين مرزوق وطرابلس مباشرة بأراض قاحلة (الحمادة الحمراء) لهذا لم يقم بها لا مدن ولا قرى أصلاً وكان صاحب فزان قبل الفتح العثماني يلقب بسلطان فيقال سلطان فزان كما يلقب غيره من سلاطين أفريقيا على صغر ممالكهم هذا وتنقسم قائممقامية فزان إلى سبعة أقسام قال في معجم البلدان « فزان بفتح أوله وتشديد ثانيه وآخره نون ولاية واسعة بين القيوم وطرابلس بها نخل كثير وتكثر مدينتها زويلة السودان والغالب على ألوان أهلها السود » اهـ ملخصاً

مدن طرابلس وبرقة وفزان

طرابلس - مدينة بحرية وعاصمة ولاية طرابلس إلى الجنوب والغرب من القسطنطينية بينهما نحو ألف وستمائة كيلومتر وإلى الجنوب والشرق من تونس بينهما نحو خمسمائة كيلومتر وبينها وبين مدينة الجزائر ٨٠ كيلومتراً

ويقدرّون سكّانها بنحو ٤٠٠٠٠ نفس ومينائها واقع فوق الجهة الغربية من خليج صغير يحميها من الغرب لسان ينتهى بطرف مستطيل يمتد من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى وعلى استطالة هذا اللسان صخور وجزر صغيرة تمتد فى الاتجاه المذكور ولوردت المسافات التى بين الجزر المذكورة وأطيلت نهاية اللسان المذكور بأقامة جسر لا ووجدوا الطرابلس بنافاة السهولة ميناء مأمون جداً من فعل الرياح الغربية ورياح الشمال ورياح الشمال الغربى أما الآن فإنه بمجرد ما يقوى هبوب الأرياح يدخل فى الميناء من المرات التى تفصل تلك الجزر عن بعضها أمواج ضخمة جداً والسفن التى تحتاج لماء عميق ترسو خارج الخليج المذكور وهو صعب المدخل جداً وأعماقه متغيرة وساحل البحر هناك منخفض مستو حتى لا تمكن مشاهدته من بضع كيلومترات وأول ما يشاهده القادم على تلك المدينة بحر أرووس النخيل ومتى هبت الرياح من الشمال أو الشمال الشرقى أصبحت السفن على خطر أن يقذف بها على الساحل ويحى الميناء أستحكامات مهمة تمتد حولها فى الغرب على اللسان المذكور ثلاثة حصون هى القلعة الجديدة وهى فى نهايته والقلعة الأسبانية وهى خلف الأولى بقليل والقلعة الفرنسية وهى على جزيرة صغيرة بالجنوب الغربى وفى نهاية الخليج قصر كبير داخل قلعة يقيم به الوالى ويحويه من الشرق حصنان أحدهما القلعة الهولندية وثانيهما القلعة الانجليزية والمدينة فنار بنى سنة ١٨٨٠ واقع فى الزاوية الشمالية الغربية منها

وليس لطرابلس ذلك المنظر الكبير المهيّب الذي لمدينة الجزائر وليس لها أيضا جمال مدن السواحل التونسية مثل سوسة ومنستير وغيرها ومع ذلك فإن لها منظرًا يأخذ باللب فيشاهد بالجهة الغربية من خليجها خلف أسوارها النظيفة البيضاء التي تحيط بها جملة دور ومبان يعلو بعضها بعضها تمتد من ساحل البحر وبين دور المحلة العليا منها وهي المحلة التركية عدة منارات وقباب لجوامعها أما قسم المدينة الواقع إلى الجنوب والمجاور للبحر فإن به سراي الوالي وما يتبعها من المباني الجميلة المنظر ويتخلل هذا المنظر البديع نخلات شاهقة متشورة ومتى دخل الإنسان طرابلس رآها على هيئة تخالف ظاهرها وهي صفة تلازم كل المدن الشرقية تقريبا ومع ذلك فإن طرابلس نظيفة الطرق أي أنها ليست كما كانت مدينة تونس قديما وبها شوارع عريضان معتنى بهما جيدا يمتد أحدهما بجانب البحر جهة سورها تحف به من الجانبين دور جميلة واسعة وبه مساكن قناصل أوروبا وتجارها وثانيهما يمتد داخل المدينة وهناك شوارع أخرى لبعضها حنايا وقبوات وهي ممهدة جيدا نظيفة على العموم ومما تمتاز به طرابلس ميدان صغير في الشارع الأول المذكور يقوم في وسطه برج عليه ساعة كبيرة ومن أسواقها سوق العرب وبناءؤه عقود وتباع به الأقمشة وسوق الترك وهو أكثر الأسواق تجارة وبه مخازن لمختلف المتاجر وسوق الخياطين (الترزية) وبه مخازن الخياطين وأغلبهم من اليهود وسوق الحراير وبه معامل لنسج الحرير وبالجهة الجنوبية الغربية من

المدينة محلة اليهود وتعرف أيضا بالحارة وهي قذرة الطرق ولكنها كثيرة الحركة أما من جهة المباني فليس بطرابلس منها ما يذكر ألا الجامع الكبير وسراى الوالى وهي بناء ضخم يشبه القلعة به غير مساكن الوالى وحاشيته أما كن كثيرة لكبار الموظفين وطرق ودهاليز وساحات كبيرة وصغيرة مما لا يمكن السير فيه إلا بدليل ومن المباني أيضا قوس نصر جميل قريب من الميناء كان شيده أحد موظفى الرومان احتفالا بالأمبراطورين مارك أوريل وفيروس ولكنه قد تهدم الآن بحيث أن جوانبه التى كانت من الرخام الأبيض أصبحت لا ترى أما الماء فإنه قليل فى طرابلس وهم يأخذونه من صهاريج قديمة المهدجدا وقد حفروا بها من بضع سنوات أبارا أرتوازية ألا أن مياهها لا تصلح للشرب تقريبا وتجب الرياح معها فى الغالب رمالا من الصحراء فتلقها على المدينة بحيث يتراكم منها تلال كبيرة ربما غطت دورهم وحول المدينة سهل جميل به نخل كثير جدا وبساتين جميلة ودور لكبار الموظفين من الأتراك والأوربيين ودواوير عربية وقرى يسكنها قوم من السود ولا يقل سكان هذا السهل عن ٣٠.٠٠٠ نفس وقد ازداد عدد سكان مدينة طرابلس منذ بضع سنوات حتى أصبحوا أكثر من أربعين ألف نصفهم تقريبا من الأجانب ومنهم نحو ثمانية آلاف من اليهود وبعضهم فى ثروة واسعة وكثيرون منهم يرسلون قوافل إلى بلاد السودان وعدد الأوربيين نحو خمسة آلاف أغلبهم من الماطلين يشتغلون بالتجارة ويتلوه فى العدد

الطليانيون ومن سكانها أيضا قدر كبير من الأتراك بين موظفين وتجار وغيرهم
ومهمهم أيضا بعض القول أوغليه وقوم من جربه وغدامس وتونس وكلهم
يشغلون بالتجارة ثم قوم من كل أجناس السودان يضاف إلى ذلك عرب
وبربر بحيث يمكن القول بأن مدينة طرابلس عبارة عن ملتقى طرق يتلاقى
فيها كل أمم أفريقية وأوربا تقريبا وتجارة طرابلس عظيمة جداً لجودة موقعها
فهي أمم مكان للتجارة بين أوروبا وبلاد السودان وقد بلغت صادراتها سنة
١٨٩٨ و١٩٠٠ و١٩٠١ من الفرنكات للواردات و١٩٠٠ و١٩٠١ و١٩٠٢ للصادرات وتبلغ
قيمة التجارة بين بلاد طرابلس والسودان إلى ما يزيد عن خمسة ملايين من الفرنكات
سنوياً وأشهر الواردات إلى طرابلس المنسوجات القطنية والصوفية والحربية
والخرداوات والسكاكين والأواني الفخارية والسكر والبن والشاي والشمع
والتبغ وغيرها أما صادراتها فأشهرها الحلفاء والملح والجلود والثيران والضأن
وريش النعام والعاج واعلم أن طرابلس مدينة أزلية كانت تسمى أوآيات
وهو لفظ يظهر أنه بربري الأصل وحرفه الرومان إلى أوأ وقد استعمرها
الفيزيقيون ثم تبدل أسمها في وقت لا يمكن تعيينه فصار طرابلس وكان هذا اللفظ
يطلق على كل الأقليم المشتمل على مدن سبراتا (Sabarta) وإيتيس (Leptis)
وأوآ (Oea) التي صارت عاصمة له وقد احتل الفرنسيون مدينة طرابلس بين سنتي
١٥١٠ و١٥٣٠ ثم استولى عليها فرسان مالطة من ١٥٣٠ إلى ١٥٥٠ ثم انتزعها
منهم القائد التركي المسحي طورغود بعد أن حاصرها وهي الآن عاصمة أيلة

طرابلس ومقام قنصل أوربا بها وورد في النشرة الفرنسية المسماة نشرة جمعية أفريقيا الفرنسية الصادرة سنة ١٨٩٩^(١) أن الأتراك يهتمون الآن ويذنون نشاطاً غير ميهود ببلاد طرابلس فقد ضاعفوا منذ بضعة شهور حاميتها تقريباً وهم يسمعون الآن في أعمار جهاتها الخصبه الغير المأهولة ولهذا فأبناهم يرسلون إلى أقليم برقه الذي خربه تيفوس سنة ١٨٩٣ المهاجرين المسلمين من أهالي كريد الذين صمموا على عدم العودة إلى جزييرتهم وقد نُزلوا حول بلدة كرينه في جهات صحبة الهواء جداً وافرة الخصوبة ولا يخفى أن مدينة قورين القديمة قامت فوق نجد كرينه المذكورة واشتهرت بنجاحها وفلاحها ورقها الذي كان لها بسبب المساعي التي بذلتها جالية من أهالي أقریطش كما لا يخفى وتتألف هذه الجهات التي نزلتها جالية كريد الآن من أراض واسعة اشتهرت بخصوبتها ووفرة مراعيها في كل بلاد طرابلس ونبقايا المباني التي يشاهدها السائح ماثلة بين درنه وكرنه تؤيد ما كان نهذه "بلاد من الأهمية والخصوبة قديماً وفي أسفل نجد قورين ينبسط سهل واسع باتجاه الشمالية منه يمتد إلى مرسى سوسة المسماة قديماً أبونيا والتي كانت السفن تتردد عليها كثيراً وقد تداول الناس الآن أشاعة حاصلها أن الحكومة العثمانية عازمت على الاستفادة من هذا المرسى وأنشأت لجنة مهندسين كلفتهم بدراسة الأعمال التي في النية عملها في مرسى سوسة وحلّاحه وجمعها في حالة تسهيل

(١) Le Bulletin du Comité de l'Afrique française de 1899.

الاستفادة منه وأن هؤلاء المهندسين على وشك مغادرة الأستانة للنظر فيما كلفوا به وأنه لو أصلح مرسى سوسه لصار بذلك للأقليم ثغراً بحرياً هو في شدة الحاجة إليه وأن نشاط المهاجرين الكريدين وزكاهم سيوجدان فيها بلا شك ما كان لها من الحياة القديمة وليست يقظة الأداة العثمانية قاصرة فقط على الجهات الشمالية بل يؤكد المارفون أنها تنوى إجراء أعمال سرية بالجهات الجنوبية ومما يذيعونه أيضاً أن الأتراك يتقدمون نحو بلاد كانم ووداي إلى أن قال وقد وجد الكاتبين كازماجو آثاراً لهذه الحركة في بلدة زندر (دامرجو) وأشاعوا أيضاً أن سلطان العثمانيين قد تصالح مع شيخ الطريقة السنوسية القوية وأن هذا الشيخ بعد أن أقام في جنجوب ثم في كفره جنوبي بلاد برقه قد تركها وذهب إلى السودان الأوسط ليمهد كما يقولون الوسائل للجنود التركية ويؤكد بعض الناس أنه ذهب إلى برنو ولكن يظهر أنه ذهب إلى بلاد وداي لا إلى برنو لأن وداي أصبحت الحصن الحصين للسنوسية إلى أن قال وليس كل هذا ما يشاع بل أن الأتراك يسمعون في الاتفاق مع رباح لتوطيد دعائم التجارة بالصحراء التي قد اضطربت منذ بضع سنوات حتى صيرت الوصول إلى نهاية طريقها بالسودان غير ممكن ولكن هذا القول الأخير ربما كان غير صحيح بل المحتمل جداً أن رباح يرغب في الحصول على أسلحة من طريق طرابلس إذا قلنا أنه لا يمكنه الحصول عليها من طريق آخر اه بتلخيص واختصار قال في معجم البلدان

«طَرَابُلُسُ بفتح أوله وبعد الألف باء موحدة مضمومة ولام أيضا مضمومة وسين مهملة ويقال أَطَرَابُلُسُ وقال ابن بشير طَرَابُلُسُ بالرومية والأغريقية ثلاث مدن وسماها اليونانيون تَرَابِلِيطة ألى أن قال وتسمى أيضا مدينة أناس وعلى مدينة طرابلس سور صخر جليل البنيان وهي على شاطئ البحر ومبنى جامعها أحسن مبنى وبها أسواق حافلة جامعة وبها مسجد يعرف بمسجد الشباب مقصود وحولها أنباط وفي بربرها من كلامه بالنبطية في قرارات في شرقها وغربها مسيرة ثلاثة أيام ألى موضع يعرف ببني السابري وفي القبلة مسيرة يومين ألى حد هواره وفيها رباطات كثيرة يأوى إليها الصالحون أعمرها وأشهرها مسجد الشباب ومرساها مأمون في أكثر الرياح وهي كثيرة الثمار والخيرات ولها بساين جليلة في شرقها وتصل بالمدينة تبسخة كبيرة يرفع منها الملح الكثير وداخل مدينتها بئر تعرف ببئر أبي السكوند يُعَيَّرُونَ بها ويحرق من شرب منها فيقال للرجل منهم إذا أتى بما يلام لا يعتب عليك لأنك شربت من بئر أبي السكوند وأعذب أبارها بئر القبة » اهـ

غدامس - ويقال لها أيضا ردامس وتسمى قديما سيداموس وهي مدينة وواحة بصحراء طرابلس على نحو ٩٥ كيلومترا ألى الجنوب والغرب من مدينة طرابلس وعلى ٧٠ كيلومترا ألى الجنوب والغرب أيضا من قابس واقعة فوق نجد يسمى تَنجِرت وترتفع عن سطح البحر بنحو ٤٢٣ مترًا ويحيط بواحتها سور دائري تقريبا يبلغ أكبر قطره ١٥٠٠ متر من الشمال ألى الجنوب

و ١٦٠٠ من الشرق إلى الغرب وبلدة غدامس واقعة في الجنوب والغرب من واحة وسكانها كما هم في أغلب قصور الصحراء منقسمون إلى أقسام صغيرة كل قسم في محلة يحيط بها سور ويسكن غدامس قبيلتان هما بني أوليد وتسكن قسمها الشمالي وبني أوازيل وتسكن قسمها الجنوبي وكل منهما ينقسم إلى أنفاذ والقبيلتان المذكورتان من البربر وبالمدينة أيضا غير ذلك طبقتان من السكان أحدهما عرب وهم ولد بِلِيل والأخرى خليط من المحررين من العبيد والخلاسين وهم متناسلون من غدامسين وأماء سودانيات وتعرف هذه الطبقة الأخيرة أيضا بأسم أثرية ولغة أهالي غدامس بربرية تشبه لهجة نقوسه ولهجة التوارك ولكنهم يتكلمون العربية مع العرب والتمهاج مع التوارك ولغة حوصا مع العبيد السود ويقدر العارفون سكان بلدة غدامس بنحو ١٢ر٠٠٠ نفس وأغلب طرقها جيد جدا مسقوف مما يصيرها مظلمة كثيرا ويتفرع عنها شمالا ويمينا أزقة أعظم منها بحيث أنها تشبه كثيرا سرايب الحصون الحربية كما قال أحد السياحين واعلم أن هذا الشكل في الوضع الذي يقتضيه وقوع المكان بالقرب من مدار السرطان يشاهد أيضا في واحات أخرى بربرية كثيرة مثل واحة سيوه ولغدامس صفة أخرى هي أنه لما كانت دورها متصلة بعضها ببعض تقريبا بأسطحها التي تغطي طرقها فتكون لها سقفا كانت تلك الأسطح عبارة عن طرق مكشوفة متراكبة فوق الطرق السفلى وقد خصصوها باستعمال النساء فيها أسواق بهما يحتاجن

أليه أما الطرق المظلمة السفلى التي يدخل إليها الضوء من منافذ قليلة ذات شبايك فكون للرجال والعبيد والأماء ويوم الجمعة يوم عيد عندهم يحتلط الناس فيه بعضهم وهم يجتمعون بعد صلاة الجمعة في ميدان صغير في وسط المدينة تقريباً يقوم به في ذلك اليوم سوق تباع فيه بالزاد جمال وضأن وخرز وغير ذلك من الأشياء الكثيرة والبساتين التي تحيط بفداس دائمة الخضرة وينبت بها أشجار النخيل والتين والشمش والفرجل ونباتات بقولية كثيرة ويزرعون في أماكن من ضواحيها الحنطة والشعير والذرة ولكن بمقادير قليلة ومزروعاتهم لا تسقى من مياه الأمطار لأن المطر هناك نادر جداً بل شربهم وسقى مزروعاتهم من عين غزيرة الماء في وسط المدينة ومن آبار عمقورة أيضاً بالقرب من العين المذكورة والعين المذكورة هي السبب في وجود غداس وبقائها وسط بلاد جرداء وتبلغ درجة حرارة هذه العين في ما جل كبير قديم البناء هناك حيث تخرج السواقي التي توزع الماء ثلاثين درجة وربع لا تتغير لا صيفاً ولا شتاء يدل ذلك على أن ماءها معدني حار والسور الذي يحيط بهذه الواحة يقبها أيضاً من الرمال المتحركة وهو متخرب ومع ذلك فأنهم لو تهدوه بالأصلاح لكان غير كاف بالمرّة لحفظ البساتين من النهابين السلايين ومن باب أولى من حفظ المدينة من عدو يهاجمها فلو احتيج لحماية ذلك السور الذي يبلغ طوله نحو ستة كيلومترات للزم أعداد قوى أكثر بكثير مما يمكن أن يخرجها الواحة المذكورة ويشغل بزراعة البساتين

هر قليل من سكانها لأن كل أعمال أهالي غدامس منصرف في الطرق الكبرى
 بالصحراء وفي أسواق سواحل بحر الروم وأسواق بلاد السودان لأنهم قوم
 كأنهم لم يخلقوا ألا للتجارة فهم يترددون على أسواق تونس وطرابلس
 ومصر وتركيتي أوروبا وآسيا وأن كان ذلك في القليل كما يترددون على أسواق
 أن صالح وتبكتو وكانو وكوكا حيث قد احتسروا التجارة فيها غالبا وكاهم
 مسلمون على مذهب مالك وبعضهم على مذهب الأباضية كالكثير من البربر
 ولما كانت غدامس واقعة في مكان قريب نوعا من ثغور بحر الروم (قابس
 وطرابلس) بحيث يمكنها أن تأخذ مصنوعات أوروبا وتصرف فيها ما تجلبه
 قوافلها من السودان من المتاجر كانت ولا بد أن تبقى زمنا طويلا إحدى
 المراكز المهمة لتجارة بلاد السودان الأسلامى وقد كان للإنجليز بها فيما سبق
 قنصل واعلم أن غدامس مدينة قديمة جدا في التاريخ وقد ذكرها بأسم
 سيداموس في جدول المدن والأهم الأفرقية العديدة التي تزينها انتصار
 القائد كورنيليوس بلبوس (Cornelius Ballus) في سنة ١٩ ق م وقد اكتشفوا
 في الأيام الأخيرة بواحيها كتابات رومانية مما يؤيد حكم رومية لها قال أبو
 الفداء عند ذكره غدامس أنه يوجد ألى ما فوق يذوعها بقايا بناء جميل
 لا يزال الآن وهو من عمل الرومان وقال أيضا ليس لأهالي غدامس رئيس
 مطلق التصرف بل يحكمهم شيوخ المدينة وذكر ابن خلدون تقدم غدامس
 في التجارة وقال أنها إحدى المنازل التي ينزلها الحجاج القادمون من السودان

ومنها تخرج التجار إلى الإسكندرية والقاهرة بعد الاستراحة من سفرهم في الصحراء وقد كانت غدامس في زمن تسلط المسلمين تابعة أولا لتونس ثم أضيفت إلى بلاد طرابلس وهي الآن قاعدة قاعدية تشغل الشمال الغربي من فزان ولا تبعد حدود بلاد الجزائر عن غدامس إلا بنحو خمسين كيلومترا إلى الشمال والغرب وهو تحديد أسى كما لا يخفى وقد نجم عن الروابط الحديثة مع بلاد السودان من وقت استيلاء فرنسا على بلاد الجزائر تردد الأوربيين على غدامس

غات - ويقال لها أيضا رات مدينة بالصحراء الوسطى على نحو ٥٨٢ كيلومترا إلى الجنوب والشرق من غدامس ٣٩٥ كيلومترا إلى الجنوب والغرب من مرزوق وترتفع عن سطح البحر بنحو ٧٨٧ مترا وتشغل واحة غات قاع واد يمتد من الجنوب إلى الشمال يشرف عليه من الشرق جبال يقال لها أكاكو ويظن أن هذا الوادي كان فيما سبق نهرا يصب في حوض نهر أغرغر ولكن الرمال قد سدته الآن شمالا وتذهب أنياه التي تسيل فيه في بعض الأوقات فتنور في الرمال أما مدينة غات فأها مختطة على نشد من الأرض واقع في أسفل جبل صخري وحولها سور وهي مقسومة تقسيما هندسيا تقريبا إلى ست محلات يفصلها طرق تنتهي بستة أبواب وهذه الطرق التي على مثال ما كان منها بغدامس وسيوه وغيرهما من مدن البربر القديمة تشبه الدهايز وهي ذات قوات لا يدخلها الضوء إلا من فتحات

المروفة في كتب العرب بأسم تنناتا والتقاليد التجارية القديمة لم تتغير أصلا
بتلك الجهات فالتجار منذ قرون يسرون في طرق لم تتغير وهي طرق عينها
المادات والقبائل التي يدفع لها التجار أموالا في مقابلة المرور والحماية وعلى
ذلك كان يتعين على أهالي غات في ذهابهم إلى تمبكتو أن يقطعوا مسافة طويلة
مارين بواحة توات سيما والتجارة مع بلاد الجزائر الفرنسية مباشرة يمنعمهم
منها الأتراك والسنوسيون الذين أصبح نفوذهم كبيرا في غات من نحو نصف
فرن ولهذا اضطرت غات لأن تجلب ما يلزمها من الأقوات والحاجيات
من الأسواق البعيدة التي بالبلاد الواقعة بين النيجر وبحيرة شاد لأن زراعتها
وصناعتها لا يقومان ألا ببعض ما تحتاجه من ذلك وليس بالبساتين التي حولها
من النخيل إلا نحو أربعة آلاف وبين هذا النخيل يقيم التوارك في دور
صغيرة مبنية من الحجر أو الطين أو في أكواخ مصنوعة من أغصان الشجر
أو تحت خيام من الجلد ولا يوجد في ذلك الوادي غير غات من المدن إلا
مدينة يقال لها بركات وسكانها من التوارك وهي على نحو عشرة كيلومترات
إلى الجنوب من غات وهي بلدة صغيرة نظيفة لطيفة أكثر ماء ونباتات من
غات ومنظرها من المناظر الجميلة التي يصادفها السائح في تلك الأرجاء أما
الجبال التي بخارجها فأنها جرداء سوداء وعرة ومع ذلك فأن في تلك البلاد
من الاطلال وبقايا المدن ما يدل مع قحويتها على أنها كانت عامرة في وقت
من الأوقات وحتى يقول الأهالي أنه قد كانت بجيل أكاكو المذكور مدينة

قديمة تدعى تَدْرَزَت حيث لا تزال توجد شجيرات من الآس جلبتها ألى
 هناك من غير شك أمة اشتغلت بالزراعة كما يوجد نقوش محفورة فوق
 الصخور والحيوانات المنزلية في غات هي الأبقار الدريانية وهو الحيوان
 الوحيد الباقي من نوع كان يكثر فيما سبق يبلاد طرابلس أى وقت أن كانت
 الأمطار بها أكثر مما هي الآن وكانت أوديتها الجافة الآن نهيرات حقيقية
 وألى الشمال من غات هضبة صخرية على شكل هلال أحديذها إلى الجنوب
 ولها قمة مسننة وهي واقعة بين درب أجيلاذ الضيق المذكور وبين واد واقع
 عند القاعدة الغربية من جبال أكاكو وتسمى هذه الكتلة المنعزلة أيدِين
 وتعرف أيضاً بقصر الجن يقولون أن الجن يأتون أليها من البلاد الواقعة حولها
 على نحو ألف فرسخ ويجمعون بها للتدبير مفسادهم وشروهم وقد كاد السائح
 ريشردسن (Richardson) يهلك عندما أراد الصعود عليها وحاول كذلك
 السائح برت ولكنه لم يتمكن من الوصول ألى قمتها ويعتقد الأهالى أن عدم
 نجاح كل من ريشردسن وبرت سببه ما استولى عليهما من الفزع والذهول
 عند اقترابهما من قمتها ويعلم من بعض الروايات أن غات ليست من المدن
 الأزلية بل قدمر عليها من يوم أن أسسها بربر أهاجن وغيرهم من بربر تلك
 الأطراف نحو خمسة عشر جيلا ولم يذكرها أحد من جغرافى العرب بالقرون
 الوسطى غير ابن بطوطة فيما نظم (القرن الرابع عشر من الميلاد)

وقد أصبحت هذه الواحة تابعة للدولة العثمانية بصفة رسمية منذ سنة ١٨٧٤

ولها باجندوم وظفون وكان التوارك هاجوها واستولوا عليها سنة ١٨٨٦ ألا أن الأتراك عادوا واستردوها منهم بعد ذلك بسنة وأول سائح زار هذه الواحة هو ريشردسن المذكور في سياحته الأولى سنة ١٨٤٥ ذهب إليها كأحد الناس بمفرده وليس معه لا سلاح ولا آلات وفي سنة ١٨٥٠ سافرت إليها البعثة المؤلفة من ريشردسن وبرت وأوفرفيج (Overweg) وكان معها كل ما يلزم للسياحة والأكتشاف ومع ذلك فقد كادت مشاق كثيرة والذي أثار عليها الأفكار وسبب لها العناء مكتوب الحكومة الأنجليزية الذي كانت تحمله وكان يخص بمسألة منع تجارة الرقيق الأسود وفي سنة ١٨٥٨ سافرت إليها قافلة فرنسية صغيرة كان دليلها شاب جزائري يسمى أسماعيل بودربا كان ترجانا ببعض مصالح بلاد الجزائر ألا أنها منعت من دخول المدينة المذكورة وفي سنة ١٨٦١ عزم السائح الفرنسي دوفريه على زيارة غات ولكنهم أوقفوه على نحو ثمانمائة متر من أسوارها لأن السكان كانوا أقسموا بأنهم يقتلونه إذا دخل مدينتهم وحاول بعده آخرون زيارة غات فلم ينجحوا ثم تمكن سائح ألماني يسمى أرون فون باري (Erwen Von Bary) من دخولها سنة ١٨٧٦ ولكنه قتل في عودته سنة ١٨٧٧ وهمّ بعده مكتشفون آخرون بزيارتها فلم يوفقوا مرزوق - قاعدة بلاد فزان وعلى نحو ٧٥ كيلو مترا إلى الجنوب والشرق من مدينة طرابلس وترتفع عن سطح البحر بنحو ٤٥٠ مترا ويقدر أن سكانها بنحو سبعة آلاف وهي مختطة في النهاية الشرقية من وهدة تعرف بالخرقة

يزيد طولها عن مائة كيلومتر ويختلف عرضها بين خمسة عشر كيلومتراً وعشرين كيلومتراً وليس سور مرزوق بالمرتفع ولا بالقوى وهو من الطين وعليه أبراج ويمتتون بالمحافظة عليه جيداً ويقسم المدينة طريق كبير إلى قسمين متساويين تقريباً بكل منهما طرق وأزقة أغلبها ضيق متعرج ودورها من الطين الذى يخالطه الملح ولمرزوق قصبة بها ثكنة عسكرية ومسجد صغير كما بها القصر أو القلعة الحقيقية وبه يسكن القائمقام هو وموظفو الأتراك وسكان مرزوق خليط من كل أمم أفريقيه وغيرهم من التركى الأبيض الأوروبى إلى الأسود الأبنوسى الأفريقى ويتكلم الناس فى مرزوق بكل لغات أفريقيه الشمالية تقريباً كالبربرية والعربية والتركية ولغات التبو وحوصا وبرنو وغيرها وفى سوقها كل المأكولات كاللحم^١ والخبز والخضراوات وكل حاصلات أفريقيه الوسطى وحاصلات أوروبا ومع ذلك فليس لسوقها أهمية أسواق واحة تافيلت ويقول الأهالى أن مرزوق بنيت من نحو ستمائة سنة ولا يعلم السبب الذى حمل حكامها على بناء هذه المدينة فى سهل كثير المستفدرات يتصاعد منه فى الصيف أبخرة مضره بالصحة جداً مع أن هناك من الأماكن الصحيجة الهواء ما كان يجب أن تبنى فيها وربما كان أصدق تعليل لذلك كون مرزوق مبنية على الطريق الأصلية لمرور القوافل الواقعة عند مدخل المسالك والدروب التى تخترق نجد أفريقيه ذاهبة نحو بلاد السودان ولرداءة مناخ مرزوق كان كل الأجانب تقريباً حتى السود منهم

يصابون صيفاً بالمalaria وبالحُميات الخبيثة والحَر هناك شديد لا يطاق كما هو في كل بلاد فزان ودرجة الحرارة تكون بين ٥ و ٦٠ في الشتاء فقط وفي الصيف تتراوح عند شروق الشمس بين ٤٤ و ٤٥ درجة في الظل وتصل إلى خمسين وستين درجة في الشمس وروى السائح نختيجال عن الشيخ محمد التونسي (١) السائح وكان نزل مرزوق منذ أكثر من خمسمائة سنة قوله في وصف مرزوق « كيف تمكن الميعة في بلاد ليس بها طعام يتلذذ به آكله ولا تسقط بها قطرة ماء والأنسان هناك كالحيوان يكتفى ببعض تمرات وتنتشر بها الحمى انتشاراً مريعاً والخنطة فيها غذاء الملوك والزبدة ليست بأقل من حجر الفلاسفة وجوداً وحيث الأنسان هو والجمل يتنازعا البرسيم الذي تأكله المجترات

(١) هو الشيخ محمد بن عمر التونسي سائح شهر ولد بمدينة تونس سنة ١٨٨٩ أتى القاهرة صغيراً ثم دخل الأزهر وبعد أن نال منه درجة علمية ذهب للاتحاق بوالده سنة ١٨٠٣ وكان والده من حاشية سلطان دارفور فأقام بدارفور عدة سنوات كان أثناءها موضع احترام السلطان محمد فضل ثم غضب عليه السلطان وسجنه ثم عاد فأطلق سراحه وبعد ذلك سافر إلى بلاد وداي ومنها عاد إلى مدينة تونس ثم عاد فغادر تونس ذاهباً بعد موت والده ولم يأخذ شيئاً مما تركه له ميراثاً وعاد إلى القاهرة حيث توظف بوظيفة كاتب في بعض الأليات العسكرية المصرية وذهب إلى بلاد مورده ثم تعين سنة ١٨٣٢ مصححاً لما يطبع من الكتب بمدرسة أبي زعبل وشهرته بأوربا بسبب سياحته بأفريقية الوسطى وقد سمع منه هذه السياحة الدكتور الفرنسي مسيو برُّون (Perron) ناظر مدرسة الطب بالقاهرة وطبعت بالعريّة لأول مرة في باريس سنة ١٨٥٠ وقد ترجمت مرّتين إلى الفرنسية الأولى سنة ١٨٤٥ والثانية سنة ١٨٥١

من الحيوانات وتساوى البيضة نصف مثقال من الذهب « اهو محيط بحفرة مرزوق كثنان ومستغدرات ملحّة ولكن الشيء المدهش أنه ينبع بتلك الحفرة عيون عذبة الماء ومزارعها موزعة بغير نظام فتارة تكون شريطاً ضيقاً وتارة تكون أرضاً شجراً وتكاد الصحراء تلامس أسوار المدينة من الجنوب الشرق وأجل مزارعها ما كان إلى الشمال منها وهم يزرعون بها الحنطة والشعير والخضراوات وبواحة مرزوق أكثر من ثلاثين نوعاً من التمر والتخيل بها كثير جداً حتى يزيد ما تأخذ عليه الحكومة العثمانية منه من الضرائب عن المليون عدا وقيم بهذه المزارع والبساتين من السكان ما يزيد عددهم عن سكان المدينة ودورهم ومساكنهم موزعة في كل أرجائها بحيث لا يكون من ذلك قرية أو مدينة وحده مرزوق الذي بالشمال والغرب من واحتها يفصلها عن وادي يدعى لاجال وهو نجد مستوى السطح كثيراً ألا ما كان منه في النهاية الشمالية حيث يوجد جبل أجرد يسمى أمسالك وبهذا الحماد فجوات حفروا بها آباراً وقامت ببعضها واحات منها واحة تدعى جودوا يمر بها أغلب القوافل المترددة بين مرزوق وبلاد طرابلس والحماد المذكور ضيق كثيراً في جهاته الغربية بحيث يمكن أن يقطع في يوم وهو عرض في جهاته الشرقية وينتهي بأراض حجرية تعرف بالسريرتشرف من الشمال على مرتفعات جيرية يسميها الأهالي الحروج الأبيض ويقول العرب أن بها هياكل تامة من حيوانات بحرية كبيرة كما رواه السائح هنري دو فرييه في كتابه الذي ألقاه في

توارك الشمال المطبوع في باريس سنة ١٨٦٤ أما الجزء الغربي من هذا الحما في حده جنوباً واد ضيق جداً يدعى إيرجوش وبعده تكون نجوم حجرية تمتد حتى بلاد التبو ليس في قراراتها من النبات إلا أشجار صغية ومع ذلك فهي نادرة والجهة الشرقية من الحفرة الكبيرة التي بها مرزوق تقسمها أراض واسعة جرداء حجرية إلى قسمين متميزين أحدهما غرباً وبه واحة مرزوق كما تقدم والآخر شرقاً وبه عدة واحات تمتد على مسافة طويلة تسمى بالواحات الشرقية

سكنه - أو سوكنه مدينة واقعة إلى الشمال والشرق من فزان على نحو ٤٨٠ كيلومتراً إلى الجنوب والشرق من مدينة طرابلس وعلى نحو ٣٨٠ كيلومتراً إلى الشمال والشرق من بلدة مرزوق وهي قاعدة واحة جفرة وترتفع عن سطح البحر بنحو ٣١٥ متراً وقد بقي سكانها زماً طويلاً على استقلال لا يدفعون أموالاً لا إلى طرابلس ولا إلى مرزوق فكانت جمهورية صغيرة قوية وكان كل من ناله أذى أوحيف التجأ إليها وسكانها الآن يلفنون نحو ٦٠٠٠ نفس وكانوا من قبل أكثر من ذلك كثيراً ومسطح واحتها يبلغ ألفي كيلومتر وهي مستطيلة ممتدة من الشرق إلى الغرب ويطل عليها من كل أطرافها جبال ترتفع عما جاورها من السهل بنحو مائتي متر وفي جنوبها منحدرات الجبال السوداء وبها صف من التلال يمتد من الشمال إلى الجنوب ولا يتصل ببعضه في بعض نقطه والتلال المذكورة تقسم هذه الواحة إلى قسمين متساويين

تقريباً في كل منهما بساتين و غابات من النخيل وسهول وأراض حجرية وبحيرات ملحة وفي قسمها الشمالى وهاد رملية لا يظهر الماء فيها على وجه الأرض إلا نادراً في واد يعرف بوادى مسيغر وهو يمتد حتى خليج سرت الكبير ولا يشغل النخيل والمزارع والبساتين إلا نحو العشر فقط من مسطحها والماء في بعض هذه المزارع لذيد الطعم ومع ذلك فإن السكان يفضلون السكنى بجانب العيون المرة المياه وهواء هذه الواحة من أصح الأهوية في بلاد الصحراء وليس بها من الأمراض غير الحميات المتقطعة والرمد نادر بها والأمراض العادية الأخرى التى تكون في واحات فزان لا تدخل هذه الواحة ومع ذلك فسكنها بين سودان وبربر وأن كانوا أصحاب الأجسام أقوياء البنية ألا أن هيأتهم تدل على السقم وبشرتهم مصفرة وقل أن يوجد بينهم شخص يتصف بانتظام الملامح والعرب وأن كانوا هم أصحاب النفوذ وهم الذين أدخلوا الدين الإسلامى بهذه الجهات وأرقى من البربر ألا أنهم مع ذلك يعترفون للبربر بحق ملكية الأرض ولذلك بقيت الأرض لهم فليس للعرب إلا حق امتلاك الأشجار وكثيراً ما تحدث بينهم لذلك مشاعبات ووقائع حتى يضطر الحرس العثمانى بفزان للفصل فيها واعلم أن السكان بهذه الواحة قد اختلطوا ببعضهم اختلاطاً يصعب معه الآن تمييز العربى من البربرى وهناك تقاليد قديمة جروا عليها تحفظ بموجبها الحقوق الأولى فى الملكية فإن الأبْن مهما كانت أمه يعتبر دائماً تابعاً للأمه التى منها

والده وسكنه أو سوكنه مدينة جيدة البناء وعلى سورها ثلاثة وثلاثون برجاً ولها سبعة أبواب أخشابها من النخيل وبها خمسة مساجد وأربع مدارس وقلة كبيرة بعض جهاتها متخرب يمكن للأُنسان الأشراف منها على كل جهات الواحة والسكان جلهم من البربر وفي لغتهم ألفاظ عربية كثيرة والبساتين التي حول سكنه معتى بامر هاجدا ومن حاصلاتها الوافرة الجيوب والباذنجان الأحمر والأسود والثوم والبصل وغيرها من الخضراوات وسكانها هم وعبيدهم لا يكفون للحصيد لهذا كان كثير من أهالي فزان يأتون ويشتلون بالكرام مدة ولا يشغل أهلها الآن بتربية النعام مع أنهم كانوا يكتسبون من ذلك مكاسب وافرة والتجارة كلها تقريباً في يد غير أهاليها لأن أهاليها يميلون إلى الاشتغال بالزراعة على الخصوص ومنها تكون ثروتهم

زُوَيْلَة - مدينة في فزان واقعة إلى الجنوب والشرق من مرزوق بينهما نحو ١٥٠ كيلومتراً وترتفع عن سطح البحر بنحو ٥١٣ متراً وسكانها قلائل يلبثون نحو ألف نفس وهي مخنطة وسط الواحة الشرقية المتصلة بواحة مرزوق وكانت زويله فيما مضى قاعدة لفزان ولا يزال أهل السودان يسمون بلاد فزان بلاد زويله وأغلب سكانها أشراف يتصلون نسباً بالنبي عليه الصلاة والسلام لهذا كانت زويله تلقب ببلد الأشراف وهم متحمسون في دينهم ويمنعون الأجانب من دخولها قال السائح هورنمان (Hornemann) «كانت زويله فيما سبق مكاناً للتلقي القوافل وكان لها سلطان وكانت أكبر مما هي الآن بنحو ثلاث

مرات ولا يزيد محيطها في الوقت الحاضر عن ميل واحد ودورها مثل دور
أوجلة طبقة واحدة لا يتعد أيها الضوء إلا من الأبواب وفي نحو وسط
المدينة بقايا بناء قديم يتألف من عدة طبقات وحيطانه سميكة ويقولون أنه كان
فيما سبق قصرًا وخارج المدينة مسجد عتيق قريب من سورها الجنوبي لا يزال
على حالة جيدة يستدل به على ما كان لزويله من الأهمية والرقى السابقين وفي
وسطه صحن واسع حوله أعمدة ضخمة خلفها عرش عريض يؤدي إلى أما كن
مختلفة تابعة للجامع المذكور وعلى مسافة صغيرة من المدينة مباني قديمة مرتفعة
هي قبور أشرف استشهدوا في قتال مع كفار تلك النواحي وكانوا أغاروا
على بلادهم والأرض حول زويله منبسطة خصبه كثيرة المياه والنخيل بها كثير
جدًا ويظهر أن سكانها يقبلون على الزراعة أكثر من سكان البلاد المتاخمة
لهم اه وقد فتحها عقبة بن نافع بعد فتح برقة

بنغازى - مدينة بحرية وقاعدة إقليم برقة واقعة على الساحل الشرقى من
خليج سرت وهى تشغل بعض المكان الذى كانت فيه مدينة برنيق القديمة
التي كانت تسمى قبل ذلك هسبريد (ذلك بلا شك لأنها كانت أبعد مكان
للغرب ببلاد بنطابول) وقولنا أن بنغازى تشغل بعض لا كل مكان المدينة
القديمة ذلك لأن أنقاض برنيق مدفونة تحت الرمال خارج المدينة الحالية
قال الكبتن پتشي أن برنيق قد زالت من السهل الجميل الذى كانت فيه فيما
سبق وقام على أطلالها مدينة عربية حقيرة أو بالأحرى قامت هذه المدينة

فوق الأرض التي تغطيها لأن أهميتها وآثارها هي الآن تحت الأرض وبنغازي الحالية مخططة فوق لسان من الأرض محصور بين البحر ومستنقعات ملحة تجف صيفاً وميناءها إلى الجنوب منها وقد أغارت عليه الرمال وكانت السفن الكبيرة ترسو فيه فيما سبق أما الآن فهو لا يقبل إلا السفن الصغيرة وفي بنغازي قلعة يقيم بها الحاكم والحامية مبنية فوق رأس من الأرض يطل شمالاً على مدخل الميناء وهي خارج المدينة بقليل وسكان بنغازي عرب بينهم بعض اليهود ويبلغون ٢٠.٠٠٠ نفس ومن صادراتها الأصواف والمماشية والخطة ترسلها إلى مالطه على الخصوص

دِرْنَه - مدينة بحرية ببلاد برقه بينها وبين مدينة طرابلس ٩٢٦ كيلومتراً على خط مستقيم وبينها وبين بنغازي ٣٣٣ كيلومتراً يفصلهما عن بعضهما الجبل الأخضر ويقدر أن سكانها بنحو ٣.٠٠٠ نفس وهي رأس عمل أداري وبها قلعة صغيرة وحامية كذلك وضواحيها غاية في الخصوبة لوجود مجرى ماء غزير يسقي بساقيها وهو بعد أن يحترق المدينة يصب في البحر وتوجد بها كل أنواع الثمار كاللوز واللبنون والبرتقال والكباد وهو بها في غاية الجودة والجمال ولها ميناء لا يسع إلا الصغير من السفن أما الكبيرة فترسو على نحو ثلاثمائة متر من الساحل حيث عمق الماء نحو عشرة أمتار وليس بين درنه والبلاد الأجنبية مواصلات مباشرة إلا ما كان بينها وبين جزيرتي كريد ومالطه وتصل إليها ما تحتاجه من بنغازي في البحر صيفاً وبالقوافل

شتاء ولولا كثرة شعب البدو النازلين حولها لوصلت إلى درجة تجارية معتبرة لتوسطها بين بنغازى والأسكندرية وكان لهذه المدينة أهمية مدة الرومان وكانت تسمى دِرِينْس يدل على ذلك كمية الأحجار التي أخذها العرب من أطلالها وبنوا بها سور المدينة الحالية وكذا دورها وقلعتها ودرنه واقعة في وهدة من الأرض بين جبلين وهواؤها رديء لوجود مستنقعات حولها ولقيضان المياه في فصل الأمطار بحيث يتخلف عنها نقائع تتبث عنهار ورائح كريهة وقد هم الأميرال الفرنسيون (Ganteaume) بأن ينزل فيها جنوده وقت أن أغار الفرنسيون على مصر ولكنه لم ينجح واضطرت أيضاً الممالك المتحدة بأمر يقا لأخلاها لرداءة مناخها بعد أن احتلتها زمناً في القرن الماضي

طَبْرُقه - ويقال لها مرسى طَبْرُوق وهى مرسى بأقليم برقه إلى الشرق من بنغازى بينهما نحو ٣٨٠ كيلومتراً في مكان موافق جداً بين طرابلس والأسكندرية ويمتد خليجها من الغرب إلى الشرق على نحو ثلاثة كيلومترات ومتوسط عرضه كيلومتر واحد وهو بين شبه جزيرة جبلية تمتع عنه فعل البحر والرياح من الشمال وبين صخور نجمد مريك من الجنوب ويمكن للسفن الكبيرة أن ترسو فيه لأن عمقه في كل جهاته يساعد على ذلك ويخرج منه جون صغير عريض مأمون من كل الرياح الأرياح الشرق ومع ذلك فهي أقل الرياح شدة في هذا الساحل ولو أقيم على مدخله جسر

لصد الأمواج لكان هذا الميناء كميناء الأسكندرية وسرقوسه في الاتساع
أى كان من أحسن ميناءات سواحل أفريقيه ولهذا كان الملاحون والتجار
يترددون منذ الأزمنة الغابرة على هذا الخليج وكان الأغريق أسسوا عند
شبه الجزيرة المذكورة الواقعة الى الشرق منه مدينة أسمها أنتيبرغوس
(Antybergos) بقيت قائمة زمن الرومان وبعض أطلالها ماثل للآن وهناك
خرائب قصر عربي فوق الحافة الشمالية من الخليج المذكور يستدل منها على أن هذا
المكان كان مسكونا في الأعصر الوسطى مع أن ما جاوره من البلاد كان
غير مأهول ويتردد عليها الآن بعض الزوارق والسفن وقد شاهد برت
السائح سنة ١٨٤٧ سوراً من الحجر كان بمضه قائما وهو يقول أن هذا
المكان كان فيما غير من الأزمان مرسى للحجاج الذين يقصدون واحة
جوبيثير أمثوث (سيوه) وفي سنة ١٨٦٩ أقام الأتراك به ثكنة من
الأخشاب وأنزلوا بها حامية صغيرة وفي سنة ١٨٨٣ تمكن موسيو مامولى
(Mamoli) الذى كانت أرسلته الجمعية الجغرافية التجارية فى ميلان من الوصول
الى طبروق فلم يجد بها الا القليل من السكان وليس لهم قائد كما لم يجد بها جنديا
واحدا تركيا وفي السنة المذكورة وصلت الى تلك النقطة مدفعية ألمانية كان
عليها السائح شونيفرت (Schweinfurth) وتمرت على إطلاق النار هناك
ولهذا السبب من غير شك عادت الحكومة العثمانية فاحتلتها بفرقة من
الجندمة أنزلتهم فى الثكنة المذكورة سابقا وليست طبروق بلد أو قرية

بالمعنى الصحيح بل سكنها قوم من البدو يقيمون في خيام ويتردد عليها بعض السفن الشراعية لأن زاوية جنوب التابعة للسوسى تأخذ ما يلزمها من هذا المرفأ

مصراته - مدينة من أعمال بلاد طرابلس الحقيقية على خليج سرت بالقرب من رأس يسمى بأسمها وهي إلى الجنوب والشرق من مدينة طرابلس بينهما نحو ١٩٠ كيلومتراً ومصراته وأن كانت رأس عمل يتبعه أكثر من أربعين قرية إلا أنها بلدة صغيرة تتألف من دار من الحجر وفنار لهداية السفن وأكواخ متوزغة تحت أشجار الزيتون والنخيل ومع ذلك فأنها ذات أهمية لأنها مكان بيع وشراء للقبائل النازلين في أطرافها ومن أهم مصنوعات أهاليها البسط والحصر وغرارات يصنعونها من شعر المعز والجمال وفي مصراته دار سيدى المدينى شيخ الطريقة المدنية وكانت مصراته فيما سبق مهمة مثرية فكانت تتجر مع البندقية ومنها كانت تخرج أغلب القوافل الذاهبة إلى فزان هذا ولا تزال قوافل مدينة طرابلس تسير للآن على ساحل البحر حتى مصراته لتجنب في سيرها جبال غوريان لأن سكانها كثيراً ما يعتدون على القوافل فينبهونها

أَوْجَلَه - واحة في الحد الشمالى من الصحراء الكبرى على نحو ستين ساعة إلى الجنوب والشرق من بنغازى وعلى نحو تسعين ساعة إلى الغرب من سيوه وعلى نحو ٢٢٨ ساعة إلى الشمال والشرق من مرزوق وقد اشتهرت

منذ الأزمنة القادرة بمجودة تمرها وهى فى وهدة تكتنفها الرمال من كل جهاتها والقادم عليها من بعد يشاهد كتلة من الأشجار والنباتات قائمة وسط الصحراء وطولها من الشرق إلى الغرب يوم تقريبا وبهذه الواحة بلدتان يمكن أن يكونا مدينتين هما أوجلة وجالو وأوجله مخططة فوق ربوة صغيرة حولها سور من الطين يمكن أن يسع خمسمائة دار وقال البكرى عند كلامه عليها أنها كثيرة السكان جداً أسواق ومساجد كثيرة وقال أن أوجلة أسم للبلاد أما المدينة فأسمها أرزاقية وقد أضحت جالو الآن ذات أهمية أكثر من أوجلة سواء فى سكانها أو كثرة نخيلها كثرة عظيمة جداً حتى أنه ينفى كل أراضيها وهى على نحو ثمان ساعات إلى الجنوب والشرق من أوجلة ويقول سكانها أنهم عرب من المجاورة بخلاف سكان أوجلة فإنهم من أصل بربرى ولقبتهم بربرية وأن كانوا يعرفون العربية أيضاً وبواحة أوجلة قرى أخرى كثيرة ومن حيواناتها الثعلب وابن أوى والذئب واليربوع والدلق لا غير ويأتى إليها كل سنة أحد موظفى الحكومة العثمانية لجباية الخراج وهو هناك على النخيل وبين واحة أوجلة والقاهرة مواصلات كثيرة بواسطة سيوه وقد زارها أربعة من سياحى الأفرنج ووصفوها فيما كتبوه وهم هورنمان (Hornemann) سنة ١٧٩٨ وباشو (Pacho) سنة ١٨٢٥ وجيمس هملتن (James Hamelton) سنة ١٨٥٢ وبورمان (Bourmann) سنة ١٨٦٢ قال فى معجم البلدان « أوجلة بالفتح ثم السكون

وفتح الجيم ولام وهاء مدينة في جنوبي برقه نحو المغرب ضاربة إلى المغرب قال البكري من مدينة أجدابية إلى قصر زيدان الفتي ثلاثة أيام ثم تمشي أربعة أيام إلى مدينة أوجله وهي عامرة كثيرة النخل وأوجله أسم للناحية وأسم المدينة أرزاقية وأوجله قرى كثيرة فيها نخل وشجر كثير وفواكه ولدينتها أسواق ومساجد ومنها إلى تاجرقت أربعة أيام ومن أوجله إلى سنترية لمن يريد واحات عشرة أيام في صحراء ورمال اه

كفره - ويقال أيضا الكفره مجموع واحات في صحراء لويه إلى الجنوب من بلاد طرابلس وإلى الشرق من فزان وتشغل وهددة واسعة أوعدة وهاد وهي في منتصف الطريق تقريبا بين بحر الروم (ساحل برقه) وبلاد السودان (وداي) وبينها وبين آخر بئر إلى الشمال مسافة تبلغ ٣٤٧ كيلومترا يقطعها المسافر فوق نجد لاء فيه وبينها وبين واحتي جالو وكابو أبعد واحاتها إلى الجنوب نحو ١٣٥٠ كيلومترا وهي إلى الجنوب والشرق من مدينة طرابلس بينها وبين بنغازي نحو تسعمائة كيلومتر والوهدة التي فيها الواحات المذكورة تمتد من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي وسط نجد صخرى بصحراء لويه يبلغ طوله ٣٦٠ كيلومترا وعرضه يختلف بين أربع مائة متر جنوبا و٢٥٠ مترا شمالا أما الواحات المذكورة فمددها خمس وهي الآتية مرتبة من الجنوب إلى الشمال كابو وأزيناو بوزيناو ويزين أوزين وتايزر بوزين ويبلغ مسطحها جميعا نحو ١٧٨٢٤ كيلومترا مربعا ويفصلها عن بعضها

أودية كثيرة الحصباء قالوا أن كفره لفظ عربي محرف من كفره جمع كافر وقال برکش أن لفظ كافر بالقبطية بلد صغير يسكنه وثنيون أقول وربما كان أسم هذه الواحة آت من اللفظ القبطى المذكور كما يمكن أن يكون لفظ كفرأى القرية كما هو معلوم قبطى أيضاً

وصفها الطبيعي - أراضى واحة كفره كلها مغطاة بالرمال وهناك سلسلة قصيرة من الكثبان المنخفضة تمتد من الشرق إلى الغرب على حافة وهدة هذه الواحة إلى الشمال من تازربو وزيجن وسلسلة أخرى كذلك تأتي من الشمال الشرقى وتمتد على واحة بوزيما التى بوسط الوهدة ويظهر أن السلسلتين يتلاقيان شرقاً عند الكثبان الجسيمة التى بصحراء لوييه ويمتدان إلى الواحات المصرية ويقطع هذه الكثبان من مسافة إلى أخرى كتل أو سلاسل صخرية صغيرة منها جبل زينن وجبل بوزيما وجبل غور العبيد وجبل أرينا وجبل غور الهوارى وغيرها وكلها تحيط بالواحات التى بالوسط والجنوب وتتركب هذه الجبال المقطوعة القمم من صخور جيرية وليس بواحة كفره مياه جارية ولا مجارى أودية ولكن الماء يستنبط فيها على عمق قليل يختلف بين متر واحد وثلاثة أمتار وهو عذب راكد وبالجملة المنخفضة منها مستنقعات ملحة متسعة (كما فى أرينا وبوزيما) وأخرى ملحة تجاورها بحيرات دائمية (كما فى تازربو وكبابو وبوزيما) ومما يستحق الألفاظ ويستغرب أنه حيث تكون المياه الملحة والمالح توجد عيون عذبة

الماء وليس هذا بقاصر على هذه البلاد بل هو شيء موجود بكل البلاد الأخرى بالصحراء وجميع الأماكن المنخفضة بالواحات الخمس المذكورة تنطوي حشائش متنوعة أهمها الطبق وهو مما تغذى به الجمال هناك قال السائح رولس وكان عليه اعتمادنا فيما كتبناه عن هذه الواحة ما يأتي أيضا عن بقية أجزائها «أن واحة تيزربو وهي الشمالية من الواحات المذكورة تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقى على مسافة تبلغ مائتى كيلومتر تقريبا وترتفع عن سطح البحر بنحو ٢٥٠ مترا وفى وسطها المنطى بالنباتات مستنقع ملح وليس بها قرى بل ينزل سكانها فى خيام وهم رحل وبها خرائب مساكن كانت للتبو ومقبرة قديمة لهم أيضا وأطلال زاوية للسوسية كانوا أقاموها بتلك الواحة قبل أن يهاجروا إلى كبابو وأرض تيزربو ترتفع تدريجيا من الجنوب الشرقى وعلى نحو مائة كيلومتر من تيزربو تكون واحة بوزيما وهي فى النهاية الجنوبية من سلسلة جبال صغيرة هى جبال بوزيما وارتفاعها نحو ٣٨٨ مترا عن سطح البحر والمنطقة الخصبة بهذه الواحة عرضها نحو كيلومتر واحد وهي واقعة حول بحيرة ملحة تمتد من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى ويبلغ محور هذه البحيرة نحو عشرة كيلومترات وقد اكتشف رولس فى بوزيما المذكورة خرائب شكاها يختلف جداً فى أحوال كثيرة عن خرائب التَّبُو وتركب أراضي هذه الواحة من أحجار جيرية يعلوها طبقة يمكن أن تكون طفحات بركانية وإلى الجنوب والغرب من بوزيما كُشبان

بعضها مرتفع جداً وهناك سلسلة جبال تسمى نيري تمتد من الغرب إلى الشرق وبعدها واحة كباو المذكورة وهي أكبر الواحات مسطحة اهـ

الصحراء الكبرى

الصحراء الكبرى صقع كبير واسع بأفريقيه الشمالية يمتد من وادي النيل إلى المحيط الأطلسي ومن مراکش والجزائر وتونس وطرابلس من الشمال إلى ممالك السودان بالجنوب ولو نظرنا إليها من الوجهة الطبيعية لكانت تشمل كل المنطقة الشمالية من أفريقيه لأن أراضيها تشبه الصحراء لعدم سقوط الأمطار المنتظمة بها

موقعها وحدودها وامتدادها - الصحراء الكبرى واقعة بين الدرجة ١٧ و ٢٩ من العرض الشمالى وبين الدرجة ١٩ والدقيقة ٢٢ من الطول الغربى والدرجة ٣٤ تقريبا من الطول الشرقى ومن الصعب جداً تعيين حدودها لأن الحدود الجنوبية لبلاد مراکش والجزائر وتونس وفزان وطرابلس لم تعين للآن وتحدد تحديداً واضحاً وأن الحدود الشمالية من ممالك السودان لازالت أكثر ابهاماً وأقل تحديداً عن الأولى هذا من جهة ومن الجهة الأخرى فأننا متى نظرنا إليها من حيث شكلها الطبيعي وجدنا على حافها أصقاعاً يصعب فيها جداً تعيين الصحراء من غير الصحراء لهذا كان تحديدها مشكوكاً فيه كل ذلك زيادة على أن الجغرافيين لم يتفقوا أبداً على

تعيين حدودها ولذلك لم يتفقوا على مقدار امتدادها قال البروفسور زيتل (Zittel)
 أنها تبتدىء مباشرة من السفوح الجنوبية لـجبال أطلس وتمتد في جهات
 خليجي سرت حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط وحتى السلسلة التي
 على البحر الأحمر أى أنه يدخل فيها قسم جسيم من بلاد مراکش والجزائر
 وتونس كما يدخل ضمنها كل بلاد طرابلس وفزان شمالا وكل بلاد مصر
 تقريبا وقال أن حدها جنوبا خط يبتدىء من مصب نهر سنغال ماراً بمدينة
 تمبكتو وبلاد دامتغزو والقسم الشمالى من بلاد كانم (الشمال من بحيرة
 شاد) وبلدة الدبه وأبو حمد (وهما بين الشلال الرابع والخامس) فلو اعتبرنا
 حدود الصحراء كذلك لزاد مسطحها عن أحد عشر مليوناً من
 الكيلومترات المربعة وهو يزيد عن مسطح أوروبا ويبلغ أكثر من ثلث
 قارة أفريقيا ومع هذا فلا يمكن قبول جعل الديار المصرية الحقيقية أى وادى
 النيل من الصحراء وأن كانت المنطقة التى بين النيل والبحر الأحمر
 يمكن اعتبارها داخلة فى الصحراء بشكل أراضيها لأننا لو قبلنا ذلك لترتب
 عليه أن نلحق بها أيضاً بلاد العرب والصحارى بأسيا لأنها لا تختلف عنها
 اختلافاً حقيقياً كما هو معلوم قال الدكتور شافان (Dr. Chavanne) وهو
 أكثر من مسيوزتل اعتدالا فى تقدير أنه أن الصحراء الكبرى لا تبتدىء
 حقيقة إلا من غربى وادى النيل ولكنه يدخل فيها أيضاً السفح الجنوبي
 من أطلس وكل بلاد طرابلس وفزان وعلى ذلك يبلغ مسطحها نحو

٥٠٠.٠٠٠ ر. من الكيلومترات المربعة وقال أليزيه ريكلوه « يمكن تقدير مسطح الصحراء الكبرى بنحو ٢.٠٠٠.٠٠٠ ر. من الكيلومترات المربعة غير داخل فيه واحات برقه وكفره ولا بلاد طراباس وفزان ولا الصحارى الصغيرة التى بتونس والجزائر ومراكش ولا القيايف التى تجاور الجهات الخصبة من بلاد السودان » اهـ هذا وسنقتصر فى وصفنا للصحراء الحقيقية هذا التحديد الأخير الضيق وهو وصف غير تام كثيراً كما لا يخفى لقلة المعلومات المضبوطة التى حصلنا عليها حتى هذه الأيام متعلقاً بداخلىة بلاد الصحراء

منظرها العمومى - أعلم أن الصحراء الكبرى ليست سهلاً عظيماً من الرمال ولا وهدة سطحها أكثر انخفاضاً عن سطح البحار التى تجاورها وليست أيضاً كما يقول بعضهم قاع بحر جفت مياهه بل هى أصقاع ذات ربوات وتلعات وهضاب وجبال وأودية ومجارى أنهار ويقولون أن متوسط ارتفاعها عن سطح البحر ٣٥٠ متراً وأن سطحها لا يكون أخفض من سطح البحر إلا فى أماكن قليلة جداً ونحو النصف من مسطحها جميعه صحراء حقيقية به سهول شكلها واحد ونجود كثيرة الحصباء وكثبان كثيرة ممتدة على مسافة طويلة قال أليزيه ريكلوه « أن ما يجمل لهذه الصحراء الجسيمة تلك الصفة أى صفة الاتحاد فى الشكل بالرغم عن اختلاف تضاريسها هو ندورة أو عدم وجود المياه الجارية فى كل أرجائها إلا ما كان من جهاتها الجبلية ذات القمم الشاخنة التى تدخل فى الطبقات العالية من الهواء ولا

يُبحث عن أصل وجود الصحراء في نفس أراضها بل يجب أن يبحث عنه في أصقاعها الشاغرة ذلك لأن تلك الأراضى البيضاء التى تقسم قارة أفريقيا إلى قسمين ليست ألا انعكاس أشعة السماء التى تنيرها ووجود الصحراء الكبرى الأفريقية يجب أن ينسب من غير شك إلى نفس هذه الأسباب التى نشأ عنها تكون صحارى أخرى بقارة آسيا والصحراء الحقيقية هى الممتدة فقط نحو الغرب من ذلك أما منطقة الأراضى الخالية من الأشجار تماماً فتربوها هى التى تخترق بلاد المغول وكشغر وتوران وأيران وجزيرة العرب فإنه يقطعها على مسافات كبيرة أودية أهار يقوم على شواطئها أشجار وسلاسل جبال ذات أودية كثيرة النباتات والسبب فى وجود هذا الشريط الطويل من الصحارى الذى يبلغ نحو ١٢٥٠٠ من الكيلومترات يرجع إلى جفاف الأرياح التى تخترق كل القارة القديمة بانحراف وما بتلك القارة من السهول والقفار المتوازية» اهـ

التضاريس العمومية - لقد اعتاد الناس اعتبار الصحراء الكبرى سهلاً جسيماً من الرمال أو وهدة سطحها أو طأ عن سطح البحار أو أو طأ عن سطح ما يجاورها من الأراضى ولما كانت هذه الأقوال بعيدة عن الحقيقة رأينا من الصواب أظهر ذلك بأدلة وأور عملية فنقول قال الدكتور نخيجهال الذى اخترق الصحراء الكبرى من طرابلس إلى بحيرة شادمايانى «يظن الناس عموماً أن بالجهة الأخرى من سلاسل الجبال التى تمتد على موازاة الساحل الشمالى من أفريقيا من مراكش إلى تونس وإلى طرابلس

والتي تمتد على نحو ١٥ درجة من درجات العرض سهل من الرمال أوطأ من سطح البحر يفصل الساحل الشمالى عن الجهات الخصبه التى فى داخل القارة وهو ظن فاسد كان يجب رده منذ زمن طويل ومع ذلك فأننا لا زلنا نرى من وقت لآخر من يؤكد بأن الصحراء الكبرى معظمها منخفض عن سطح البحر أما الحقيقة فهى أن مجموع الصحراء أعلى عن سطح الأوقيانوس علوا ظاهراً وليست أغلب أراضيها رمال بل أغلبها أرض صلبة ذات حصباء وليس سطحها بالمستوي بل فيه مرتفعات مختلفة وأودية لم نكن نعلمها من قبل» اه وقال الدكتور لينز (Lenz) مؤكداً وكان اخترق الصحراء مراراً في جهاتها الغربية بين الحدود الجنوبية من مرا كش والأمناء العظيم الذى بنهر النيجر ما يأتى « ليست الصحراء سهلاً كبيراً تغطيها الرمال أصلاً بل هى نجد مختلف التركيب جداً به جبال ومجارى نهيرات عديدة جافة وأصقاع بها كشبان وسهول من الخلقاء وأرض هداد وصحارى رملية» اه وبذلك نكتفى بهذه الأقوال والشهادات ثم نتقل إلى الواقع فنقول لو أردنا دخول الصحراء من أى جهة كان لا بد لنا من تسلق منحدرات تكون أحياناً سرية ففى ذلك كان الإنسان لا يزل إليها بل يصعد إليها وهذا يكفى فى تنديد قول من قال أن الصحراء تشغل وهدة أو أنها على هيئة طست ولو نظرنا إليها فى مجموعها لكانت نجداً حافته قائمة وعرة قليلاً أو كثيراً ولو نظرنا إلى قسمها الذى يشاهد من وادى النيل لرأيناه يشبه قمة جبل حتى

أنهم سموها سلسلة لوييه مع أنها ليست سلسلة في الحقيقة لأنها ذات منحدر واحد وإلى الغرب منها صحراء لوييه وهي عبارة عن القسم الشرق من الصحراء الكبرى وقد حاول الدكتور رولفس اختراقها من الشرق إلى الغرب سنة ١٨٧٤ فلم ينجح ألا أنه تمكن من قياس بعض مرتفعاتها التي يظهر منها أن الأرض هناك ترتفع بالتدريج عند حافة الصحراء لأن الإنسان ينتقل فيها بسرعة من ٢٧٣ مترًا (إلى ما فوق سطح البحر) إلى ٣٨٠ و ٣٤٣ مترًا بعد قليل يصل إلى ٤٤٠ مترًا وهو ارتفاع أبعد نقطة وصل إليها العالم الجيولوجي زيل المتقدم الذكر وكان يرافق بثمة علمية وفي سنة ١٨٧٩ جدد الدكتور رولفس مساعيه ثانية وسار من طريق غير طريقه الأولى وما زال يتوغل حتى وصل واحات كفره الواقعة في قلب صحراء لوييه وتأكد حينئذ من أنه متى وصل الإنسان إلى هذه الصحراء تأخذ الأرض في الارتفاع ارتفاعا تدريجيا غير محسوس من الشمال من أول واحة جالو إلى أن يصل إلى ارتفاع ٢٥٠ مترًا عن سطح البحر ثم يصل إلى ٤٠٠ متر وقد عين هذا المكشف سنة ١٨٦٦ على الخط الذي يقطع الصحراء الكبرى من الشمال إلى الجنوب بين مدينة طرابلس (أو مرزوق) وبحيرة شاد عدة ارتفاعات يعلم منها أنه بعد أن يجتاز الإنسان جبال تُمُو (بالنهاية الجنوبية من فزان) يصل إلى ٦٩٥ مترًا عن سطح البحر مع أن مدينة مرزوق ليست مرتفعة عن سطح البحر ألا بنحو ٥٠٣ أمتار أي أننا لا نكون قد صعدنا ولا هبطنا وبعد ذلك

تختلف ارتفاعات الصحراء وهي تهبط بسرعة زائدة في أقرب الطرق إلى بحيرة شادوبلغ متوسط ارتفاع هذه البحيرة عن سطح البحر ٢٥٠ متراً ويظهر من ذلك أن القوافل الآتية من السودان الأوسط تريد دخول الصحراء من الجنوب لا بد وأن تصعد هي أيضاً ويظهر هذا الأمر بوضوح أكثر في جهة الغرب على الطريق الذي اتبعه الدكتور لنز المذكور سنة ١٨٨٠ بين جنوبي صحراء كاش ومدينة تمبكتو لأن الإنسان إذا أراد دخول الصحراء الحقيقية تسلك منحدرات الساحل الأيسر من وادي درعه ثم يصل إلى نجد يزيد ارتفاعه عن ٤٠٠ متر عن سطح البحر ولا يشاهد في أكثر من نصف هذه الصحراء وهذه تستحق الذكر ومتى وصل إلى الدرجة ٢١ والدقيقة ٤٠ من العرض الشمالي صادف مكاناً لا يماو عن سطح البحر إلا بنحو ١٤٨ متراً ثم تأخذ الأرض في الارتفاع بعد ذلك إلى أكثر من ٢٠٠ متر وتبقى هكذا طول المسافة المذكورة ولا تكون الصحراء في أي جهة من جهاتها على طول هذا الخط أو طأ من سطح البحار فافكرة الفرية القائلة بإمكان جاب مياه الأوقيانوس إليها بخليج يحفر لذلك في الساحل الغربي ليست على ذلك غير قابلة للتحقيق وإذا دخل الإنسان الصحراء من الجهة الغربية أي من ساحل المحيط الأطلسي وأخذ يسير نحو الشرق رأى الأرض ترتفع تحت قدميه تدريجياً حتى تكون على ٣٥٠ متراً عن سطح البحر ويظهر من المقاسات والتحقيقات التي أجراها كل من ميسور فيرا وكيروجا (Cervera, Quiroga)

(في الاكتشاف الذي قاما به سنة ١٨٨٦ بين ريوا أور ووسبخة أيجلي) أن هناك
نجدا يتراوح ارتفاعه عن سطح البحر بين ٣١٥ متراً و ٢٤٦ متراً وهو يمتد
على موازاة الساحل ثم ينخفض نحوه حتى يصير بطيء الانحدار أما في الداخل
فإن سبخة أيجلي المتقدمة تقطعه فجأة ويكون قاعها على ١٥٠ متراً فقط فوق
سطح البحر ثم أن الارض ترتفع مرة واحدة فوق الشاطئ الآخر من
السبخة المذكورة ويمتد ذلك السهل نحو الشرق ويعتمد في امتداده إلى
مسافة مجهولة أما الآن ما كن التي شوهدت إلى الآن أنها أخفض عن سطح
البحار في شمال أفريقية فلا توجد في الصحراء الحقيقية بل بمجتمعات الشطوط
التي في جنوب الجزائر وتونس وعلى خط الواحات المبتدئ من قاع خليج
سرت الكبير ذاهباً نحو بلاد مصر ومع ذلك فإن هذه المنخفضات لو كانت
واقعة في الصحراء ذاتها اشغلت مكاناً صغيراً جداً بالنسبة لاتساع الصحراء
بحيث تكون غير كافية لتحقيق تلك الفكرة التي كانت مقبولة فيما سبق وهي
فكرة كون الصحراء قاع بحر انحسرت عنه المياه وأنه من الممكن أسالة
الماء فيه ثانية متى أمكن التغلب على اللوائح القائمة في وجه ذلك الأمر وكان
علماء الجيولوجيا يظنون أنهم عرفوا صخور هذا البحر الداخلي وأثار شواطئه
القديمة وأن وفرة الرمال ووجود الأملاح وقحولة الأرض كل ذلك تعلم من
نفسها مع القول بنظرية البحر القديم ألا أن الأسباب الحقيقية لوجود هذه
الأشياء ترجع إلى أمور أخرى كما سنراه فيما يأتي

متى تحققنا من أن الصحراء الحقيقية ليست حوض بحر انبعج في نحو وسطه بل هي على العكس من ذلك نجد له حافات وجوانب مرتفعة قليلا أو كثيراً وأن متوسط ارتفاعه عن سطح البحر يبلغ نحو ٣٥٠ مترًا تقريباً (وربما كان أكثر من ذلك في جهاته الوسطى) بقى علينا أن نبعد عن الأذهان قول من يقول أن سطحها منبسط تماما وأنها مغطاة بالرمال في كل جهاتها ومتشابهة في كل أجزائها وعلى ذلك نقول

أعلم أن الصحراء هي مثل الجهات الأخرى بها جبال وآكام وربوات وأودية يخترقها مجارى نهيرات جافة على الدوام تقريباً تابعة لأحواض مائية ممتدة تماماً والسهول الرملية بها نادرة فهي لا تشغل منها إلا نحو التسع من مئتي مسطحها العمومى وليس منظر الصحراء واحداً في كل أجزائها فتارة يكون بها نجد صخرى خال من النبات قاحل بالمرّة (وهي الأراضى التى يسميها العرب بالحماد) يقطع سطحه المتحد الشكل أو ذو التضاريس القليلة مسایل ماء أو وهاد تمتد على مدى البصر يسير بها الإنسان أياماً لا يقع بصره على ما يرتاح إليه أصلاً فهذه الأمكنة هي الصحراء الحقيقية الخالية من كل الحاصلات ولما كانت تختلط في الأفق مع السماء الزرقاء كانت تجلب إلى ذهن الإنسان صورة البحر على غير أرادة منه وأراضى الحماد صلبة حجرية وما يقع بها من الأمطار القليلة لا يرطب أراضها لأن ما زاد منها انحدر في الحال وانصب في الوهاد المجاورة لها وجرف معه الرمل القليل أو الأرض النباتية التى يمكن أن

تكون من تحت الصخور والرياح الذى يكنس على الدوام أسطحه هذا
الحمداء الجرداء يكفى مع ذلك لأن ينزع منها كل الجزيئات العالقة بها ويلقيها
الى بيد وأحياناً ترى وهدة أو وادياً انخر في الحمداء أو وجد بجانبه وأحياناً
يكون بمض الأودية عظيم الاتساعات جداً فتبتعد شواطئه وتأتى وهاد
جانبية تلتصق بالوادي الأصيل فتصيره سهلاً فى الشكل يقوم فوقه تلال
صخرية مفرطة القمم وربما كانت هذه التلال المنزلة هى علامات النجد
القديم الذى كان يغطى هذه الجهات فيما سبق ومنه تخلفت هذه الوهاد
والأودية بالتآكل والتحات الذى استمر قروناً وأرض الصحراء وأن كانت
رملية إلا أن بها نوع تماسك لأن الرمل الأصفر الصوانى يلتصق مع بعضه
قليلاً أو كثيراً بمادة من الجبس أو الطفل ومرور القوافل لا يثير به دائماً
غيراً كثيراً حتى مع هبوب الرياح بشدة وكثيراً ما ينتهى الوادي
بسبخة أى وهدة لا مصرف لماؤها ذات جوانب عالية ترى فى الأفق
كأنها سلاسل جبلية حقيقية وتغطي هذه السبخات التى يتعاقب عليها الفيضان
والجفاف مدة الجفاف بأملاح ومتى كان التبخر سريعاً أحدث الملح قشرة
حقيقية تنكسر تحت أقدام السياحين حتى يسمع لها صرير والصحراء فى
غير هذه الأمكنة متسع جسيم من الرمال المتحركة أو هى كشبان عديدة جداً
يعقب بعضها بعضاً وتعرف هذه الأصقاع الأخيرة لدى الأهالى بالعروق
واحدها عرق واثقال المسافرين من النجد الى جهات السكبان يتم بدون أن

يشعر وأول ما يشاهد من ذلك بعض كثران بيضة متوازية يفصلها عن بعضها
أراض عريضة رملية ثم تأخذ تلك الكثران تقرب من بعضها شيئاً فشيئاً
بحيث لا تترك بينها إلا ممراً ضيقاً وربما تماسست عند قواعدهما وهي ليست واقعة
على الدوام على خط واحد بل الغالب الكثير أن تكون بغير نظام وهي
غريبة الأشكال وربما وصل ارتفاع الكثير منها إلى مائة متر أو مائة وخمسين
متراً وكلما توغل الإنسان في جهات الرمال المتحركة كلما شعر بانقباض في
لصدر وسآمة يشعر بهما كل أهل القافلة وهذا التأثير الذي يظهر أنه يستولى
على الحيوان الأعجم أيضاً سببه من غير شك أن تحولة الأرض قد انضمت
لها شيء آخر يؤذى المسافر وهو تحركها وعدم ثباتها تحت الأقدام ومن
لأغلاط الشائمة عن تحرك هذه الكثران القول بأنها تبتلع القافلة بتمامها
ي هذا الرمل متحرك في الحقيقة وكثيراً ما يرى الكتيب يدخل في معنى أن
لطبقة السطحية ذات الرمال الدقيقة التي تغطي بها قمة تلك الطبقة ثور فتكون غشاء
قيقاً من الرمل الناعم يطرده الهواء أمامه ولكن هذا الرمل لا يكون
تحرراً حركة يمكنه بها ابتلاع الإنسان والدواب أصلاً ومهما كانت الزواجر
تقوم هناك شديدة خفيفة وحتى حينما يظلم الجو تماماً بسحب الرمال المتطايرة فإن
لإنسان يتخلص منها متى سكن الهواء بتنفيض ملابسه ومتى هدأت الزوامة
تبدد الغبار الذي جلبه الريح معه وأصبح في الأفق كأنه ضباب عجم اللون
لهرت البلاد في شكلها الأول لم يتورها تغيير أو تبديل وتكون الروات

في مكانها الأول لم تصب ألا بتغير خفيف في جوانبها ويبقى كذلك محيط
المنافذ الضيقة التي يسير فيها الإنسان بين هذه الكتيبان على ما هو عليه
وتشاهد الآبار والينابيع سليمة وفي أماكنها الأولى وألا فكيف يتسنى
لأدلاء القوافل أن يعرفوا بعد مضي عدة سنوات أصغر الربوات بلا تردد
وكلها ذات أسماء خاصة بها إذا كان شكل الأرض عرضة لتغيرات فجائية
ومع اعترافنا بأن طبوغرافيا هذه الأصقاع قليلة التغير وأن انتقال الرمال
بطيء جداً لدرجة اعتباره كلاً شيئاً تقريباً مدة جيل ومع ذلك فإن الرمل
الذي تطرده الرياح ينتهي أمره بأن يتركب ويجمع في بعض الجهات ويحدث
منه مع مرور الأزمنة تغيرات والأمثال على ذلك كثيرة يرويها سكان الصحراء
الجبال والنجد - بالصحراء الكبرى من الجبال والنجد ما يخرجها
عما توصف به من اتحاد الشكل وربما اعتبرت هذه النجد فقط علامات
في الوصف الطبيعي لهذه الجهات الواسعة وهذه الجبال هي جبال تينسي وتينسي
الشمالية وهككار وأهير أو أسنين وجبال أدرار الشرقية وجبال أدرار الغربية
أما جبال تينسي فإنها تقطع الخط العشرين من التوازيات وهي على نحو
١٢٠٠ كيلومتر إلى الجنوب من خليج سرت الكبير وهي سلسلة جبال
تعرف لدى الأهالي بأسم تُوو ومعناه الصخور وتمتد هذه السلسلة من الشمال
الغربي إلى الجنوب الشرقي على مسافة قدرها نحو خمسمائة كيلومتر وقسمها
الشمالي يعرف بأسم طازسُو وهي تشرف على سهول ويسهل الصعود فوقها

ويملوها قم عديدة بعضها منفرد وبعضها يجاور غيره وتمتد على مسافة عظيمة وهي مخاريط طقحات بركانية وقد غطت بالحلم والرماد ما يجاورها من الصخور الرسوية وأشهر هذه المخاريط يسمى تُسْدَى (٢٥٠٠ متر) وعلى جوانبها فوهة بركان أسفل القمة بنحو ٣٠٠ متر وعلى المنحدر الجنوبي من هذه السلسلة فوهة محيطها بين ١٥ و ٢٠ كيلومتراً وعمقها نحو ٥٠٠ متر ولا يعرف الجغرافيون شيئاً عن سلسلة تيسى وجهاتها الجنوبية التي لم تكتشف إلى الآن متسعة جداً وربما زاد ارتفاعها عن ٢٥٠٠ متر وفي الشمال الغربي من جبل طارسو المذكور على استطالة محور جبال تيسى تقوم عدة مجاميع جبلية هي جبال آفُواو آبو (٥٥٠ متر) ثم جبال أفينى (٧٠٠ متر) ثم هضبة تُوم وكلها هضاب انتقال بين هضبة تيسى وهضبة تسيلى الشمالية ولما كانت تقطع الصحراء بالميل كانت كالحاجز أو الحائل ويكون إلى الشرق منها بلاد فزان وصحراء لويه وإلى الغرب الصحراء الكبرى أو الصحراء الوسطى والصحراء الغربية أما تسيلى الشمالية المعروفة بجبال أَزِقْرَاو أَزْجَرْهَى مجموع أراض عالية كثيرة التضاريس يتجه محورها من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى فى استطالة السلسلة التى تبتدى من بلاد تيسى ويظهر أن صخور نجد هذا الذى يحده من الجنوب الغربى أرض رسوية من الأراضى الرابعة التى تسكون منها سهول الصحراء تستمر كذلك وبحالة منتظمة فى محور جبال الصحراء ويقوم فى نحو منتصفها عدة ذرى تعرف عموماً بأسم أَدْرَار

(معناه الجبل في لغة البربر) وأعلى ذروة بها تسمى أُنْ أَسُوْكال (ويزيد ارتفاعها عن ١٥٠٠ متر) وهي كما يقول مسيو دو فريه فوهة بركانية انسكبت طفحاتها على صخور تلك الهضبة وتنقسم جبال تسيلي في جهاتها الغربية إلى قطع تشبه الجزائر بين كبيرة وصغيرة والوهاد إلى تحدتها الأودية بجهاتها الشمالية تكون كالخلجان والقرض ضاربة في جسم تلك الكتلة وبذلك انقسم النجد المذكور إلى قطع عديدة لكل قطعة منها اسم خاص بها

ولو نظرنا إلى جبال هكار نراها واقعة بالوسط الهندسي من الصحراء تقريباً ويزيد محيط هضبتها الوسطى الدائرية الشكل عن ٦٠٠ كيلومتر وتتركب من نجومود يملو بعضها بعضاً كأنها المساطب ويتراوح ارتفاعها بين ٥٠٠ متر و ٢٠٠٠ متر عن سطح البحر أي أنها في جهات تلج الشتاء وفي وسطها هضبة شاذجة تسمى أَّا تَّا كُوْرُنْ هكار ومعنى ذلك ذروة هكار وفي نهايتها نيتان متماثلان وبالشمال من هذه الهضبة ذروة تسمى تيفيدست تنتهي بمخروط بركاني يسمى أودان ويعرف لدى الأهالي عادة بأف هكار وإلى الشرق من هذه الهضبة سلسلة تسمى أَّنيهف تتراوح قممها بين ١٥٠٠ متر و ١٨٠٠ متر أما هكار الجنوبية فلم يرد لها الآن أحد من مكتشفي أوروبا فهي مجهولة كالنجدة الذي يحدها جنوباً والذي يعرف فوق الخراطم باسم تسيلي الجنوبي أو تسيلي هكار أما جبال أهير أو أزين فأنها إلى الجنوب

والشرق من هكار السابقة واقعة تقريباً في منتصف المسافة بين تيسى والمنعطف الكبير في نهر النيجر وهي هضبة عالية يحيط بها من كل جهاتها رمال ونجود صخرية فهي سلسلة جبال متميزة بذاتها تمتد جوانبها العالية جهة الشمال والجنوب فتشغل بذلك متسعا جسيما وطولها من الشمال إلى الجنوب على خط مستقيم نحو مائتي كيلومتر ويختلف عرضها من الشرق إلى الغرب بين ستين كيلومتراً ومائة كيلومتر فيبلغ ما تغطيه من الأراضى نحو ١٥٠٠٠ من الكيلومترات المربعة ويزيد ارتفاع بعض قمم جبال أهير عن ١٥٠٠ متر وأهير المذكورة تشبه في عمومها هضبة لم تغطها المياه بمد وتحدث منها سلسلة منتظمة ذات جبال وجيالات جانبية وأودية عرضية وليس بها في داخلها ولا في جوانبها وديان تشبه وديان أوربا بل بها مضائق ووهاد تجرى بها سيول شديدة بمد هطول الأمطار أما جبال أدرار أو أدرار الشرقية فهي إلى الغرب من أهير وإلى الشمال والشرق من المنعطف الكبير لنهر النيجر وهي أصقاع جبلية لم يزرها الآن أوربي ويبلغ مسطحها ٢٠٠٠٠ من الكيلومترات المربعة على الأقل وهي وأن رسمت على الخرائط كأنها نجد ألا أن لفظ أدرار ومعناه الجبل يسمح لنا بأن نقول عنها أنها هضبة تشبه هضاب هكار وتيسى أما أدرار الغربية فواقعة بالصحراء الغربية على نحو ٢٥٠ كيلومتراً تقريباً من ساحل المحيط الأطلسي وهي صقع صخرى كثير الجبال الصغيرة مما يتغير به شكل الصحراء ويقدر أن ما تغطيه من الأراضى

بأكثر من ٧٤٠٠٠ من الكيلومترات المربعة وتعرف خصوصا بأسم جبال تمار ولا تشبه هذه الكتلة الكتلات التي سبق الكلام عليها لأن ذراها لا ترتفع عما يجاورها من الأراضي الرملية بأكثر من تسعين متراً وأن كانت الأراضي الرملية المذكورة تعلو على سطح البحر بنحو ٥٠٠ متر وقد قلنا فيما سبق أن هضبة تيسى وجبال آفو وأفيني وتُمُوالتى هي استطالة للهضبة المذكورة نحو الشمال الغربى تفصل الصحراء الحقيقية عن صحراء لوييه وسنتكلم على صحراء لوييه عند كلامنا على الديار المصرية أما هنا فلا نشغل ألا بوصف الصحراء الكبرى أى الصحراء الوسطى والصحراء الغربية وتأخذ جبال تيسى فى الانخفاض التدريجى غرباً مائلة نحو السهول حتى تصل إلى خط الواحات الممتدة من الشمال إلى الجنوب على طريق القوافل المترددة بين مرزوق وبحيرة شاد وتخترق هذا الطريق جبال تُمُو من ثامة تعرف بالبيضان أى الابواب وهي تنحدر فى سهل أرضه حمرة اللون ينخفض بالتدرج نحو الجنوب ولما كانت الأبواب المذكورة ترتفع عن سطح البحر بنحو ٦٥٠ متراً وكانت بحيرة شاد على نحو ٢٥٠ متراً منه كان مجموع الانحدار فوق هذا الطريق الذى يبلغ طوله ٩٥٠ كيلومتراً على خط مستقيم هو ٤٠٠ متر غير أن هذا الأحدور ليس منتظماً فى ميله لأنه شديد الميل بالقسم الشمالى وإلى الجنوب من ذلك يتعادل الميل حيث يبق متوسط الارتفاع يتراوح بين ٣٥٠ متراً و ٤٠٠ متر ويستمر كذلك على

مسافة قدرها أربع درجات من درجات العرض ويوجد فوق هذه الهضبة الكثيرة الحلمات والتضاريس تلال بعضها من الكلس والبعض الآخر من حجر المسن وبها أيضا هضاب صخرية قاحلة تمتد في جهاتها التي تنقبض منها النفس سامة وبين صخورها وفي أراضيها الجيرية في جبالها وكثبانها مياه وآبار وقتية تتردد عليها القوافل وبالقجوات الكبرى من هذه القجوات واحات مثل واحة يات وهي تمتد على مسافة تبلغ عشرين كيلومترا من الشرق إلى الغرب وعلى نحو ثلاثة كيلومترات من الشمال إلى الجنوب وواحة يَجِيَا وهي إلى الجنوب والغرب من يات وأصغر منها مسطحا بكثير ومنها أيضا واحة كُوَار ويفصلها عن يَجِيَا المذكورة حماد صخرى وتمتد هذه الواحة على مسافة تبلغ ٨٠ كيلومترا ومحورها يتجه بالضبط من الشمال إلى الجنوب وبالقسم الجنوبي منها ملاحات بلما والصقع الذي يفصل واحة كوار عن المنطقة التي تحده بلاد السودان صقع يصعب السير فيه جدا لأنه كثير الكثبان فيتلو الواحد الآخر بلا انقطاع ممتدا من أفق إلى أفق ومن الشرق إلى الغرب أي في نفس الاتجاه الذي تهب منه الرياح المنتظمة بالصحراء ويبلغ ارتفاع الكتيب الواحد منها نحو خمسة عشر مترا ويبقى هذا المتسع العظيم من الرمال المتحركة بلا تغير إلى أن يصل إلى نقطة تسمى بلغة البربر كاوتيلو ومعناه الصخرة المنعزلة ثم بعد أن يجتاز الإنسان واحة صغيرة تسمى زَاو كُورَا يدخل ثانية في جهات الكثبان ويستمر كذلك نحو مائة

كيلومتر يرتفع الطريق أثناءها تارة وينخفض أخرى والحدود الجنوبية من هذه الجهات الرملية صخور تسمى دِيَلًا ومتى وصل الأناس إليها يكون قد خرج من الصحراء الحقيقية ودخل في منطقة السهول التي تحد أراضي السودان ذات المياه الكثيرة وإلى الغرب والشمال الغربي من الأبواب التي تمر بها الطريق التي وصفناها صخور شامخة قاحلة يبلغ ارتفاعها نحو ١٥٠٠ متر تكون نجدا كثير الوهاد والأغوار وإلى الجنوب من غات ثلثة ضيقة يقطعها أغوار يمر بها السياحون الذين يقصدون بلاد أهير قال بعض السياحين يصفها « ليس في الأرض مكان تظهر فيه الطبيعة أنها أكبر جفاء وأكثر خشونة منها في هذه المضائق الجبلية وأن قحولة الصخور هناك وكونها جرداء تماما وكذا لون أحجارها المائل للسواد وشكل قمها الغريب الذي لا يغطي بأقل نبت ولا بشيء من الأشنان أصلا كل ذلك منضما إلى بعضه يحدث في نفس السائح انقباضا وماللا أكثر مما تحدثه فيه تلك الرمال التي لا تنتهي لها ، اه وتتحدر الأرض سريعا إلى الجنوب من هذه الثلثة ذاهبة نحو السهول يطلوها في جوانبها صخور كلسية وإلى الجنوب منها صخور جبوية والأصقاع المحصورة بين طريق القوافل الذي بين مرزوق وبحيرة شادشرقا وجبال تسيلي وهكار وهضبة أهير غربا كلها مجهولة تماما ولم يرد لها أحد من سياحي أوروبا إلا في طرفها الغربي وترسم على الخرائط كأنه يشغلها سهل جسيم من الرمال يمتد غربا من واحة كوار حتى واحة

أهير شمالا ويمتد إلى الجنوب منها حماد جسيم وسلسلة تسيلى الشمالية أو جبال أزقر مبدؤها غربى الثلثة المذكورة مباشرة وفى زاويتها الشمالية الغربية نجد يسمى أيجلى ويحيط بها من الشمال والشرق والغرب رمال تعرف لدى بأسم الأهالى أدنين ويمتد إلى الشمال منها نجد يسمى تنزرت أو تنجرت وهو حماد طويل يصل غرباً ومن الجنوب الغربى بالحماد الكبير الممتد ببلاد طرابلس وإلى الغرب من تنجرت هضبة تسمى تادميت ينفرع عنها شمالى توات كتلة جبلية تشبه البرج المستدير ومن هناك تمتد حتى تصل بنجد الجوليا بالصحراء الجزائرية ويمتد إلى الشمال والشمال الغربى من الحماد الأحمر وتنجرت وتادميت صقعان كبيران من الكشبان يعرف الواحد منهما بأسم العرق أحدهما شرقاً والآخر غرباً وتغير الرمال والكشبان فى عدة مواضع على المنحدر الشمالى الشرقى من تادميت لأنها مائة ميلا خفيفاً من جوانبها بينما هى فى منحدرها الجنوبى والغربى تنتهى بصخور حقيقية تمنع أغارة الرمال عليها وادى أيفرغر يقسم العرق الشرقى إلى قسمين وقد زار قسمه الغربى حديثاً سائح فرنسى يسمى مسيو فورو (J. Foureau) ومما قاله عنه أنه ليس كتلة من الكشبان متحدة فى الشكل ولكنه كشبان كثيرة عالية مجتمعة يعرف الواحد منها بأسم عجرود وبه جهات تكثر بها القجوج والأغوار وأما كن كثيرة يصعد تاريخها إلى ما قبل زمن التاريخ لم يزرها للآن أحد من الأوربيين ولا يعرف العرب عمرها ولا قائمتها وإلى الجنوب الغربى من

هذا العرق وإلى الشرق من تادميت واحة تسمى مَادِرَ وأكثر أراضيها حماد وطفل أحمر لا نبات فيه وسهل تحمل صلب الأراضي يظهر فيه السراب على الدوام وقد تكونت واحة مَادِرَ المذكورة من أقلام الأودية الآتية من الشمال والشرق من تادميت وهي التي تصب في العرق تحت الرمال حيث تذهب من هناك وتتصل بالشاطئ الأيسر من مجرى أغرغر غير أن مَادِرَ الجنوبية المسماة بِمَادِرْسُوفَ عبارة عن مجار صغيرة كثيرة تجري بين تلعات مكونة من الطفل والرمل تغطيها النباتات وهذا السهل بأجمعه تغمره المياه وقت فيضان وادي سوف وإلى الجنوب من مَادِرَ قم كثيرة ممتدة من الشمال الشرق إلى الجنوب الغربي وهي مطلة على أرض منبسطة صفراء كثيرة الحصباء خالية من النبات تعرف بأسم رَجَب الأصفر والمنحدر الجنوبي أو الأطلسي من هذه السلسلة يذهب ماؤه إلى حوض وادي مَسِينَ وبهذه السلسلة عدة ذرى عالية من أشهرها كُذْيَةُ أُمِّ رُكْبَةٍ وهي أعلى نقطة وصل إليها مسيو فورو المتقدم الذكر وهي تطل على وادي مَسِينَ وارتفاعها نحو ٤٥٠٠ مترًا ويسكن هذه الجهات الكثيرة الأغوار قبائل يعرفون بأولاد بَهاْمُو ويمتد إلى الجنوب من ذلك بين تادميت ومَادِرَ وتَسِيلِي الشمالية وجبال هَكَارَ نجد مثلث يسمى المُوَيْدِرَ يقوم على حافته الشرقية ذروة تسمى أَيْفَيْتَسَنَ ظُها السائح دوثرية فوهة بركان قديم وإلى الشمال من هَكَارَ نجد يسمى أَجِيرِي أحجاره جرانيتية بها شقوق بركانية وإلى الجنوب والغرب من

هكار تمتد تسيلى الجنوبيه أو هضبة هكار كما قلناه وإلى الغرب من أهير
تقوم هضبة معروفة قليلا لدى الجغرافيين تسمى أدرار الشرقية ولوامتد خط
من توات واتجه إلى الجنوب بحيث يكون إلى الشرق منه كل هذه التضاريس
المذكورة لكان معينا للحد الذى تبدىء منه ما يعرف عادة بالصحراء
الغرية والصحراء الغرية تخالف الصحراء التى تقدم وصفها لأنه لا يوجد بها
مرتفعات جبلية شاهقة أذى فى مجموعها الذى يزيد مسطحه عن مليونين
من الكيلومترات المربعة كثبان كثيرة يتلو بعضها بعضا وأغوار وحامد قليل
الأرتفاع وسلاسل صخرية وجبال صغيرة لا يزيد ارتفاع أعلاها عن خمسين
متراً وتكثر الربوات والكثبان خصوصا فى قسمها الشمالى وربواتها هضاب
صغيرة موزعة فى أرجائها كالجزائر فى البحر وطريق القوافل الذاهبة إلى
تمبكتو وإلى الجنوب من وادى درعه حماد يختلف متوسط ارتفاعه بين ٣٧٥
متراً و ٤٠٠ متر يفصلها عن بعضها وهاد وفجوات وسطح هذه النجود
قديم التركيب تغطيه أراض حديثة العهد قد أوجد بها التآكل والتحات
أشكالا غريبة جدا بحيث جعل منها ما يشبه الأبراج والأسوار ذات الشرفات
والمزاغل وتعرف هذه الأراضى بالسرير وبعضها يغطى بما يشبه النسيفساء
ويتألف من ملايين من حصباء الكوارتز والعقيق اليماني وغيرهما من
الأحجار الجميلة وإلى الجنوب من هذه الهضاب والنجود أراض واسعة
جداً من الرمال هى العرق الكبير أو عرق أجيدى وهى تمتد من الشمال

الشرق إلى الجنوب الغربي ومبدؤها واحة قوات سائرة نحو الرأس الأبيض وألى مافوق منطقة الرمال المذكورة وبين الخطين ٢٤ و ٢٥ من التوازيات سلسلة جبال تسمى الأجلاب وتتركب من صخور جبوية وساقية وترتفع عن أرض الوادى بنحو ٣٠٠ متراً و ٤٠٠ متر وألى الشرق من ذلك صحراء تنزرفت وتخاف اقوافل السير فيها ونهايتها غير معروفة ثم إلى الجنوب من ذلك أى إلى ما بعد دائرة السرطان صقع يسمى أفيليلي وألى الغرب والجنوب منه صحراء رملية واسعة تعرف بالجوف وجهات الجوف المذكور مجهولة لدى الجغرافيين أكثر من كل جهات الصحراء الغربية ولهذا يترك مكانها على الخرائط بلالون فلا يرسم به طرق للقوافل ولا راهنا مجات للسياحين والمكتشفين ويزيد مسطحها عن ٣٠٠.٠٠٠ من الكيلومترات المربعة وألى الجنوب والغرب من الجوف المذكور أراض وأصقاع تعرف بالمرايه (المرأة) سميت كذلك للأشعة الفضية التى تنبث عن نبات الحلقة الذى يغطيها حين تماوجها بفعل الرياح وتفضل هذه الأراضى صحراء الجوف عن أرض تعرف بالحوض واقعة إلى الجنوب من نجد يسمى تانغت واقع إلى الجنوب والغرب من أدرار تامار وألى الغرب من أدرار تامار هذه على ساحل البحر بين الرأس الأبيض ومصب الساقية الحمراء أودية واسعة تعرف باسم تيريس وتكثر بها الكثبان والأكمام الحادة الذرى ممتدة على موازاة الساحل مياها وشواطئها - سواحل الصحراء مبدؤها مصب وادى درعه

(الحد الجنوبي من مراکش) حتى مستندريسي أنديادييه واقع على نحو ٦٥ كيلومتراً إلى الشمال من مدينة سنلوس ويعرف أيضاً بمستنقع مارنجوان وكان هذا المستنقع فيما سبق فرعاً لنهر سينغال كان يصب منه في الأوقيانوس مباشرة ويزيد طول هذه السواحل عن ١٧٠٠ كيلومتر وهي في مجموعها منحني كبير تحديه نحو الأوقيانوس وليس به من التضاريس إلا القليل واتجاهه من مصب وادي درعه المذكور حتى رأس جوبي يكون من الشمال الشرق إلى الجنوب الغربي وليس به من الأوضاع الأرضية الشهيرة إلا مصب وادي شيكه وجون يسمي بويرتو كنسادو (Puerto Cansado) وقد طمرت الرمال نحو نصفه الآن ورأس جوبي وأن كان يعتبر على الخرائط أحد النقط البارزة على هذا الساحل إلا أن بروزه قليل في الحقيقة لأنه عبارة عن أرض واطئة رملية تمتد في البحر وتنتهي بأكمة منقطاة بالموسج وبالقرب منه مرسى تسمى ماتاس دوس-آن بارثولوميو (Matas de san Bartolomeo) وحولها منطقة من الصخور وهناك أيضاً نزلة تجارية إنجليزية تسمى طرفاه (بورت فكتوريا) وإلى الجنوب من ذلك خليج صغير يسمي ماتاس دولوس ماجيريوس (Matas de los Mapiros) ويتردد عليه صيادو جزائر قناريا بكثرة

ومصب الساقية الحمراء وأودلتها واقع على نحو ٤٤ كيلومتراً إلى الجنوب الغربي من رأس جوبي لأن هذا النهر يفتح له مجرى بين الكتيان هناك

حتى يصل إلى البحر وتمتد هذه الكشبان على الضفة اليسرى من النهر المذكور موازية للساحل على نحو مائة كيلومتر ثم تنتهي في جنوبي التوازي ٢٧ بقليل ثم تختلط ببعضها فمما يتجه في موازاة الساحل ومنها ما يكون عمودياً عليه ولما كانت تلك الرمال تمتد في البحر وعليها تنكسر أمواجه كان يصعب جداً رسو السفن هناك بل ربما كان خطراً ورأس بجادور أحد النقط الشهيرة في هذا الساحل هو أكمة من الكلس ترتفع بلطف من الشمال إلى الجنوب وتنتهي مرة واحدة بصخرة ارتفاعها نحو ثلاثين متراً ويسمى البربر هذا الرأس رأس كدّه وسهله من أحسن سهول الصحراء الغربية لهذا كانت البدو تنزل به مدة طويلة من السنة والساحل بين رأس بجادور المذكور والرأس الأبيض به فرض واجوان تلجأ إليها صيادو قناريا عند الحاجة وأشهر هذه القرض فرضة أوروا وأوريو أورو (Rio de Oro) وقد أنشأه الأسبانيون هناك نزلات تجارية على أمل أن يجلبوا إليها المتاجر والقوافل أما الرأس الأبيض فإنه في نهاية شبه جزيرة طولها من الشمال إلى الجنوب نحو ٤٠ كيلومتراً ولكنها ضيقة قليلة الارتفاع وبها خليج يسمى خليج لفرنيه (Lévrier) وأكبر انبعاث في هذا الساحل بين الرأس الأبيض ورأس ميريك يعرف عموماً بأسم خليج أرجين (Arguin) وتبلغ فتحته نحو ١٦٠ كيلومتراً وعليه منطقة من الصخور بينها منافذ كثيرة تدخل منها السفن وبها مراسي جيدة ويبلغ امتداد الماء الذي بين هذه الصخور والساحل المحفوظ بهذه الصخور من فعل الأمواج نحو

مائتي كيلومتر وعرضه نحو ٨٣ كيلومتراً وبه عدة جزائر من أشهرها جزيرة أرجين وكان بها فيما سبق عدة زلات تجارية ويقولون أن هذه الجزيرة الصخرية التي تشغل كل القسم الجنوبي من هذا الخليج كثيرة السمك جداً حتى يمكن أن تكون للفرنسيين أصحابها مركز صيدهم وإلى الجنوب من الصخرة المذكورة وإلى الشمال من خليج هناك يسمى سَنجَان (Saint-Jean) ونهر صغير يسمى كذلك أرخيل صغير من أشهر جزره يدره وتغاث وتينا وغيرها وإلى الجنوب الشرقى من رأس ميريك المذكور خليج يسمى تَانِت وقد طمرته الرمال تقريباً ويصعب على السفن دخوله ولكنه موافق جداً لصيد السمك وبعد ذلك يمتد الساحل على خط مستقيم تقريباً إلى الجنوب الغربى وهو رملى منخفض على العموم وفي عدة مواضع منه كثبان تفصله عن بحيرات ومستنقعات هناك يدخلها ماء البحر في بعض أيام السنة وعلى الخصوص وقت هبوب الرياح الغربية التي تهب هناك مدة طويلة من السنة وتصير هذه البحيرات بالتبخر ملاحات أشهرها ملاحه تَنِيَاهِيَا وهي تتصل من الجنوب بمستنقار أندياديه السابق الذكر وهناك فوق هذا الساحل المنخفض كميات جسيمة من مواد رملية تجلبها معها من الصحراء الرياح الشرقية ثم تعود فتطردها الرياح الغربية نحو الداخل وهي التي جمعت كما يقولون لكثبان رأس مجادور (كما جمعت كذلك لكثبان الرأس الأخضر الواقع إلى الجنوب من ذلك) ارتفاعه الذى يبلغ ١٨٠ متراً

أنهارها ونهيراتها - ربما ظن ظان أن من السهل وصف بلاد من أهم صفاتها أن لم تكن صفتها الأصلية عدم وجود المياه النهرية بها غير أن الحال بخلاف ذلك تماماً لأنه يوجد بالصحراء الكبرى عدة نهيرات تضيع مياهها في الرمال أو أن تلك الأنهار كانت فيما سبق أكبر مما هي عليه الآن وأصبحت اليوم مجار جافة وربما كان من الصعب معرفة اتجاهها الأصلي وقرعاتها هذا غير الأنهار التي لا يزال العلم بمجاريها قليلاً وهي التي تذهب فتصب في المحيط الأطلسي وبالصحراء غير ما يجري فوقها من المياه مياه تظهر في عدة نقط من باطنها وعلى بعد قليل من سطح الأرض ولكن من الصعب بل ومن المستحيل تعيين توزيعها الجغرافي وكيفية جريانها ونهر درعه هو النهر الوحيد الذي تمكنت به المياه طول الستة هناك وهو مع ذلك لا يسير في الصحراء ألا من ضفته اليسرى من أول انحنائه العظيم عند نقطة المحاميد فقط لأنه بعد خروجه من الجبل هناك ينعطف فجأة نحو الغرب ولا يوجد إلى الجنوب منه ألا وادي شبكه والساقية الحمراء وهما يجريان في موازاة نهر درعه ولا تجري المياه بهما إلا في فصل الأمطار أما في فصل الجفاف فالماء فيهما قليل جداً ولا يكاد يصادف الإنسان في مجاريهما أذ ذاك ألا نقائع من الماء الرابك موزعة هنا وهناك ومع ذلك يظهر أن الساقية الحمراء وما لها من الفروع المديدة كانت فيما سبق نهراً جسيماً ذا مياه غزيرة وليس بالأصقاع الواقعة إلى الجنوب

من الساقية الحمراء المذكورة حتى بلاد السينغال من المجارى ما يمكن أن يسمى نهرا وتلك مسافة تقدر بمشر درجات من درجات العرض أو نحو ألف كيلومتر وقد روى المكتشفون القليلون الذين خاطروا بحياتهم وساحوا في هذه الجهات الصعبة أنهم شاهدوا وهادا وأودية وفجوات في الأرض ظنوها مجارى أنهار قديمة ألا أنه لم يذكر واحد منهم أنه شاهد نهراً هناك ولا ما يمكن أن يصدق عليه تعريف النهر وبشواطئ الأوقيانوس ثلمات وفرجات تنصب منها المياه فيه ولكن ليس لواحدة منها صفة مصب النهر الحقيقى حتى أن نهير ريوا ورؤو الشير الذى كان يرسم على الخرائط فى القرن السادس عشر كأنه من النهرات الكيرة والذى لا يزال يرسم على الخرائط الحديثة أصغر مما كان يرسم سابقا لم يعد فيه بعد من الذهب ما تجرفه مياهه زيادة على أنه لا وجود لهذا النهر بالمرّة والماء فى جميع الصحراء الغربية بين الساقية الحمراء والسينغال لا يكون ألا فى وهادى مستغدرات تعرف بالسبخات لا منفذ لها اللهم ألا تلك النهرات الواقعة الى خلف قم الساحل وهى التى تجرى فى الجنوب والشرق وتغور فى رمال أجيدى ثم النهرات التى تنحدر من جبال أدرار تامار وتذهب نحو الجنوب فتصب فى مستنقع فى جنوب الصحراء وبالجهات الداخلية من الصحراء الى شرق منحى وادى درعه مجرى صغير يسير من الشمال الى الجنوب يظن أنه قاع نهر ويسى وادى أجيدىن وقسمه الأعلى مؤلف من فروع كثيرة تجتمع كلها فى وهدة

نسمي الدُّوَارَه. ثم يخرج منها فرعاً واحداً يسير نحو الجنوب إلى أن ينور في رمال أجيدى المذكورة هذا على فرض أن يبقى في مجراه ماء وإلى الشرق من المجري المذكور نهر يعرف بوادي الزَّوْراء ويقال له أيضاً وادي مَسَاوَرَه ويعرف هذا الوادي في بلاد توات بأسم وادي مُسَوْد وفي نحو الدرجة ٢٦ والدقيقة عشرة من العرض الشمالى يتفرع من الضفة اليسرى من وادي مُسَوْد المذكور عدة نهيرات تخرج من بين نجد تاذمآيت ونجد مُوَيْدِر وكلها تتصل بنهر يسمي وادي أَكْرَابَا وذلك قبل اتصاله بوادي مسود ثم أن وادي مسود يغير اتجاهه بعد ذلك لأنه لا يستمر سائراً نحو الجنوب الغربى بل ينطفئ نحو الغرب. ويصب فيه من شاطئه الأيسر وادي تيجرت الآتى من القسم الشمالى من جبال هكار ثم يضرب في الصحراء ثم تزول آثاره ولا يحتمل أن هذا النهر يذهب ويتصل بوادي درعه لأنه لا بد له من اختراق منطقة رمال أجيدى سيما وصحراء تنزرت الخيفة تقف حائلاً في طريقه من الجنوب ولم يشاهد أحداً من المكشفين القلائل الذين جابوا الصحراء غرباً مجرى نهر يمكن اعتباره استطالة لوادي مسود المذكور ونهر تاجيت أو تاريهيت الذى يخرج من المنحدر الغربى من جبال هكار ويتجه نحو الغرب كذلك غير محقق المجرى كأنه نهر الذى يصب فيه من ضفته اليمنى ويسمى أن أَمَاجِرْ وَيَأْتِي مِنَ الشَّامِلِ الشَّرْقِ وَهَنَّاكَ أَيْضاً مَجْرَى يَعْرِفُ بَوَادِي الْحَجَرِ وَهُوَ يَمُرُّ شَمَالِيَّ وَاحَةِ أَرْوَانَ وَيَقْطَعُ

الطريق التي سار فيها الدكتور لينز في سياحته إلى تمبكتو وهناك أثار بعض نهيرات كانت تصب قديماً في نهر النيجر (منها نهر تسيليت أو ترارات وهو شرق أروان ومبروك ومثل أكيريرو وأسا كان وفروعهما ويظهر أنهما يخرجان من جبال أودار الشرقية ويتصلان بنهر النيجر في القسم الشمالي الشرقي من منحيه الكبير) ويخرج من هضبة هكار نهيرات تجري في اتجاهات متعاكسة وإلى الشمال منها نهر كان من الأنهار الكبيرة جداً فيها سبق هو وادي أغرغز وقد اكتشفوا آثاره حتى واحة وزقه ويظن بعضهم أنه كان فيما سبق يتصل بالبحر الأبيض المتوسط بواسطة الشطوط التي في الجنوب من بلاد الجزائر وجميع النهيرات ومسائل المياه التي تخرج من المنحدرات الجنوبية من هضبة هكار وكذا كل النهيرات التي تصب في وادي ين يرايين الذي يجري على المنحدر الشرقي تساعد على تكوين نهر يسمى وادي تافساست وهو يسير نحو الجنوب ويعرف بأسم دلو زيامنذا ثم يتصل بوادي سكتو على نحو خمسين كيلومتراً إلى الجنوب والغرب من بلدة سكتو ويتصل بنهر النيجر ويظهر أن للقسم الشرقي من الصحراء تقل به النهيرات كثيراً لأنه لا يعرف به شيء منها وربما كان ذلك لأن القسم الأكبر منها لم يكتشف الآن بالتمام ولهذا نرى على الخرائط أصقاعاً واسعة به لا تزال ترسم بيضاء فلم يكن في إمكان الجغرافيين أن يرسموها ولو على وجه التقريب المجازي التي تخرج من المنحدر الجنوبي من جبال تسيلى أزقر

ويظن بعضهم أن هذه المجارى ساعدت على وجود بعض نهيرات كانت تجري هناك مثل وادى فَاَيْسَلِسَ الذى يقول عنه الأهل أن كان يجرى قديماً فى الجنوب الشرقى ذاهباً نحو واحة كُوَار وكذلك لا يمكننا ونحن على ما نحن عليه من نقص المعلومات فى هذا الباب أن نمين مجارى المياه التى تنحدر من جبال تيسى وهل هى تنور فى الرمال أو تنضم إلى بعضها وتحدث وادياً واحداً أو عدة أودية هذا ما لا يمكن الأجابة عليه حتى يظهر أن أودية القسم الجنوبى الغربى من ذلك النجد التى يجب أن تكون مسايها الطبيعية نحو بحيرة شاد ايس بينها وبين البحيرة المذكورة ارتباط ما لأن بحر الغزال الذى يوصلها بهذه البحيرة ليس إلا وصلة جافة من مستنقع بلاد برنو كما يقول السائح نَحْتِيْجَالُ أما صحراء لوييه وهى النهاية الشرقية من الصحراء الكبرى فحالتها معجولة جداً وليس هناك ما يحملنا على الظن بوجود مجارى مياه كبيرة بها ولو توصل الجغرافيون إلى معرفة جميع الأودية التى تشق الصحراء فلا يصلون إلا لمعرفة المجارى القديمة لأن المياه لا تجري فوق الأرض بها إلا فى أحوال نادرة جداً أى أنها لا توجد إلا تحت طبقات الأرض هذا ويظهر أن النظام الحالى لنهيرات الصحراء هو كالاتى ذلك أن تلك النهيرات تكون فى مبدئها سيولا تنحدر من الجبال بعد كل مطر وربما انقضت تلك الأمطار بشدة عظيمة فتجرف معها كل ما تصادفه فى طريقها ويكنى أن يستمر سقوط الأمطار بضع ساعات لتمتلئ من ذلك كل الأودية وبعد

مرور السيول يحف الوادى أما الماء القليل الذى يبقى ينحدر من فوق الجبل فإنه يحتفى تحت الصخور والانقاض المتجمعة فى أسفل ذلك المنحدر ومتى وصل النهر بعد ذلك إلى السهل صادف أرضاً رملية أسفنجية مسامية فتغور المياه فيها قليلاً أو كثيراً إلى أن تصادف طبقة أصلية لا ينفذ فيها الماء وبذلك يكون سير الماء تحت الأرض لا فوقها أما عند سقوط أمطار العواصف فتكون شدة انحدار الماء وكميته فى النهر عظيمنتين جداً حتى لا يمكن أن يتطب منه شيء إلى الأرض فى الحال بل تجرى المياه فى قاع تلك النهرات الرملية مسافة بعيدة قبل أن تتمكن الأرض من امتصاصها وأثار مجارى المياه الباقية للآن فى الصحراء يدل على أن حجم الماء الذى كان يجرى بها سابقاً عظيماً جداً ولولا ذلك لما بقيت الآن ومع كل ذلك فإن المياه التى تحتفى الآن فى هذه المجارى القديمة التى طمرت الرمال بعضها لا تبخر بل تستمر على الجريان زمناً أطول مما إذا كانت تجرى فوق الأرض مباشرة ويمكن الظن بأن تلك المياه تتبع فى سيرها تحت الأرض الاتجاه الأصيل للسر لا أهم متى حفروا أباراً فى هذا الاتجاه الجاف فى الظاهر وجدوا على العموم ماء فى عمق يختلف قلة أو كثرة وربما كانت تلك المياه الأرضية تسير فى موزاة جانب الوادى الذى ينطى الآن أما برمال أو أراض زراعية ثم تجتمع على هيئة بحيرات تحت الأرض متى وصلت إلى وهاد وقيعان لا تسمح جوانبها بنفوذ المياه

مناخ الصحراء - يعلم من المشاهدات والملاحظات التي قام بها علماء
الحوادث الجوية في نفس الصحراء وعلى شواطئها ان السير العادي للأهوية
هناك يكون من البحر الأبيض المتوسط نحو مركز الصحراء الكبير
ولا يقع ذلك في كل القسم الشرقي من الصحراء حتى بلاد التوارك حيث
تكون التيارات الجوية متغيرة جدا ألا أن الرياح المتسلطنة بالصحراء
ليست هي الآتية من الشرق أو من الشرق الشمالى لأنها تكون أذ ذلك
فقدت كل ما اشتملت عليه من قطرات الماء أثناء سيرها سيرا طويلا في قارة
آسيا وعلى ذلك كان الاتجاه الذى تتبعه أغلب التيارات الهوائية المنجذبة نحو
الصحراء كاف في تفسير سبب قلة اشتمالها على بخار الماء أما في آسيا فإن
الرياح القطبية التي تكون ألقت كل ما تحمله من دقائق الماء فوق جبال
بايكال وألتاى وديان شان وقوقاز التركمان وسلاسل آسيا الوسطى العالية
بحيث لا يبقى بها من الماء ما تلقىه على بلاد الصين الغربية وإيران وجزيرة
العرب وكذلك الحال في الرياح التي تكون قد جفت باختراقها أوروبا
وهي لا تأخذ في اجتيازها بحر الروم كمية من البخار تكفى لأرواء قارة
أفريقية ولأن ما بها من السحب يتلاشى فوق الروات والجبال الواقعة
حولها بحيث لا تحمل بعد ذلك ألا كمية ضعيفة من الماء قل ما سقطت
مطرا (مع أنها كلما تقدمت نحو الجنوب أى نحو منطقة مرتفعة الحرارة
ازدادت قابليتها لامتصاص بخار الماء وتبقى جافة شيئا فشيئا بنسبة ذلك

الأبتعاد) وأكثر ما يكون سقوط الأمطار بالصحراء الكبرى متى كانت الشمس في سمت الرأس هناك أى في شهر أغسطس ومن أشهر مميزات مناخ الصحراء عند الخط ٢٠ تقريبا من المتوازيات الفرق الجسيم بين حرارة النهار المحرقة وبرودة الليل فينما تصل حرارة الرمل بتأثير الشمس إلى ستين درجة أو إلى سبعين وفي الظل إلى أربعين أو خمسة وأربعين يحصل أحيانا أن برودة الليل تخفض الترمومتر حتى تجعله على درجتين أو ثلاث درجات بحيث يتكوّن فوق البحيرات والجداول في الجبال طبقة رقيقة من الجليد والهواء هناك جاف جدا على الدوام تقريبا بحيث يصل جفافه إلى أن الكهربائية التي تتولد عند تنفيض الملابس أو عند ما يهز القرس ذنبه تظهر على هيئة شرر ولقطة بخار الماء في الجو كان الضباب من الحوادث المجهولة تقريبا بالصحراء وربما وجد الندى فوق النباتات عند طلوع الشمس أو حينما تنخفض درجة الحرارة فجأة والأمطار النزيرة قليلة الحصول بالصحراء وربما تنظرها الناس أعواما ولكن متى أخذت في السقوط تنابع سقوطها غالبا في أى فصل كان من فصول السنة ولما كانت الصحراء يحدها من الشمال والجنوب بلاد أمطار منتظمة كان نظامها غير معروف أصلا في حوادثها الجوية فهي كمطقة حائدة يقطع فيها تماقب التيارات الهوائية والرياح المحرق على ساحل المحيط هو الريح التجارى الآتى من الشمال الشرق انحرف عن طريقه كثيرا أو قليلا لمجاورة البحر وتمعد السحب في الفضاء

في نحو الخط ١٧ من المتوازيات عند حدودها الجنوبية فتظهر أمطار غزيرة بحيث يقوم مقام القحولة نباتات جميلة وهناك تنتهي منطقة الرياح الدائمية ويحل محلها منطقة الرهو الأستوائي ذات التيارات المشبعة بالأبخرة المائية ومن الحوادث الجوية المخوفة هناك الريح الجنوبي المروف بالسموم وهو الذي يفاجئ السياحين أحياناً وهبوه شديد جداً في تلك الأرجاء الواسعة التي لا يعوق هبوه فيها عائق ومنها زوابع الرمال وهي مخيفة جداً كذلك خطرة وتنتشر بسرعة لا يمكن تصورها فيظلم بها الجو تماماً وكثيراً ما يومض البرق ويزجر الرعد وتسقط أمطار غزيرة في تلك الاثناء ومتى حدث هذا توقفت القوافل عن السير وبركت الجمال واجتهد الناس في حفظ أنفسهم وأعينهم خصوصاً ومع ذلك فليس الخطر الحقيقي في خوف القافلة من أن تطهرها الرمال ولكن الخوف كل الخوف من أن السموم ينحف قربها فيجعل أهلها عرضة لأن يموتوا عطشاً خصوصاً إذا دهمهم هذا الأمر وهم على بعد كبير من الماء وفي هذه الحالة لا يكون موتهم أقل منه تحمقاً مما إذا كانوا فوق أرض حماد صخري

وليس السراب من الظواهر الخاصة بالصحراء الكبرى دون غيرها ولكن ربما كان حدوته بها أكثر مما هو بينها وكذلك كانت نتائجها أشد أضراراً وأكثر خطراً فتى سكن الهواء وسخن سطح الأرض جداً بأشعة الشمس أظهر السراب أحياناً لنظر السياحين الضالين في الرمال الذين

أشرفوا على الموت عطشا صورة واحدة غضة ذات نخيل يتماوج يملو ماء
نميرا فالويل كل الويل لمن اغتر وحاد عن طريقه قاصدا هذا المنظر الخادع
لأنه يضل وبدل أن يجد ماء لا يجد ألا الموت

أرض الصحراء - يؤكد العارفون وأرباب الدراية أن الرمال وأن
كانت لا تشغل إلا نحو التسع من الصحراء ألا أنها مع ذلك تكنى لوصفها
بما توصف به الصحارى الرملية ويتساءل الناس عن السبب الذى أوجد
هذه الكميات الجسيمة من الرمال والأراء فى ذلك مختلفة جداً ويظهر أن
التحليل الذى أورده مسيو أليزيه ريكلوه فى كتابه أقرب للحقيقة من
غيره حيث يقول «أن التحول الجيولوجى العظيم فى الصخور الصلبة بأحالتها
إلى رمال وكشبان متحركة يحصل جميعه بفعل عوامل الظواهر الجوية وذلك
أنه بمجرد ما تنظم أحجار النجود السهلة التشقق ويدخل فيها الهواء الخارجى
يبتدىء عمل التحليل فقصير الركام والجلوس وغيرها قابلة للتفتت فتغير
بالتدريج إلى رمل أو إلى تراب أما الجزء السطحى من الصخرة فإنه يتآكل
شيئا فشيئا بحيث لا يترك إلا ما كان منه أكثر مقاومة فتكون تلك
الأجزاء هنا وهناك كأنها الأهرام أو العمدة قائمة وسط الرمال يسحقها
كلها الهواء ويطحنها وهناك فوق المنحدرات بروز بعضها يشبه الأفاريز
أو كرانيش البناء ظاهرة لم يات عليها الزمن بمدفيسحقها كغيرها وتكون
الأراضى الطفلية بالكيفية المذكورة ترى أشجار الأثل وغيرها من

الشجيرات يحيط بمجذوعها كيما من التراب قد حفظها تلك الجذوع من أن
تتبدد. بينما تكون الأرض بجوارها قد كنستها الرياح وبمجرد ما تنفصل هذه
البقايا والأناقض لا تبقى في مكانها وعند ذلك يحصل أن الجزيئات الأخرى
كالطفل والجبس والكلس والصوان وكل ما كان من قبيل التراب تحملها الرياح
حريها وتلقيها في مكان بعيد فتساعد بذلك على تكوين أراض طفلية
في القيمان والوهاد مما يجعلها تشبه الأرض المعروفة في بلاد الصين بالأراضي
الصفراء ولكن هذه لا تسقط بها مثل تلك أمطار غزيرة مخصصة فلا تكفي
لتغذية الملايين من الناس بما تنتجه من الجبوب أما الأجزاء الضخمة وهي
التي لا يقوى الهواء على رفعها لثقلها فتبقى في مكانها وتكون أرضا مبلطة
مما يشاهد في عدة أماكن بالصحراء أما جهات الكوارتز المشتعلة على الصوان المختلف
القدر فإن الرياح تجرفها وتنقلها من مكان إلى مكان ثم تعود فتستقر أخيرا
على هيئة كتيبان يتغير شكلها وموضعها بحسب حركات التيارات الجوية
ودورانها ومع أن أراضي الصحراء مغطاة بالمال إلا أنها لا تكون كتيبان فوق
كل جهاتها بلا فارق لأن تضاريس النجود وانخفاض الوديان وتماكس
تيارات الهواء كلها تؤثر على اتجاه الرمال فتمنع هذه الجهة مثلا من أن
تصل إليها تلك الرمال بينما هي تعرض جهة أخرى لأن تنزل بها الرمال
ثم أن حبات الرمل بانتقالها من كتيب إلى آخر بفضل الرياح تجتمع كما
يجتمع الثلج في الأمكنة المحفوظة من تأثير الرياح ويشبه هذا الفعل موج

البحر في أن الواقف على ساحله يرى أن الأمواج التي تتكسر أمامه كأنها واحدة لا تتغير مع أن ماءها يتغير على الدوام ومع ذلك فيرى الإنسان بالصحراء كثباناً قد استقرت وثبتت في أماكنها دائماً بسبب ما ينبت فوقها من النباتات الحشيشية التي تمتد جذورها الأفقية لتبحث على الماء في أعماق الأرض ويمكن توقيف حركة الكثبان في الواحات بأن يزرع فيها من النبات ما يلائم الرمال وهناك أيضاً كثبان مؤلفة من مواد جسيمة لا تتغير أماكنها إلا عند هبوب الرياح الشديدة جداً وبها أماكن كثيرة خالط رمالها مواد جبسية أو كلسية فتلتصقها ببعضها حتى تصيرها صلبة يسهل السير عليها وأماكن أخرى خالط رمالها مواد ملحية تمتص رطوبة الهواء فتقوى الأرض « اه بتصرف قليل

وهناك نظرية أخرى حديثة قال بها ضابط مهندس فرنسوى يدعى كوربي (Courbis) درس أحوال كثبان بلاد الجزائر من سنة ١٨٨٧ إلى سنة ١٨٨٩ وقدم مذكرة بذلك إلى أكاديمية العلوم الفرنسيه سنة ١٨٩٠ قال فيها ما يأتى ملخصاً « ليس السبب في وجود الكثبان ممانعة تضاريس الأرض لمرور الرمال التي جرفها الرياح أو لوجود مانع آخر أياً كان بل سببه هو الماء خصوصاً ما كان منه تحت الأرض وهو الذي يظهر على سطحها بفعل الأمتصاص الشمسى فيسمح بتكون الكثبان في أمكنة يصير الرمل فيها رطباً بمجرد استقراره وقد شاهد كثير من السياحين الرطوبة في الرمال كما شاهدوا وجود ماء

على عمق قليل عند سفح الكتبان ويعرف العرب ذلك جيداً منذ أزمنة طويلة وهو دليلهم فيما لو ارادوا حفر الآبار وفسر كل من دورثيه وفورو (Foureau) ولا رجو^(١) وفلتر^(٢) وكلامهم ممن شاهد وجود الكتبان بالقرب من الآبار

(١) Largeau (Victore) - سائح فرنسوى ولد في نحو سنة ١٨٤٠ ثم أنه في سنة ١٨٧٥ قام بسباحة في غدامس وبعد ذلك أخذ يتعرف أحوال الصحراء الجزائرية بالتفصيل وجلب منها أشياء كثيرة مما يختص بالجيولوجيا والمعادن ومن تأليفه رسالة في الصحراء الكبرى وأخرى في نباتات الصحراء طبعت في سنة ١٨٧٩

(٢) Flatters (Paul François Xavier) - ضابط فرنسوى ولد سنة ١٨٣٢ قتله التوارك سنة ١٨٨١ وهو بعد أن قارب في عدة وظائف عسكرية ببلاد الجزائر وغيرها عين عضواً في اللجنة التي عهد إليها النظر في أمر السكة الحديدية التي تخترق الصحراء وسافر يقود بعثة قصدها البحث عن البلاد التي تمر بها تلك الطريق وتنتهي إليها من بلاد السودان بين نهر النيجر وبحيرة شاد غخرج فتر المذكور من فرنسا في أول سنة ١٨٨٠ وبعد أن أنخب من يرافقه في تلك البعثة خرج من ورقلة في تلك السنة هو ومن معه واخترق جهات الكتبان ثم وصل إلى العين الطيبة وإلى واحة تيماسين وكان يجتهد أثناء سيره في إيجاد أسباب التعرف مع التوارك بقدر الأمكان ليسهل عليه القيام بما كلف به وكان توارك أزقر صرحوا للبعثة بالمرور في بلادهم في مقابلة ثلاثة الاف فرنك وبعض البنادق والهدايا ألا أن شيخهم الكبير الحاج أكنوكن الم رابط رأى أن من الواجب عليه أخبار والى المسمى بمدينة طرابلس بما تريده البعثة المذكورة ولكن أعضاء البعثة خافوا من طول زمن الحاضرة وبقيتهم مدة طويلة في تلك الارزاء وربما انتهى الأمر أخيراً برض مطلوبهم ولم يكن لدى البعثة أوامر باستعمال القوة ألا في حالة الضرورة القصوى وكانت التباثل ترد يومياً وتنزل حول مضارب فلتر على بعد قليل منها لمراقبة أحوالها ولذلك رأى من الصواب وهو في تلك الظروف أن يعود إلى بلاد الجزائر لخل خيامه وسافر في الصباح ولما رأى التوارك ذلك هاجوا وماجوا حتى كأنهم هوجوا عفاة ولم يكونوا ينتظرون ألا كلمة من رئيسهم لينفضوا على البعثة ولما رأى فلتر ذلك وخاف من أن يهاجموه اجتهد حتى

جعلهم على الحياذ في مقابلة مبالغ فضها لم قابعدوا عنه وعادت البعثة إلى ورقله ومنها إلى فرنسا حيث قدم قهريراً بما رآه وعلمه ثم رسموا له خطة بعثة ثانية فلتوا فيها النجاح بعد أن استأمنوا رؤساء التوارك فخرج فلت من فرنسا ثانية ثم عسكر هو وبعثه في بلدة لغواط وقبل أن يارحها وصله من شيخ توارك هكار المسمى أهيتارن ثلاثة مكاتيب غير مشجعة ومكاتيب مشجعة من أهيتوكن شيخ توارك أزقر وأرسل فلت من فرنسا من طرابلس مكتوباً يقول فيه أنه يخاف على تلك البعثة ثم خرج فاترى شهر ديسمبر سنة ١٨٨٠ واخترق الطريق المار باراضى مجتمعات ثلاثة من مجتمعات التوارك وهم توارك أزقر شرقاً وتوارك هكار غرباً وتوارك أهير جنوباً وتوارك هكار شديدو العداء للفرنسيين وكانت تلك الطريق كثيرة المشاق والمصاعب خالية من المياه فأت كثير من دواب الحمل وبعد أن مضى على البعثة المذكورة نحو شهرين وهى سائرة أخذ القلق والرعب يستوليان على فلت لأنه شاهد عدة فرسان يقيمون البعثة منذ أيام فى سيرها ويمشون فى موازاتها وبينما كانت البعثة تظن يوماً أنها قادمة على آبار أذ بالأدلاء قالوا أنهم تركوا تلك الآبار خلفهم وعلى يمينهم بقليل وعرضوا على فلت أنزال الاحمال فى المكان الذى كانوا فيه وأرسل الجمال ثرب ثم تعود فى الحال لأن الآبار كما يقولون قرية جداً من ذلك المكان ثم طلبوا من فلت ومن معه أن يذهبوا إلى تلك الآبار فلم يشك فلت أن صدقهم وسار التوارك أمامهم بعد أن أبوا البعض منهم فى حراسة الأمتعة وساروا فى طريق ضيق جداً حتى لم تكن الجمال تسير فيها إلا واحداً واحداً وبعد نحو ساعتين وصلوا إلى الآبار وبينما هم يستقون أذ بصرخات مفزعة علت من فوق المرتفعات هناك وبعد قليل انحدر منها قوم من التوارك يعدون على خيولهم مسجون تمام التسليح ثم اقتض بعض الأدلاء على واحد من أعضاء البعثة وقتله بالسيف ولما علم فلت بالفخ الذى نصب له تقدم هو وبعض رجاله لمقابلة المهاجمين وأطلق عليهم مسدسه ولكنه وقع قتيلاً بعد قليل أذ ضربه تاركى بسيفه وقتلوا منه من الفرنسيين وغيرهم وتمكن ثمانية من الجمال فقط من العودة إلى مضارب العاقلة وقام أذ ذلك مقدمها المسمى عبد القادر بن حميده ونصح من بقى على قيد الحياة بحمل المضارب والعودة فى الحال ليلاً بعد أن اقتسموا ما معهم من الأغذية والتفودوا الأشياء الأخرى وعادوا فى طريق طوله ١٥٠٠ كيلومتر وقتل

ذلك بقولهم أن الرمال تخزن المياه النهرية كما يخزنها الأسفنج وهذا التفسير الدقيق الذي قال به مسيو كوربي يظهر لنا بعض الخواص النورية الموجودة في طبوغرافيا الصحراء وعلى الخصوص علة وجود الكثبان على خطوط متعرجة هي نفس الخطوط التي ترسمها مجارى المياه في باطن الأودية وتفسر من جهة أخرى لماذا كانت توجد أرض واسعة إلى الجنوب من ورقلة يبلغ عرضها من خمسين إلى ثمانين كيلو مترًا خالية من الماء في باطنها تمامًا وخالية كذلك من الرمال وعلى ذلك فإذا كانت الكثبان لا وجود لها في جهات النجود الجيرية فليس ذلك لأنها لا تجد فيها ملجأ يقيها من الرياح فإن هذه النجود بها أودية وتضاريس تشبه الموجود منها بأرض الصحراء الحقيقية بل لأن الأرض ليس بها من الماء والرطوبة ما يجعل الرمل يستقر بها وكان العلماء ينسبون حقولة الصحراء لوجود الرمال بها ولكن هذا السبب بمفرده لا يكفي لجمال خروج كل نبات بها مستحيلًا لأنه يوجد على سطح الكرة أقطار رملية أخرى ليست صحارى وهي خالية من النبات بالمرّة وأن كانت قليلة الخصوبة ويضاف إلى ضعف الأرض أيضا عدم نزول الأمطار فإن وجد ذلك كانت الحقولة الحقيقية فالصحارى الحقيقية لا توجد على سطح الأرض

بعضهم في الطريق وباع لهم التوارك في عودتهم ثم رأوا مسموما وكثيرون منهم أصيبوا بالجنون حتى أطلقوا النار على بعضهم مضاً ثم قاتلهم التوارك في طريقهم وقتلوا منهم جملة واضطر من بقي لأكل بعضهم بعضاً بحيث لم ينج من تلك البعثة إلا عشرة أقس ليس بينهم فرنسوى وكانت عودتهم إلى ورقلة في اليوم العاشر من شهر أبريل (سياحة بعثة قلتر يلا د توارك أزقرس باريس ١٨٨٣) (Voyage de la mission Flatters au pays des Touaregs Azdgers Paris 1883)

ألا حيث يقل سقوط الأمطار

أما الصحراء الكبرى فإن هناك أموراً أخرى تساعد على صيرورتها قاحلة هي أولاً وجود بعض عناصر معدنية تمنع خروج النبات خصوصاً متى كثرت هذه العناصر في جهة من جهاتها ثم شدة التيارات الجوية لأنها تمنع الأرض من الصلابة الضرورية لنمو النبات وإذا تمكن الإنسان في بعض جهات الصحراء من منع ما زاد عن الحاجة من المدة الجبسية والملحية لتغير منظر تلك الجهات وصار على غير ما هو عليه الآن ولا كتست في جهات أخرى بالنباتات إذا امتنعت الرياح عن كنس سطحها على الدوام لأن استمرار هبوب هذه الرياح يمنع نمو أصغر نبات برى وأحسن أثبات على أن وجود الرمل ليس هو السبب الأصلي في قحولة الصحراء بل أن السبب هو عدم وجود الماء ذلك أنه بالرغم من قحولة سطحها وجفاف مناخها فإنها تشتمل على واحات مهمة كثيرة النباتات أي حيث توجد المياه سواء كانت تلك المياه تجري على سطحها أو في باطنها فيمكن للإنسان أن يوجد واحات كبيرة وصغيرة في الأماكن القاحلة منها أما بحفر الآبار الاعتيادية أو الأرتوازية لاستنباط ماء للرى وعلى ذلك يكون زوال الواحة أما بأغارة الرمال على آبارها أو بجفاف ينابيعها وعلى هذا فوجود الواحة مرتبط أتم الارتباط بوجود الماء وكل واحدة يمكن ردها بكيفية من الكيفيتين السابقتين أو يكون باطنها من الماء ما يكفي لذلك على الأقل

وبعض تلك الواحات واقع في قاع الأودية الصحراوية وهي أودية يدل
 ظاهرها على الجفاف ولكن بها في المادة بعض سواق تتخلل رمالها
 وحصبائها ومن تلك الواحات ما هو عند مدخل الوهاد والخيران في الجهات
 الجبلية فيمكن حجز المياه بها بأقامة السدود ومنها ما تشغل فجوات من
 الأرض رطبة ولكن في أغلبها ينبوع أو عدة ينابيع طبيعية
 أو آبار صناعية وحاصل الكلام أن الواحات قائمة دائما على خطوط مجارى
 المياه وفي مناطق ينابيع وبحيرات على عمق قليل أو كثير من سطح الأرض
 حاصلاتها - مزروعاتها ومعادنها - أهم الحاصلات المعدنية بالصحراء
 الكبرى الملح وهو على العموم في فجوات أرضها التي لا تنصرف مياهها
 إلى جهة من الجهات حيث تترك المياه بتأثير التبخر الشديد مواد ملحية
 بعد أن تكون غسلت بمجرياتها الأراضى التي تحيط بها ويظهر الملح فوقها
 أو تكون عليها قشرة حقيقية من الملح يسمع لها قرقرة تحت الأقدام
 وللملح المذكور تجارة مهمة لاحتياج أهالى السودان إليه احتياجا شديدا
 ويشغل باستخراجه هناك عدد عظيم من الناس ويؤكد العارفون أن عدد
 الجمال التي تشتغل بنقله سنويا يزيد على ثمانين ألف جمل وأهم مراكز تصديره
 المستنقعات الملحة في بلما (الجهة الجنوبية من واحة كوار) وسبخة
 إيجلى (بالصحراء الغربية) وملاحة أماغور (بالشمال من الصحراء بين
 تسيلي أزقر وهكار) ولكن الناس تركوها الآن بسبب تعديات ومطالب

التوارك وملاحة تاو ديني (على الطريق بين تندوف وتابكتو) وبها مناجم للملح الجلي المعروف بالمعدني ثم أن الملح الذي يتكون في مستغدرات ساحل الصحراء الغربي بالتبخر يجمعه الأهالي ويكتسبون منه مكاسب وافرة فتأتي قوافل تأخذه إلى بلاد السينغال والسودان

النباتات - النباتات بالصحراء قليلة ولم تأخذ الصحراء من نباتات ما جاورها من البلاد إلا الشيء القليل وفي ذلك دليل أيضاً على أنه لم يكن يشغلها في أول العصر الجيولوجي الحالي بحر عظيم كما يظن بعضهم لأنها لو كانت كذلك لكانت نباتاتها في هذه الحالة قد تكونت وتعينت بانتقال أنواع منها أتت من الشواطئ المطلة على ذلك البحر فالذي حصل هو على العكس من ذلك تماماً لأن الصحراء بالرغم عن أنها ليست منطقة تحول وانتقال بين نباتات الجهات الواقعة على بحر الروم وجهات بلاد السودان فإنها تختلف عن كليهما تماماً فهي بينهما حاجز لا يمكن اجتيازه وربما عد البعض الكلام على نباتات الصحراء من الأمور الغريبة لأن الوصف الحقيقي الذي ينطبق عليها وتوصف به هو خلوها من النباتات ومع ذلك فإنها ليست خالية من النباتات في كل جهاتها فالجهات المعروفة بالحماة يوجد بها في بعض الأوقات نباتات قصيرة وأشجار أخرى ليست مجتمعة من النباتات الصودية والشمّام وفي وسط الكثبان الكبيرة في الغالب خماثل واسعة من العُاليق وغيره وينبت بجانب هذه الخماثل أوفى وسطها نبات من الفصيلة النجيلية صالح جداً لغذاء الحيوان والإنسان وهو يشبه الخلفاء

ويقوم هناك مقامها وينبت في باطن الأودية أنواع من العليق مختلطة بأنواع أخرى صغيرة من النبات حتى أن بعض الأماكن التي يظهر أنها قاحلة بالمرّة ينبت بها أحياناً نباتات موزعة هنا وهناك يكون نحوها بنسبة الماء في باطن أرضها وجوداً وعدمًا وكلما تقدم الإنسان نحو الجهات الواقعة باطراف الصحراء كلما أخذت الحشائش في الظهور والكثرة فتكون هناك أولاً في القيعان بين تضاريس الأرض ثم فوق المرتفعات بحيث يقوم مقام لون الصحراء المصفر أو السنجابي لون أخضر جميل هو لون تلك النباتات وأذا ذاك يكون المسافر قد اجتاز الصحراء بأكلها ومع هذا فإن الصحراء الغريبة لا تدخل مع مجموع الصحراء فيما توصف به لأن مجاورتها للبحر وكونها في منطقة الأمطار المدارية المنتظمة كل ذلك يجعل بها من الرطوبة والماء ما يكفي لعدم حرمانها من النباتات ولأن نجد بها القبائل الرحالة الغذاء الكافي لحيواتها وتأخذ غابات الأفاquia والأشجار التي من فصيلة المستحية في الظهور جهة الجنوب حيث تكثر أشجار الصمغ مما يكون مدار تجارة كبيرة وأشجار الصمغ تكون عظيمة بصحراء ماجر شمالاً حتى يزداد ارتفاع الشجرة الواحدة عن ١٥ مترًا كما يزيد محيطها عن مترين وبأودية السفح الجنوبي من جبال تاذميت والجبل الأبيض في مجاريها العليا أشجار صمغ وينبت في جهات العرق على يسار إغمرغر عند سفح الكتبان نباتات جياة غضة جداً بحيث لا تجعل الحيوانات التي تنفذ منها في حاجة إلى الشرب

مدة طويلة وينبت فوق القمم المعروفة واحدها هناك بأسم عَجْرُود نوع من
الطرفاء يسميه العرب بالعريش وشجيراته الدقيقة اللطيفة ترى عالقة فوق رؤوس
الكثبان وسفوحها الحادة كما وصف ذلك السائح فورو والمتقدم الذكر وتشمل
الصحراء ألاسهولها القليلة المرعى التي يتنقل بها الرحل ثم وقطعانهم وألا ما يحيط
بها من المناطق الخضراء التي ليست تبانة للصحراء على عدة جهات ذات واحات
مزروعة ومسكونة أهم نباتاتها انخيل وهو بها غابات كثيفة تنبت تحت وفي
ظلاله نباتات أخرى مما يغير لون الصحراء ويمكن سقى أراضي كل واحة
بطريقة من الطرق المستعملة للرعى أو يكون بها على الأقل ماء لأنه يستحيل
الأنبات مع وجود الجفاف اتمام اذا لم تسقى أو لم يكن بها ماء كما أنه
يستحيل على النخيل أن يثمر كما يستحيل على كل نبات آخر أن ينمو وأرض
هذه الواحات ليست إلا جزءاً صغيراً من مجموع الصحراء العظيم فهي
كالجزر الخضراء تارة تكون على امتداد طويل وتارة تكون مجتمعة
مع بعضها كالأرخبيل المتشورة جزائره في المحيط ويقول العارفون أن مسطح
الواحات مجتمعة لا يزيد على ٢٠٠.٠٠٠ من الكيلومترات المربعة ألا أن
هذه الواحات الصغيرة المسطح والموزعة بغير انتظام والتي يقتصر عليها عمل
السكان بالصحراء والتي هي أفقر جهات الأرض بها مع ذلك قوة انبات
وعناصر ثروة زراعية لا مثيل لها في جهة أخرى وفي مسطح مساو لمسطحها
بالنسبة لخصوبه الأراضي في البلاد التي تساعد طبيعتها ومناخها على الأنبات

والفضل في كل ذلك عائد إلى النخيل ومع ذلك فكل الواحات ليست متساوية في هذا الأمر فالأختلاف بينها كبير في نوع حاصلاتها وكثرتها بحسب أنواع النخيل الذي يزرع فيها وبحسب الأحوال الطبيعية لمناخها وأرضها وريها وتقاسة النخيل ليست لثمره الذي يكون غذاء لسكان الواحات ولهم فيه تجارة مهمة فقط بل أن كل جزء من أجزائه تقاس فجزعه يستعمل في بناء للدور كما يكون عمداً وأساطين ومنه تؤخذ ألواح الأبواب والشبائيك وبه تطوى الأبار ويقوم مقام أخشاب التجارة ومن جريده تبنى الأخصاص وتصنع السياجات، والهدى والأسفاط وبمض النعال ويكون وقوداً ومن ليفه تصنع أبحال متينة ومن عصارته الغزيرة يستخرجون مشروباً حلواً يكون مسكراً شديداً بد تخميره أما بقية المزروعات هناك فأشهرها الشعير والحنطة والذرة والدخن والجزر والبنجر والبصل والثوم والقاوون والخيار والبطيخ والبااميا والباذنجان والبقلة لحماء (الرجلة) والبسلة والفول والفاصوليا والكمون والفلفل الأحمر والكزبرة ومن أشجارها المشمرة التين واللوز والمشمش والرمان والكرم والخوخ والبرقوق والتفاح والليمون والبرتقال والزيتون والبرسيم والتبغ والقنب، والحناء والقطن

الحوانات- الحيوانات الكبرى قليلة كالنباتات لا بل هي أقل منها من حيث التخصيص والتعيين لأن خاصية الأتقال في الحيوانات تسمح لها بمجاوزة حدود مناطقها ومع ذلك فليس بين حيواناتها وحيوانات

السودان مشابهة ماوى بأنواعها موافقة لاحتياجات سكانها والحياة الحيوانية بها قاصرة كلها تقريباً على الواحات ويظهر أن الأسد لا وجود له بجمال هكار بل الموجود بها أنواع من الذئاب والضباع وتكثر النزلان بالنجد والسهول التي حول السلسلة المذكورة وفوق هضبة تسلي أزقر حمر وحشية وتكثر الأسود بواحة أهير حتى ترى مجتمعة مع بعضها وليس لأسودها بلد والنمر وأن كان بها أقل من الأسد وجوداً إلا أن الأهالي يهابونه جداً والضبع بها نادر للغاية أما الحلايف وبنات آوى والقروء فأنها كثيرة في الغابات وفوق الأشجار وغزلانها كثيرة الأنواع بعضها أصله من الصحراء الشمالية وبعضها من السودان وهي تسرح وتمرح في السهول وفي مضائق أهير والحيوانات البرية قليلة في تيسى فليس بها إلا الضباع وبنات آوى والفنك أو ثعلب الرمال والنزلان والقروء وقد أصبحت النعام نادرة جداً بالصحراء إلا في جهات أدرار تامارهي والحمر الوحشية أو الأراقط وتعيش الطيور بالصحراء على شواطئ المستغدرات وفي القيمان الشجراء إلا أنها نادرة وأنواعها قليلة وربما سار السائح في بعض جهاتها أسبوعاً فلا يصادف طيراً واحداً أما الزواحف فكثيرة بكل جهاتها وكذلك السمك بسواحلها القريبة لذلك يتردد عليها صيادو جزائر قناريا ووفرة السمك هناك على الخصوص بعض أنواعه هي السبب في إقامة مبان مهمة للصيد على صخرة أرجين ويظن بعضهم أن حيوانات بحيراتهم المملحة تشبه التي منها بالصحراء الجزائرية لأنهم وجدوا في بحيراتهم

الملحمة سمكا وحيوانات مائية من ذوات القشر

أما الحيوانات الداجنة فمنها الثيران وهي صغيرة القد نحيفة الجسم والخيول والحمير والضأن والمز وأنواعهما كثيرة وبعضها طويل الشعر وبعضها قصيره والكلاب والجمال ولم يكن الجمل يوجد بها في أول التاريخ الميلادى ويظهر أنه أتى إليها من بلاد العرب عن طريق مصر ويستعملونه في الحمل والركوب ونقل المتاجر والمسافرين ولبعض القوافل خصوصاً في الصحراء الغربية جمال كثيرة جداً يأكلون ألبانها ولحمها ويصنعون من أوبارها خياماً وملابس ومن جلودها نعلاً وغيرها وهناك نوع من الجمال سريعة العدو جداً تعرف بالمهارى وتمتاز بارتفاع جسمها ودقة ولطافة ساقها وعنقها وسرعة عدوها وصبرها على الجوع والعطش صبراً عجبياً فينما الجمل العادى يقطع في الساعة الواحدة من ثلاثة كيلومترات إلى أربعة عادة أو يقطع في اليوم الواحد من ٢٥ إلى ٢٦ كيلومتراً على الأكثر تقطع المهارى في الزمن المذكور أكثر من ذلك بأربع مرات أو خمس حتى ذكر بعضهم أن واحداً منها قطع في يومين نحو ثلاثمائة كيلومتر وهي تصبر على الجوع والعطش حتى سبعة أيام صيفاً في السفر أما في الشتاء فأنها تبقى في الرعى نحو شهرين ولا تشرب فيها مرة واحدة لذلك كانت المهارى أفضل حيوانات الركوب لدى التوارك أذ بها يمكنهم الأغاثة فجأة على فريستهم كما تمكنهم من الهرب سريعاً ولدى سكان تيبستي جمال سريعة العدو أيضاً لكنها تختلف عن المهارى قليلاً وهي تتحمل التعب وتتسلق

الصخور جيداً بحيث يستحيل على جمال الشمال أن تهتق أثرها
سكنها - سكان الصحراء النازلون في أرجائها الواسعة بين متوطنين
ورحل ترجع أصولهم وأنسابهم جميعهم أما مباشرة أو بواسطة إلى مجتمعات
متميزة أشهرهم ما يأتي

التوارك- ويعرفون أيضاً باسم أيموهاج أو أيموشاك وهم يشنون نحو
نصف الصحراء لا يشاركون فيه غيرهم أي أنهم ينزلون في كل المنطقة الوسطى
الواقعة بين بلاد الجزائر وتونس جنوباً والحدود الشمالية من بلاد السودان
الوسطى وينقسمون إلى توارك شماليين (أو أزيقر وهكار) وإلى توارك
جنوبيين (والميندين - أولميدن) والأولون منهم نحو ٣٠.٠٠٠ نفس
والآخرين نحو ٤.٠٠٠ نفس وكل قبائلهم متحدة فيما بينهم وقد مضى عليهم
الآف من السنين وهم بالصحراء الوسطى المذكورة ويشغل الأشراف أي
الأعيان منهم على الدوام بشن الغارات وغزو القبائل المجاورة لهم ويعيشون من
الحرب والنهب والغنائم أما الزراعة وغيرها من الأعمال فيقوم بها العبيد
والخدم والأشراف دون غيرهم الحقوق السياسية في القبائل وتختلف عوائد
أخلاق توارك الجنوب عما يماثلها لدى توارك الشمال قليلاً ويسكن توارك
الجنوب في خيام من الأدم أو من نباتات بعد أن يحملونها كالخضر وينقسمون
أيضاً إلى أشراف وسوقة أو مستعبدين والحرب لا تكاد تنقطع بينهم وبين جيرانهم
التبو - وأهم مراكزهم بلاد تيديستي ومنازلهم إلى شرق التوارك في قسم

عظيم من الصحراء الشرقية وطريق القوافل بين مرزوق وبحيرة شاد المار
 بواحة كوار هو الحد الفاصل بين التوارك والتبو لأن هذا الحد يتغير بطبيعة
 الحال عقب الأغارات التي يقوم بها كل من الطرفين ويقدر أن مسطح
 أراضي التبو بنحو ٥٠٠.٠٠٠ من الكيلومترات المربعة وربما كانت تشمل
 سابقا واحات كفره شمالا ويظهر أن التبو متناسلون من قبائل سودانية
 وعلى كل حال فإن دماءهم أقل اختلاطا من غيرهم وكل سكان تيبستي من
 جنس واحد فليس بينهم أحد من أصل عربي أو بربري وهم قليلو العدد مع
 أنهم من أشهر الأجناس في أفريقية بسبب اتساع بلادهم قال الدكتور
 نخبيجال أنهم لا يزيدون عن ٢٨.٠٠٠ نفس (منهم ١٢.٠٠٠ في كل بلاد
 تيبستي) ومعيشة التبو فقيرة لأنهم في بلاد ليس فيها شيء من وسائل الحياة
 تقريبا ولكل واد أمراء والأمير عندهم يقال له دَرْدَاي ويتلوه في الدرجة
 أعيان الأهالي ثم بقية الأهالي وسلطة الأعيان والأشراف منهم محدودة
 جدا لأن العرف هو الحاكم هناك فليس لهم إلا إصدار الحكم في النوازل كأنهم
 قضاة ولهم حق النظر في أمر الصلح والحرب وكلما أشاروا به ينفذ على العموم
 المقاربة - (هو أسم عام يدخل تحته جميع القبائل المختلطة الأنساب
 من بربر وعرب وسود) ومنازلهم غربي التوارك بكل بلاد الصحراء الغربية
 حتى سواحل المحيط والشاطيء الأيمن من نهر سنغال ومن الصعب جدا
 معرفة أنساب القبائل العديدة التي بالصحراء الغربية وألى أي الجنسيتين

تنسب البربر أو للعرب ومع ذلك فالظاهر أنهم من أصل بربرى وأن كانوا يتكلمون العربية التي قامت لديهم مقام لهجتهم الأصلية وقد سمي الفاتحون من العرب كثيراً من القبائل هناك بأسماء أمرائهم ورؤسائهم أى رؤساء وأمراء العرب مع أن عددهم كان هو الأقل فى تلك القبائل ويضاف إلى ذلك أن بعض القبائل البربرية اتخذت شجرة أنساب تصعد به إلى جدود أصلهم من بلاد العرب ولذلك لم تكن الأسماء ولا اللغة ولا التقاليد كلها كافية للتمييز والجزم بما إذا كانت هذه القبيلة أو تلك بربرية أو عربية الأصل وربما أمكن فى بعض الأحيان الرجوع إلى الصفات الطبيعية ولكنها هى أيضاً قد زالت كثيراً لاختلاط وامتزاج دمائهم بالدماء السودانية بحيث صارت لا يمكن الاعتماد عليها والقبائل فى القسم الشمالى من الصحراء العربية كلهم رحل على العموم أما فى القسم الجنوبى فكلهم متوطنون وأقوى هذه القبائل وأشهرها الرّجيمات وأولاد بوسبّا وأولاد دليم وكلهم بالشمال والمغاربة (طرارزه وبراكته ودوايش) كلهم فى الجنوب وعلى الشاطئ الأيمن من نهر سنغال ولما كانت هذه الأمم ذات ارتباط بالشرق والمشاركة من حيث التاريخ والعادات والأخلاق والدين والجغرافيا رأينا من الموافق ذكرها بتفصيل أوفى وعبرة أوسع فنقول

التوارك

التوارك أقوام من البربر ينزلون الجهات الوسطى من الصحراء الغربية على الخصوص فهم الآن على ذلك في منطقة تود فرنسا وقد أخذ أهل أوربا اسمهم عن العرب الذين سموهم بالتوارك والتوارك يكرهون تسميتهم بهذا الاسم وهم ينقسمون إلى أربعة أقسام سياسية كبرى كل منها يقيم في امكنة وأصقاع خاصة به وهي

(١) قبائل أزقر أو أزجر المتحالفة وتسمى أيضاً كِيل أزقر وهي بالشمال الشرق وموطنهم نجد تسيلى الشمال وما يتبعه من الأراضى

(٢) قبائل هُكار المتحالفة أو وكيل هكار وهي بالشمال الغربى فيما يعرف بهضبة هكار

(٣) قبائل أهير المتحالفة أو كِيل أهير ويقال لها أيضاً كِيل أوى أو كيلوى بالجنوب الشرق من هضبة أهير أو أسين

(٤) قبائل أوليدين المتحالفة بالجنوب الغربى وبعض بلادها جبلية هو بلاد أدرار وبعضه سهل هو بلاد أهأواج

قبائل أزقر وهكار هم توارك الشمال وتوارك أهير وأوليدين هم توارك الجنوب وقد اتخذ توارك كل قسم من هذه الأقسام الأربعة له مركزاً لحياته السياسية هي هضبة جبلية منفردة تكون له ملجأ استقلال وعش حرية

وبهضبتين من الهضاب المذكورة وهما النازلة بهما توارك الشمال أرفع
القمم التي بالنجد المتوسط من الصحراء كما بهما خط تقسيم الماء بين حوض
البحر المتوسط الأبيض وحوض المحيط الأطلسي والهضبتان الأخريان
تايعتان لحوض نهر النيجر وبين الهضاب الأربع المذكورة سهول واسعة
وصحارى قاحلة بعضها رملى وبعضها صخرى وبعضها طباشيرى وبعضها
أراضيها مكونة من رواسب أتت إليه من حوض السبخات لللحة وأذا
أردنا تعيين موطن خاص موروث لكل مجتمع من المجتمعات الأربع المذكورة
بالهضبة النازلة بها لصعب علينا تعيين مبدأ ذلك الموطن ونهايته كما يصعب أن
نعين بالضبط الحدود التي تفصله عما يجاوره من بلاد القبائل التي ليست من
التوارك والحق الذي يكون لأول محتل وهو الشيء الوحيد الذي يستمد
عليه في مثل هذه السباسب والأصقاع الواسعة لا تكون له قيمة حقيقية
ألا إذا كانت تؤيده قوة كافية لجعله محترما ومع ذلك فمن الممكن تعيين
حدود عمومية لما نزلته المجتمعات التاركية الأربع المذكورة من الأراضي إذا
قطعنا النظر عن التغيرات والحوادث العارضية التي تحصل من الأغارات والحدود
المذكورة هي الآتية (١) بالشمال خط مستقيم يبتدىء من الحماد الأحمر
يلاد طرابلس ذاهبا نحو غدامس - (٢) خط مستقيم أيضاً من غدامس
ويتهى إلى الحد الشمالى من بلاد توات - (٣) بالقرب الحدود الشرقية والجنوبية
من نجد تادميت وطريق القوافل الذاهب إلى تابسكو - أما في الجنوب

نُحِط من تَنبُكْتو مَتَدَأَى شِمَال زَنْدَر وَفَى الشَّرْقِ خُط مُوَازٍ لِلطَّرِيقِ الَّذِى
 بَيْنَ كَوْنَا وَمَرْزُوقٍ أَوَّلَا ثُمَّ الطَّرِيقِ الَّذِى بَيْنَ مَرْزُوقٍ وَمَدِينَةِ طَرَابُلسٍ
 حَيْثُ ابْتَدَأْنَا وَفَصَلَ الْخُدَّ الشِّمَالِى تَوَارُكُ الشِّمَالِ عَنْ قِبَائِلِ بِلَادِ الْجَزَائِرِ
 وَفَصَلَ الْخُدَّ الْغَرْبِى أَوَّلَا هَكَارَ عَنْ وَاحَاتِ تَوَاتٍ كَمَا يَفْصَلُ الْقِبَائِلُ الرَّحَالَةَ
 النَّاعِمَةَ لِلْوَاخَةِ الْمَذْكُورَةِ ثُمَّ يَفْصَلُ ثَانِيًا الصَّحَارَى الْوَاسِعَةَ الَّتِى بَيْنَ هَكَارَ وَأَوَّلِيْدِيْنِ
 الْقِبَائِلِ الرَّحَالَةِ بَيْنَ عَرِيَّةٍ وَبَرْبَرِيَّةٍ النَّازِلَةِ عَلَى سِوَا حُلِّ الْهِيطِ الْإِطْلَسِى عَنْ
 بَعْضِهَا وَمَعَ وَجُودِ تِلْكَ الصَّحَارَى الْخَالِيَةِ الْخَفِيفَةِ الَّتِى تَفْصَلُ هَذِهِ الْقِبَائِلَ
 الْمُتَعَادِيَّةَ عَنْ بَعْضِهَا فَأَنَّهُمَا تَتَلَاقَى أحيانًا مَعَ بَعْضِهَا لِلْقِتَالِ أَمَّا الْخُدَّ الْجَنُوبِى
 فَهُوَ الَّذِى كَانَ يَفْصَلُ قَدِيمًا تَوَارُكَ الْجَنُوبِ عَنْ دَوْلَةِ سُنْغَايَ (١)

(١) السُّنْغَايَ أَوْ السُّنْجَايَ أُمَّةٌ مِنَ السُّودَانِ الْغَرْبِى تَنْزِلُ الْآنَ عَلَى شَاطِئِ نَهْرِ
 النِّيجَرِ الْأَوْسَطِ مِنْ تَنبُكْتُو حَتَّى نَهْرِ سُكْتُو وَكَانَتْ لَهَا قَبْلَ دَوْلَةِ قُوَّةٍ وَالْمَعْلُومَاتُ
 عَنْ أَصْلِهِمْ قَلِيلَةٌ جَدًّا وَيَعْلَمُ مِنَ التَّارِيخِ أَنَّهُمْ أَتَوْا مِنْ بِلَادِ الْيَمَنِ فِي نَحْوِ الْقَرْنِ السَّامِعِ مِنْ
 الْمِيلَادِ وَيَنْتَسِبُونَ إِلَى رَجُلٍ يُسَمَّى (زَا) أَوْ (ظَا) وَأَسَّسُوا مَمْلَكَةً عَظِيمَةً بِسُرْعَةٍ ثُمَّ أَسْلَمُوا
 فِي نَحْوِ سَنَةِ ١٠٠٩ مِنْ الْمِيلَادِ وَكَانَتْ لَهَا تِجَارَةٌ مَعَ بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَمِصْرَ وَبَقُوا عَلَى
 اسْتِقْلَالِهِمْ حَتَّى سَنَةِ ١٣١١ مِنْ الْمِيلَادِ وَفِيهَا أَغَارَ عَلَى بِلَادِهِمْ مَلِكُ بِلَادِ مَالِيٍّ مِنْ مَمَالِكِ
 السُّودَانِ وَأَدْخَلَهُمْ تَحْتَ طَاعَتِهِ ثُمَّ قَامَتْ لَهَا دَوْلَةٌ ثَانِيَةٌ مِنْ مُلُوكِ الْمَلِكِ سُنَى عَلَى وَقْدِ طَارِ
 ذِكْرِهِ وَعَظُمَتْ شَهْرَتُهُ حَتَّى أَنَّ حَنَا الثَّانِيَّ مَلِكَ الْبَرْقَالِ أَرْسَلَ لَهُ سَفَارَةً ثُمَّ اسْتَوْلَى أَحَدُ
 سُلَاطِينِ مَرَاكُشَ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ ثُمَّ اسْتَوْلَى عَلَيْهَا الْفَلَاتَةُ فَأَزَالُوهَا وَتَفَرَّقَ السُّنْجَايَ
 بِكُلِّ بِلَادِ السُّودَانِ الْوَسْطَى

القديمه ولما كانت قبائل أولميدن استولت من عدة سنوات مضت على شاطئ نهر النيجر من قبائل الفلانة حيث كانت تنزل قبائل سنغاي القديمه وجب أن يكون الحد الجنوبي إلى الجنوب أكثر مما كان ويفصل الحد الشرقى توارك أهير عن أمة التبو كما يفصل جهات أزقر عن فزان وينزل الأزقر بهذا القسم الأخير في أراض تابعة للحكومة العثمانية ولكنهم لا يترفون بسيادتها عليهم اعترافا فعليا وبمجموع أراضي الأقسام الأربعة التاركية تحدث بهذه الحدود بين أفريقيه الشمالية وأفريقيه الوسطى مربعا جسيما تقسمه دائرة السرطان إلى قسمين متساويين تقريبا ويعرف لدى الجغرافيين بأسم نجد الصحراء الأوسط ويسمى التوارك بلادهم عموما أجماً ومعناه الصحراء ويقولون أن أماكن تيسا الواقعة على وادى ترهيت وأسيو وأن جزاءم على وادى تافساست هي التى تفصل توارك الشمال عن توارك الجنوب وأن مسيل الماء الكبيرين اللذين يبلادهم وهما أغرغر ووادى تافساست الأول فى الشمال والثانى فى الجنوب يعتبرهما عموم التوارك كخطين فاصلين بين المجتمعين المتحددين الشرقى والغربى ولما كان وصف بلاد التوارك هو إعادة لوصف معظم بلاد الصحراء الغربية والوسطى التى تقدم الكلام عليهما بما فيه الكفاية اقتصرنا هنا فقط على بيان أحوال وأصول كل من المجتمعين الكبيرين المذكورين فنقول

أن الأقوال والروايات التى لدينا على عدد التوارك كلها تقريبية مهمة

ويقول السياحون القائل الذين جاؤوا بلادهم أن عدد قبائل المجتمعات الأربع نحو ٢٠٠٠٠ نفس تقريبا ويقول برت أن عدد توارك الجنوب الذين في الحماة الأسود وعلى النيجر وحدود برنو نحو ١٢٠٠٠ نفس

توارك الشمال - قلنا فيما سبق أن توارك الشمال ينقسمون إلى قسمين كبيرين هما أزقر شرقا وهكار غربا وينقسم كل من هذين القسمين إلى قبائل بعضهم أشرف أي أعيان ويعرفون بلقباً هجائاً وبعضهم خدام خاضعون للأعيان خضوعاً تاماً ويعرفون بأسماء مرآد أو أمجاد ومنهم من هم لامن أولئك ولامن هؤلاء ويمشون في قوذ قبيلة من قبائل الأعيان ويدفعون لها أتاوة ومن التوارك قبائل المرابطين وعلمهم تدير الأماور والشؤون ومصلحة القبائل وتعليمهم أمر دينهم وهي وظيفة مهمة في جمعية مثل التوارك ليست خاضعة لنوع مامن الحكومات النظامية ولكنها بقوة التماسك التي فيما بينها تمر عليها القرون لا يطرأ عليها تغييرات مهمة مع انتقالها الكثير من مكان إلى آخر ومع حروبها الداخلية ودفاعها عن استقلالها وليس في بلادها أعيان وعبيد ومن يسكن القرى منهم في بلاد توات لا يعتبرهم التوارك قسماً من مجتمعهم وكان توارك هكار قبيلة واحدة هي قبيلة كيل أما ميان وهي تنقسم إلى أخاذ عديدة ثم أن ازدياد أفرادها اضطرها للفرق في أماكن واسعة لتمكن من الحصول على معيشة حيوانها وربما كانت العداوة بين العائلات وبعضها هي التي سببت تقسيم القبيلة الأصلية المذكورة إلى قبائل مستقلة بلغت أربع عشرة قبيلة بدل قبيلة

واحدة أشهرهم قبيلة تسمى أَوْزَاغِن وهي ذات شهرة في تاريخهم ويقول ابن خلدون أنها متصلة النسب في البربر بقبيلة أَوْرِيْنَا وربما كان لفظ أَوْرِيْنَا أو أَوْرَى الذي يطلق على أمة كانت تسكن أرض قرطاجنه في الأزمنة النابرة آت من لفظ أَوْرِيْنَا المذكور ثم أخذ الرومان هذا الاسم (أورينا) وأطلقوه أولاً على الأقليم الذي افتتحوه ثم توسع الناس فيه فيما بعد فأطلقوه على القارة بأجمعها وذكر البكري قبائل أَوْرِيْنَا في عصور التاريخ التي سبقت الفتح العربي الذي وقع سنة ١٠٤٥ من الميلاد ويقول أيضاً أن لهم بقايا في قابس وضواحي برقه ولما التجأت قبائلهم إلى الصحراء حافظوا بها على ما كان لهم من الرفعة التقليدية القديمة وبأسمهم تسمت إحدى اللهجات الأكثر انتشاراً بين التوارك وكان يحكم كل قبائل أزقر وهكار من نحو قرنين مضيا قبيلة جمعت إلى شرف الأصل الشرف الديني أيضاً لا تتسبها إلى البيت النبوي الكريم وهي قبيلة أَمَانَان ويلقب رئيسها بلقب أَمَانُوْكَال وهو لقب بربري معناه سلطان وحصل أن قام رعاياها عليها وبعد حرب انهزم الأمانان وكان يساعد الثوار قبائل أَوْزَاغِن ومن ذلك الوقت سار للأوراغين اعتبار وتقوى وكون الأزقر والهكار أمارتين متحالفتين يحكمهما شيوخ وراثيون يعرف الواحد منهم بلقب أَمْنَجَار ومعناه شيخ وأصبح الآن لكل أَمْنَجَار من الأمارتين ما كان للأمانوكل القديم من السلطان وتقوى هؤلاء الشيوخ لا يحدده عهد ولا تقليد أصلاً فهو يختلف بحسب النفوذ أو الثقة التي يتأهلها

كل أجماع ومع ذلك فإنهم يراعون بقدر الأمكان ما ورد في الكتب الشرعية الإسلامية ما للسلطان من النفوذ

الأزقر - يظهر أن قبائل أزقر أو أزجر يشغلون الدرجة الأولى في ترتيب مجتمعات التوارك لا لكثرة عددهم لأنهم من أصغر القبائل عدداً ولا ثروتهم لأنهم من أقل القبائل ثروة ولكن أوليتهم للحضارة التي بانوها ولما هم عليه من النظام ولما حازوه من الشهرة في الخارج ولما لهم من النفوذ الشرعي على بقية المجتمعات ولنصيبهم في التجارة بين الصحراء وأفريقية الوسطى واعلم أن أهل أوروبا لم يتمكنوا من الدخول والوصول إلى أفريقية الوسطى واكتشافها إلا من بلاد هؤلاء الأزقر وبمساعدة شيوخهم والطرق التجارية المارة ببلادهم هي آمن الطرق وأكثرها تردداً وبنفوذهم أيضاً أصبحت غدامس نبراً للتجارة وأضحت غات سوقاً لها فوصلنا إلى درجة من الفلاح يحسدهما عليه بقية المدن التجارية بالصحراء ثم أنه بواسطة الأزقر لا غيرهم أمكن لأوروبا والممالك التي بشمال أفريقية أن تكون في مواصلات مع بقية التوارك ومع بعض الشعوب السوداء التي بأفريقية الوسطى وهذه القوة المعنوية هي نتيجة الرجحان السياسي الذي نالته أورغن في القرنين الأخيرين على الأقل وللنفوذ الديني الذي لطاقتة المرابطين منهم المعروفين بأسم إيفوغا على كل القبائل التي تنزل بجوارهم ثم أن مجاورة الأزقر لأهم غير حالة في مرزوق وغات وخصوصاً في غدامس التي هي من أقدم مراكز

الحضارة في الصحراء قد ساعد كثيراً على جعل الأزقر يتصفون بصفة غالبية عليهم هي تسهيل المواصلات على الغير ومما يجب التنبيه إليه ميل الأزقر إلى اتخاذ مساكن ثابتة ولذلك لم يكن بين توارك فزان رحل أصلاً وهم في معيشتهم كأهل الواحات أى أنهم يقيمون في قرى حولها غابات ونخل وكان أهالي غات في القديم رحلاً مثل أهالي بلدتي البركة وجانت الواقعتين إلى الجنوب من غات ومما يدل على شدة استقرار التوارك في الأرض أن لهم في مدينة غدامس ضاحية ينزلونها خلاف هذه المدينة وليس ببلاد التوارك على اتساعها إلا زاوية واحدة للسوسيين في بلدة تيمسسين ببلاد الأزقر ومن الأدلة أيضاً على ميل الأزقر إلى الاستقرار في الأرض أن الرحل منهم يميلون إلى الوجود داخل حدود معينة من الأرض وهو ما لا يكون في المجتمعات الأخرى وفي قبائل تماثلهم وسبب ذلك ميلهم إلى اتخاذ مزارع والسعى في توسيع نطاقها الهكار - المشهور عن توارك هكار أنهم بأجمعهم يتصفون بحب الاستقلال وشراسة الأخلاق وسرعة الغضب مما يجعل المواصلات والخبرة معهم صعبة جداً وليس ذلك مع الغير فقط بل حتى فيما بينهم لهذا نراهم يعدون من الفخر والشرف عدم أمكان الخبرة معهم في شيء ما أصلاً وشراسة الأخلاق التي جطت الهكار أكثر أهالي الصحراء أخافة هي نتيجة أسباب مادية بقطع النظر عما عليه بلادهم وحالتهم من عدم الألتئام والتشتت وأول الأسباب وأهمها سكنهم في جبال ممزقة مشتتة قرعاء يدل منظرها على الوحشية التامة

أو في صحارى قاحلة نباتاتها كلها تقريباً من النباتات الشوكية ومن الأسباب أيضاً عدم قدرتهم على المعيشة من حاصلات أرضهم اللهم إلا إذا كان الواحد منهم كالجمل قناعة ثم أهمل القوافل للطرق التجارية المارة ببلادهم أو قريباً منها لقحولة جبالهم وصحاريهم وغير خاف أن خلق الشخص وطبيعته يخضعان لتأثير الوسط النازل به ذلك الشخص أما بقية قبائل التوارك فهم وأن كانوا من جنس الهكار إلا أنهم ألين عريكة وأسهل أخلاقاً لأن بلادهم أقل قحولة وألين معيشة وعلى ذلك يمكن بلا شك تبين طباع الهكار وتسهيل أخلاقهم بأدخال ما يمكن أدخاله في بلادهم من النباتات وإعادة فتح طرق التجارة المتروكة وتحسين حالتهم المادية ببلادهم

توارك الجنوب - تتألف توارك الجنوب من المجتمعات الآتية هي كَلَوِيّ وِكِيلْ جِيرِس وِكِيلْ أُولَيِّدِنْ وِينْزَلْ الأُولان منهم عند حدود بلاد حوصا وِرَنُو وبميرة شاد وِينْزَلْ الأخيرون عند حدود السودان وسوقهم التجاري هو مدينة تنبكتو وليس للجغرافيين من أهل أوروبا كبير علم بأحوال توارك الجنوب خلاف مساكنهم الجغرافية لأنه لم يكن بينهم وبين أولئك التوارك علاقات ما حتى هذه الأيام والمعروف بالأجمال فقط أن قبائل أُولَيِّدِنْ هم أقوى قبائل التوارك وأشجعهم وأميلهم للحرب وهم ينزلون جهات النيجر الوسطى وتنزل قبائل كلوى وِكِيلْ جِيرِس على الشاطئ الشمالي من بحيرة شاد

قبائل كلوى - لا تزال هذه القبائل الآن صاحبة السيادة في واحة
أهير أو أسنين الواسعة وفي الصحراء الجنوبية كذلك وهم فرع من الأوراغن
وتعرف لهجتهم بالأوراغنية وكل قبائل مجتمعهم الكبير يسبق أسمها لفظ
كيل وليس ذلك لقبيلة أخرى من التوارك ويقول السائح برت أن لفظ
كلوى يدل على قبيلة مستقرة في أرض ويؤيد ذلك أن قبائل كلوى تسكن
قرى مؤلفة من أشخاص

قبائل كيل جيس - تنزل هذه القبائل جنوبي بلاد أسنين قال برت
«أنهم من البربر وقد اشتهروا بالقوة واللفظ والجمال ولونهم أفل سواداً
بالنسبة لغيرهم وهم يفتخرون ببقاء دمهم كما يشتهرون بالشجاعة والأقدام
وهم وأن كانوا أقل بكثير من جهة العدد عن أصحاب جبال واحة أهير
الحاليين إلا أنهم يمتازون عنهم بأنهم بأجمعهم تقريباً يركبون الخيل بينما أعداؤهم
يركبون الجمال على الخصوص لأن المحاربين الذين يجاربون وهم على الخيل
تكون لهم الحرية والخفة في حركاتهم أكثر من راكبي الجمال» اهـ

قبائل أوليين - هذه القبائل أكثر قبائل التوارك عدداً وقوة
وهم ينزلون كل الصحراء الجنوبية إلى الغرب من أهير حتى نهر النيجر وهم
أصحاب تنبكتو ولم يزر بلادهم لأن أوربي ويقدر العارفون مسطحها بنحو
٢٠٠٠ من الكيلومترات المربعة وتعرف بلادهم بأسم أذاروا وذجاج وهي
كثيرة الجبال والمرعى والمطارلوقوعها في منطقة الأمطار الدورية وتنبت بها

أشجار ونباتات أخرى على مجارى المياه مما يساعد على تربية الجمال والماشية وكثرة السكان وقد أطلق بعضهم على بلادهم لذلك سويسره أفريقية ويظن برت أنهم هم قبائل لَمَطَة التى يذكرها مؤلفو العرب كما يظن أيضاً أن لفظ أولمِيدَن فى شكله التماشكى معناه أولاد لمطه وكانوا يسكنون قديماً فى جوار أولاد دليم وهم قبيلة من البربر ثم استولوا فيما بعد على مملكة سَنُغَاي والكثيرون منهم يشبهون الحوصا فى هيئة وجوههم وقد أدخلوا فى لغتهم كثيراً من الألفاظ والتعابير السودانية أما من حيث الدين فأنهم ليسوا بمتغالين فيه فهم أقل غيرة عليه وعملًا به عن سواهم فهم لا يصومون ولا يصلون وليس لهم جوامع ولا مدارس ولهم فى تنبكتو شيخ يلقب عندهم بلقب بَكَاي يحملون إليه نذورهم وهداياهم وهو الذى يرشدهم إلى أمور دينهم وهم يسكنون خياماً من الأدم أو القش وينقسمون إلى أعيان وسوقه مستعبدين ويحتقرون الزراعة ويشنون الغارة على من يجاورهم من القبائل وليس يبلادهم الآن ما يستحق أن يطلق عليه اسم مدينة

صورة التوارك الأصلية الطبيعية - أن التوارك فى القبائل العالية النسب وهم الذين لم تختلط دماؤهم بدم سودانى أصلاً صورتهم أُنقى وأخلص صورة فى جنس البربر الذين هم من أسرة الأُمم البيضاء كما تقدم (راجع الكلام على البربر) وهم على العموم طوال الأجسام نحفاء البنية عصبون كالعرب حتى قال عنهم السائح دوثيريه أن عضلاتهم يشبه أن يكون لها زبركات

من فولاذ وبشرتهم يضاء في طقولهم ألا أن الشمس تصير لونهم فيما بعد برزيا مثل لون سكان الجهات المدارية وصورتهم قفاسية الأصل فوجوههم بيضوية مستطيلة عند البعض وجباههم عريضة وعيونهم سوداء وأنوفهم صغيرة وخدودهم بارزة وأفامهم متوسطة السمة وشفاههم دقيقة وأسنانهم يضاء جميلة ألا من استعمل منهم النظرون ولحاهم سوداء قليلة الشعر وشعورهم منسدلة سوداء وربما وجد منهم من عيونه زرقاء وأعضاؤهم العليا والسفلى طويلة وأيديهم صغيرة قوية متناسبة وأرجلهم جميلة كذلك لو لا أن أبهامهم بارز غير مقبول الشكل وربما كان ذلك نتيجة أو سبب ما يستعملونه من الأحذية والرجال على العموم أقوياء أشداء يتحملون المتاعب مع الصبر عليها وأن كان متوسط كمية غذائهم أقل بكثير من متوسط غذاء الاوربي وليس بينهم شخص هزيل أو مصاب بالكساح ومناخ بلادهم يساعد جدا على إصلاح ما فسد تركبه من أجسامهم ونساؤهم طوال القامة أيضا وتلوح طين دلائل من الكبرياء والمظمة وهن على العموم جميلات جمالا غير مجلوب وهيتهن قربهن كثيرا من النساء الأوريات أكثر مما قربهن من العربيات ومن الصفات الطبيعية التي يعرف بها التاركي من بين ألف مشيته الوقورة البطيئة المهتزة مع سعة في الخطا وارتفاع في الرأس مما يجعله يشبه النعامة أو الجمل ولكن ذلك آت أليهم على الخصوص من حمل الرماح كما يقول دوقريه أما لون بشرة عبيدهم فأنها أشد دكانة وربما كانت سوداء تماما ويظهر أن

السبب في ذلك اختلاط دماثهم بدماء سوداء

أسهمهم - يظهر أن لفظ توارك ليس بقديم جدا وهو لفظ عربي قال في صفوة الاعتبار « واسم التوارك أطلقه عليهم العرب وهو بمعنى التاركين لتركهم الحق في الصدر الأول » اه وعن العرب أخذه الأوريون ويكره التوارك تسميتهم بهذا الأسم وكان التوارك في زمن كل من ليون الأفريني وابن خلدون ينزلون في بلادهم الحالية من غير شك ويذكروهم المؤلفان المذكوران باسم تازجا ألا أن البكري واليعقوبي لم يذكر التازجا إلا في داخل بلاد المغرب (مراكش الحالية) وفي بلاد سجلماسة بالصحراء المراكشية أما لفظ توارك فلا وجود له بين الاسماء التي ذكرها ابن خلدون عند ذكر قبائل البربر وأنقادهم العديدة ولا يطلق التوارك هذا الاسم عليهم أصلا فهم يسمون أنفسهم أيموشاغ أو أيموشاك كما سبق وهو بمعنى مستقلين أو أشرف كما يقول صاحب صفوة الاعتبار

وهذا الأسم الأخير لا يطلق فقط على التوارك الذين هم فرع من البربر بل يطلق أيضا على الجنس بأكمله ويقول مؤرخو البربر أن أب هذه القبائل جميعها أسمه أمازيغ أو مازيغ ومعنى ذلك الرجل الحر أما مؤلفو الأغريق والرومان فأنهم ذكروا هذا اللفظ غالبا في أطلاقاته الخصوصية من غير تعريف معناه العام ويسميهم هيرودتس بأسم مكسي (Μακυσ) روى بعضهم

أن عمرو بن العاص لما افتتح الإسكندرية أنه رسل من البربر فسألهم من
 أى الأمم أنتم فقالوا نحن أولاد مازينغ ثم أن مرور الأزمنة والفتوحات
 الأجنبية وخصوصاً نيجزنة تلك الأمة إلى قبائل بحيث لم تعد تؤلف جسماً
 سياسياً واحداً منذ قرون كل ذلك أزال من ذاكرة تلك القبائل المشتتة لفظ
 أمازيغ فلم يعد يعرف ألا لدى التوارك ومع ذلك فأنهم نسوا أصله ألا شلوح
 أو بربر بلاد مراکش فأنهم قد حفظوا أثره في كلمة تمازغت التى لا يزالون
 يطلقونها على لهجتهم المليّة التى هى أخت لهجة التوارك المسماة تماشك وقد
 استمر التوارك دون بقية قبائل البربر على استعمال حروف هجائية يسمونها
 تيفيناغ (انظر الكلام على البربر) ويقول العلماء أن هذه الحروف شكل
 قديم للحروف الأبجدية القرطاجية أو الفينيقية وهى قرية الشبه من الأبجدية
 المستعملة فى الكتابات الحميرية التى فى الجنوب من جزيرة العرب

حاليهم الاجتماعية - دينهم ومعيشتهم وأخلاقهم - اعلم أن البربر كانوا قد
 تنصروا مدة الرومان ولا تزال آثار ذلك ظاهرة للآن فى كثير من العوائد
 المنزلية التى اعتادها التوارك وهم يطلقون على المولى سبحانه وتعالى لفظ ميسى
 ثم أنهم أسلموا بعد الفتح العربى فى القرن السابع من الميلاد وهم فى أسلامهم
 مثل كثير من القبائل الرحالة التى بالصحراء الكبرى أى أنهم ليسوا
 بمشددى دين فى دينهم فأنهم لا يصلون ولا يصومون ولا يتوضئون ألا فى القليل
 ولا يسيلون الدماء من ذبائحهم وفى الأعياد الألامية لا يصاوت بل

يلعبون ويلهون ويتصارعون وليس عندهم من الأسلام إلا اسمه قال السائح رولفس «أنه لا يمكن أن يطلق عليهم أسم أسلام ولقد ساعدتهاونهم في دينهم والخوف الذى أوجدوه منهم لدى العرب على المبالغة من غير شك فى تسوية شهرتهم وتقييح سمعتهم ويذكر سكان الخيام من بلاد التل التوارك بما كان أهل أوربا يذكرون به الترك فيما سبق» اه وحكومة التوارك على العموم فردية فكل قبيلة لا تعترف إلا بسلطة شيوخها ويحمل التاركي رعا وسيفا هما أهم سلاحه ويحمل معهما سكيناً طويلاً يثبت مع غمده فى ساعده الأيسر ويحمل أيضاً درقة مصنوعة من جلد الفيل أما البندقية فقد أخذ استعمالها ينتشر الآن ويتزايد من يوم إلى يوم

ولون التوارك الخالص فاتح نوعاً فى بعض الأصقاع وكثيرون منهم يشبهون فى بياض اللون أهل كلابريا وفلاحى الجنوب من أسبانيا وعيونهم كبيرة حادة مثل سكان الجنوب من أوربا ومنهم من شعره فاتح اللون وعيونه زرقاء (راجع الكلام على البربر) ولكن عيون أغلبهم هى عيون أهل الجنوب من أوربا وهم يعفون شواربهم ويحملون فى وسط رؤوسهم خصلة شعر (شوشه) يتركونها تطول كما يفعل أهل الصين ثم يجد لونها ويحلقون دائر رؤوسهم وحلق الرأس واتخاذ الضفيرة يختلفان باختلاف القبائل فهى علامة تميزهم عن بعضهم وذكر هيرودتس هذه المادة لدى الكثير من القبائل النازلين حول سُرْت ولباسهم قميص طويل واسع جداً

وعريض كذلك يكون أبيض عند البعض وأسود عند أغلبهم وهو السبب في قسمة التوارك إلى توارك سود وتوارك يبيض ويلبسون تحت ذلك القميص أو الجبة كما يقولون سروالا عريضا يثبتونه في خاصرتهم ويلبسون منطقة من الصوف ويضعون فوق رؤوسهم عمامة عالية تسمى شاشيه يثبتونها بقطعة من القماش يديرونها حول رأسهم كالعمامة ثم يرخون أحد طرفيها ويجعلونه على وجوههم بحيث لا تظهر إلا أعينهم وهو اللثام أما مشايخهم فأنهم يفرغون فوق تلك الملابس برنسا كما يفعل العرب وغداؤهم في العادة اللبن ولحم الضأن والجمال وصوف ضأنهم قصير جدا وأليها جسيمة وتتحصر ثروة بعض القبائل في قطعانها يزيد على ذلك عند البعض الآخر ما يأخذونه من القوافل التي يتكفلون بحراستها وكثيرا ما يغيرون على القبائل النازلة في حدود الصحراء أو على القوافل التي تظن في تقسها قدرة على عدم دفع الاموال التي تدفعها القوافل عادة في مرورها وقد صيرت هذه الأعمال التلصصية التوارك مخوفين ومكروهين جدا لدى تجار العرب ولدى البربر النازلين في صحراء بلاد الجزائر

قال بعض أهل قوات لم أر شيئا طيبا لدى التوارك إلا جاهلهم وجاهلهم وهم شجمان صبورون فلا تركزن إليهم وإذا أضافك واحد منهم فلا خوف عليك منه ما دمت في خيمته وحتى متى تركته وسافرت ولكنه يخبر أصحابه بك فيقتلونك ويقتسمون أسلاكك ولكن الظاهر على هذا القول

المبالغة لكرامة الناس للتوارك الذين أصبحوا لصوص الصحراء منذ أن
أخرجوا قديماً من ديارهم الموروثة لهم فصار لهم من ذلك الوقت بعض الحق
في اعتبار أنفسهم كأنهم في حالة حرب طيبي مع الذين أخرجوهم هذا
وللتوارك نصيب في المبادلات التجارية لأنهم يذهبون في بعض أيام السنة
قوافل إلى واحات قوات وغوراره وغات وغدامس وورقله وغيرها لمبادلة
حاصلات قطعانهم بحنة وتمر وسلاح وغيرها مما يستعملونه في حاجاتهم
ولكل قبيلة سوق تتردد عليه في البيع والشراء فلا تغيّره في العادة وقد
اختلفت روايات السياحين عن أخلاق البربر على العموم والتوارك على
الخصوص فبعضهم وصفهم بالأخلاق الفاضلة والشيم الكريمة كما رواء عنهم
ابن خلدون وبعضهم وصفهم بما يخالف ذلك بالمرّة كما قاله عنهم ياقوت في
معجمه ولقبائلهم عادات مستغربة في الزواج فيكون للرجل في قبيلة كلوي
زوجة شرعية واحدة وله أن يتزوج منهن ما يشاء فله امرأتان في كثير من
القرى يتردد عليهن قال في صفوة الاعتبار ومن عاداتهم أن لا يتزوج الرجل
ألا امرأة واحدة شرعية وله غيرها، اهـ ومهر الزوجة عادة ثلاثة جمال أو أربعة
قالوا أن لنساء التوارك حرية واسعة النطاق وأنها ليست قاصرة على التوارك
بل شاهدتها الكثير من السياحين الحديثين لدى عدة من الأمم والقبائل
البربرية التي بالصحراء الغربية وعند برابرة النيل وبجاء التوبة وقبائل الأطلس
من بلاد الجزائر وشلوح بلاد مراکش وذكر هيرودس للقبائل النازلة

حول خليجي سرت من الصفات والعوائد ما ينطبق تماماً على عادات التوارك الحالية وقد استقى ذلك من أهل قورننه وروى پلنيوس الجغرافي اللاتيني عبارة تشمل كل أخلاق البربر قال « ليس للواحد منهم امرأة خاصة به والأولاد الذين يولدون من هذا الزواج الموكول أمره للصدقة يستلحقهم من كان قريب الشبه منهم فيجطهم أولاده واهو هو يريد بهذا القول أمة الجرامنت أى أهل فزان لأن فزان من بلاد البربر قديماً ويقول عن الجرامنت أيضاً أن الجرامنت لا يعرفون ما هو الزواج فالواحد منهم يكون تارة مع امرأة ثم يتركها ويكون مع أخرى اه

ويؤكد بعض العلماء أن هذه العادة وهى عادة كثرة الزوجات والأزواج المتنشئة بين البربر نشأت من أن الولد لا يرث أو يخلف والده فى الرياسة بل الذى له ذلك هو ابن بنت ذلك الرئيس يؤيد ذلك قول أحد أهالى غات وكان فى حضرة السائح ريشردسن « كيف يمكن معرفة ما إذا كان ابن السلطان هو ابنه حقيقة أفليس من الممكن أن يكون ابن أحد العبيد ولكن متى كان سلطاننا الشاب مولوداً من أخت الشيخ نعم أذاك أنه من دم السلطان اه

قال فى صفوة الاعتبار « وجميع قبائل البربر ينقسمون إلى أربعة أقسام كبرى وهى توارك هكار وتوارك أزقر فى غات وتوارك كلوى وتوارك والى منيدن فى شرق تمبكتو والقسمان الأولان معروفان لكثرة التجارة معهم

من الجزائر ويدعون أنهم أشرف البربر وهم يرض حسان الخلقة شجعان يحملون الرماح والسيف والمكحلة أى البندقية والسكين ويركبون المحجين السريع للغاية مع قوته ويلبسون قيصاً أبيض أو أسود وعلى رؤوسهم شواشى طواد وثام بحيث لا تظهر إلا أعينهم ولهم ملك يحكم مع كبار القبائل وولد أخت الملك هو وريث الملك هكذا قانونهم وحكمهم ليس بهرى مطلق بل لهم نوع من الحرية ومن عاداتهم أن لا يتزوج الرجل إلا امرأة واحدة شرعية وله غيرها وديانهم الآن الإسلامية ليسوا بمتغالين فيها كما هي حالة مجاورهم ولهم غنم أصوافها قصيرة وأليها كبيرة للغاية ولهم معز وأبل لحمل الأثقال وهجائن للركوب ولهم نوع من الخيل من أجود الجياد وفي جزائر الصحراء لهم نخيل كثير والقبائل الرحالة هم الحارسون للقوافل المارة في بلادهم بين شواطئ أفريقيا الشمالية والسودان بأجرة مقبولة معروفة اه

وقال ابن بطوطه في الجزء الثانى من رحلته عند كلامه عن مسؤفة وهم من قبائل البربر كما لا يخفى ما يأتى

وشأن هؤلاء القوم عجيب وأمرهم غريب فأما رجالهم فلا غيرة لديهم ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه بل ينتسب لخاله ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه وذلك شيء ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار بلاد المليار من الهنود وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن وأما نساؤهم فلا يمتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتن على الصلوات

ومن أراد الزوج منهن تزوج ولكنهن لا يسافرن مع الزوج ولو أرادت أحدهن ذلك لمنعها أهلها والنساء هنالك يكون لمن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبية ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعهما صاحبها فلا ينكر ذلك اه وقد أورد في ذلك حكيتين شاهدهما بنفسه

التبؤ

النبؤ أمة متجانسة الصفات جداً كبيرة الأجسام على العموم متناسبة الأعضاء تميل أجسامهم إلى النحافة وأيديهم وأرجلهم صغيرة جداً وعضلاتهم نقيقة قوية أقوىاء الأجسام جداً ويضرب المثل بتخفهم ونشاطهم وهم أقل سواداً عن سودان برنو وأكثر سواداً عن عرب وبربر الصحراء وتقاطيع وجوههم لا تدل في مجموعها على أنهم من أصل سوداني وأنهم مستقيمة وربما تكون منحنية وفهم متوسط السعة وشفاهم متناسبة ووجوههم بيضوية ولحاهم قليلة وشعورهم أطول وأقل نجمداً عن شعور الأمم النازلين حول بحر الروم ونساؤهم ظريقات القد جداً خصوصاً في شبابهن وكن قديماً يعن في أسواق الرقيق بفران بأنماز عالية جداً وهن نحيفات عادة وهياتهن في الغالب كهية الرجال لمشاوهم يعيشتن وأجسامهن جافة مما مدهن كثيراً عن اللطافة ولا يظهر على وجه الرجال والنساء منهم أثر للفرجة

وحرية القول بل يظهر عليه تحرز ومكر ودهاء وملابس التبو بسيطة للغاية
 ففي الشتاء جلدشاة وفي الصيف قيص واسع من القطن من عمل السودان
 قاتم اللون عادة ويضعون على وجوههم في السفر لثاما كالتوارك لمنع الرمال
 من الوصول إلى أفواههم وخياشيمهم ولمنع الفشاء المخاطي من أن يجف بسرعة
 ويلبس الرجال عمامة وخفين ويلبس النساء ثوبا طويلا من القطن من عمل
 السودان هذافي الصيف أما في الشتاء جلدشاة متقن الصنع وهن على العموم
 نظيفات وشعورهن منسدلة على أصداعهن وظهورهن ويجملها خفافر كثيرة
 رفيعة ويدهنها بالشحم ويحملن في سيقانهن خلاخيل من النحاس أو الفضة
 وفي أذرعهن أساور من العظم والماج أو الفضة أو العقيق اليماني ويلبسن
 قلائد من الزجاج أما الاطفال فيتركون عراة الأجسام تماما حتى سن البلوغ
 ويترك البنات منهم بعد ذلك السن رؤوسهن والقسم الأعلى من أجسامهن
 عاريا لم يتزوجن وهن يتميزن عن المتزوجات بشكل شعورهن ويحمل الرجل
 منهم على الدوام رمحا يختلف طوله بين مترين وثلاثة أمتار وله زج عريض
 من الحديد من صنع بلاد برنو أو وداى ومتى خرج الرجل منهم إلى القتال
 أخذ معه خلاف ذلك الرمح حربة طولها نحو مترين ذات زج مسنن من
 الحديد مما يجعل الجرح شديدا للخطر وللتبو سلاح للرماية يسمى مجرى وهو
 نبلة قصيرة ينصق بها نبلتان حادتان أو ثلاث تختلف في الشكل والانحناء
 وأحيانا يحملون سيفاً عريضا ذا حدين ودرقة أهليلجية الشكل يصنعونها من

جلود الحيوانات وهم يحملون على الدوام تقريباً خنجرآ طويلاً عريضاً يربطونه في ذراعهم الايسر كما يفعل التوارك ويحمل النساء ايضاً هذا الخنجر تحت ثيابهن وغذاء الثبو بسيط جداً تقشفي في الغالب الكثير وهو في الخريف التمر على الخصوص يجلبونه من فزان وغيرها ثم لبن النياق والمعز وأن لم يجدوا ذلك أخذوا حبوب بعض النباتات وجعلوا منها دقيقاً يتغذون منه أخصها دقيق المقل وربما وصلت بهم الحال عند القحط الى أكل ثمار الخنظل ولهم في مأذهاب مرارته وطعمه طريقة تجعله مقبولا لسيهم واللحم عندهم نادر فلا يأكلونه إلا في الأعياد والمواسم وفي أحوال استثنائية فتى مرض جل من جمالهم نحره وجعلوا لحمه شرائح يجففونها في الشمس ثم يأكلونها من غير أنضاج عند الحاجة بعد أن يدقونها دقاً على جسم صلب وهم لا يذبجون المعز إلا في الزواج وما ماثله من الولا ثم

ولميشة الثبو في الهواء المطاق ولجفاف بلادهم كانوا غير معرضين للأمراض التي تصيب السكان الجيدى التغذية أى سكان بلاد الماء كما يقولون في تعبيراتهم والحميات البطائحية وكذا التيفوئيد وأمراض الكبد والديستنتاريا والالتهابات المعدية كلها نادرة بينهم ولم تصل بلادهم لا الكواوير ولا الجدري أصلاً وحتى أنهما لو وصلوا لكان تأثيرهما قليلاً جداً وداء الزهرى المنتشر في فزان مجهول في بلادهم بالمرّة وأكثر الأمراض انتشاراً بينهم الروماتزم والتهاب الماتحة وأمراض الجلد وأعضاء التناسل وإذا اتصف الثبو باقناعه في الطعام

فأنهم غير ذلك في الشراب والتدخين وهم يكثر من تعاطي الشراب
المسمى لبكي وهو نبذ النخل وكثيراً ما يصادف الإنسان منهم سكارى في
الطريق وهم يدخنون ويمضون التبغ على الخصوص حتى النساء والاطفال
منهم ولذلك كانت شفاههم وأسنانهم سوداء تقريباً ويشتهر أقوام التبو بصفات
طبيعية تميزهم عن غيرهم فهم ماهرون جداً في الوثب والدوخة حتى أن جيرانهم
يسمونهم بالطيور وقد أعجب الشيخ محمد بن عمر التونسي بمهارتهم في جمل
الجمال تعمل ما تمله الخيل ويومهم في السير أطول من يوم العربي بنحو الثلث
كما يقول السائح نختيجال الذي يقول أيضاً أنهم بعد أن يكونوا مشوا يوماً
بتمامه في شمس محرقة وطرق مخيفة يكونون كما كانوا وقت سفرهم أي
يشغلون مع المواظبة والعناية بجمالهم وأحياناً يأخذونها إلى المرمى التي
تكون على بعد عدة فراسخ من مضارب القافلة قبل أن يستريحوا ومما هو
جدير بالذكر وحري بالقول تحملهم الجوع والعطش بكيفية عجيبة غريبة
فيسير الواحد منهم وهو على جملة أربعة أيام من غير أن يأكل أو يشرب
ولا يسير إلا في الليل وملماً ولا يدخن ثلاً يعطش ولا يعمل حركات عنيفة
أولاً زوم لها قال ريشردسن «أن الواحد من التبو اذا مضت عليه أربعة أيام
من غير أكل ولا شرب نزع نمل رجله اليسرى وسحقه ثم قطع جلده وشواه
ثم أكله واذا لم يمتد في اليوم الخامس إلى مضرب أو إلى طعام يفعل بنمل
البنى كما فعل أولاً ثم يشعر بالحاجة إلى الطعام حقيقة في اليوم السادس

والسابع فقط وبمد ذلك يأخذ يلتقط ما يصادفه من المظالم في الصحراء ويدقها ثم
يخرجها بدم يأخذه من مطيته ثم يلثم هذا العجين ومتى أصبح على آخر
رمق من الحياة واضطربت حواسه ربط نفسه جيداً على دابته وتركها وحلبها
على غاربها تسير إلى ماتوحي إليها به غريزتها ما إلى ماء أو مضرب من المضارب «
اه وقد شهد نحتيجال بنفسه حادثة من هذه الحوادث العجيبة لأنه بينما كان
هو ومن معه من الأعراب على آخر رمق من الحياة تعباً وجوعاً كان التبو
الذين يرافقونه لا يزالون في قوتهم وفي استعداد للقيام بالكبر الأعمال

هذا أما من حيث الصفات الأدبية فإن للتبو نقائص كبيرة لأن
خشونتهم في النضال عن معيشتهم صيرتهم أنانيين للدرجة القصوى فلا
يظهرون عطقاً على أحد قساة القلوب قليلو الثقة بالغير خائنون يهبون بعضهم
بعضاً ويميلون إلى معيشة الأفراد وفي حالة اختلاطهم ببعضهم اختلاطاً وقتياً
في بعض المواسم أو الأعياد أو اشتراكهم معاني بعض الأعمال العمومية تراهم
لا يتقون ببعضهم أصلاً وهم في السرقة لا نظير لهم بين كل أمم أفريقيه
ومهما احتسب السباح منهم فلا بد وأن يصيبهم شيء من ذلك ومن صفاتهم
أيضاً الأعجاب بالنفس والكبرياء والألحاف في الطلب والبجاجة فيه وهم وأن
اتصفوا بالقناعة الشديدة عادة ألا أنهم يلتمسون الطعام التهاماً متى وجدوه
ولا يصيبهم من ذلك أذى ومع ذلك فأنهم شجعان لا يهابون التعب
ولا الأخطار فصحاء في القول يقتنعون خصومهم في المحادثة والخطابة

ويعرفون بلادهم معرفة جيدة وهي صفات تولدت فيهم من الأسباب الأولى (ويقول رولفس أنهم في ذلك أقل من العرب ويؤيده في ذلك نختيجال) نشيطون لهم مهارة في التجارة مستقيمو الأحوال أمناء حيث تطلب الأمانة كما هم في فزان ثم أن ما هم فيه من الفقر والأغارات المتكررة عليهم من ولد سليمان والتوارك وحكام طرابلس كلها ساعدت من غير شك على اتصافهم بهذه الأخلاق ويظهر أن التبو لم يعتقوا الإسلام من زمن طويل جداً وهم لا يزالون يحافظون على أوهام وخزعبلات بقيت لديهم من دينهم القديم ولا يفقهون معنى لما يقرؤونه في صلواتهم لأنه لا يعرف العربية منهم ألا القلائل ولشيوخهم المعروفين بالمرابطين تفقه في الدين ومعرفة بالقراءة والكتابة وأقوام التبو مع ذلك مسلمون متشددون في دينهم يقومون بكل الفرائض الدينية ويجتنبون المحرمات ألا تماطى الخمر عند بعضهم وأخوان الطريقة السنوسية منبثون في بلادهم وقد دخل كثير من نساء التبو في الطريقة السنوسية وتعلموا القراءة والكتابة قال رولفس كثيراً ما يشاهد الأتسان بعض النساء يمشين ومعهن ألواح من الخشب يتعلمن فيها القراءة والكتابة أو كأنهن يُظهرن بذلك للناس أنهن مهابات وأقوام التبو يشبهون التوارك من حيث أمر الزواج فلبعض الرجال منهم خلاف زوجته الشرعية غالباً امرأة في وادي برداي^(١) يقيم معها حينما يأتى

(١) برداي إقليم في تيسيتي بلاد التبو ويقال لسكانه البردوا ويقول ليون الافريق أن البردوا أحد الفروع الخمسة الكبيرة في أمة البربر والاماكن التي ينزلونها الآن بالصحراء الشرقية هي أماكن التبو الحقيقيين تماماً وقال المقرئ أن البردوا قبيلة من البربر

هناك لجمع التمر وتكون له أخرى في فزان أو كوار حيث يذهب للتجارة ولكن ليس للرجل على العموم إلا امرأة واحدة والطلاق عندهم نادر جدا لهذا كان للمرأة منزلة رفيعة وهو ذكير وقول مسوع قال نختيجال « أن الزوج يبقى بعيداً عن بيته شهوراً بل وسنوات وزوجته هي التي تنظر مدة غيابه في أمر بيته وأولاده ومعزّه وجماله وتراقب كل شيء وتهتم بكل شيء وتحسب ما يشتري ويباع وتدبر أمر الانتقال من مكان إلى مكان وتسافر في الداخل لقضاء الأعمال فالنساء في تينستي كالرجال عملاً وتصرفاً وهن ضعيفات صادات في الدرجة القصوى وسبب ذلك استقلالهن التام وماعلن من المسؤولية التي هي نتيجة معيشتهن عيشة حرة « اهلاً أن رولفس يخالف نختيجال في ذلك ولكن نختيجال رأى نساء التبو في بلادهم الأصلية أي في نفس وطنهم أما رولفس فإنه لم ير إلا من هاجر منهم أي اللاتي تخلقن بأخلاق أهالي فزان وبذلك يمكن التوفيق بين القولين والزواج عندهم يسبقه الخطبة ومدتها أحياناً تكون طويلة جداً والخطبة في متانة الزواج حتى لو اتفق ومات الزوج قبل الدخول بزوجته حل أخوه أو أحد أقاربه محله إذا كان غير متزوج وبعد الاتفاق على المهر يدفعه الزوج وتأخذ الزوجة بعض المهر والأحفال بالزواج عندهم يشبه ما هو معروف عند غيرهم من الأمم التي استعربت ومتى غاب الزوج بعد الزواج عادت الزوجة إلى بيت والديها وأقامت به مدة غيابه ثم لو غاب ثانية أقامت الزوجة في بيته تدبر أعماله

والمرأة مهملت منزلتها لديهم تبقى خاضعة لزوجها في أحوال كثيرة ومن عاتقهم أن لا تأكل معه أصلاً أو في حضوره ومتى كلمته أدارت وجهها ولا تذكره إلا بالخير ومن عوائدهم أيضاً أنه متى ارتبط الشخصان بالزواج وجب عليهما أن لا يقابل الواحد منهما الآخر في طريق كما يجب عليهما التظاهر بعدم معرفة الواحد الآخر مخافة الرية

وينقسم التبوا إلى طبقتين الأعيان ويقال لهم مينا والسوقة ويجتمع الأعيان من وقت لآخر في مجالس يصدر من أحكامهم ويتناظرون فيها في أحوالهم السياسية وأمور حربهم وصلاحهم ورئيسهم ينتخب انتخاباً مدة حياته ويكون عادة من العائلات النبيلة من قبيلة التماغرة ويسمى هذا الرئيس في لغتهم درداى وهو لا يقضى في النوازل منفرداً بل يكون رئيساً للمجلس ولرأيه نفوذ كبير دائماً وهو الذى يعين الرؤساء والنقباء والقوادقال نختيجال « أن هذا الدرداى يقطع النظر عن مكانته العليا لا يتمتع بفوائد مادية كبيرة ومتى تم انتخابه أهده أخته خيمة وبساطا وطربوشا تونسيا وعمامة وهى علامة الأمانة الصحيحة عندهم وليس له مرتب يتقاضاه وليس للتبوا بيت مال وهم في تيستى لا يدفون شيئاً من الضرائب أصلاً ومتى كان الدرداى لا يمكنه الحصول بنفسه على ما يتعيش به عاش في فقر رغم أن منزلته العليا ولديهم عادة قديمة هى أن الدرداى يأخذ جزءاً من ثلاثين مما تحصل عليه أخته من القوافل المارة ببلادهم ويأخذ أيضاً جزءاً من غنائم الحرب وهو كل ما يتقاضاه الدرداى من المرتب

الخاص « اه وقد أصبحت الواردات المذكورة قليلة منذ زمن طويل والقضايا لديهم ينظر فيها مجالس أى جمعيات من الاعيان أوالمينا وبعد سماح أقوال المتخاصمين ومرافعاتهم يجتهد فى الصلح بينهم ومتى رفض الصلح رفعوا الأمر إلى نقيب الأخوان السنوسية فى واحة أو اوحيث توجد زاوية للسنوسيين ويكون له القضاء الأخير ومن العادات التى لها قوة القانون فى عرفهم بخلاف بقية المسلمين أن لا يدفع القاتل فى حال من الأحوال دية :المقتول بل يجب على القاتل أن يخرج من البلاد ويقيم بعيداً ينتظر أن تسمح له عائلة المقتول بدفع مبلغ من المال وكثيراً ما ينتظر سنين طويلة واذا اتهمت امرأة بالزنا سلمت هى ومن ارتكبه لزوج تلك المرأة وعقاب السرقة وسب لأعراض وغيرهما من الجرائم التفرغ بحسب نوع الجريمة هذا وللحدادين لدى التبو منزلة منحة جداً فهم طبقة محترمة مخوفة معافلاً أحديزواج ابنته حداداً ولا يعلم أولاده الحدادة واذا قيل لواحد يحداد عدوا ذلك مسبة كبرى بحيث لا يزيلها الا سفك الدماء ولكن هذا اللفظ لا يقال لمن يحترف الحدادة لا اعتقادهم فى الحداد قوة خفية ولذلك كانت هذه الصنعة محصورة فى عائلات قليلة لا تزوج إلا من بعضها بحيث أن دمها لم يختلط أصلاً بدم بقية التبو منذ قرون وهذه الخرافة منتشرة كذلك عند كثير من الامم السوداء بأفريقية ظهر مما سبق أن أقوام التبو يمانون المشاق فى معيشتهم وتربية قطعانهم ولما كانوا لا يزرعون الأراض صغيرة المسطح كانوا كثيراً ما يصابون بالجاجة

رغماً عن اكتفائهم بالقليل مما هو خارق للمادة ومن ذلك أيضاً كانت تجارتهم قليلة لأن بلادهم لا تخرج تقريباً من الحاصلات ما يمكنهم به إجراء المبادلات مع جيرانهم سيما والصناعة عندهم قاصرة على عمل الحاجيات ومساكنهم قلما تكون مجتمعة في قرية أو ما يشبهها وهي مختلفة الاشكال أبسطها المغاور أو الجحور يخفونها في الصخور وهي تقيم الشمس والأمطار ومنهم من يصنع من الطين مأوى يقيم به ولذلك نرى بعض الجغرافيين يعتبر التبو من نسل أمة التروجلوديت^(١) التي ذكرها هيرودوتس وبعض مساكنهم تكون حظيرة مستديرة الشكل مبنية من أحجار توضع فوق

١ (Traglodytes) - التروجلوديت يطلق القدماء هذا الاسم على أمة كانت تسكن المغارات بالجنوب والشرق من الديار المصرية على سواحل الخليج العربي أي البحر الأحمر ويقول بطليموس أن بلادهم تشمل كل سواحل الخليج العربي وروى بلينيوس أن التروجلوديت كانوا يمشون عراة الاجسام ولا يلبسون الا جلداً يغطي وسط جسمهم ويقول أستيانيون أنهم يعيشون في تايما الصخور ولا يعرفون الزراعة أصلاً ومعيشتهم قاصرة على تربية الماشية ونسائهم وأولادهم كانوا مشتركين بينهم وغذاؤهم من اللحم يدقونه مع العظام دقاً ثم يافقون ذلك بمجد ويضعونه فوق النار ويأكلون أيضاً الدماء يمزجونها باللبن ويقول بلينيوس أيضاً أنهم كانوا يأكلون الثعابين ومتى مات أحدهم ربطوا رأسه ورجليه مع بعضها ثم يحملون جثته إلى نثر من الأرض ويغطونها بالحجارة ثم يحملون فوق ذلك قرن مملوء من لبنهم عبارة عن أصوات لا حركات فيها وماروا القدماء عن أحوال هؤلاء القوم به كثير من الحرفات بحيث لا يعرف صحيحها من فاسدها

بعضها فقط ويصنعون لها سقفاً من أغصان الأفاقيا أو جريد النخل وفي
 وسطها عمود يرتكز عليه وفي أسفلها فتحة تكاد تكفي لأن يدخل الرجل
 منها حبواً ويننون جنوبى فزان خصوصاً يوتا تكون تارة مستديرة وتارة
 تكون مربعة يصنعونها من جذوع النخل وأخشاب الأفاقيا وغيرها
 ويعملون لها سقفاً من حصر جيدة الصنع وهى مساكن جميلة المنظر صالحة
 للسكنى نظيفة على العموم وحيواناتهم بحوارها أما كن مخصوصة وهم يحملون
 أروانها ويلقونها بعيداً عن المساكن وفرشون أرض هذه الأماكن برمل
 دقيق يغيرونه على الدوام وصناعة التبو قاصرة في غير ما ذكر على عمل أوان
 من الطين مما يستعملونه في منازلهم وعلى عمل القرب والملابس وأقناب الجمال
 يصنعونها من جلود الضأن والمعز ويدهنونها بشحور الأفاقيا وغيرها وعلى
 جلد ألياف النخيل وعمل الحصر والجمال وعمل نوع قطران يعالجون به
 حيواناتهم يستخرجونه من العظام ونوى البلح

أما تجارتهم فهى عبارة عن شراء الأغذية والأقمشة والمصنوعات
 الأوربية من أسواق فزان يأخذون معهم إلى فزان متاجر قليلة سيما وأن نبات
 السنة الذى يأتى إلى تيسى بكثرة أصبح غير رائج السوق في فزان والكبريت
 الذى كان لتجارته فيما سبق في تيسى الشأن الكبير صار لا يرى في فزان
 الآن ويؤجر التبو جمالهم للقوافل أو يكونوا أدلاء لها وكثيرون منهم يرحلون
 إلى البلاد القريبة من بلادهم ويشغلون بالتجارة عدة سنين ولهم في ذلك مهارة

كبيرة وحرص على المكسب وبعد ما يجمعون مبلغا من المال يودون إلى بلادهم المقفرة فيقضون بها بقية أيامهم ولو لا ذلك لما تمكن التبو من الحصول على شيء مطلقا عمالا يصنعونه بأنفسهم وحتى كانت مبيشتهم في نفس بلادهم مهددة أصل أقوام التبو - لقد اختلف آراء العلماء في أصل وتناسل هذا الجنس الغريب أى أقوام التبو الذين هم أخوة الأمم المعروفين بأسم دازا^(١) وهل هم من العائلات الكبيرة القديمة كالبربر والسودانيين والمصريين أو أنهم من عائلة بذاتها كل ذلك مختلف فيه ولكل قول أنصار وكان العلماء يستبرونهم منذ نحو قرن أنهم من أنحاذ من البربر ألا أن الجغرافي الألماني أوكرت^(٢) لما قابل في سنة ١٨٢٦ بين لسان التبو الذى جمعه السابح ليون^(٣) وبين لسان

١ (Daza) - هم أحد فرعى الجنس الأسود من التبو (السودان الأوسط)

ويوجدون في كانم وبرنو وغيرها أى أنهم تبو الجنوب وقد زار السائح نختيجال بلادهم
٢ Ukert (Frédéric-Auguste) - مؤرخ ألماني ولد سنة ١٧٨٠ وهو بعد أن

تلقى دروسه وقلب في بعض الوظائف تعين سنة ١٨٠٨ معلما في التاريخ والجغرافيا
بمدرسة غوتا وترجم من الإسبانية والإنجليزية والفرنسية عدة مؤلفات في التاريخ والجغرافيا
ثم انكب بعد ذلك على دراسة الجغرافيا القديمة وله فيها مؤلفات شهيرة منها كتاب في كيفية
تعيين المسافات عند القدماء وكتاب في جغرافيا هو ميروس (طبع في عام ١٨١٥)
وكتاب في جغرافيا الأغريق والرومان في ثلاث مجلدات (طبع في وينا ١٨١٦ - ١٨٤٦)
وهو من شهر مؤلفاته وكتاب في وصف النصف الشمالى والجنوبى من أفريقيا (وينا ١٨٢٤)
وله غيرها من المؤلفات الكثيرة

٣ Lyon (George Francis) - سياح إنجليزى ولد في مقاطعة شستر سنة ١٧٩٥

البربر أثبت أنه لا اتصال ولا قرابة أصلا بين اللسانين وأظهر السائح
 برت أن لغة التبو وهي منقسمة إلى لهجتين لهجة تيدستي ولهجة دازا
 قريبة جدا من لغة كانورى القديمة وهو استنتاج لم يكن يمتظر لأنه لا يرى
 في صورة هؤلاء الأقوام صورة سوداني أصلا كما أن هذا الاستنتاج قضى
 أيضا على نظرية كونهم من جنس مستقل يسكن أواسط أفريقيا أى أنهم
 بقية قدماء الجرّمنت وتاريخهم مجهول كله تقريبا وربما يكاد يقول المطلع على
 أحوالهم أنهم هم الأثيوبيون التروجلوديت الذين ذكرهم هيرودوتس ولم

ومات سنة ١٨٢٢ دخل في خدمة البحرية وعمره ١٣ سنة ورافق السائح ريتشى (Retchie)
 في أسفاره بشمال أفريقيا وتوغل معه حتى بلاد فزان ثم لما عاد إلى لندن عينته الحكومة
 قومندانا لسفينة تسافر في خفارة الكبتن بارى (Parry) الذى كلف بالبحث عن طريق
 يؤدى إلى البحر القطبى ولما لم ينجح بارى فيما كلف به سافر ليون بمفرده لاكتشاف
 سواحل بحر هُدسون وقد وصل إلى مرغوبه ولكن بعد مشاق وأحوال ولما عاد إلى
 انجلترا كافتته الحكومة برتبة كابتن

وفى سنة ١٨٢٦ أبحر إلى بلاد المكسيك وكاد يهلك فى عودته إلى انجلترا ثم بعد
 أن استراح بما اعتراه من الآثام والمشايق طلب منه بعض المالىين الذهاب إلى أمريكا الجنوبية
 للوقوف على أحوال مناجها المدينة قبل طلبهم وسافر إلى أمريكا وبعد أن أتم عمله
 اضطر للعودة إلى أوروبا لمرض أصابه فى عينيه وبنا هو فى الطريق مات أمام مدينة
 بونوس آيريس وله عدة مؤلفات أشهرها رحلة بأفريقية الشمالية فى سنة ١٨١٨ وسنة
 ١٨١٩ وسنة ١٨٢٠ ورحلة أخرى لما رافق بارى لاكتشاف طريق القطب طبع
 فى لندن سنة ١٨٢٤ وغيرهما من كتب السياحة

يتكلم عن أوصافهم وربما كانوا هم أيضاً الزغاوة^(١) والبرذوا الذين ذكرهم مؤلفو العرب في القرون الوسطى ويظن السائح برت أنهم كانوا فيما غير من الأزمان أصحاب السلطان على بلاد فزان وقد أقره ميسيو دو فرييه على هذا القول وقال أن كثيراً من أسماء الأماكن في فزان مسمى بأسماء كانوريه ويقول فوجل أيضاً أن بالوداي الغربي من فزان مقابر قديمة تشبه كثيراً المقابر الجالية لدى أمة التيدا أو التبو وقد استتج كل من إسكاز الك دولوتور^(٢) من أقوال مشابهة لما ذكره فوجل ما يدل على أصل هذا الجنس

(١) الزغاوة قبيلة من التبو تنزل أودية تيسى وفي الحدود الشمالية من دارفور ومنهم قوم في كردفان وكلهم أنخاذ وبقية أمة كبيرة كان لها في القرن الثاني عشر من الميلاد النفوذ الراجح بالصحراء الشرقية وكانت بلادهم تمتد من فزان إلى النيل الآن قوذهم هذا لم يدم زمناً طويلاً لأن أمير بلاد كانم أخضعهم لحكمه في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ويقول ابن خلدون أن الزغاوة من قبائل البربر الكبرى من جنس صهاجه وهواره ولهم ذكر في تاريخ بني مرين بمراكش وقد قدوا الآن كل أهمية لهم فهم إحدى القبائل الرحالة يؤجرون أنفسهم للقوافل أما البردوا فقد سبق الكلام عليهم عند ذكر وادي برداي

(٢) (Comte d'Escayrac de Lauture) - سائح فرنسوي ولد سنة ١٨٣٠ ومات سنة ١٨٦٨ ميلاداً منذ شوبينه للاسفار العلمية فابتدأ بلاداً للشرق ولما عاد إلى بلاده كلفته حكومته بعدة مأموريات في جنوب بلاد الجزائر فقام بما عهد إليه وتوغل كثيراً ببلاد الصحراء الكبرى ثم ذهب بعد ذلك إلى بلاد مصر وكلفه المرحوم سعيد باشا والياً ذلك سنة ١٨٥٦ برئاسة بعثة لكشف منابع النيل ولكن هذه البعثة لم تتجس كأمثالها إلا أن أسكاز الك

وأنه كان يسكن قديماً بلاد السودان ألى الجنوب من مساكنهم الحالية
ثم أنهم اضطروا ألى الهجرة وسكنوا صحراء لويه فزلوا منها كل ما يقبل
السكنى حتى بلاد فزان وواحة كُفْره

ولم يرد عن مؤرخى العرب قول يركن أليه عن التبو أوالتيذا فلذلك
لا يلم شيء من تقلبات أحوالهم الماضية فى تيسى ولا يلم كذلك العصر الذى
دخل فيه الأسلام بلادهم ثم أنه فى القرن السابع عشر والثامن عشر فقط
أخذت المواصلات تحصل بين بلاد طرابلس وبين أقوام التبو الذين كانوا
كثيراً ما ينفرون على القوافل المترددة بين فزان وبرنو وكان المسافرون

استفاد من ذلك زيادة البحث والتقيب فى أحوال بعض جيات أفريقية التى لم يزرها حتى
ذلك الوقت ألافلاثل من سياحى أوربا وكان نشر قبل ذلك فى سنة ١٨٥١ رسالة على
بلاد كردفان ونشر كتاباً آخر سنة ١٨٥٣ بمدى سياحته فى الجزائر وعلى سواحل أفريقية
به خرائط وصور أسمه «الصحراء والسودان» وله غير ذلك من الكتب والرسائل ثم عين
عضواً فى اللجنة العلمية التى أرسلت مع الحملة العسكرية الفرنسية لبلاد الصين سنة ١٨٦٠
وبينا كان الجيش الفرنسى الانجليزى يقوم بمأمويته السريعة العجية التى كانت غايتها
الاستيلاء على مدينة يكنغ عاصمة الصين ونهب القصر الملو كى بها كان أسكابر الكدولوتور المذكور
يتوغل من غير تبصر فى البلاد الصينية لجه فى الأكتشافات فأسره الصينيون وسجنوه
وعذبه عذاباً ألياً وقد نشرت كل الجرائد أذ ذاك قصته وما أصابه ثم لما نجحت تلك
التجريدة فى أعمالها أطلق سراحه ورفعت حكومته منزله فأهدته نشاناً علياً بعد عودة
التجريدة المذكورة سنة ١٨٦١ وبعد ذلك نشر كتاباً سنة ١٨٦٤ تكلم فيه عن دولة الصين
به عدة خرائط ونشر أيضاً فى مجلة الجمعية الجغرافية مقالات مهمة جداً على بلاد الصين
وسكانها وأخلاقهم وعاداتهم وأديانهم وعلومهم

يخافونهم جداً وذكر لوقا^(١) أن أحد سلاطين فزان أراد أخضاعهم وأزالهم بحمل الخراج إليه وكان ذلك في منتصف القرن السابع عشر من الميلاد فأرسل عليهم جيشاً عدده نحو أربعة آلاف مقاتل ولما وقع القتال خاف التبو جداً من بنادق ذلك الجيش فأرسلوا إلى قائده رسلاً يطلبون الصلح ويتعهدون بدفع أتاوة سنوية قدرها عشرون حملاً من نبات السنا وهدايا اتفقوا عليها

١ Lucas (Paul) - سائح وأثرى فرنسوى ولد سنة ١٦٦٤ بمدينة روين ومات في مدريد سنة ١٧٣٧ وهو ابن جوهرى وقد مال من صفه إلى التجارة في المصوغات والأحجار الكريمة ولهذا فإنه ساح في بلاد الأغر يق وتركيا أوروبا وآسيا الصغرى ومصر ثم التحق في خدمة البنادقة (١٦٨٨) واشترك في حصار جزيرة نهريننت (Négrepont) ثم عاد إلى فرنسا (١٦٩٨) ومعه كثير من التحف وغرائب المصنوعات ولما كان يميل إلى الأسفار عاود السياحة ثانية من سنة ١٦٩٩ فذهب إلى المشرق وساح في مصر وبلاد البربر وآسيا الصغرى وبلاد القرم وسورية وأرمينية وكان يجمع من كل تلك الأماكن ما يشر عليه من الأيقونات والأحجار المكنونة والأوراق المخطوطة ثم نهبت منه كثير من تلك الثغائس في بغداد حتى اضطر لأن يودع ما بقى منها لدى أحد القصران وعاد هو إلى باريس سنة ١٧٠٣ وبعد ذلك بسنة عينه لويس الرابع عشر مديراً لدار عاديته ثم عاود السياحة سنة ١٧٠٥ متجولاً في البلاد التي كان زارها من قبل وقد قد أيضاً قسماً مما كان عثر عليه (١٧٠٨) ثم عين في مأمورية بلاد المشرق سنة ١٧١٤ وفي سنة ١٧٣٧ ذهب إلى أسبانيا ومات بعد وصوله إلى مدريد بقليل ومؤلفاته بها كثير من الغرائب وكثير من وقائعها ورواياتها غير محقق أو مبالغ فيه ومن كتب سياحاته كتاب سياحة في تركيا وآسيا وسورية وفلسطين ومصر العليا والسفلى

ويقول لوقا أيضاً أنه من هذا الزمن (١٧٨٨) لم يجرأ أولئك الجلبون أصلاً على نهب القوافل وهم زيادة على علم اعترافهم بنفوذ سلطان فزان عليهم وزيادة عن عدم دفعهم الأتاوة التي كانوا تمهدوا بدفعها فأهم يجلبون كل ما يحصلون عليه من نبات السنا إلى سوق مرزوق وهناك يشتريه السلطان منهم ثم يبيعه بمدينة طرابلس بريح وافر ويأتي شيخهم في بعض الأوقات إلى قصر سلطان فزان وبعد أن يقيم به بضعة أسابيع في أكرام يليق به يعود إلى بلاده وعليه برنس جميل يكون أهداه السلطان إليه ، اه ويقول هورغان أيضاً أن الكثير من التبو من قبيلة رشاده كانوا يأتون إلى مرزوق بقصد التجارة ثم لما غزا سلطان فزان سنة ١٧٩٨ بلاد برنو كان معظم جنوده من التبو ومن ذلك الوقت أصبحت معيشة سكان تيبستي مرتبطة بالعلاقات التي بينهم وبين بلاد فزان لأنه لا يمكنهم الاستغناء عن أسواق فزان وبين البلدين للذكورين صلح مستمر تقريباً ولكننا نرى من جهة أخرى أن تيبستي كانت غنية لأغارات كثيرة شنتها عليها قبائل ولد سليمان والتوارك فيما بعد ومن كل ذلك وغيره أصبح هذا الجنس يتصف بالتحرز وقلة الثقة والعزلة والوحشية وغيرها من الصفات اللاصقة به

عدد السكان - لا يعرف بالتحقيق عدد التبو في تيبستي وعلم السائح ريشردسن من أحد سكان هذه البلاد أن الوادي الأصلي ببلادهم (وهو وادي برداي من غير شك) يمكن أن يكون سكانه خمسة آلاف ويظن

رولقس أن الأودية التسعة التي يبلاد تيسى وهى الأودية الكثيرة السكان بالنسبة لغيرها لا يزيد سكانها عن خمسة آلاف ويقول نختيجال وهو أكثر وقوفا على الحقائق من السابقين أن سكان تيسى يبلغون ١٢ر٠٠٠ نفس ويقول برت أن عدد التبو بأجمعهم أى المنتشرون فى فزان وكانم وبرنو وغيرها نحو ألف ألف نفس ويظهر من حوادث وروايات كثيرة أن هذا التقدير أقرب للحقيقة من غيره والقبائل فى القسم الشمالى من الصحراء الغربية كلهم رحل على العموم أما فى القسم الجنوبى فكلهم متوطنون وأقوى هذه القبائل وأشهرها الرجيات وأولاد بوسبا وأولاد داييم وكلهم بالشمال والمغاربة (طرازه وبراكته ودوايش) وكلهم فى الجنوب وعلى الشاطئ الأيمن من نهر سنيغال

الطرق التجارية بالصحراء الكبرى - يقطع الصحراء فى كل أراجائها طرق تتردد عليها سكانها من غابر الأزمنة والمقصود بالطرق هنا أثار أقدام الإنسان والحيوان أى المداعس التى لا تكاد تكون ظاهرة فى تلك القيايق والقفار عليها تسير القوافل ولعدم وضوحها كان من اللازم الاستعانة بالدليل الخريّات أو بكل مالى أهالى الصحراء من الغرائز الطبيعية الخاصة بهم فى تعرف الوجهة التى يجب اتباعها والعلامات التى يسترشدون بها تكون على العموم دقيقة بحيث تخفى تماماً على كل عين لم يسبق لها اعتياد ذلك ومع هذا فأنت عظام الحيوانات وعظام المسافرين الذين هلكوا فى الطريق عطشا تكون أحيانا

من الدلائل التي تسير بها القوافل عادة وليس بهذه الطرق من النقط الثابتة
 ألا الواحات والآبار والمستغدرات فهي التي تعين المنازل والمحطات في تلك
 الأسفار الطويلة الشاقة وقل أن يصادف الإنسان بها سياحين منفردين ألا
 إذا كانوا رواداً أو جواسيس واختراق هذه الصحراء يكون عادة بالقوافل
 يرشد هادليلاً أو أدلاء كما سبق ويصل مجموع من بالقافلة الواحدة إلى ألفي نفس
 وهي تقبل كل من تقدم إليها طالبا كرافقتهم من غير أن يسأل من أين أتى وإلى أين
 يذهب ورئيس القافلة أو شيخها له الأمر والنهي المطلقين ومعه أعوان ينفذون
 أوامره ورواد لتعرف البلاد وكاتب للمعاملات التجارية وتحرير شروطها
 وكثيراً ما يكون مع القافلة مناد لا أعلنها بما يجب ومؤذن وأمام للصلاة
 ويختلف طول المرحلة الواحدة من مراحلها بين ثلاثين وخمسة وثلاثين كيلومتراً
 وربما طالت إلى ستين كيلومتراً في الأصباع الصديدة الماء أو التي بها لصوص
 وقطاع طريق وتحمل القافلة من الزاد معها ما يكفيها في سفرها وقرباً من
 جلود الغزأ والثيران وكلما صادفت بركا أو آباراً أخذت من الماء ما يلزمها والطريق
 التي تتردد عليها القوافل بالصحراء أكثر من غيرها هي التي تخرج من شمال
 أفريقية (مراكش والجزائر وتونس وطرابلس وفزان) ذاهبة نحو نهر
 السنغال وبلاد السودان وأشهرها ما يأتي

الطريق من مراكش إلى سن لويس في سنغال وتبتدىء من وادي نون
 على ساحل الأوقيانوس ثم تنتهي عند صخرة أرجين ومن هناك يسهل الذهاب

ألى سن لويس وتخرج من أرجين شعبة تذهب ألى وادان بيلاد أدرار والطريق من مراکش ألى النيجر وتخرج كذلك من وادى نون متجهة ألى طر مسون جنوبى وادى درعه مارة بأراضى الرجيات وزمور وإسكندر تامارة بأبارقورين ثم تصل ألى وادان بيلاد أدرار ومن هناك تسير نحو الشمال الشرقى حتى والاتا بيلاد الهيط ومن والاتا المذكورة تسير بمض القوافل ألى جنه وستسند نف وسيغوسيكورو وهى مدن على ساحل النيجر الألى وبمضها يذهب مباشرة نحو تنبكتو وأروان وبوروم (وهما بلدتان على النيجر الأوسط عند المكان الذى يغير فيه هذا النهر مجراه متى سار نحو الجنوب الشرقى بعد أن يكون أوجد انحناءه الكبير الذى له جهة الشمال) وهناك طريق آخر يخرج أيضاً من وادى نون ألى الشرق من أدرار مخترقاً تاجا كُنت وتندوف وإجيدى وبئر العباس ثم تصل ألى تاودينى أو ألى آبار تليج حيث تتصل بالطريق الآتى من فاس المار بتافالت وماياره والمرابطى وبعد هذا الأتصال تسير الطريق نحو أروان ومن هناك ألى تنبكتو والطرق بين بلاد الجزائر والنيجر تجتمع كلها فى أن صالح بيلاد تيديكيت ومن هناك تذهب قوافل ألى تنبكتو مباشرة مارة بمبروك أو ألى تنبكتو مارة بأروان المذكورة أو أنها تذهب نحو بوروم المتقدمة الذكر مارة بواحة تيمساو وكليجيت وهناك بين بلاد الجزائر والسودان الأوسط أيضاً طريق يخرج من أن صالح ماراً بآبار الحجر وأذ ليس وجرامه وأغادس حيث تهترق نحو سكتو وكانو وغيرهما ولكن المسافر إذا

انتخب لسفره توغرت وورقله فان طريقه يكون أقصر ومن هناك يسير نحو الجنوب مباشرة ماراً بالبيوض وتيماسين وأمنجيد وغيرها أما طرق القوافل التي بين بلاد طرابلس والسودان الأوسط فهي التي تبتدىء من غدامس ومرزوق وتجتمع في غات ومن هناك تذهب إلى أغادس وسكتو وكانو وغيرها ثم الطريق الذي يخرج من مرزوق إلى برنوه مباشرة ماراً بواحات كوارو وبلماو أغادم وينتهى في كوكا على بحيرة شادو وهو الذي أصبح بحسب الاتفاق الأولى للمعقودين فرنسا وإنجلترا سنة ١٨٩٠ الحد الشرق للصحراء الفرنسية هذا والطرق المذكورة هي الطرق الكبرى الرئيسة في نقل المتاجر ويتفرع منها طرق أخرى كثيرة تربط واحات الصحراء الكبرى ببعضها واعلم أن طرق القوافل تبقى كما هي لا تتغيرها القوافل أبداً ولكن يحصل أحيانا أن تضطر القوافل لأن تسير في طريق طويل أو تترك طريقاً صيرها وقوع العداوة بين بعض القبائل غير مأمونة ولم يقع ألينا من الأنباء ما نعلم منه فتح طرق جديدة للتجارة ألا الطريق التي رضى بها السلطان عبدالكريم سلطان وداى سنة ١٨١٠ لايجاد المواصلات التجارية بين أذرا عاصمته ومدينة بنغازى مباشرة ولكنه حصل أن تغيرت تلك الطريق سنة ١٨٧٣ وأصبحت القوافل الآتية من وداى تترك طريق بنغازى متى وصلت إلى جالو ومن هناك تذهب إلى مصر وحدث مثل ذلك أيضاً في القوافل التي كانت تأتي بالريق من بلاد السودان لأنها لخوفها من الفرنسيين كانت تبتعد عن بلاد

الجزائر وتذهب إلى رراكش أو طرابلس وقد بذل الإنجليز النازلون في طرفيه عند رأس جرجي مساعي كثيرة كما سعى الأسبانيون النازلون على ساحل المحيط وعلى الخصوص الذين منهم في مستعمرة ريواورو في أن يجذبوا نحو زلاتهم التجارية القوافل الآتية من داخل القارة غير أن مساعيهم خابت تماماً فيما يظهر وقد هم بعضهم بإعادة المواصلات التجارية التي كانت قديماً بين بلاد أدرار ونزلة أرجين الفرنسية الواقعة جنوب الرأس الأبيض لأن قوافل السودان الغربي التي تتردى بين تنبكتو ومراكش مارة ببلاد أدرار تقطع نحو ١٧٥٠ كيلومتراً بينما هي لا تقطع في وصولها إلى أرجين إلا نحو ١٢٠٠ كيلومتر وبذلك تكسب تلك القوافل أولاً قصر الطريق أي أنه بدل أن تحمل مصاريف باهظة لفرشاق محفوف بالأخطار مدته ستون يوماً فإنها لا تصرف إلا القليل في سفر أسهل من الأول بكثير مقداره تسعة وثلاثون يوماً إذا اختارت الطريق الثاني زيادة عن أن الحاصلات السودانية لاتصل إلى أسواق أوروبا إلا بعد أن نكون جمارك مراكش تقاضت عليها ضريبة مضاعفة على دخولها (الرسم القانوني هناك عشرون في المائة من قيمة الشيء ولكن التجار يدفعون في الحقيقة من ٢٨ إلى ٣٠ في المائة) وعند تصديرها (الرسم القانوني عشرة في المائة ولكنه يبلغ في الحقيقة من ١٢ إلى ١٥ في المائة) وتنتقل هذه البضائع من يد إلى أخرى كلها تسمى في الكسب منها أما إذا أمكن لتلك القوافل أبداً لبضائعها في أرجين بأن تأخذ بدلها أشياء اعتادت على أخذها

من مراکش كانت الفائدة عظيمة للجانيين من غير شك وتصبح حاصلات السودان أرخص قيمة وأقل عناء في جلبها ولصارت القوافل تشتري مصنوعات أوروبا من اليد الأولى زيادة عن تجنبها مصاريف وأخطار سفر طويل شاق هذا وأشهر الأشياء التي تأخذها القوافل من مراکش هي السكر والشاي الأخضر والشمع والتبغ والأقمشة القطنية الزاهية الألوان والأقمشة البيضاء والشاش والكبايد الصوفية والمناطق الصوفية والحريية والمناديل الحريية والحري الخلام والأشرطة الذهبية والسجاجيد والجلود المدبوغة والأسلحة النارية والبيضاء والبارود والرصاص والحديد والقصدير والأدوات المنزلية والنحاسية والقصديرية والخردوات والأشياء الزجاجية ولعبات الأطفال وغيرها أما ما تجلبه تلك القوافل معها فأهمه العاج الأبيض والأخضر وريش النعام وجلود الحيوانات والحبوب الزيتية والبهارات والشب والبخور والمسك والذهب والرقيق غير أن تجارة الرقيق قد أهملت الآن ألا قليلا

الطريق الحديدي الذي يقطع الصحراء أن مسألة بناء طريق حديدي يقطع الصحراء ويربط المستعمرات الفرنسية ببعضها أي بلاد الجزائر والسنغال ويفتح للحاصلات التجارية مصرفا واسعا والاتصال السريع طريقا آمينا بداخل أفريقيا مسألة من أكبر المسائل وأعظمها أهمية وشأنا وكان أول القول بذلك في سنة ١٨٧٧ وقت أن أخذت الجرائد والمجلات والمحافل السياسية تتناقش فيما لذلك من الأهمية والقوائد وقد نظرت إليه الحكومة الفرنسية بعين

الرضى والقبول وفي سنة ١٨٧٩ ألف ميسيو فريسنيه (M. de Freycinet) وزير الأشغال العمومية بفرنسا لجنة للنظر في هذا الأمر ودراسته ثم عهد إلى ضابط برتبة قائم مقام يدعى فلتر (Flatters) رئاسة بعثة لارتداد الصحراء والبحث عن الطريق المناسب لبناء سكة حديدية وقد سافرت تلك البعثة من بلدة ورقلة بالجزائر في شهر مارس من سنة ١٨٨٠ وما زالت تتقدم نحو الجنوب حتى وصلت إلى بحيرة بالصحراء الوسطى ألا أن ذلك الضابط لم يتمكن من الاتفاق مع أحد مشايخ التوارك هناك ليستمر في السير ولما كانت الأقوات والذخائر التي معه قد قاربت الفراغ اضطر لأن يعدل عن قصده وعاد أدراجه إلى النقطة التي خرج منها في ١٧ من شهر مايو سنة ١٨٨٠ وبعد ذلك رأت اللجنة التي عهد إليها دراسة هذا المشروع إرسال بعثة ثانية فكلفت الضابط فلتر المذكور بأن يعاود السير جهة الجنوب ثانية فخرج من ورقلة مرة ثانية في شهر ديسمبر من سنة ١٨٨٠ وبعد ثلاثة وخمسين يوما قطع أثناءها نحو ١٥٠٠ كيلومتر هاجمه الأهالي بشدة وقتلوا أغلب من كان في بعثته وتمكن بعض من بقى على الحياة من العودة إلى بلاد الجزائر (راجع الكلام على ترجمة فلتر صحيفة ٤٣٩) فلهذا انصرفت الأفكار عن هذا المشروع والتي في زوايا الأهمال نوعا بضع سنوات وقد كان الناس في القديم غايتهم الكبرى الوصول إلى مدينة تبكوتو التي كانوا يبالغون كثيرا في أهميتها التجارية أما الآن فقد تغيرت الأحوال واتسعت دائرة الأملاك الفرنسية في السنغال وفي حوض النيجر الأعلى ولا تزال آخذة في الاتساع حتى أصبحت تبكوتو

المذكورة داخله ضمن هذه الأملاك ولذلك يكون من الموافق جعل الخط الحديدي الذي يأتي من الشمال وينتهي عند النيجر إلى الشرق من الأملاك المذكورة لهذا نراهم قد اتخذوا بلدة بوروم الواقعة على نحو ٣٢٠ كيلومتراً إلى الشرق من تنبكتو وجعلوها نقطة الانتهاء وقد أدرك الفرنسيون أيضاً أهمية إيجاد مواصلات مباشرة مع الممالك التي في السودان الأوسط القريبة من بحيرة شاد وهي ممالك أغني وأكثر سكاناً بكثير عن الممالك الواقعة على النيجر الأعلى ولهذا فانهم أكملوا المشروع الأصلي وأضافوا إليه فرعاً يخرج من بلدة أمجيد الواقعة وسط الصحراء سائراً نحو كوكا قاعدة برنو ولم تقف أطماع فرنسا عند هذا الحد فقط بل أنها ترى أيضاً من المهم أطالة خط كوكا حتى يصل إلى الكنفو الفرنسي لترتبط كل المستعمرات الفرنسية التي بأفريقية (الجزائر والسنغال والكنفو) بطرق حديدية فتجعل منها مستعمرة واسعة واحدة هذا وقد انتهى الحال في هذه المسألة بأن رسموا لذلك ثلاثة خطوط هي الآتية أولاً الخط المعروف بالعربي ويبدو العين الصفراء (جنوبي مقاطعة وهران) ويمر بأجلى وغوراره وتوات ثم ينتهي عند منعطف النيجر (بوروم) ثانياً الخط الأوسط ويتبدى من بسكره ويحترق واحات وادي رير ماراً بتغرت وورقله وتيماسين وأمنجيد وهناك يتفرع فيذهب إلى تيساو ليصل إلى النيجر عند بوروم وفرع يذهب نحو أسيو فبصل إلى كوكا على بحيرة شاد ثالثاً الخط الشرقى ويبدو خليج قابس من بلاد تونس عند بلدة بؤغرار

ماراً بنغدامس وغات ثم يمتد حتى جهات بحيرة شادو لى كل من هذه الخطوط الثلاثة
 أنصارو معارضون وقد تناقشوا كثيراً في الجرائد والمجلات وأبدوا استحسانهم
 واستهجانهم وكان أهم الموانع التي تقوم أذ ذاك في وجه الخط الغربي قربه جداً
 من دولة مراکش وأهم ما يعترض الخط الشرقي كونه سيمر في واهتين تابعتين
 للدولة العثمانية بخلاف الخط الأوسط فإنه يكون أكثر الخطوط بعداً عن
 تأثير نفوذ البلاد المجاورة للجزائر وبذلك يكون خطاً فرنسويًا حقيقياً كما يقول
 أنصار هذا الخط ولا يخرج مشروع كهذا من القوة إلى العقل يجب أن لا نتقف
 المسائل المالية عائفاً في سبيله والمسافة حتى بوروم المذكورة تبلغ ٢٦٠٠ كيلومتر
 تقريباً وهي نحو ٣٤٠٠ كيلومتر حتى كوكا وقلوا أن ما يتكلفه الكيلومتر
 الواحد يبلغ نحو ٥٠٠٠ من الفرنكات وهذا المبلغ الجسيم لا يمكن الحصول عليه
 أبداً في الحال من إيرادات هذه السكة الجديدة التي ستكون أيضاً ذات فوائد
 عسكرية وسياسية ويقول الفرنسيون أنه إذا ساعدت الظروف دولة مراکش
 وحفظت استقلالها ومدت نفوذها وحكومتها على الجهات الجنوبية من جبال
 أطلس كما هو مسعاها من القديم وتمكن العثمانيون الذين لا يدخرون وسعاً
 من مد سلطانهم إلى ما بعد حدود طرابلس وفران فاذا حصل ذلك ضائق ميدان
 العمل على فرنسا لهذا يجب عليها انتهاء فرصة حرية الطريق للتمكن من مد
 نفوذها إلى الجنوب سيما وأن الإنجليز والألمان يسعون سعيًا حثيثاً في الاستيلاء
 على تجارة النيجر والسودان الأوسط فلا يجب على فرنسا كما يقول الفرنسيون

أن تجعل نفسها في حالة تضيق منها بها مصارف عديدة مهمة تجارية كالمصارف التي توجد بها هذه الطريق بل الواجب عليها المبادرة بربط أجزاء دولتها الأفريقية ببعضها لتتجو في المستقبل من مباراة الأمم الأخرى التي ترى كلها ألي أنشاء أملاك استعمارية كبيرة في أفريقية وأذارت أن من المهم أنشاء سكة جديدة تقطع الصحراء فلا يجب عليها النظر ألي الفوائد التي تعود من تلك السكة في الحال بل الواجب النظر ألي الخطأ الجسيم الذي ترتكبه فيما إذا أهملت بناءها أو أخرته ألي زمن أطول بسبب المجادلات والمناقشات التي لا تجدى ثمرة هذا ملخص مايقوله الفرنسيون عن هذه السكة أو ردناه لنعلم منه مقدار حرص الأوربيين على أملاكهم والسعى في أستدرار منافعها

الحالة السياسية بالصحراء الكبرى - أعلم أن الصحراء المذكورة كانت حتى الأيام المتأخرة أرضا لا مالك لها كما يقولون في الاصطلاح السياسي الدولي هذا فيما عدا ما كان منها شمالا مجاوراً لمراكش والجزائر وتونس وطرابلس ومصر ألي تلك الأصقاع التي تقع البلاد المذكورة تبعية أسمية قليلا أو كثيراً أما الآن فقد تغير الحال بالمرّة ودخلت الصحراء في منقطة العمل الذي تقوم به دول أوروبا ومن وقت الاتفاق الذي تم بين فرنسا وإنجلترا (٥ أغسطس سنة ١٨٩٠) أصبح من الممكن اعتبار كل الصحراء الغربية والوسطى كأنها مستعمرات فرنسية ولكنه على كل حال امتلاك أسمى فقط ولا بد لصيرورته فعليا من مرور أزمينة طويلة وعلى هذا الاتفاق أصبح النفوذ

الفرنسوى يمتد على كل الصحراء الغربية من حدود مرا كس إلى حدود السنغال ولا يدخل فى ذلك قطعة أرض صغيرة على ساحل المحيط بين رأس منادور شمالا والرأس الأبيض جنوبا لتبعتها لأسبانيا كما لا يدخل فى ذلك أيضا المستعمرة الأنجليزية الصغيرة الواقعة عند رأس جوبى أما الصحراء الوسطى الفرنسية فأنها تحد شمالا ببلاد الجزائر وتونس وشرقا بخط لمعين بعد يمر قرب غدامس وغات ويدخل ضمنه كل الطريق بين مرزوق وشادور بما دخلت فيه أيضا كل بلاد تيسى ويحد من الجنوب بخط يمتد من بلدة برّوا التى على بحيرة شاد إلى بلدة ساي على النيجر وكلها حدود مهمة جداً لأن أغلب الأصقاع الداخلة فيها لازالت غير مكتشفة تماماً هذا وأن تمكنت فرنسا من الحصول على هذه الحدود بصفة رسمية لصارت الصحراء بأجمعها ألا أصقاعها الخالية المخيفة التى بالشرق منها أرضا فرنسية صرفة

(تم الجزء الاول ويليه الجزء الثانى وأوله الكلام على الديار المصرية)

تنبيه - وقع بهذا الجزء أغلاط كثيرة غالبها مطبى خصوصاً باللائزم الأولى ولكنها لا تخفى على المطالع التنبيه وكان المانع من النظر فيها لأصلاحها مشاغل خصوصيه فلذلك نعتذر للقراء ونرجو أن لا يقع مثلها فى الأجزاء التالية
تحريراً بالقاهرة فى ٢٨ يناير سنة ١٩١٢

اسماعيل رأفت

الفهرست

صحيفة	صحيفة
٤٥ نهر الكنتو	٢ مقدمة الكتاب
٥٠ النهرات التي تمد نهر الكنتو	٥ قارة أفريقية - تعريفات وأوصاف
٥٢ نهرات الضفة اليمنى	عمومية - مواقعها وامتداداتها
٥٤ نهر زمبزي	وشكلها
٥٦ البحيرات الشهيرة بأفريقية	٧ أوصاف قارة أفريقية العمومية
٥٧ بحيرة شاد	٢٠ أسم أفريقية وما قيل فيه
٦١ طمم ماء بحيرة شاد	٢١ جبال أطلس - منظرها العمومي
٦١ بحيرة سانا أودنبه	٢٤ أسم هذه الجبال
٦٣ بحيرة نياسا	٢٥ أطلس الكبير وأطلس الصغير
٦٥ بحيرة ألبرت نيازرا	٢٧ ملخص تاريخي
٦٦ بحيرة فكتوريا نيازرا	٢٩ معرفه الناس بمجبات أطلس
٧٢ بحيرة تجانقا	٢٣ جبال كُنتغ
٧٦ بحيرة نجامي	٣٥ جبال الحبشة
٧٧ الاصقاع والافطار الطبيعيه بأفريقية	٣٥ جبال كينيا وكيمتجارو
٧٧ الجزائر التي تحيط بهذه القارة	٣٨ جبال نيو وولد
٧٧ مناخ أفريقية في جهاتها المختلفة -	٣٨ الاحواض المائية الشهيرة
الامطار	٣٩ نهر النيجر
٨٠ الحاصلات الطبيعيه - النباتات	٤٣ شيء من تاريخ النيجر

صحيفة	صحيفة
١٢٥ مراکش والجزائر وتونس	٨٤ الحيوانات
١٢٥ شكلها العمومي	٨٩ المعادن
١٢٩ دولة مراکش - موقعها وحدودها	٩٠ الأجناس البشرية بأفريقيه بطريق
ومسطحها	الاجمال وتوزيع سكانها
١٣١ سواحلها	٩١ البربر
١٣٣ مناخ جهات أطلس - مناخ مراکش	٩٢ الأم السوداء
١٣٤ مناخ بلاد الجزائر	٩٣ الهونتوت
١٣٦ مناخ تونس	٩٤ الأجناس المختلطة
١٣٧ مناخ طرابلس	٩٤ العرب
١٤٠ الحاصلات الطبيعية ببلاد البربر	٩٩ الصناعة والتجارة
وطبيعة أراضيها - مراکش	١٠٠ الأقسام الجغرافية بأفريقيه
١٤١ معادنها	١٠٢ خلاصة تاريخية في قارة أفريقيه
١٤٢ نباتاتها	١٠٣ المدة القديمة
١٤٤ حيواناتها	١٠٦ المدة المتوسطة
١٤٦ بلاد الجزائر - حاصلاتها الطبيعية -	١٠٩ المدة الحديثة
نباتاتها	١١٨ الحضارة الافريقيه
١٤٨ حيواناتها	١٢٣ النقص الحالي في جغرافيا أفريقيه
١٤٩ معادنها	١٢٥ جهات جبال أطلس

صحيفة	صحيفة
١٨٨ الفبنة	١٥٠ أيلة تونس - حاصلاتها الطبيعية -
١٨٨ عدد السكان	معادنها
١٨٩ أقسامها الإدارية	١٥٠ نباتاتها
١٩٠ حالتها السياسية - الحكومة	١٥٣ حيواناتها
١٩٥ الحيش	١٥٥ طرابلس - حاصلاتها الطبيعية -
١٩٧ حالتها الاقتصادية - الزراعة	نباتاتها
١٩٩ الصناعة	١٥٩ حيواناتها
٢٠٠ التجارة	١٦١ دولة مراکش - سكانها
٢٠٢ طرق للمواصلات والنقل	وأجناسهم
٢٠٣ النقود والموازن والمكايل	١٦٦ أمة البربر - نظرة عمومية - أسماؤهم -
٢٠٥ مدن بلاد مراکش	مساكنهم - أقسامهم
٢٠٦ فاس	١٦٩ اشتقاق أسمهم
٢١١ مراکش	١٧١ صورهم الأصلية الطبيعية
٢١٥ القصر الكبير	١٧٣ لغة البربر وكتاباتهم
٢١٦ مكناسه	١٧٦ العرب الفناخون
٢١٨ وزان	١٨٣ المغاربة
٢١٩ تازة	١٨٦ اليهود
٢٢٠ مليلة	١٨٧ السود
٢٢٣ سبتة	١٨٧ اللغة
٢٢٥ طنجة	

صحيفة	صحيفة
٢٥١ فليل	٢٣١ المرائش
٢٥٢ قسطنطينه	٢٣٢ الرباط
٢٥٧ بجاية	٢٣٤ الدار البيضاء
٢٥٩ ستيف	٢٣٤ آزمور
٢٦٠ الجزائر (المدينة)	٢٣٥ الجديدة
٢٦٤ البلدة	٢٣٥ آسفي
٢٦٥ مستغانم	٢٣٦ الصويرة
٢٦٦ وهران	٢٣٩ تامنيت
٢٦٩ مسكرة	٢٤٠ بلاد الجزائر - أقسامها الادارية -
٢٧٠ تلمسان	سكانها
٢٧٤ بسكرة	٢٤١ المستعمرون أو جالية أوروبا
٢٧٦ توجرت	٢٤١ القبائل
٢٧٧ تونس - سكانها	٢٤٣ العرب
٢٨٤ زراعة والاستعمار الفرنسي	٢٤٤ الطبقات الاخرى
٢٨٦ الصناعة	٢٤٥ الحالة الاجتماعية والسياسية بالجزائر
٢٨٧ التجارة	٢٤٦ الدين واللغة والمعارف
٢٨٧ التعليم العام	٢٤٨ الصناعة
٢٨٨ الحكومة والادارة	٢٤٨ التجارة
٢٩١ تونس (المدينة)	٢٤٩ مدن بلاد الجزائر
٢٩١ مدن بلاد تونس	٢٤٩ بونه أو عناه

صحيفة

٣٠٧ قابس

٣٠٧ جربة

٣١١ سفاقس

٣١٤ قرقة

٣١٦ قصه

٣١٨ سوسة

٣٢٠ بنزرت

٣٢٣ المهدية

٣٢٧ بلاد طرابلس - سكانها

وأجناسهم

٣٣٢ اليهود

٣٣٢ التوارك والتبو

٣٣٢ الجريون

٣٣٣ المالطيون

٣٣٣ النجر

٣٣٣ الأوريون

٣٣٤ عدد السكان

٣٣٥ حكومتها وأقسامها

٣٣٦ الزراعة

٣٣٧ الصناعة

صحيفة

٣٣٨ التجارة

٢٤١ بلاد برقة - حدودها وموقعها

وامتدادها

٣٤٢ منظرها العمومي وطبيعة أراضيها

٣٤٦ المنطقة الساحلية

٣٥٥ نجد برقة

٣٦٠ سكان نجد برقة

٣٦١ بلاد فزان - موقعها وحدودها

٣٦٣ أوصافها العمومية وطبيعة أراضيها

٣٦٦ مناخها وحاصلاتها وحيواناتها

٣٦٧ سكانها

٣٧٠ الحالة الاجتماعية والسياسية

٣٧٠ مدن طرابلس وبرقة وفزان

٣٧٠ طرابلس (المدينة)

٣٧٧ غدامس

٣٨١ غات

٣٨٦ مرزوق

٣٩٠ سكنه

٣٩٢ زويله

صحيفة	صحيفة
٤٥٠ سكانها	٣٩٣ بتغازي
٤٥٠ أتوارك (بالأجمال)	٣٩٤ درنه
٤٥٠ ألبو (بالأجمال)	٣٩٦ طبروق
٤٥١ ألتاربه (بالأجمال)	٣٩٧ مسراطه
٤٥٣ التوارك (بالفصيل)	٣٩٧. أوجه
٤٥٧ توارك الشمال	٣٩٩ واحة كفره
٤٥٩ الأقر	٤٠٠ وصفها الطبيعي
٤٦٠ المكار	٤٠٢ الصحراء الكبرى
٤٦١ توارك الجنوب	٤٠٢ موقعها وحدودها وامتدادها
٤٦٢ قبائل كلوى	٤٠٤ منظرها العمومى
٤٦٢ « كيل حيرس	٤٠٥ ألتضاريس العموميه
٤٨٢ « أوليدن	٤١٣ ألبال والتجود
٤٦٣ صورة التوارك الأصلية الطبيعية	٤٢٣ مياهها وشواطئها
٤٦٥ أسمهم	٤٢٧ أنهارها ونهراتها
٤٦٦ حالتهم الاجتماعيه - دينهم ومعيشتهم	٤٣٣ مناخها
وأخلاقهم	٤٣٦ أراضيا
٤٧٢ ألبو - صفاتهم الطبيعيه والأدبيه	٤٤٣ حاصلاتها - مزروعاتها ومعادنها
وحالتهم الاجتماعيه ومعيشتهم الخ	٤٤٤ النباتات
٤٨٣ أصل أقوام التبو	٤٤٦ الحيوانات

صحيفة	صحيفة
٤٩٤ الطريق الحديدي بالصحراء الكبرى	٤٨٨ عدد التبو
٤٩٨ الحالة السياسية بالصحراء الكبرى	٤٨٩ الطرق التجارية بالصحراء الكبرى

﴿ تمت القهرست ﴾

صحیفہ	صحیفہ
Raffenel (Jean-Baptiste Anne)	۷۲ V. L. Cameron - گمرون
۱۱۶ رَفَنیل (جان باپتست آن)	۱۰۸ Barros (Jean de) - باروس
Mage (Abdon-Eugène) ۱۱۱	(جان)
ماج (آبدون اوجین)	۱۰۸ Azuamra (Gomez) - ازورارا
۱۱۷ Chaillu (Paul) - شیو (پول)	۱۰۹ Dinz (Barthélemy) - دیاز
۱۱۷ Magyai (Ladislaus) - ماجیار	(بارتلمی)
(لادسلوس)	۱۱۰ Sectzen (Ulric Jasper)
Nachtigal (Hustave) ۱۲۳	سیتزن (اوریك جاسیر)
نخچجال (غُستاف)	۱۱۱ Burkhardt (Jean Louis)
Largeau (Victoire) ۲۳۹	بورکھارت (جان لوئس)
لارجو (فکتور)	۱۱۲ G. Rohlf - رولفس
Flatters (Paul François Xavier)	۱۱۳ Abbadie (Antom Chamson)
۴۳۹ فلتیر (پول فرانسوا آکزا فیه)	آبادی (انتوان شمسون)
۴۸۳ Daza - دازا	۱۱۳ Bek (Charles Tiloston)
Ukert (Frédéric-Auguste) ۴۸۳	بک (شارل تیلستون)
اوکرت (فریدریک اُوگست)	۱۱۴ Russegger (Joseph)
Lyon (George-Francis) ۴۸۳	روسجگر (یوسف)
لیون (جورج فرنیس)	۱۱۴ Lepsius (Charles Richard)
Escayrac (Comte de Lauture)	لبسیوس (شارل ریشارد)
۴۸۵ اُسکاریک (کونت دولوتور)	۱۱۵ Duveyrier (Henri)
۴۸۷ Lucas (Paul) - لوکا (پول)	دوفریه (هنری)

أسماء مشاهير المكتشفين والسياح الذين ذكرنا تنقاً من أحوالهم
وأعمالهم بأسفل الصحائف مكتوبة بالحرف الأفرنجي لتسهيل مراجعة ذلك
علي من يريده مرتبة حسب ورودها بصحائف الكتاب

صحيفة	صحيفة
٣٠ Dan Mela - دان ميلا	١٠ H. Barth - بَرث
٣٠ Suetonius Paulinus -	١١ E. Vogel - فُوجِل
سويتونيوس بولينوس	١٤ Burton, Speke - بورتون
٣٢ Léon l'Africain - ليون	وَأَسْبَكْ
الافريقي (حسن بن محمد الوزان)	٢٤ Strabon - أَسْتَرَابُون
٣٣ Mango Park - منجورك	٢٤ Plin - پَلِين (بَلِينوس)
٣٤ H. Clapperton - كلاپرتون	٢٦ Ptolémée - بطليموس
٣٦ J. Krapf - كَرِيف	٢٦ Polybe - بُولِب
٤٠ R. Caillié - كَالِي	٢٧ Homère - هوميروس
٤٥ Diego Cam - ديجوكام	٢٧ Hérodote - هِرُودُود
٥٠ H. Wissmann - ويسمان	٢٧ Escyle - أَيْسِيل
٥٧ Hornemann - هورنمان	٢٨ Virgile - فَرَجِيل
٥٧ Dixon (Denham) -	٢٨ Ovide - أُوڤِيد
دكسون (دنهام)	٢٨ Valerius Flaccus - فالريوس
٥٩ G. Scheinfurth -	فَلَاكُوس
شُونْفُورْت	٢٨ Lucain - لُوكَاين
	٢٩ Salluste - سَلُوسْت

❦ بيان الخرائط الملحقة بهذا الجزء ❦

خريطة أفريقية الطبيعية

« « السياسية

« « الأحواض المائية

« « المحصولات الطبيعية

« « الأمطار في فصل الشتاء

« « « « الصيف

« « الأجناس البشرية

« « ممالك البربر والصحراء الكبرى

❦ تمت ❦

